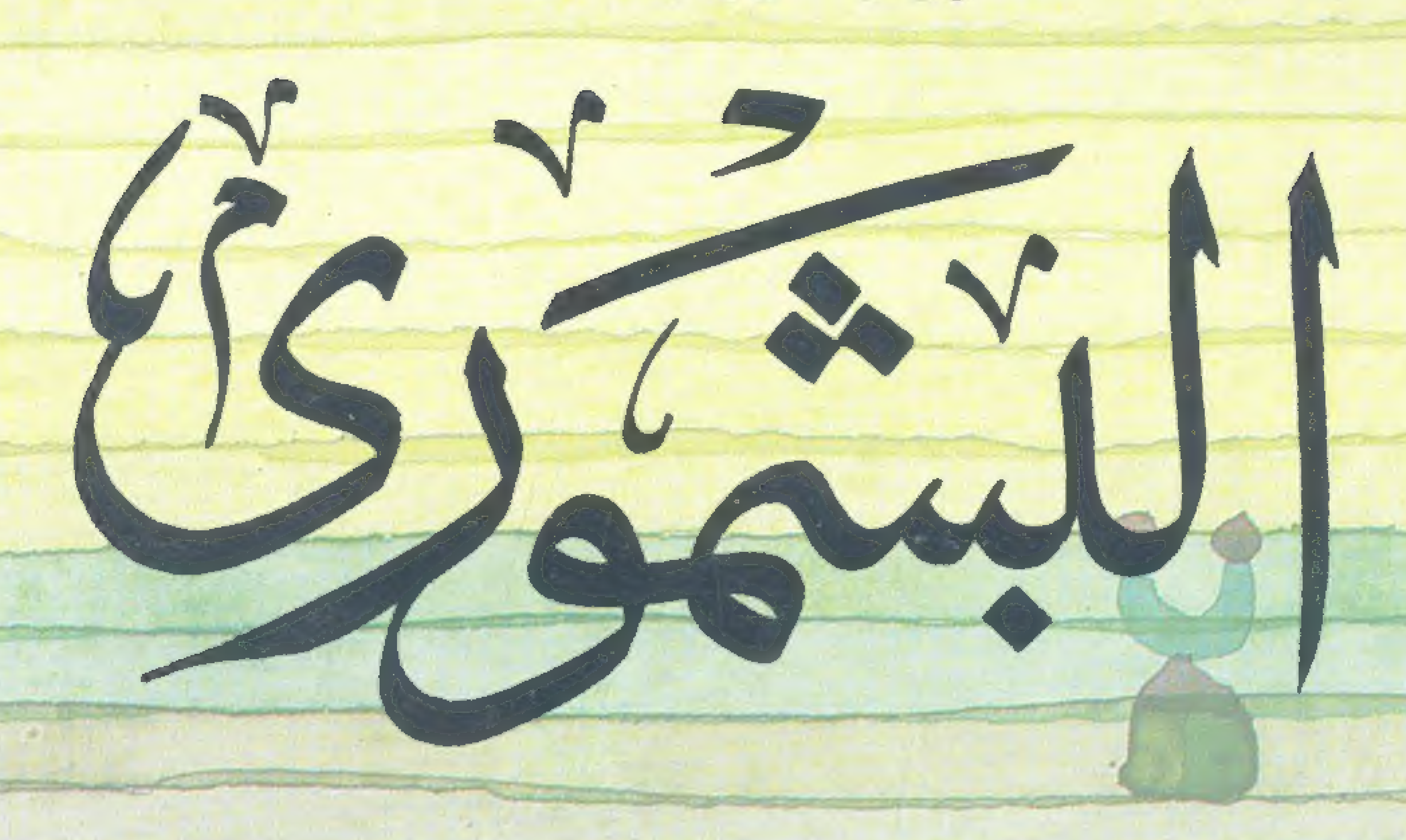
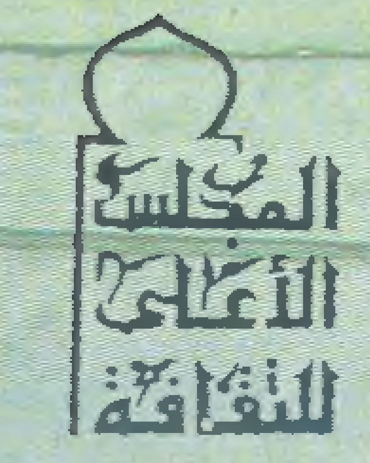
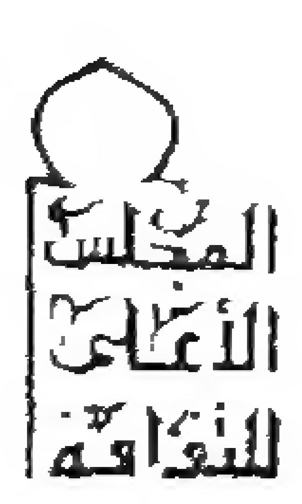


رواية روايات



سلوى بكر





المشرف العام: **د. أحمد مجاهد**

سكرتير التحرير الفني: **مكرم شحاته**

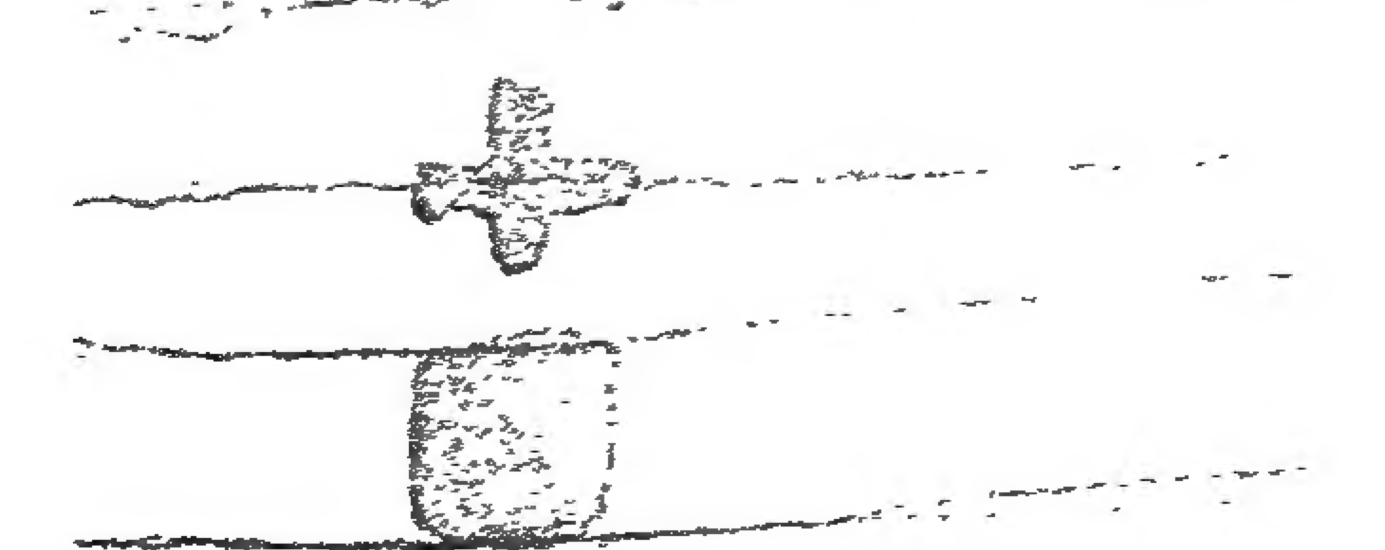
رواية روايات
البشموري (١) و (٢)
سلوى بكر
الطبعة الثانية ، ٢٠٠٢

المجلس الأعلى للثقافة
١ شارع الجبلاية، دار الأوبرا، القاهرة

الرقم البريدي: ١١٢١١
تليفون: ٧٣٥٢٣٩٦
فاكس: ٧٣٥٨٠٨٤
بريد إلكتروني:
egypt council @ yahoo. com

رقم الإيداع: ٢٠٠٢/١٧١٠

التصميم والإخراج للفنان
عـدلي رزق اللـه





إبداعات التفرغ

[٢]

رواية روايات



سلـوى بكــر

البشموري

الجزء الأول

كنت ما أزال قائماً بعجن القربان، أعمل على ربّه رباً جيداً لأتركه بعد ذلك ليخمر وقد غسلت ماجوره بالماء الطاهر، وكذا الغطاء والمنخل، وكان القسيس يقف على رأسى يقرأ عليه المزامير الداودية ويصلّب. فلما بلغ مزمور حمد وراح يتلو «اهتفى للرب يا كل الأرض. اعبدوا الرب بفرح. ادخلوا إلى حضرته بترنّم وكنت أحترز أثناء ذلك فى العجن والرّب، لأطمئن إلى أنه جيد فى قوام الاعتدال، إذ بثاونا الشمّاس يأتى إلينا مسرعاً، ويقف إلى جوارنا بهدوء صامتاً متأدباً، فلما انتهى القسيس من قرايته، غطيت العجين بغطائه، الذى سبق أن طهرته مع الفرش ومنخل الدقيق، وختوم القربان، اقترب ثاونا منى، وأنا أهمّ بالاتجاه إلى بيت النار الذى كنت قد حمّيته تمهيداً للخبز بفحم الكرمة اليابس وفقاً للأصول الكهنوتية، وقال هامساً فى أذنى:

– بدير. خلّص عملك بسرعة، واذهب للأب يوساب فى التّو والحال.

كان ذلك خلال واحد من أيام شهر بؤونه، الذى ما زال كثيرون من العلمانيين ينطقونه بؤونى كما كان فى اللسان الوثنى القديم، وكانت السنة هى السادسة، وربما السابعة للشهداء.

رحت أخلّص العجين العالق بيدى وساعدى بسرعة وأغسلهما ببعض الماء من زير الغسل، حتى بان جلدى وظهر عليه وشم الأسد بلونه المزرورق على الجانب الأنسى من ساعد يمناى، فاطمأنيت وأسدلت عليه كمّ ردائى الكهنوتى الذى كنت قد شمرته وقت العجن، وعدوت خارجا أقطع فناء البيعة إلى الجانب الآخر منه فى اتجاه قلاّية الأب يوساب، فما إن فعلت وصعدت الدرجات البازلتية الثلاث، التى وضعت مؤخراً بدلاً من الدرجات الجيرية القديمة – وقد جاد بها على البيعة عبد كنسى صالح من هيرموبوليس بعد أن انتزعها من واحدة من برابى المدينة

القديمة، وجاء بها على حماريه من هناك؛ وفاء لنذر قطعه على نفسه – حتى دلفت إلى الدهليز الشرقى واصلاً فى النهاية إلى مقر نيافته، فوجدته مجتمعا مع الكاهن والأرشيد ياقن، وكافة الشمامسة وبينهم ثاونا الشماس الذى نادانى، فتهيبت وطأطأت رأسى إجلالا لهذه الحضرة الكنسية جميعها بعد أن ضربت مطانيا[1] فى الأول، ثم إنى وقفت عند الباب فى مطرحى، ساكتاً، فنظر إلىّ الأب يوساب متأملاً إياى قليلا، وبدا لى وكأنه متردد فى أمر من الأمور يتعلق بى، لكنه ما لبث أن رفع يده بالصليب وصلّب، ثم قال لى بلسان قبطى بشمورىّ بيّن:

– أيها العبد الطيب بدير، لقد اختارك الرب لمهمة كنسية مقدسة، عليك أن تتمها بصدق وإخلاص على الوجه المطلوب منك دون زيادة أو نقصان.

تمتمت بصوت خافت خاشع، راداً عليه باللسان الذى حدثنى به، دون أن أرفع رأسى، وقلت:

– مشيئة الرب لا راد لها أيها الأب المغبوط.

ران صمت، ربما سمح بسماع أنفاس العصافير، قبل أن يضيف:

– ستذهب فى تبعية الشماس ثاونا إلى الأراضى الموحلة، وتكون لسانه البشمورى، وعليك أن تترجم له كل ما يمكن من كلام، فأنت تعلم أنه لا ينطق إلا قبطية أخميم مثل أكثر من هم هنا فى بيعتنا، ثم عليك أن تكون عوناً له فى كل خطوة يخطوها خلال مسيرتكما إلى هناك، ومنه لك الأخوّة والاحترام، وله منك الطاعة فى كل كلمة يأمرك بها، والملازمة مهما كان الأمر، ثم لا تنس أن أخوة المعمودية لا تنفصم إلى يوم الدينونة، والرب المحاسب وهو المحافظ أولاً وأخيراً.

هززت رأسى دون أن أنطق هذه المرة، إذ اعترانى اضطراب بمجرد سماعى «الأراضى الموحلة»، وراح قلبى يضرب ضربات طير طاير فى سابع سما، وسرعان ما تداعت صور الماضى فى مخيّلتى وتجسّدت فى عينى، عن مسقط

---

(١) مطانيا: تحية كنسيّة.

رأسي ومواقع طفولتي وصباي، لتجيش بنفسي فصول مأساتي القديمة، وبلوتي الأولي. انتابني غمّ عظيم، وكدت أهتف صارخًا: لا.. بربك يا سيدي يا من سيتنيح بالعظمة في ملكوت الرب، اعفني من هذه المهمة التي ستعذّب قلبي، ولن تقوى روحي عليها. لكني خشيت أن أُرمى بالعصيان، وأُتّهم بعدم الطاعة، فبقيت مكاني واجماً جامداً كأني واحد من آل لوط الآثمين، وقد حلّت عليه اللعنة فتحوّل إلى عمود ملح مثلهم، ويبدو أن الأب يوساب لاحظ سكوتي وبهاتي، وكنت وقفت أمامه مراراً في بداية خدمتي بالبيعة للاعتراف بآثامي وخطاياي، أنا الذي عشت سنين في العلمانية، مسكيناً ضالاً عن ملكوت الرب، إذ قال لي مطمئناً إياي:

- الكنيسة كانسة الخطايا والآثام ومنظّفتها، وهي كانسة بيت النفس، وبيت النفس هو الجسد، وباب البين هو الفم، وتنظيفه لا يكون إلا بتلاوة المزامير الداودية الفايضة من أقنوم الروح القدس، له المجد، على لسان داود المغبوط، وقد طهر لسانه من الثلب والنميمة والوقيعة في إخوته، وأما حاسّة السماع، فإنها تطهر بسماع الإنجيل المقدس المحتوى على التعاليم المسيحية والموعظات الزجرية، وأما حاسّة النظر فتتنقى بالنظر إلى قدس الأقداس، والقون المصوّرة على مثال القديسين، والغيرة على سيرتهم والتشبّه بجهادهم، وأما حاسّة الشمّ فتتقدس باستنشاق البخورات المرفوعة باسم الثالوث السماوي، وأمّا حاسّة اللمس فتتقدس بتقبيل كتب الرب على الجباه، وتقبيل الصليب المجيد أيضًا. فليكنس كل إنسان خطاياه بصلاته، وليتطهر إثم الآثمين بملكوت الرب الرحيم.

ثم إنه كرّر عليّ طاعة الشمّاس ثاونا، والمواظبة كذلك على صلواتي، والتكثير من قراءة المزامير والأدعية، وسألني ألا ألحف في السؤال عما لايخصني، وإن سألت فلتكن سؤالاتي فيما يقوّي إيماني ويفيد المسيح، كما أمرني ألا أغضب الشماس أو أرهقه، بل أكون في خدمته ورعايته طوال الطريق إلى البشموريين في الأراضي الموحلة، على أن يكون خروجنا من البيعة عند مطلع نور صباح الغد.

كانت لاتزال أمامي أعمال كثيرة يتوجب عليّ إنجازها خلال نهار ذلك اليوم باعتباري قيّم البيعة، وقبل رحيلي في صباح اليوم التالي. فبعد مغادرتي لمقام

أبينا الجليل، قمت بغسل بلاط البيعة، والذى هو من أفخر البلاط الرومى المجلوب من قيسارية بفضل رجل تقى، كان قد عاش زمناً فى الطمث الخلقدونى، لا يعرف طريق الحق، لكن الله رده إلى حظيرته على يد أبينا يوساب، وكان غنياً مقتدراً، فأهدى بيعتنا هذا البلاط المجلوب، كما قمت بمسح كل قناديل البيعة، بخرقة الكتان التى أخصصها لذلك، وأزلت عنها ما علق بها من غبار وسناج، على أن أزندها عندما يحل الليل بزنادى من قنديل الشرق فى الهيكل؛ لأنه لايجوز أن يطفأ لا فى ليل ولا نهار حتى لا تدخل البيعة أو الهيكل نار غريبة، لأن الذبائح الأولى كانت تنزل ناراً من السماء وتحرقها، وما ترى نار غريبة تدخل معها.

وما أن انتهيت من القناديل، حتى درت لأتأكد من آلات الخدمة الأربع عشرة فى الهيكل، فتأكدت من ترتيبها فى مواضعها. ونظّفت ما كان بحاجة إلى التنظيف منها، ثم إنى نظرتها جميعًا، وعدلت ما لم ينعدل منها، وهى اللوح الموضوع، وهو موضوع مثال القبر، وكذا الصينية مثال المذود فى الطفولية، والتابوت الخشب الذى فيه الكتب، والخرق المكرزة اثنين، واحدة تحت الصينية والأخرى تحت الكأس الذى هو قسط المنّ المطل على الحامل له، وهو نظير اللفايف فى الموت والدفن، ونظير الخرق التى كان جسد سيدنا -له المجد- ملفوفاً بها فى المذود، وكذلك الكأس المكرز مثال قسط المنّ، والملعقة المكرزة برسم التوزيع للناس الرجال والنساء؛ لأنهم لا يتناولون من الكأس نظير الكهنة، والإبرسفارين مكرز هو نظير الحجر الذى دحرج عن القبر فوق الجسد المدفون كما أنى نظرت السبعة التى بغير تكريز، منهم المنارة والكوز والطاسة والمجمرة ودرج البخور والحامل الذى يوضع عليه الكأس والصليب، وكل ذلك موضوع فى قبة قدس، التى هى قبة القدس الجديدة.

وبعد أن انتهيت من ذلك صلّيت ثلاثاً، وخرجت منسحباً فى هدوء وجلال، ماضياً إلى بقية أشغالى المقررة، باعتبارى العبد المسكين القيّم بالبيعة، وظللت أعمل طوال اليوم بجّد واجتهاد، حتى حلّ المساء، وجاء وقت القدّاس، وكنت قد

أنجزت أعمالى ببركة الله كلها، وتأكدت من سلامة القربان، وهو بخور الصعيدة المخلوط كما يجب باللبان، الذى كان قد قدمه المجوس إلى المخلص فى الهدية، والثانى السندروس لأنه لم يحْمل لآلهة الأوثان الشيطانية قط، والثالث العود لأن فيه طرداً لأرواح الشياطين، والرابع الجاوى لأنه ذكى الرايحة، وما يقدم الله إلا كل شيء جليل مرتفع، وقد حددت من بخور الميعة فإنها جالبة للشياطين أو غيرها من البخاخير. وكان خمر القربان الذى أعددته من أجود أنواع الخمر الذكى، قد صنعته بنفسى فى البيعة، وهو سالم من الفساد، وهو خمر أبركا الذى عصرته من أوال ثمرات الكروم، وهذا معنى أبركا باللفظ اليونانى كما علمنى ذات مرة- غزير المعرفة- ثاونا الشمّاس، وخمر العنب مكرّس لرفع القرابين، وأما غيره من خمور التمر والفاكهة فللكهنة يتناولونه.

كما أنى وضعت الخبز الذى خبزته من أفخر الدقيق وأنقاه فى فرن الكنيسة عند موضعه المقدس وقد حرصت على ألا يكون مشقوقًا لأن الشق عيب، وقد طحنت الدقيق من بر أوائل الثمار كما هو متبع فى قانون البيعة دائماً، فما إن بدأ قدّاس صلاة آجب[1] التاسعة[2]، إذ كان الوقت هو الرابعة وثلاث دروج زوالية، حتى أسرعت بالوقوف فى مقامى المسموح به، وكان الكهنة جميعهم قد وقفوا خورسان، أى صفّان نحو الشرق أمام الهيكل المقدس فى صمت وجلال، بحيث لاينشغل أحد مع من هو إلى جانبه- بالحديث البطال - عن الصلاة، ولا يتكلم أحد فى أمور الاحتياج إلى ضرورات البيعة إلا رمزاً بالإشارة فى جميع الرتب، إما غمزاً بالأعين أو إشارة باليد تعمل ما يليق بذلك المكان الطاهر الجليل.

وكان جميع من فى ذلك الأكليروس قد وقفوا بملابسهم الكنسية المتفق عليها، وقد وضعوا الأفودات الصوف حول رءوسهم وارتدوا جميعاً التونية وهو ثوب الكتان الطويل الواصل حتى القدمين والمزين بالصليب المقدس على الظهر والصدر والحواف، وكذا أطراف الأكمام، وكانت تونية الأب يوساب هى الوحيدة

---

(١) آجب: ساعة باللغة القبطية.

(٢) الساعة التاسعة وفقاً لتقويم الشهداء القبطي، تعادل الساعة الرابعة بعد الظهر بالتقويم الميلادى والدرج هو خمس دقائق تبعاً لعمل الساعة الشمسية.

المطرزة صلبانها بالجواهر الكريمة من ياقوت وزمرد وماس وعقيق، بينما تونيات الأكليروس جميعًا قد طرزت من خيط حرير كما هو متبع دائمًا، أما المنديل، فكان فى يد الكاهن اليسرى، لأنه غير مسموح للشمامسة أو من هم أدنى منه بحمله أبداً، وكذا كان الكاهن يضع الغفارة وهى ما أصبح من الشائع الآن أن يقال عنها الجبة أو العباءة، بعدما ساد وانتشر لسان العرب وبات متداولا دون غرابة فى البلاد.

ولم تكن كنيستنا تضع البيلوچيون مثلما يُفعَل فى بعض الكنائس الأخرى من لف الرأس بالشريط الطويل من الكتان الأبيض، ولكنا كنا قد نتمنطق بالنطاقات الحريرية فقط عند أوساطنا، أما ذلك البيلوچيون فكنا نضعه على أكتافنا فقط، وكان البطرشيل يتدلى على صدور الكهنة والشمامسة وكذا على صدر الأب يوساب، وقد بدا غاية فى الجمال والعظمة، وقد توشّى من بدايته عند موضع إدخال العنق فيه وحتى نهايته بصلبان كثيرة، وكذا بصور التلاميذ الاثنى عشر على صفين، ست صور بكل صف، وقد نقش بالخيط الحريرى أيضا النصّ الخاص بالتكريس أعلى هذين الصفين، ومن المعتاد أن يكون عرض البطرشيل حوالى ثمانى عشرة عقلة سبابة، وهو من الحرير الأزرق البديع، أما أنا فكنت أرتدى الصدرة وكذا زميلى الآخر القيم فى البيعة، وهى ما يرتدى على هيئة البطرشيل ويدخل من الرأس أيضا، لكنه لم يكن مزخرفاً مزيناً بالصلبان والهيئات المقدسة للتلاميذ مثلما هو حال البطرشيل، أما الـ«نى كاماسيون» اللذان هما الكمّان، فلم يكن الأب يوساب يرتديهما فى ذلك الوقت، الذى لم يكن وقت خدمة المذبح، وإن كنت أحب رؤية الأب وهو يرتديهما جداً، وهما يغطيان ساعديه بكاملهما؛ إذ يتسعان من عند الكوع ويضيقان مع الاتجاه نحو اليد، وهما من القطيفة القرمزية المطرزة بالنجوم والصلبان المشغولة بخيوط الفضة السميكة، وكذا بصورة السيدة العذراء والطفل المسيح، أما حوافهما فهى موشّاة بالعبارات المقدسة، وقد طرزت بالخيط نفسه، ومنها عبارة «من له تعب من ملكوت السموات..» إلى آخرها، ويقال إن رجلاً قبطياً صالحا من شطا، كان قد صنع

هذين الكمين منذ زمن الأسقف أكليمنص السكندرى، ووشّاهما على هذا النحو المتقن وقدمهما هدية إلى البيعة، وهما ما زالا مستخدمين حتى وقتنا هذا وبحالة جيدة وكأنهما صنعا اليوم فقط، وذلك بسبب شدة المحافظة والحرص عليهما من جميع الآباء الأتقياء الذين تلوا ذلك الزمان.

بدأ الأب يوساب يصلّى وفقاً لما اعتدنا عليه من صلوات متّبعة فى كتاب الأجبية[١] ونحن معه منصرفون بقلوبنا وأرواحنا كلها للصلاة لا يشغلنا عنها شاغل، فلقد حدث ذات مرة أن شمّاساً شوّش بالحديث إلى من فى جانبه أثناء وقوف الخورس، وكان اسمه إيليا، فعاقبه الأب يوساب بأن حطّه من درجته ثلاثة أسابيع، وعوقب بسبب ذلك، لأنه لم يكن مثابراً على الصلاة ووقع فى الطياشة والحديث الفارغ، أما الضعفاء العجائز من الأكليروس والذين لا يقوون على الوقوف فى الخورس، فقد جلسوا كما هو متّبع دائماً غربى البيعة.

كنا قد غسلنا أقدامنا جميعاً قبل الصلاة فى إناء النحاس الموضوع به ماء التطهير والقائم على مطهرة الخميس الكبير، وقد شهدت بذلك التوراة، إذ إنه كان فى القبّة الخارجة والقبّة الداخلة سطل من نحاس لتطهير أقدام الكهنة قبل دخولهم قدس الأقداس فى قبّة الزمان.

ثم إن الأغنسطس قرأ من العتيقة من المزامير، وطرحاً من المزمور، وأخذ الأب يوساب يرتل ترتيلاً جميلاً ونحن نرتّل خلفه الثاذوكيات الجليلة وننشد تسابيح العذراء المقدسّة، وموضوعات كتاب الربّ، على ألحان شجيّة تحنن القلوب وتفتح النفس للإيمان، وكان للأب يوساب صوت نقى عامر بالخشوع وكأنه صوت كروان يسرى فى سماء صافية، فكانت القلوب تنشرح له، فأخذت أستمع إليه وقد وقفت أقدّس مع المقدسين، علماً بأن شغلى فى الكنيسة ليس الصلاة لأن الصلاة صلاة، والشغل شغل، وربما عاد علىّ من شغل البيعة قوت جسمانى، ولا يقوم شغل البيعة مقام الصلاة، لأن الصلاة ما يقوم مقامها فى غيرها إلا هى.

---

(١) كتاب الأجبية: كتاب الصلوات القبطية.

بعد الفراغ من الصلاة وتفرّق الجميع، رحت أدور والقنديل في يدى على أبواب البيعة لأطمئن إلى حفظها، حتى لا يعبر منها ممنوع أو مخالف أو ديب خاطف من غير يقظان، أو حيوان مثل كلب نجس أو حمار سائب وبقيت منصرفاً إلى أشغالى وقد بدأ الغروب فى الدخول، فسارعت بتنظيف أرضية الفناء وغسلها، وكذلك فعلت بأرضيات الممرات و الدهاليز، فلما انتهيت اغتسلت جيداً وتطهرت بماء طاهر سبع مرات وأنا أستعيذ بالرب من الشيطان، ثم ذهبت إلى ثاونا الشماس، وكان قد أومأ لى برأسه قليلاً أثناء الصلاة. مثلما يفعل عادة، عندما يريدنى فى أمر من الأمور، نقرت على بابه نقراً خفيفاً مستأذناً، بعد أن عبرت الدهليز كله على أطراف أصابعى لئلا يسمعنى أحد، إذ كانت قلايتى بعيدة عن مكان قلايته فى نهاية الطرف الآخر من الدهليز، فلما جاوبنى دفعت الباب الخشبى وحرصت على ألاّ يصرّ حتى لا ألفت الانتباه، ودلفت منه لأجلس قبالته على فراشه الأرضى الممدود.

كان ثاونا من أقرب الناس إلىَّ فى البيعة منذ حلولى بها قبل ست سنوات، وهو الآتى إلى ملكوت الرب بعد أن تطهر من خطيئة لا أعرفها، وإن شاع عنه – وهو المولود جنوبياً فى أنطونيوبوليس، أنه كان فى الأصل هرطقياً، يقول بالعرفان عن طريق اتحاد العارف بالمعرّف، لكنه دخل حظيرة الرب بعد ما تطهر وتاب، وظهرت له الحقيقة على يد راهب تقى يدعى الأنبا مويسيس، وكان قد التاث بعض الوقت لسبب أجهله، فقرأ عليه الأنبا ومسحه بالزيت الفلسطينى فبرئ لساعته. ونذر نفسه لدير الراهب وهو دير الأنبا باخوم المعروف، فعاش هناك زمناً. ثم إن الأب يوساب طلبه إلى بيعتنا هذه فى قصر الشمع بمصر العتيقة، حتى يصور السيدة العذراء والقديسين فى قون، يتّعظ بها الشعب عند مطالعتها مرسومة على جدران البيعة، وكان الشماس ثاونا قد اشتهر وذاع صيته فى رسم القون وإجادته لتصوير القديسين والشهداء الأوائل، ويقال إنه كان قبل أن يلتاث ويلتحق بالدير، يتعيش من عمل صور الناس على التوابيت، والتى يدخرونها لوقت موتهم، كما هو الشائع، وكانوا يجعلون له مقابل مهارته فى عمل ذلك جعلاً

من الخبز والجبن والخمر والغلة يجعله يعيش عيشة مسمنورى الناس فى بلدته الصعيدية التى قدم منها إلى البيعة.

كنت أحبّ ثاونا لأنه كثير العطف علىّ، ولأنه كان سمح الوجه وإن كنت لم أره ضاحكا قط، لأن الضحك لا يتناسب مع النسك والورع داخل البيعة، وكان ثاونا عشرياً بطبعه، بسيطاً فى تعامله سواء معى أو مع من هو أدنى منه فى الرتبة، إضافة إلى أنه واسع العلم، كثير المعرفة، يتحدث قبطية أخميمية وعربية جيدة، إضافة إلى قبطية بحيرية كالتى يتحدثها أقباط الإسكندرية ومريوط، لكنه لم يكن عارفاً باللسان البشمورى رغم علمه باللسان اليونانى، الذى قال لى -ذات مرة- أنه تعلمه فى المكتب، ورغم أن فضله وأعماله الطيبة كانت ظاهرة للجميع خصوصاً فى الطبابة وعمل العقاقير، فإن البعض هنا فى هذا المكان المقدس ظل يحاول تلطيخه ورميه بالأقاويل، فقد وصموه بالسحر تارة، وبالعلمانية تارة أخرى، وراحوا يتداولون ذلك سراً دون أن يمسكوا عليه ممسكاً يثبت أقوالهم، والحق أقول إن ثاونا كان خيِّراً لا يصدر عن فمه ما هو قبيح، بل إنه علمنى الكثير، وانعقدت مودتنا منذ أن كان يشتغل بصنع صورة القديس قلته الطبيب الحكيم، وهو يمسك بيده اليمنى قضيباً يشير به إلى صندوق طبابته وقد فتح غطاؤه وانكشف ليبين منه ستة أقسام لوضع الدهونات والعقاقير، وكنت أنا أساعده أثناء ذلك، وقد فردت معه القماش على الخشب منعاً للتشقق، ثم نثرت فوقه بطانة الجص التى جعلتها لطيفة رقيقة مثلما طلب منى، وبعد أن جفت وتماسكت قام ثاونا بتغطية الجص بالتبر، الذى أعده من مزج صمغ العرب المجلوب من بلاد اليمن بقليل من الماء، وصفار بيض البط السودانى وبعض الحنوط لزوم البركة، وقد أدركت خلال ذلك طريقة ثاونا العجيبة فى الرسم، والتى قال لى إنها من الطرق القديمة المتوارثة لدى الرسامين الأقباط، وآيتها أن توضع ألوان أتربة المعادن المعروفة كالحديد والنحاس والزنك فى مواضعها المختارة بالصور، وفقاً لضرورتها فوق طبقة التبر المعمولة والمغطية للبقعة كلها، وذلك بعد أن تدق هذه الألوان وتصحن فى أجران جرانيتية كرست لهذا الغرض، ثم إن كل لون منها يمزج بالماء البحرى الطهور بالسماكة المرغوبة حسب الذائقة،

وتكون الصورة قد أعدّ هيكلها قبل ذلك وتحددت بعد نحتها بمسمار حديد مما يصنعه الغجر الجوّالون بالبلاد، وهكذا بقى الصليب ذهبى اللون على الجانب الأيمن من الصورة، وبقيت عصا الرعاية الذهبية الطويلة على جانبها الأيسر كذلك.

وأنا أقول إن ثاونا جيد الإيمان غزير المعرفة، لا يصدر عن فمه إلا القول الطاهر، لأنى كنت قد سألته أثناء صناعته هذه الصور سؤالات عدّة كانت تشغلنى، خصوصاً عندما رأيته يرسم القديس قلته بصحة وافرة، ووجه جميل صبوح، وملابس متناسقة زاهية، فقلت له معبراً عن أمر كنت قد كتمته فى صدرى زمناً:

– أريد أن أسألك أيها العزيز ثاونا عن أمر شغلنى دوماً، إذ كنت قد شاهدت ذات مرة – فى كنيسة تعود للملكانيين الهراطقة ببلد قريب من قريتى ترنيط – صوراً من صور الجحيم وقد امتلأت بالشياطين المخيفة وأساليب العذاب، وكذا كان السيد مصوراً وهو على نحو غاية فى الضعف والهزال، وقد صلب على صليبه، والدم ينزف من جسده وعلى رأسه تاج الحسك الشنيع، أما وجهه فكان يفيض ألماً وحزناً إلى حد أننى جثوت تحت الصورة ورحت أبكى تألماً وحزناً، فما بالنا نحن الأقباط لا نرسم السيدة البتول والسيد له المجد إلا على أجمل صورة وأكثرها شرحاً للصدر، ولعلنى لم أر أبداً صورة من صور الجحيم أو الشياطين وقد رسمت على جدار من جدران كنائسنا، قل لى أيها العزيز بربك: أهذا أمر يخص العقيدة، ويدخل ضمن ما يفرق كنيستنا القبطية اليعقوبية عن كنيسة أولئك الملكانيين؟

رد ثاونا بهدوء، ودون أن يستدير أو يرفع عينه عن موضع الدهان الذى كان يدهن به ثوب القديس بالأزرق:

– لا يا بدير، هذا أمر لا يدخل فى فروق العقيدة من ناحية الفروع مثلما هو الحال فى القربان مثلاً، ولم يجتمع له مجمع للنظر فيه، فلعلك تعلم أنهم يقورون القربان حال القداس عليه، والسيد المسيح وقت إعطائه جسده الطاهر لتلاميذه ليلة

صلبه وآلامه لم يقور الرغيف، لكن الإنجيل المقدس يقول إنه أخذ خبزاً وبارك وكسر الرغيف وناول تلاميذه، ولم يقل إنه أخذ جزءاً من رغيف وبارك عليه وناوله وكان مقوراً بالسكين كما يفعلون هم، ونحن ما لنا غير المماثلة به،كل ما صنع نصنع مثله، لكن ما تكون عليه الصور من حال الترهيب أو الترغيب، فهذا ما يتعلق بخصال الناس وخلاف ذائقتهم من مكان إلى مكان، وفقاً لما ربوا ونشأوا عليه من لين المعشر، ورقّة الطباع، فصور القديسين والقديسات إنما جعلت على سبيل التذكرة والموعظة والاقتداء، أما صورة السيد المسيح –له المجد فى الأعالى – وأمه البتول– فقد جعلت كى يحفظه الناس ويحفظونها، وصار الآباء البطاركة يرشمون كل صورة بالميرون المقدس فى عدة أعضاء من الصورة لكى تقبل من الناس عند طلبهم الاستشفاع بتلك الصورة، والقصد فى ذلك أن المحسوس لا يألف إلا المحسوس مثله.

ونحن نصوّر القديسين، وكذا السيد والبتول كيفما نرى على أجمل وأفضل ما يكون لتحنين القلوب وتعميرها بالإيمان، وكذا نفعل لتبدو قوة إيمانهم لدى الشعب؛ فيتجلد ويصبر على ما هو فيه إذا ما ضعف إيمانه أو اهتزت عقيدته تحت وطأة الزمن، واعلم يا بدير أن الخلقدونيين الملكانيين يصورون الشياطين وزبانية الجحيم حتى يخيفوا الناس ويرعبوهم بالآخرة، ليتسلط من يريد التسلط عليهم باسم الرب، أما نحن اليعاقبة أصحاب الديانة الحقة، فالآخرة هى النعيم بالنسبة لنا، وما تصويرنا للقديسين وهم غاية فى الرفعة والمجد وقت انتصارهم إلا لإيماننا بأن النسك والورع هما طريق نسلكه إلى آخرة النعيم، لذا فأنت ترى كيف تكون دائماً صورة القديس مارجرجس وقد اعتلى فرسه وراح يسحق التنين الشنيع بحربته، ولعلك تلاحظ أن كل صور القون جميلة مذهبة، تبرز أجلَّ حالات الطهر والبشاشة لولاء الأبرار أبناء يسوع.

ورغم كل ذلك الإيمان القويم والعلم الغزير فإن البعض لم يكف حتى الآن عن مراقبة ثاونا وتتبع كل خطوة يخطوها هذا الأخ الطيب، حتى يمسك عليه ممسكا قد يورده إلى التهلكة ويؤدى إلى طرده من الكنيسة فيفارق ملكوت الرب وحظيرة

الأبرار ويعود كالشاة الضالة فى البرية بعيداً عن القطيع، لذا دخلت عليه متسحباً حريصاً على ألا يرانى أحد عنده، فيشيع عنا التآمر أو يرمينا بشبهة الطمث اللوطي المرذول، وما أن اطمأننت إلى انعدام من رآنى وأنا أدخل إليه، حتى رحت ألتقط أنفاسى الضائعة وأنا أهمس له وجلاً:

– ثاونا.. لأى شيء طلبتنى يا عزيز عينى، وأنا سأخرج معك صبيحة الغد إلى الأراضى الموحلة كما أمر أبونا يوساب؟ كان قمر بؤونة المكتمل في سمائه النقية الرائقة قد جاد علينا ببعض من نوره عبر كوّة القلاية الضيقة التى فتحها ثاونا لتدخل الهواء فى هذه الليلة من آخر شهور الربيع، وقد أعلنت النسمات الحارّة عن مقدم شهور الصيف شديدة الحرارة، وهكذا استطعت أن أتبين جانباً من وجهه، وقد بدا مهموماً وهو يقول:

– طلبتك كي أقول لك أن تحترز للأمر يا بدير، فرحلتنا فى الغد إلى أراضى البشموريين لن تكون سهلة، لأن الأراضى الموحلة التى سنعبرها سرعان ما سوف يغمرها ماء الفيضان، وهذا سيجعل سفرتنا صعبة، قد نواجه فيها بما لا نتوقعه، ناهيك أن الحرب دائرة هناك على أشدها بين عسكر الوالى والأهالى، وما زال العسكر ينهزمون كلما كروا على هؤلاء الفلاحين، ولا يدرى أحد ما سوف يحصل، وأظن أن أبانا سوف يحملنى رسالة إلى زعيم البشامرة، لأنه قال لى قبل اجتماع الأكليروس به إنه سيجعلنى رسوله فى أمر مهم غداً، وكنت قد سمعت أنه ذهب إلى والى البلاد فى الفسطاط منذ يومين واجتمع به بناء على طلب الأخير، وربما طلب الوالى من أبينا الوساطة مجدداً مع البشموريين حتى يرجعوا عمّا هم فيه ويدفعوا الخراج.

لقد اختارونى خصيصاً لهذه المهمة لأنها غير مأمونة، وربما كانت فرصة مواتية لبعضهم فيتخلص منى، فأنت تعلم أنهم يصرّون أن أبقى فى أدنى مراتب التشمسة رغم خدمتى وإخلاصى الحقّ منذ التحاقى بالبيعة هنا، أما أنت فلن يجدوا أدرى منك بمعرفة مسالك الأراضى الموحلة، ومعرفة اللسان البشمورى الذى هو لسانك بالميلاد، ولسان حياتك الأولى الذى لا أعرفه أنا، ولهذا اختاروك لترافقنى وتكون لسانى مع البشمورى عندما يلزم الأمر.

كنت أعرف أن ثاونا يلاقى الكثير من العنت هنا فى البيعة، ولو كان كسرابيون الشماس غنياً مقتدراً، يجود على البيعة بماله بين الحين والحين، لكان ترقى فى الأكليروس سريعاً وصار أرشيد ياقن على رأس التشمسة، يجوز له حمل عكاز البطريرك، لكنه ورغم سنواته الطويلة فى البيعة ورغم علمه الواسع وتفواه البينة لكل ذى عين ترى وقلب يحس لم يترق بعد فى الأكليروس، وهو مع ذلك صابر على الأمر لا ينقطع عن الصلاة والصوم، والتلاوة والتقديس، والقراءة والتعمق فى اللاهوت، وتشهد على ذلك لفائف البردى، ورقوق الغزلان المكتوبة بالأخميمى والعربى واليونانى، والموجودة فى كل موضع بقلايته، وثاونا لا ينقطع عن صيام الأربعاء والجمعة من كل أسبوع كما جرت العادة بالنسبة للرهبان فى الأديرة، وهو يحمل وفقاً لرتبته كأس دم المسيح الذى صار بالتقدس، وكذا الملعقة لتوزيع الدم الزكى لشعب الله، وهو الذى يقوم بقراءة الإنجيل على الأنبل إذا لم يقرأه القسيس ويقول Byaoticon، ولا يقول Keeyaoticon لأن هذه اللفظة الأخيرة ما ينفرد بها إلا الكاهن فقط، فإنه البركة على الشعب، لا الشماس. وكان ثاونا مجدًا كثيراً وفقاً لدوره الكهنوتى فى افتقاد المرضى والأيتام والأرامل، وكذا المسجونين، حتى إنه كان يعدّى بحر النيل فى عز طلوعه وقت الفيضان أيام شهر مسرى، والشمس وقدة نار، ويذهب فى الفلايك إلى برّ الجيزة، رغم خطر المياه فى ذلك الوقت، ويزور المسجونين الآثمين فى سجن يوسف هناك، فيخفف عنهم ويوزع عليهم العطايا والبركات، وفى واحدة من زياراته السجن كان هناك جماعة من الناس قد أخذوا بجريرة إقامتهم لشعائر وثنية فى بربا بعيدة بصحراء هيليوبوليس، فقبض عليهم حراس الدولة وساقوهم إلى السجن بتهمة السحر وعمل الطلسمات والشغل بالكيمياء والسيمياء، وظل متولىّ السجن يعذبهم ويعصرهم، ظناً منه أن لديهم أموالاً وذهباً أخرجوه من هذه البربا، وكان من جملتهم النساء، فلما لم يتوصل إلى شيء معهم تركهم بلا ماء أو طعام حتى أوشكوا على التلف من شدة الجوع والعطش، وتصادف أن كان الشماس ثاونا خلال ذلك فى زيارة للسجن وفقاً لعادته فى عيد العنصرة، فأطعمهم وأشربهم مما لديه من الطعام والشراب المجلوب معه للمسجونين، فصحوا وتابوا، ثم إنه دفع

لمتولى السجن مالاً وخلصهم منه، فصرف جماعة منهم إلى شئونهم، وعاد بجماعة أخرى، ودفعهم إلى أعمال البيعة، فاشتغل بعضهم فى المعصرة المخصصة للزيت وبعضهم فى بساتين البيعة الكثيرة المجاورة فعاشوا وصحوا، وحصلت البركة لبيعتنا بذلك الفعل الطيب لهذا الشماس التقى ثاوناً.

رحت أنظر إليه محاولاً استجلاء ملامح سحنته الكريمة تحت ضوء القمر، وقد شعرت بأنها اكتست بنورانية وسكينة إيمانية خالصة، وسرعان ما انقبض قلبى، إذ رحت أتخيل حدوث مكروه له خلال رحلتنا، فقد كنت أحبه وأجله، بل وأعتبره ملاذى الوحيد فى كثير من الأحيان، خصوصا عندما يأخذنى الغم والندم على حياتى العلمانية السابقة، ويفيض بى الألم، إلى الحد الذى لا أطيقه وأحتمله فأبكى بكاءً مراً وأتمنى الموت على الحياة، خصوصاً لما أتذكر أهلى وناسى وما كان من أمرى معهم.

قلت لثاونا، أطمئنه وأنا أرسم بيدى صليب الرحمات:

– لماذا تفترض أننا سنهلك أثناء الرحلة يا ثاونا؟ ولماذا تقول إنهم يريدون التخلص منك؟ أنا أعرف طرق الأراضى الموحلة جيداً، فلقد ولدت وعشت كل حياتى الأولى فيها، ونحن الآن فى المعمودية، يعنى كل إنسان سيرانا بلبوس كنسية أثناء الطريق، لن يعترضنا أو يسبب لنا الأذى، ولابد أن يكون والى المسلمين فى الفسطاط قد أعطى علامة لحرّاسه كى لا يعترضوا سبيلنا، بل ليقدموا العون لنا، طالما نحن فى مهمة تخص أبينا يوساب، ألست معى فى ذلك أيها العزيز ثاونا؟ ثم لا تنس أننا لا نحمل مالاً أو ذهباً، فيظن بنا الظنون، ونتعرض لبعض اللصوص أو قطاع الطرق، أما البشامرة فهم قبط مثلنا ولن ينالنا منهم سوء، وفى أسوأ الأحوال يا سيدى، إذا لم يصدقونا، سنشمر لهم عن سواعدنا، فنريهم عليها وشم الأسد، فيطمئنون لأن حالنا مثل حالهم تماماً.

خلت – فى ظل الضوء الشاحب – أن ثاونا قد انفرجت شفتاه عن ابتسامة ساخرة مشفقة عند ذكر الوشم، وإن ظل صامتاً لا يقول شيئاً لبعض الوقت، لكنه أخيراً تنهد بمرارة، وقال:

– المسألة ليست فى مخاطر الطريق يا بدير فهذه نستطيع مواجهتها، لكن المشكلة فى البشموريين ذاتهم، فأنت تعلم أنهم قد وصلوا إلى حدّ يصعب العوْدة عنه، منذ أن بدأ نزول الغلاء بكورة مصر، وأنت تعلم أنه ما زال يعمل فى الناس، حتى إن القمح بلغ خمس ويبات بدينار خلال هذه الآونة، ومات من النساء والأطفال والصبيان والشيوخ والشبان ومن جميع الناس ما لا يحصى عدده من شدة الجوع، ومتولى الخراج ما زال يؤذى الناس فى كل مكان، وأكثر البشموريين كان يعذبهم عذاباً شديداً إلى أن باعوا أولادهم فى الخراج من كثرة العذاب، فقد كانوا يربطونهم فى الطواحين ويضربونهم حتى يطحنوا مثل الدواب، وكان الذى بعذبهم رجل اسمه غيث، وتمادت عليهم الأيام وانتهوا إلى الموت، فلما نظر أهل البشموريين أن ليس لهم موضع يخرجون منه، وموضعهم لا يقدر عسكر يسلكه لكثرة الوحلات فيه، وما يعرف طرقه إلا هم؛ بدأوا ينافقون ويمتنعون أن يدفعوا خراجاً واتفقوا وتآمروا على ذلك.

ومتولى البلاد يشن عليهم بعسكره ويفتك بهم ويقتل الأبرياء بجريرة المفسدين إلى أن ما بقى أحد يراه إلا قتله، وقتل جماعة من أراخنة النصارى فى كل موضع، وها هم البشموريون تمموا مؤامرتهم وصنعوا لهم سلاحاً وحاربوا السلطان وحموا نفوسهم أن لا يدفعوا خراجاً، فكل من يمضى إليهم ليتوسط حالهم قاموا عليه وقتلوِه، وأصبحوا لا كبير لهم ولا خشية من أحد، فلما نظر أبونا البطرك أنبا يوساب حزِن على أولئك الضعفاء لأنهم لا يقدرون على مقاومة السلطان، وأنهم باختيارهم اختاروا الهلاك لنفوسهم، فبدأ المهتم بخلاص شعبه الأمين بالحقيقة يرسل إليهم الرسل ويذكر لهم ما يحلّ بهم ليعودوا ويندموا ويرجعوا عن خلافهم ويدعوا مقاومة السلطان، فلم يرجعوا، وكان الرسل يقولون لهم ما قاله الأنبا يوساب على لسان العطر بولس: «كل من يقاوم السلطان فهو يقاوم حدود الله والذى يقاومه يدان».

وها هو يحملنى رسالة جديدة إليهم، ولعلك تعلم أنهم قد أهانوا وضربوا من سبقونا من رسل أبينا قبل ذلك، بل وكادوا أن يفتكوا بأسقف أصنطا عندما أرسله

أبونا إليهم، بل ووثبوا على الرسل ونهبوا كل ما معهم، فعادوا إلى أبينا وعرّفوه ما جرى عليهم، وأنت لا تدرك ما يفعله الجوع في الإنسان، وكيف يحوله من الحالة الإنسية ويدخله في الطور الوحشي، وأبونا غاضب جدا بسبب ذلك، وقال إن لم يرعووا ويرجعوا عما هم فيه فلن يبطئ عنهم الهلاك، بل سيتم عليهم ما قاله النبي أشعياء: «إني أسلمكم للسيف، ويقع جميعكم بالقتل لأني ناديتكم فلم تسمعوا كلامي وخالفتم وفعلتم الشرّ أمامي».

ولأجل هذه البلايا والأحزان المذكورة، ما تمكن الأب البطرك أن يكتب سنوديقا إلى شريكه في الخدمة والأمانة بطرك أنطاكية، وكان مهتماً بذلك أكثر مما ناله من التجارب. فإنه لم يجد راحة يوماً واحدا، ومع ذلك فأبونا ما زال حزيناً حائفاً على أولئك الضعفاء المساكين الذين لا يعرفون عواقب الأمور ومغبّة فعلهم، لذلك لما سمع أن الوالي لم يعد يحتمل تمادي البشموريين، وأنهم لا يعودون عن فعلهم، وكتب إلى الخليفة في بغداد ليعلمه بما جرى، فقد أدرك أنها ستكون الطامة الكبرى، إذا ما جاء الخليفة بنفسه لأنه لن يرحمهم، ولن يتركهم إلا بعد أن يجهز عليهم تماماً؛ لذلك فأبونا يرسلنا إليهم غداً بكتاب ينصحهم فيه ويحذرهم ويطلب منهم العودة إلى طاعة الأمير ودفع الخراج، لكن المشكلة يا بدير قد أن هؤلاء يتصرفون معنا بحماقة، وربما قتلونا لفرط غضبهم وضيقهم، وفي هذه الحال يكون أولئك الذين لا يريدون وجودي هنا في البيعة قد حققوا مآربهم وتخلصوا مني وقد جاءتهم على الطبطاب.

ثم إن البشامرة يا بدير – على ما أظن – لا يصدقون كلام أبينا، ويظنون أنه لا يهتم إلا بأمان البيع والمحافظة على ممتلكاتها، وهذا ما قالوه وجاهروا به لكل الرسل الذين أرسلهم أبونا إليهم قبلنا.

والأخطر من ذلك أن كثيراً من قبايل العرب أخذت تثور في غرب البلاد أيضا، وأن بعضا منها أخذ ينضم للبشموري في أسفل الأرض، ولعلك سمعت من هنا أو هناك عما جرى من أمر العرب، فقد انتفضت بعض قبايل القيسية واليمانية سواء بسواء، ورفضوا دفع الخراج، وكانوا قد قدموا ضمن من قدم من قبايل العرب إلى أرض مصر واشتغلوا بالفلاحة وتوطنوا بأراضينا، فحل عليهم الخراج مثلما

يحل على الفلاحين القبط، فلما اشتد ظلم متولى الخراج وزاد فيه زيادة لم يعودوا يطيقونها انتفضوا جميعاً حتى إن أمير البلاد اضطر لإرسال جيش لهم، نزل بنواحى بلبيس وحاربهم بعد أن ثار أسفل الأرض له، وقد سمعتهم يتحدثون هنا يا بدير عن أن خليفة المسلمين ساخط جداً بسبب ذلك، وغاضب على أمير البلاد بسبب كل هذه الحوادث، ويهدده بلبس البياض عقوبة له، وكذا بحل لوائه؛ لأنه لم يحتط للأمر، وتسبب فى كل هذه الثورة، ويقال إن الخليفة أرسل له برد على رسالته يقول فيه: لم يكن هذا الحدث العظيم (ويقصد عصيان الناس) إلا من فعلك وفعل عمالك، حملتم الناس ما لا يطيقون، وكتمتنى الخبر حتى تفاقم الأمر واضطرب البلد.

وهناك أخبار أن الخليفة عازم على وضع حد لكل ذلك بنفسه، بل ويقول البعض إنه خرج من بغداد، وسير جيشه إلى بر مصر للوقوف على الأمر بنفسه لإيقاف العصيان، وتتبع كل من يومئ إليه بخلاف، حتى ولو تطلب الأمر قتل ناس عديدين، خصوصاً وأنه أذاع أنه لن يحصل الخراج إلا على حكم الإنصاف فى الجباية، وهذا معناه أن الخراج لن يزيد بأى حال من الأحوال عن أربعة آلاف ألف دينار ومائتى ألف وسبعة وخمسين ألف دينار.

نهض ثاونا فجأة وفتح باباً صغيراً فى جدار قلايته، قلب فيه بهدوء واحتراس، دون أن يحدث أدنى صوت يمكن أن يسمعه أى كائن خارج القلاية، فلما عاد وجدت بيده خنجراً صغيراً، التمع نصله تحت نور القمر، قدمه لى، ثم قال وهو يلهث:

– خذ هذا، واخفه بين ثيابك بسرعة، واجعله معك عندما نخرج باكراً فى الغد، واحرص على ألا يراه أى مخلوق كان مهما كان الأمر.

أخذت الخنجر منه بيد مرتعشة وتأملته قليلاً تحت النور السماوى الداخل إلينا، كان قصيراً متيناً معقوف الطرف، كذلك النوع من الخناجر الذى يرى مع المسلمين ويقال له صنعانى، وكنت مضطرباً جداً، فدسسته بسرعة تحت زنارى الكهنوتى بداخل ملابسى، ووضعت يدى عليه، وقد انبهرت أنفاسى، إذ هيئ لى

أننى سمعت حفيف ثوب، ووقع نعل خفيف خارج القلاية فى الدهليز. بقينا صامتين أنا وثاونا، ثم ذهب ثاونا وأطل على الدهليز من الباب، فلما تأكد أنه لا أحد هناك، عاد وهمس:

– اسمع يا بدير، إذا كان لديك مهم عزيز فاحمله معك، لأن الرحلة خطرة وقد يحدث ما لا يحسب له حسبان.

لعب الفأر فى عبى، فقلت:

– الخطر فى كل مكان الآن يا ثاونا، كل شيء مضطرب، ولم يعد أحد يعرف رأسه من رجليه فى هذا الزمان، فكل شيء يتغير سريعاً، وما كان بالأمس مرئياً بالعين ملموساً باليد، يصبح اليوم وكأنه لم يكن، وربما تغيرت ملامحه حتى يصعب على الإنسان معرفته مرة أخرى.. فليرحمنا الرب أيها العزيز ثاونا.

رد بسرعة وكأن كلامى قد مس جرحاً بداخله، وحثه على أن يفضفض ما كان مكنوناً بصدره:

– أجل يا بدير هذا زمان صعب، فكل شيء الآن فى صراع وقتال، فالبشامرة يزيدون من تمردهم ويردون عساكر الوالى مهزومين المرة تلو الأخرى، والعرب يتقاتلون فيما بينهم، وحتى كنسيتنا لا تخلو من صراعات بداخلها، والروم أتباع خلقدونية الطمث يتلمظون على كنيستنا طوال الوقت، وهم لا يكفون عن دفع البراطيل والبذل للوالى حتى يسلمهم كنائسنا ويستولوا على ممتلكاتها وتكون لهم الهيمنة والإمرة على أهل الدين فى البلاد كلها، بينما الوثنية ما زالت بالديار تسرى، غير مقطوعة الجذور، خصوصاً فى تلك المناطق البعيدة عن المدينة، وقد سمعت مراراً أن هناك من لا يزال يكرس هياكل الوثنية ويقدسها، وفى بعض الكور ما زال هناك مجوس يعبدون النار، كانوا قد بقوا بالبلدان منذ زمن طويل وقت قدوم الفرس، أما أهل كورة النوبة من السودان، فقد أخبرنى بعض العارفين الذين وطئوا أرضهم أن فيهم من يعترفون بالبارى سبحانه ويتقربون إليه بالشمس والقمر والكواكب، ومنهم من لا يعرف البارى ويعبد الشمس والنار، ومنهم من يعبد كل ما استحسنه من شجرة أو بهيمة.

وأنت تدرى يا عزيزى أحوال كنيستنا مع أتباع البدعة الآريوسية التى ما زالت توجد فى البلاد ومن يدين بدين الطمث الخلقدونى من كنائس ملكانية تصارع ضدنا وضد الإيمان الحق وتسعى بالسعايات ضد كنيستنا لدى الحكام والولاة، إن الإنسان منا صار فى حالة من البلبلة والعجز، لولا بعض من إيمان يحميه، وبداخله بحر عاتٍ مضطرم، وقد تنازعته الأهواء وشتتته الأفكار.

تنهدت وأنا أتمتم وأنسحب خارجاً من القلاية:

– أجل يا ثاونا العزيز، فليرحمنا الرب، ويحمينا من هذه الأيام الصعبة والأيام القادمة المجهولة.

ثم إنى ألقيت عليه تحية المساء، إذ صرت عند الباب، وبينما كنت أعبر الدهليز ماشياً على أطراف أصابع قدمى، خوفاً من أن يرانى أحد، خيل إلىّ أننى سمعت حفيف ثوب وتردُّد أنفاس فى ظلمة المكان الحالكة، فصلبت مرتعداً وأنا أفكر فى الكلمات «فالواحد منا بداخله بحر عات مضطرم، وقد تنازعته الأهواء وشتتته الأفكار».

بت ليلتى ساهراً قلقاً داخل قلايتى، مهموماً برحلة الغد إلى الأراضى الموحلة، وكان مبعث خوفى وهجسى هو العودة إلى مسقط رأسى ومرتع صباى مرة أخرى، بعد أن تركت بلدتى هناك، وكانت تسمى ترنيط، وخرجت أهيم على وجهى هارباً وقد تركت أبى وأمى وأسرتى كلها بسبب كربى وضيقى من حال الدنيا، بعد أن سعى أبى الجسدانى إلى تزويج أخى الأكبر من تلك الجميلة التى طالما هواها قلبى ولم يغب عنى يوماً مذاق عشقها الآسر، ولم يكن عالما بما كان بينى وبينها ورغبتى فيها، فلما أتلفت الحبيبة نفسها وكان اسمها آمونة –بأن ألقت بنفسها فى السبخة الواسعة الموحلة الخطرة، حتى أغرقتها وغابت تحت طينها السائل، دون أن يستطيع إنقاذها أحد، عشت زمناً فى اللوعة لفقدها، وأكل اليأس روحى شيئاً فشيئاً، حتى سلمنى للضياع، وكنت وقتها فتى يافعاً فى السابعة عشر من عمرى، فأخذت أقول لروحى إنه لا جدوى من هذه الحياة، ولا معنى لها، فهى شيء كالكذب، لا يقين فيها، ولا أمان لأيامها، فهى تظهر للمرء وجه السعادة ذات مرة، لكنها سرعان ما تريه جل التعاسة فى مرة أخرى، وكنت أقول

ذلك وأنا أتذكر كل الأوقات الطيبة التى أمضيناها سوياً، خصوصا قبل أن تفاجئنا الحياة بما لا نشتهى، فقد ظللنا شهوراً طويلة نتلاقى، ولم يكن أبى قد طلب من أهل آمونة تزويجها لأخى بعد، ولن أنسى ما حييت آخر مرة التقيت فيها هذه الحبيبة الغالية قبل علمنا بهذا الخبر الخطير، إذ كنا نعمل سوياً فى غيط القلقاس تبعية أبى؛ لأن آمونة وأهلها كانوا يعملون جميعاً فى غيطان أبى الذى هو من مياسير الفلاحين، وكان نظرى لا يغيب عنها أبداً وقد مالت تجمع الحشائش وتنظف الغيط، وأنا لا أفرق بين لون خدها الوردى الجميل وبين زهر القلقاس المنتشر هنا وهناك، فاقتربت منها وقد هاجت مشاعرى ورغبت فيها رغبة لم أستطع لها سبيلا؛ فقلت هامساً لها:

– آمونة.. حبيبتى آمونة، فلنذهب سوياً بعيداً عن هنا بسرعة فأنا أريد أن أكون معك الآن، سأذهب أنا أولاً ثم اتبعينى حتى لا يشعر أحد.كان الوقت وقت ظهيرة تقريباً، وكانت الرطوبة قد تصاعدت وباتت الأجساد لزجة مترطبة، فلما وافتنى داخل الدروة التى طالما كنا نلتقى فيها بعيداً عن العيون، شددتها نحوى ورحت أقبلها قبلات كثيرة، حتى إنها ضحكت منى وقالت: أنت تقبلنى وكأنك تفعل ذلك لأول مرة، أو كأنك لن تقبلنى بعد ذلك أبداً، هل جننت اليوم؟ وراحت تضحك، فقلت لها: آه جننت. وظللت سادراً بلثمها فى كل موضع من جسدها تطاله شفتاى، بينما يداى تزيحان الثوب شيئاً فشيئاً عن تلك الدالية الريانة، فلما سرت نار شوقى إليها، وأشعلت شوقها بلهيب أشد، التحمنا ببعضنا بعضاً حتى أرمدت جمراتنا وبقينا ساكنين مطرحنا، لا صوت معنا غير وصوصة عصفور على البعد ووجيب قلبينا الصغيرين.

ثم إننا تعاهدنا على أن نكون لبعضنا، نعيش أبداً سوياً على السراء والضراء، وكان ذلك العهد هو ما نأخذه على نفسينا فى كل مرة نلتقى، وكان اتفاقنا أن أفاتح أمى فى أمر زواجى من آمونة لتكلم أبى فى ذلك حتى يأذن لى ويبارك زيجتنا، لكن أمى التى طالما شعرت أنها تفضل أخى الأكبر عنى وتعزه كثيراً، وليسامحها الرب على ذلك، سارعت واختارت آمونة زوجة لأخى، وفاتحت أبى فى ذلك، وكان جمال آمونة واضحاً لا يغيب عن أى عين تحب الجمال وترى

آيات الخالق فى البشر، فلما علمت ذلك لم أصدق نفسي وبت وكأن النجم المذنب قد أرسل بناره الشيطانية فوقى وصعقنى صعقاً، فبت محموماً أياماً لا أفارق الفراش، دون أن يكون هناك سبب مثل وباء، أو تفشى فاشية مما يحدث عادة، وأوشكت روحى على الخروج بعد أن قارب جسدى على التلف حتى إن أبى جهز تابوتى بكل مستلزمات التجنيز وأنزل غطاءه الخشبى المصورة عليه صورة وجهى وأنا فى أبهى صورة وقد تحوط بشعرى الأسود الغزير، ووضعه إلى جوار فراشى، بينما شددت أمى على النائحات أن يتأهبن فى أى وقت لسماع خبرى فيأتين فى التو ومعهن النيلة لتلطيخ شعورهن المحلولة بها، وكانت أمى قد بدأت الندب منذ أن خرج من عندى آخر حكيم جلبه أبى وقال أنه لا فائدة لأن الحمى قد بلغت مداها والقلب لم يعد قادراً على احتمالها،.وأن كل ما أخذته من أشربة وابتلعته من أعشاب لم يأت بما يرتجى منه، وكان قسيس بيعتنا لا يفارقنى منذ ذلك الحين كرامة لأبى ولأجل خاطر عينيه، لأنه كان صاحب خير وفضل كثير على البيعة خصوصاً بعد أن قدم بعضاً من أثاث البيعة ومنه تلك المنجلية ذات الحامل المنحدر لوضع الكتاب المقدس، وهى مزخرفة بتصميمات وأشكال بديعة قد طعمت وحشيت بسن الفيل، وتزينها الصلبان من كل ناحية، وكان يوضع على الرف المفتوح تحت حاملها أطباق العطاء والصنوج والمثلثات والأجراس الصغيرة المضروب عليها بالقضبان، وكان قد قدم -كذلك وهو المقتدر- للبيعة شمعداناً على هيئة تنين تركب عليه شمعة كانت تشعل أمام باب الكنيسة خلال الأيام الثلاثة الأخيرة من أسبوع الآلام، وكانت الحية التى على هيئة التنين تثبت الشمعة بفمها الذى هو ثقب محفور، وكل الشمعدان من النوع النقال غير الثابت فى موضع واحد.

لكن الله أراد ما أراد وأفقت معافىً من الحمى بعد ثلاثة أيام، فلما تذكرت ما كان من أمرى، ونظرت ما كنت فيه من مرض وقربى من الموت والهلاك، حمدت الله على ما أنا فيه وقر قرارى أن أقبل بما كتب لى، ولتكن آمونة لأخى، ولأصبر على إرادة الرب وأكتم الأمر فى صدرى، تبجيلا لخيار أبى، واحتراماً

لأخى الكبير، وعاهدت نفسى أن تكون آمونة حبى الأول وغرامى الأخير، فأنا لن ألامس امـرأة بعـد ذلك أبداً، ولم يغـرم قلبـى بأحـد بعـد هذه الغـاليـة أبداً، ولتكن بالنسبة لى بمثابة الأخت العزيزة، وقد صارت زوجة لأخى، لكن بعد أن حدث ما حدث، وماتت وقد ألقت نفسها فى السبخة الموحلة لتفنى وتعدم، لم أتمالك نفسى. وفقدت أمرى، بعد أن صغر العالم فى عينى، فخرجت من بلدتى، لأهيم فى البرارى، وقد كرهت الدنيا والحياة، وبقيت سادراً فى سيرى، لا أدرى من أمرى شيئاً كالملتاث دون طعام أو شراب، وقد رأيت بأم عينى ضوارى السباع دون أن يطرف لى رمش، وكنت أدعو السماء أن يفترسنى واحد من هذه السباع، أو يفتك بى وحش من الوحـوش، ولكن الله يريد ما يريد، إذ بقيت سائراً حتى غبت عن الوعى وأوشكت على التلف والضياع، وتصادف أن عثر علىَّ بعض من أبناء هذه البيعة، ومنهم ثاونا الذى كان قد خرج ليجمع بعض الأعشاب التى يستخدمها فى الرسم والتطبيب، فحملنى معه إلى البيعة وداوانى، فلما أفقت شكرت الرب على تمام نعمته علىَّ ووهبت نفسى لخدمة البيعة، ولم أغادرها قط، منذ ذلك الوقت حتى هذا الحين.

كان خوفى الأكبر هو العودة إلى الأراضى الموحلة مرة أخرى، فأنا أخشى ملاقاة أحد من أهلى، خصوصاً أبى وأمى، فلابد أنهم قد اكتشفوا أمرى مع آمونة بعد هلاكها، وفرارى المفاجئ من البلدة، ثم إنه يشق على نفسى العودة لموطن ذكرياتى المؤلمة، ويا خوفى لو غلبنى الشيطان فانهرت وأخذت فى البكاء والعويل على محبوبتى التالفة، وحياتى الأولى الفانية. كانت دموع كثيرة تسقط من عينى وأنا جالس بقلايتى أرقب انبلاج الفجر من الأفق الأسود الممتد عبر السماء أمامى بعد أن غاب القمر، وتلبدت السماء بغيوم لا تعهد فى ذلك الوقت من بؤونة الحار، وكان النهر هادئاً، ساكناً، لا تنبعث منه بين الحين والحين غير أصوات هادئة لبعض المخلوقات الكامنة فى أعماقه، والتى يحلو لها عادة الخروج إلى أعلاه عند هذا الوقت المتأخر من الليل، رحت أتخيل أن يرانى بعض من أترابى الذين كانوا معى فى المكتب بالبلدة، حيث كنا ندرس ونحن صغار، إنهم سيأكلون

وجهي ويعيرونني بما كان من أمري مع آمونة، وينعتونني بالشؤم، خصوصاً وأن ما حدث من خراب قد تم وقت عرس أخي العزيز وآمونة، وكان هؤلاء الأتراب في منتهى الفرح والنشوة، مثل جميع أهل البلدة وأبناء أسرتي، إذ كنا نسير في موكبين كبيرين منفصلين بشوارع البلدة، العروس في موكب، والعريس في موكب آخر، ونحن نغني ونرقص على أنغام الفرقة الموسيقية التي كنت قد جلبتها بمعرفة واحد من أصدقائي من مدينة أكسير نخوسي، بعد أن قال لي إنها من أفضل وأشهر الفرق المعروفة بالبلاد. وما زال عقد عملها في عرس أخي محفوظاً بين أشيائي القليلة في القلاية، إذ إنه الأثر الوحيد الباقي لي من عالمي القديم في ترنيط، وقد كان داخل جيب جلبابي وقت خروجي منها، وأنا أنظره بين الحين والحين، كلما جاشت مشاعري بالحنين، وأخذني الشوق إلى أهلي وأترابي وأتحسر على ما ضاع مني وافتقدته من الحياة هناك.

رحت أتذكر وأنا جالس في مطرحي ذلك العقد، وكيف أخذت وأنا أبرمه آنذاك، في مجادلة رئيس الفرقة الموسيقية أورليوس أونفريس بن آمونيوس الجريكي، ليخفض من أجر فرقته، حتى وافق على أن يحصل على أربعين زوجاً من الأرغفة المصنوعة من البر والحلبة، وتسعة جرار من النبيذ وأربعة أنصاف فضة لكل عازف من عازفيه الذين كانوا معه: تاسيوس وافونجنس ابن هيراكليس وكوبروس وآرسينوي. وكنت قد جلبت هذه الفرقة الجميلة هدية عرس لأخي، رغم آلامي وحزني لأنه سيتزوج بمن تحبها روحي وتشتهيها نفسي وفقاً لمشيئة أبي الجسماني، لكني لم أنبس بكلمة لا، ولم أعترض على ما ارتآه ولم أبح بما في صدري من حب لآمونة، لأن الأب أب، والأخ أخ، وكلمة الوالد يجب أن تطاع وتنفذ، فحبست حزني في نفسي، ورحت أرقص مع الراقصين، وأغني مع المغنين، ونحن نسير في الشوارع مصطحبين أخي في موكبه حتى باب البيعة، ليلتقي بموكب العروس عند بابها، حتى ندخل جميعاً ونعقد العرس وفقاً لمشيئة الرب وعملاً بقوانينه، وبينما نحن في غاية الفرح والبهجة نتغنى مع أورليوس أو أونفريس ذي الصوت الصداح الشجي بأغنية «هو ذا الزمان طاب، فلنذق شهد

الرضاب». إذ أخذ قلبى فى الانقباض، كلما اقتربت اللحظة التى سوف نلج فيها جميعاً من باب الكنيسة حيث يرتبط العروسان برباط الزواج الأبدى المقدس، وأخذت دموعى تسيل وأنا أتمنى أن يحدث ما يمنع ذلك، إذ كنت رغما عنى – وليسامحنى الرب – لا أتصور أن تكون آمونة امرأة لغيرى، وقد ظن كل من رآنى وقتها أننى أبكى لفرط فرحتى وانفعالى، وما أن وصلنا لباب البيعة حتى استقبلنا الشمامسة حاملين الشموع والأجراس مع الكهنة وهم يرتلون «مبارك الآتى باسم الرب»، وكان موكبنا الذى هو موكب العريس قد وصل أولاً ليدخل الكنيسة كما هو مفروض ومتبع فى الأعراس ثم إن الشمامسة اقتادوا أخى إلى الخورس الأمامى وهم يرتلون الألحان، وظلوا وقتاً ·فعلون انتظاراً لوصول العروس واستقبالها عند الباب حتى يبدأوا فى ترديد لحن «السلام لك يا مريم» كما جرت العادة التى تتبع دائماً فى الأعراس، ويقتادون العروس إلى مكانها فى الموضع المخصص للنساء، وكان جميع الأكليروس لابسين الملابس البيضاء الجميلة، وقد جهزت مستلزمات العرس المكونة من صليب ذهبى ومحبس الإصبع الذهبى، والمنطقة والبخور على صينية الفضة فى الخورس الأمامى، وكان أخى قد أعطى عباءة للبطرك كتقدمة بمناسبة العرس كما هو متبع دائما.

فلما طال انتظار الجميع، وتعب الشمامسة من كثرة ترديد الألحان، بدأ القلق يساور الحاضرين بسبب تأخر موكب العروس، وأخذ الهمس يتعالى والرقاب تشرئب بالرءوس وقد تركزت النظرات على باب البيعة، أملا فى مطالعة العروس المتأخرة وموكبها، وما هى إلا لحظات حتى دخل من أعلى باب البيعة غراب أسود حائماً، وقد بدا غريبا دخوله فى مثل هذه اللحظات، فتطيَّر الناس، وسارع القيِّم بهشه وطرده، ثم أعقب ذلك صوت صراخ وعويل، فهب الجميع ينظرون الأمر، فإذا بواحد من الصارخين يقول بأن العروس الجميلة آمونة قد غافلت أهلها وألقت بنفسها فى السبخة الواسعة ذات المياه الساحبة للأسفل مما يلى آخر منازل البلدة، فلم أتمالك نفسى عند سماعى ذلك، إذ شعرت وكأن تنيناً مريعاً، كذلك

الذى صارعه القديس الشهيد مار جرجس، قد جثم على صدرى، حتى كادت الأنفاس تغيب عنى، ففغرت فمى محاولاً عب الهواء دون جدوى، وبت كالذى لا يملك من أمره أمراً، بلا حول أو قوة، ثم إنه سرعان ما أفلت زمامى، وقد تيقنت أننى على وشك أن يحل حمامى فراح جسدى ينتفض وأنا أصرخ مع الصارخين وأهرع مع الهارعين إلى السبخة الموحلة المشئومة، فلما وصلنا إلى هناك وجدنا الحبيبة الغالية وقد استقرت إلى جانب المياه بعد أن أخرجوها منها، فلما نظرتها لم أتمالك نفسى، إذ كانت جسداً ممداً على الأرض، بلا حياة فصرخت بعزم ما فىّ، وانهرت عند قدميها أبكى، وأنا أنظر جمالها وكان بعضهم قد أزال الأوحال عن وجهها وجيدها تلمساً لحياة أو نفَسٍ يكون فيها، فبدت أجمل مما كنت أظن، وقد انسدلت ضفائرها السود الكثيرة على جيدها الأبيض، وكأنها غمام على رخام .فبكى الجميع مثلى عندما نظروها ولطم من لطم، وبقى أخى الأكبر عند رأسها يندب وينوح، وأنا مثله عند قدميها، حتى لم يعد فينا ما نجود به من دمع، فراح الناس ينأون بنا عنها، ونحن لا نملك من أمرنا شيئاً.

كانت تطوف بمخيلتى كل هذه الأحداث، بينما أنا جالس بصومعتى أفكر فى خروج الغد إلى الأراضى الموحلة، وأتساءل حائراً: كيف سيتسنى لى مواجهة ما أخاف مواجهته، وأهرب منه منذ سنوات؟ كيف سيكون أمرى وحالى إذا ما تعرّف علىّ واحد من أولئك الذين كانوا معنا فى العرس؟ رحت أبكى وتمنيت أن يقبض الربّ روحى قبل أن أعيش ذلك الحال، وأن لا أعود إلى ترنيط أبداً، لكن خوفى من أبى الروحانى فى البيعة، الأب يوساب هو الذى يدفعنى إلى الذهاب، لأن طاعته واجبة، كما أنىّ لم أعترف له أبداً عن إثمى وخطيئتى مع محبوبتى الغالية آمونة، إذ حرصت على أن أقول له كلما ذهبت للمناولة والاعتراف، بأننى هربت من بلدتى، بسبب سرقتى بعضا من جرار العسل من جار لنا، فلما اكتشف أمرى، خفت من الفضيحة، وخجلت من مواجهة أبى، وهكذا كنت أكذب كل مرة فى اعترافى لهذا الأب الطيب، لأننى كنت لا أجرؤ على الإفصاح عن خطيئتى ومأساتى الأولى فى ترنيط حتى عندما شعرت أنه ارتاب فى أمرى مرة، وقال

لى: هل هذه كل خطاياك؟ أمن سرقة بعض جرار من العسل تخشى العودة وتركت أهلك وذويك؟ هل قتلت، هل زنيت؟ فلما تلجلجت فى الكلام وأطرقت برأسي، وكان شعورى بالندم والألم قد فاض، نظر إلىّ بشفقة وتحنان، ثم تلا كلمات الرب: «لاتضطرب قلوبكم. أنتم تؤمنون بالله، فآمنوا بى. فى بيت أبى منازل كثيرة، وإلا فإنى كنت قد قلت لكم أنا أمضى لأعدّ لكم مكاناً، وإن مضيت وأعددت لكم مكانا آتى أيضا وآخذكم إلىّ؛ حتى حيث أكون أنا تكونون أنتم أيضا، وتعلمون حيث أنا ذاهب وتعلمون الطريق».

فبكيت وسالت دموعى عند سماعى ذلك، وقلت: لا.. لا يا أبى أنا لم أقتل، لكنى سرقت، سرقت ما لم يكن لى.. وأنا نادم ما دمت حياً على ذلك، وها أنا الآن قد آمنت بأن عسل الرب أحلى وأشهى من عسل الحياة، فلتباركنى يا أبى الجليل، وليرحمنى الربّ برحمته الواسعة.

وهكذا لم يقو لسانى على الاعتراف وقول الحقيقة أبداً، فليغفر الغفور لى وليشملنى بلطفه وكرمه.

غادرنا -أنا وثاونا- قصر الشمع ببابليون فى اليوم التالى، بعد صلاة باكر مباشرة وهى الصلاة التى تكون الأولى من الصلوات السبع اليومية الآجبية وموعدها فى الفجر، وكنا قبل الصلاة قد تهيأنا للخروج فارتدينا عباءتينا الصفراوين وقد خرج أكليروس البيعة جميعه لتوديعنا عند الباب الأخير المؤدى إلى الفسطاط، وكان على رأس مودعينا الأب الطيب يوساب، فغادرناهم جميعا والدموع تملأ مآقينا ومآقيهم، بعد أن قبلنا يد الأب المباركة، وكرّز علينا بعصاه التى هى رمز المعمودية، ولم نركب ركائبنا إلا بعد إغلاقهم الباب خلفنا تأدباً وإجلالاً وكانت ركائبنا بغلين يافعين من ثلاثة بغال جيدة، أحضرها للبيعة ذات مرة رجل مؤمن يدعى سراميتس من مدينة ليكوبوليس وقدمها هديّة للأب يوساب بعدما أبرأ إبْناً له،كان قد أصيب بمرضٍ طال واشتد عليه، فحمله الرجل إلى البيعة ليناوله المناولة الأخيرة، لكن الأب يوساب أعطاه عقاراً ومسحه بالزيت الفلسطينى وقرأ عليه قرايات مقدسة، فبرئ الغلام لساعته وقام معافى ووقف على

قدميه، ولم يكن مسموحاً لنا باعتبارنا من القبط أن نركب الخيل، وكان هذا هو قانون الولاة المسلمين علينا، منذ أن تملكوا بيعة مصر العتيقة وقصر الشمع زمن الطمث الهرطقى الخلقدونى قيرس المدعو مقوقس، وهكذا خرجنا على البغلين أنا وثاونا، حاملين معنا زوادة من السمك المملح والزيت والبتاو والمنين، وبعضاً من التمر، وجرة نبيذ، فاخترفنا الفسطاط خارجين إلى البساتين التى تليها، والفسطاط هو ما بناه المسلمون بعد دخولهم بابليون بمصر. وقد أخبرنى ثاونا ونحن نعبر الفسطاط أنه قرأ فى بعض الكتب أن دولة الإسلام بدأت لما انتقل المرّ من المثلثة الهوائية التى هى برج الجوزاء إلى برج السرطان ومثلثته المائية، فصارت دولة الإسلام عند تمام ستة آلاف وثلاثمائة وخمس وأربعين سنة وثلاثة أشهر وعشرين يوماً من وقت القرآن الأول الواقع فى بدء التحرك (يعنى خلق آدم عليه السلام)، وأن القرآن وهو كتاب المسلمين من هذه المثلثة وقع فى أربع درجات ودقيقة واحدة من برج العقرب وهو قرآن الملّة الإسلامية.

كما أخبرنى أنه قرأ فى ذلك الكتاب أن ابتداء هجرة رسولهم كانت يوم الخميس من أول الشهر المسمى محرم عندهم، وهذا مبتدأ تاريخهم وبين ذلك وبين الطوفان النوحى، ثلاثة آلاف وسبعمائة وخمس وثلاثون سنة وعشرة أشهر واثنان وعشرون يوماً.

لم أكن قد رأيت داخل الفسطاط من قبل فهالتنى كثرة خططه، وارتفاع منازله إلى أربعة وخمسة طوابق دون زينة أو استواء، وقد أخبرنى ثاونا ونحن سائران أن من هذه المنازل ما يسكن فيه نحو مائتى فرد علماً بأن الطبقة السفلى مما يلى الأرض لا يسكنها أحد إلا قليلاً، ويقال إن رجلاً من المسلمين فى الزمن الأول عند بناء الفسطاط، يسمى خارجة بن حذافة، كان ينيبه القايد عمرو بن العاص، اتخذ لداره مشربية أو طنفاً، فلما بلغ ذلك الخليفة عمر بن الخطاب، كتب إلى عمرو أن خارجة ما فعل ذلك إلا ليشرف على من حوله ويطلع على عوراتهم وسرهم، وأمره أن يهدمها فى الحال. وكنا نسير داخل الفسطاط دون أن يعترضنا أحد، وقد رأينا حمّامها المسمّى حمام الفار، وهو حمام صغير حقير إذا ما قيس

بحمّامات الرومان القديمة، وقد أخبرني ثاونا، أن المسلمين الأوائل، كانوا أتقياء يميلون إلى الزهد والتقشف، وأن مدينة الفسطاط بنيت بعد أن ضاق الحصن الذى استولى عليه المسلمون عقب دخولهم مصر، فوجد القايد عمرو أنه ليس من العدل إخراج أهل مصر من القبط من ديارهم المبنية حول الحصن، ليحل المسلمون محلهم، فتركهم وبنى الفسطاط، الذى سرعان ما نما وصار مدينة ومركزاً للحكم والولاية بدلاً من الإسكندرية كما كان معتاداً فى الزمان الأول.

تركنا الفسطاط وجلّ البساتين التى هى تبعية البيعة حتى الآن، والتى كانت فى الزمن القديم كما قال ثاونا، تمتد إلى شاطئ النيل قبل أن يبنى المسجد المسمى بمسجد أهل الراية وسرنا بمحاذاة بركة الحبش، قاصدين الوصول إلى محاذاة النهر، حتى ننحدر إلى شبرا، ومنها إلى البلاد الموصلة للأراضى الموحلة. وكنت طوال الطريق أيمم نظرى شطر المكان، فهالتنى روعة هذه البركة الفسيحة، وقد تجلت روعة الخالق فيها، حيث نمت على أطرافها أشجار وارفةً ظليلة من كل نوع وشكل، وكانت بينها أشجار مكللة بورود زرقاء وبنفسجية وحمراء، على نحو لم أره من قبل، كما رأيت أطياراً عائمة فى مياهها خلاف نوع الأوّز والبطّ، على النحو الذى كنت أراه فى أراضى البلاد البشمورية، وكان صدح هذه الأطيار مع طير الشجر غاية فى الروعة والحسن، كأنه موسيقا ربانية تسحر القلوب، ويبدو أن ثاونا لاحظ انبهارى وتباطؤى فى حثّ البغلة على المسير، فقال:

– علينا أن نجتاز هذا المكان بسرعة، إذ لا يصحّ بقاؤنا فيه كثيراً، فعلى أطراف هذه البركة يعيش أهل اللهو والخلاعة، ولا يسلم الأمر من قاطع طريق هنا أو هناك، ثم إنه يتوجب علينا أن نترك بر مصر قبل مغيب الشمس، لكننا سنتوقف قليلاً فى حدائق شبرا، حتى نتزود ونسد جوعنا، لنواصل مسيرنا فندخل مدينة أتريب قبل حلول الظلام، فنبيت فى ديرها حتى صباح الغد، لأننا لو دخلناها فى الليل، قد لا نسلم من بعض قطاع الطريق، أو عصابات الجوعى، التى تخرج بين الحين والحين إلى الطريق طلباً للقوت بأية وسيلة.

وقبل أن نترك البحيرة ومنظرها الخلاب، تنهد وهو يعب بعينيه من مشاهدها الحسنة، وأضاف:

– تباً للفلاسفة والاستدلال. يا له من عارف يعرّف بالمعرف. لم أعلق، إذ لم أفهم ما قصده ثاونا بذلك الكلام وسرنا بجدّ، حتى أوشكنا على الدخول إلى حدائق شبرا، وإذ ببعض من عسكر المسلمين الراكبين على الخيول يسيرون ناحيتنا بسرعة، فنزلنا عن الركائب، بمجرد أن رأيناهم، ويبدو أنهم كانوا من الأتقياء فلقد نزلوا عن خيولهم تأدباً واحتراماً لما رأوا ملابسنا الكنسية، فقالوا لنا أشياء، وكنت لا أفطن للسانهم كما ينبغى فلم أفهم إلا بعضاً مما قالوه، لكن ثاونا حيّاهم وقال لهم بكلامهم المكتوب، والذى أقراه وأفهمه عندما يكون مكتوباً:

– نحن ذاهبون بأمر من أبينا الرئيس يوساب رئيس بيعة السيدة العذراء بقصر الشمع فى مهمة خاصة فى الأراضى الموحلة.

ما أن نطق ثاونا بـ«الأراضى الموحلة»، حتى بأن الغضب على وجه مقدّم انعسكر، وبدا وكأنه استراب فينا، لكن ثاونا، أسرع موضحاً:

– معنا كتاب من متولّى الفسطاط بألا يعترضنا أحد منكم، لأننا ذاهبون فى شأن يخصّ الوالى.

ثم إنه أخرج من جرابه لفيفة بردى، دفعها لمقدم العسكر، فلما فتحها الأخير، بان أنها مكتوبة بالقلم العربىّ، والقلم القبطى أيضا، فراح المقدم يقرؤها بعناية وبعدما تأكد من صحة ختم الأمير الوالى عليها، طواها، ثم دفعها بأدب مرة أخرى إلى ثاونا، وقال:

– عليكم الإسراع فى المغادرة، لأن بعضاً من العامة قد تهيّجوا فى منية السيرج، وأخشى أن تلاقيا المتاعب، إذا كبسوا عليكما فى الطريق، لأن أكثرهم من الغوغاء الصعاليك معدومى القوت والطعام.

ثم إنه أمر اثنين من جنده أن يرافقانا حتى نصل إلى حدائق شبرا.

شكرنا الجنديين وودعناهما عند وصولنا إلى حدائق شبرا، بعد أن أعطاهم ثاونا بعضاً من المنين، وقدراً من التمر السكوتى الفاخر، كنا قد حملناه معنا من البيعة، وهو من ثمار عدة نخلات قديمة بالبيعة، ربما يعود زمن زراعتها إلى ما قبل

إنشاء البيعة بسنين عدة، ثم إننا دخلنا الحدائق، فبدت لى عظيمة الاتساع، بالغة العز بأشجارها وزراعاتها المتنوعة، وكأنه لا يوجد جنس زرع أو شجر فى كل الدنيا، إلا وقد زرع أو غرس بأرضها، وبدا شجر النبق والجميز والسنط واللبخ والكافور والتوت، عظيماً ضخماً على غير المعتاد، فالمياه المتسربة من النهر إلى الأرض فى هذا الموضع غنية وفيرة، لا تترك الشجر فى حاجة إلى شرب، كما أن الأرض بخيرها لكثرة الطمى المجلوب وقت صعود النيل.

راح ثاونا، غزير العلم والمعرفة، يذكر لى أسماء بعض الأشجار التى لم أكن قد رأيتها من قبل، وكان منها شجرة الدوم، التى لم أر فى حياتى إلا ثمارها، فقد كان يجلبها إلى أراضينا البشمورية بعض من فقراء السودان الجوالين، ليبيعوها لنا فى الطرقات، وكانت الحدائق تصل حتى حواف النيل السفلية، وقد برزت عليها أشجار أم الشعور، بأغصانها الشعرية واختلطت بمياه النهر وكانت الحدائق عامرة بالناس فى كل موضع منها، حتى إننا رحنا نبحث عن موضع خال، أسفل شجرة، لنجلس مستظلين ونتقوت بشىء من طعامنا وشرابنا، فلما وجدنا توتة وافرة الأوراق، عميمة الخضرة، افترشنا النجيلة تحتها، فصلّينا وشكرنا، ورحنا نأكل شيئاً من الطعام. وبينما نحن نزدرد زادنا سألت ثاونا سؤالاً ظل يشغلنى طوال الطريق:

– ثاونا العزيز: لعلك تظن أن البشموريين سوف يرضون بكلام أبينا ويوقفون الحرب مع الأمير.

نظر ثاونا إلىّ قليلا وهو يأكل، وبدا لى وكأنه غير راغب فى أن أغوص فى مثل هذا الأمر. تردد قليلاً فى الكلام، لكنه همّ بذلك لولا أن امرأة جاءتنا بوعاءين من شراب السكر، وطمفور زلابية قدمتهم لنا بينما وجهت كلامها لثاونا قائلة:

– هل يسمح أبى بتقبل هذا الشىء اليسير منى، ويبارك أطفالى الذين هناك؟

ثم إنها أشارت بيدها إلى موضع شجرة حبّ العزيز، حيث راح ثلاثة أطفال يجرون ويلعبون، فلما أومأ لها ثاونا موافقاً، ذهبت، ثم عادت بالأطفال وكان

جميعهم من الصبيان حسنى الصورة المفعمين بالبراءة، فأخذ ثاونا يباركهم ويصلب عليهم ويرقيهم برقايا، ثم تلا: «بسبب هذا أحنى ركبتى لدى أبى ربنا يسوع المسيح الذى منه تسمى كل عشيرة فى السماوات وعلى الأرض، لكى يعطيكم بحسب غنى مجده، أن تتأيدوا بالقوة بروحه فى الإنسان الباطن، ليحلّ المسيح بالإيمان فى قلوبكم، وأنتم متأصلون ومتأسسون فى المحبة، حتى تستطيعوا أن تدركوا مع جميع القديسين، ما هو العرض والطول والعمق والعلو، وتعرفوا محبة المسيح الفائقة المعرفة لكى تمتلئوا إلى كل ملء الله، والقادر يفعل فوق كل شيء أكثر جداً مما نطلب ونفتكر، بحسب القوة التى تعمل فينا، له المجد فى الكنيسة فى المسيح يسوع إلى جميع أجيال دهر الدهور. آمين».

وبعد أن انتهى ثاونا من مباركة العيال وقراياته، دقق فى أوسطهم، ونظر فى حدقته ملياً، وكذا عمل فى فمه، بعد أن فتحه بيده، ونظر لثته، وكانت باهتة مبيضة، لا تشوبها حمرة الدم، مثلما كانت حدقته على النحو ذاته، تصعّب ثاونا وسأل المرأة:

– هل يأكل هذا الولد كثيراً؟

هتفت المرأة بدهشة، وقالت:

– أكثر مما يأكل أخواه مجتمعْين يا سيدى المبجل، ولكن ليتك تبارك الأصغر، فهو مصاب بعلة شيطانية دوختنى فى علاجها، دون نتيجة، حتى يأست وخاب رجائى فى برئه منها، ثم إنها رفعت جلباب الصبى، وأزاحت بعضا من سرواله وحابـ الكتانى الخشن الساتر لعورته، حتى قرب نهاية فخده، فبان على لحمه خراج متقيح جداً باحمرار من كل جانب، وقد تورم موضع الفخذ كله عند هذا المكان.

تأوه ثاونا لما رأى ذلك، فصلب وقال للمرأة بجد:

– تباً للشيطان أيتها المرأة الطيبة. هذا الخُرّاة خطر بحق الرب، وقد يودى بالولد، إذا ما ظل على هذه الحال.

ثم إنه قام وهمّ إلى موضع البغلين، وأخرج من جراب بغله، حقاً، فتحه بسرعة، وسألني أن آتيه بواحدة من أوراق التوت الطرية اليانعة، مكتمِلة النمو، فلما قطفت واحدة قدمتها له، وضع عليها بعضاً من الدهن الذى بالحق، وقال للمرأة:

– عندما تعودى إلى دارك، اغسلى جيداً ذلك الموضع من الفخذ بالماء الدافئ، واعصرى ما بالخراج من قيح بخرقة كتان طاهرة، ثم ضعى من هذا الدهن عليه وعليك أن تغمسى خرقة الكتان جيداً فى صحن مملوء بعرق البلح، وكذا عليك مسح أصابعك ويديك جيداً بعرق البلح، حتى لا يصيبك فى يديك ما أصاب ولدك فى فخذه. افعلى ذلك مرة عندما يفيق ولدك فى الصباح ومرة قبل نومه فى الليل، على أن تلفى موضع المرض بخرقة طاهرة مغموسة فى عرق البلح كذلك.

ثم إنه التفت إلى الطفل الآخر، وقال:

– إن ولدك هذا مصاب بالدودة الشيطانية المسماة «بند»، وقد تمكنت منه واستقرت فى جوفه، وهى تأكل ما يأكله جميعه، لذا فهو مصفر هزيل، لذلك عليك إعطاؤه شراباً من صمغ السليخ ممزوجاً بزهر النعناع الفلفلى مع الصاص الذى يسمونه بلسان العرب الآن الخروع، على أن يؤخذ قبل التريق، بعد رجّه جيداً فى قارورة لمدة ثلاثة أيام، حتى تموت الدودة وتخرج من جوفه مع ما يخرج من فضلات، وإذا تقيأ مرة، فلا تخافى، فهذا من الأمور المعتادة عند تناول مثل هذا الشراب، ومعناه أن الترياق قد بدأ يفنى الدودة وهى فى سبيلها إلى الموت والنزول، ولو شرب الشيح المغلى قبل النوم كل ليلة فسوف يأتى النفع سريعاً، ويخلص الولد مما هو فيه.

صمتت المرأة قليلا، ثم قالت بعد تردد:

– ولكنى يا سيدى أربط حجاباً له داخل ملابسه، فهل أتركه فى موضعه مع ذلك، أم أزيله وأعمل الدواء لا غير؟

رد ثاونا بتعجب:

- أى حجاب أيتها المرأة؟

قالت بتوجس:

- حجاب حافظ صنعه لى رجل مشهور بذلك فى نواحينا، وقد أعطيته مقابله ثُمن برّ ونصفىّ فضّة.

- أرنى الحجاب، قال ثاونا.

مدت المرأة يدها، وأدخلتها تحت جلباب الصبى، ثم أخرجت لفيفة صغيرة كانت قد ربطتها بحبل من الصوف ولفّته حول بطنه، ليكون الحجاب على موضع السرة منه، فلما أخذ ثاونا اللفيفة، وكانت قطعة من القماش الكتانى الأبيض وقد خط عليها بالقلم الأحمر بكتابة قبطية، راح يقرأ ليسمعنى: «أنا خرجت من مدينة آن شمس مع قسوس معبدها الكبير ومع أصحاب الحماية وملوك الأزلية والوقاية. أنا خرجت من صا الحجر مع المعبودات الأمهات اللاتى تراعيننى بحمايتهن وتلقننى العزائم عن سيد جميع الأشياء بقدر ما توجد أبواب منها. وهذا لأجل أن يذهبن الآلام الصادرة عن كل معبود والمرض من رأسى هذا ومن جيدى هذا ومن ذراعىّ ومن لحمى هذا ومن أعضائى هذه، ولأجل أن يعاقبن سفلة الرؤساء الذين أدخلوا فى لحمى هذا المرض وسحروا عظامى هذه، حتى إن الوجع دخل فى لحمى هذا وفِى رأسى هذا وفى ذراعى هاتين وفى جسمى وفى أعضائى هذه بحق شفقة رعْ القائل: أنا أحميه من أعدائه، وبحق مرشده هرمس الذى يبلغه الكلام، ويبدع الكتب وعنه تأخذ العلماء والأطباء جميع المعارف فيستمدون منها ويحلون مشكل كل غامض أنا أحد الذين يحبهم المعبود ويجعلهم أحياء، فالمعبود يحيينى ويحفظ حياتى. هذا هو كتاب الشفاء لكل مرض فهل لإزيس أن تشفينى كما شفت حوريس من كل ألم أصابه من أخيه ست حينما قتل أباه أزوريس. فيا إزيس أنت الساحرة الكبيرة اشفينى وخلصينى من كل شىء مكدر ردىء شيطانى ومن أمراض اللبسة والأمراض المقتلة والخبيثة بأنواعها التى تعترينى كما خلصت وأنقذت ابنك حوريس.. فها قد دخلت النار وخرجت من الماء، فهل من الممكن عدم وقوعى فى الشرك هذا اليوم، بقولى -أنا صغير

وجدير بالشفقة- يا رع أنت الذى قرأت هذه العزيمة على جسمك يا أوزوريس أنت تعبد لإجلالك -يتلو رع لأجل جسمه ويعبد أزوريس لإجلاله. هيا خلصانى من كل شيء مكدر أو ردىء، أو شيطانى ومن أنواع الحميات الخبيثة والمقتلة».

سكت ثاونا دون أن يقول شيئاً، وبدا كمن يفكر فى أمر من الأمور، ثم صلب وقال:

– اسمعى أيتها المرأة الطيبة. هذه تعويذة قديمة، لا نفع منها فى الشفاء من المرض، أنصحك ألا تضيعها لولدك، فالرب هو الحافظ وهو الشافى من كل علة، وعندما تعودين إلى دارك أحرقيها، أو ارميها بعيداً فى أى مكان ولا تعودى لعمل مثل هذه التعاويذ أبداً عند أى ساحر أو خلافه.

ولكن ما أن قامت المرأة من بين يديه وهمت بالانصراف، حتى عاد يقول لها:

– على أية حال. إذا كنت تتوسلين بها إلى شفاء ولدك، وتظنين أنها ستجلب له النفع، أرجعيها إلى الموضع الذى كانت عنده كما كانت من قبل.

فرحت المرأة جداً لما قال ثاونا ذلك، وكان الغم والاسترابة قد ظهرا على وجهها قبل ذلك، فلما ذهبت قال ثاونا:

– لقد قلت لها أن تحتفظ بالتعويذة، خوفاً من ألا تعطى ولدها الدواء، فعوام الناس من العلمانيين وخصوصاً النساء يعتقدون كثيراً فى مثل هذه التعاويذ والأحجبة التى تعود إلى أزمنة الوثنية السحيقة، وما الأسماء التى فى هذه اللفافة إلا من أسماء آلهة قديمة عبدت زمناً على هذه الأرض.

كنت مشغولاً بمعرفة الدهن الذى قدمه لعلاج ولدها الآخر، فانتهزت الفرصة وأنا أقول له:

– فليرحمهم الرب يا ثاونا، هؤلاء الناس الذين يخالطون الوثنية بالديانة الحقة دون قصد، بسبب ضعف علمهم وخضوعهم للهرطقات، لكن أليس الدهن الذى قدمته لها هو الدهن الذى رأيت مثله كثيرا فى نواحينا البشمورية فى الماضى.

رد ثاونا محاولاً إفهامى:

- لا.. يا بدير، إنه ليس دهن الحوت الذى تقصده، وإن كان يشبهه، لكنه دهن معمول من أوراق الصفصاف وأوِراقِ الرجلة وِعصارة الحلوة المرة والزعفران وزلال البيض وقليل من الأفيون. يسحق مجتمعه، ثم يضاف له بعض من النبيذ النقى ويستخدم كما سمعتنى أصف للمرأة منذ قليل.

هجست أقول له بما يدور فى داخلى:

- لكن الولد ضعيف جداً وربما كان مبلياً بعلة أخرى غير دودة الشيطان. الرب أعلم.

لا أعرف لماذا دخلنى وأنا جالس انظر إلى المرأة وأطفالها أن هذا الطفل لابد وأن يموت، ورحت أتفكر فى موت الأطفال والرضع، وأنا الذى أشهد موتهم كثيراً، عندما يأتى أهاليهم بهم إلى البيعة للصلاة على أجسادهم قبل دفنهم ويتوجب علىّ عندئذ عمل ما تتكلفه الجنازة، وأؤجر على ذلك. كانت مسألة موت الأطفال تحيرنى كثيراً فسألت ثاونا:

- أترى يا ثاونا أن الله يأخذ الأطفال كثيراً لأجل ذنوب والديهم؟ أم لأمر آخر؟

رد ثاونا قائلاً:

- لا تظن يا ولدى ذلك. لكن ينظر الله جنس البشر، وقد عمل أكثرهم إرادة الشيطان باهتمام باطل، والجحيم عامر، والنعيم الفردوس خال، فيأخذ الأطفال الذين ليس لهم خطيئة إلى الفردوس موضع الرحمة.

عدت أسأله:

- ولماذا أخرج الله الشيطان من السماء من قبل أن يخلق العالم والناس؟

فأجابنى وهو يتابع بنظره خنفساً قد حمل فتيتة خبز مما تساقط من أكلنا:

– يا ولدى، ومن أنا البائس الحقير عند هذا القول حتى تسألنى عنه.

لكنى أكثرت عليه اللجاج والطلبة فى السؤال، فقال لى: قال القديس غريغوريس الثاولوغس: «إن الشيطان كان منذ أول خلقه الله يسعى بأصحابه الملائكة إلى الله، وكان الله يمهله ويصبر عليه، فلما خلق الله سماء جديدة، وأرضا جديدة، وخلق الإنسان بصورته ومثاله، وقد سبق فى علم الله أن الشيطان محب للكبرياء، فأمره أن ينظر إلى آدم وحسن منظره، فأخذ معه العسكر الذى جعله مقدّمًا عليه ومضى إلى حيث آدم، فلما نظره تعجب منه، وقال لأصحابه: أريد أن أنصب لى كرسياً على السُّحب، وتكون الجبال العالية تحتى، وأكون مثل العلى، فيكون العالم كله فى قبضتى وأملك عليه، ثم إنه صعد إلى السماء، فقال الله له: أأعجبك ما رأيت ورضيت بالعالم المخلوق؟ لعلمه بضميره، ثم قال له: قد جعلتك رئيساً عليه، وقال له: كل هذا لئلا يسقط من المجد الذى كان فيه، وكان هو يحفظ الشر، وفكره فيه السوء، ثم إنه بعد ذلك تأمل فقال: أنا أريد أن أعرف كيف اللاهوت، لكى إذا نزلت أفعل ذلك ولا تبقى لى حاجة عند الله بعد هذا. وهذا ما كان يهتم به، وأراد أن ينظر اللاهوت، فدخل فى وسط الملائكة بسرعة فأمر الله ربوة من قوات الملائكة السمائية أن تحطه إلى الجحيم الأسفل فى الظلمة البرانية هو وكل من معه، وهذا ما أظهره الله لإغريغوريس الثاولوغس، وهو الذى وضع لنا ذلك، والمجد لله إلى أبد الآبدين».

ثم إننا قمنا فسحبنا ركائبنا إلى حافة النهر، ونزلنا بها قليلاً حتى شربت وارتوت، وكنا أثناء الطريق نعلفها بالفول المنياوى والحشائش فلما كفت عن الماء، أقفلنا راجعين إلى الطريق وقد توكلنا على الله لندخل أتريب قبل حلول الظلام.

خيّل لي ونحن نهم بدخول مدينة أتريب، أنني قد مررت على هذا المكان من قبل أثناء هيامي وتجوالي بعد هربي من بلدتي ترنيط، وقبل العثور عليّ هائماً في البرية التالية لقصر الشمع من ناحية حلوان، إذ كانت صورة برباها الظاهرة على البعد من الأماكن التي أظن أنني رأيت مثلها من قبل، فلما صرنا عند أسوارها العالية وأبوابها العديدة التي أحصيتها عند وصولنا فكانت اثني عشر باباً. دخلنا من بابها الكبير المسمى باب الخلق، فوجدناها مدينة عظيمة عامرة بالأسواق مليئة بالناس، وكان بها خليج تجري فيه مياه النيل تتفرع إلى ترع صغيرة، يحمل منها الماء للمساكن، أما بيوتها فبدت في عيني غاية في الحسن، خصوصاً تلك الواقعة على شارعها الأكبر المتعامد على خط النيل، وكان به منتزه جميل، وكان هناك شارع أصغر عمودي على شارعها الأكبر ويشقها من جنوبها حتى شمالها.

قادنا بعض الطيبين – لما سألناهم – إلى الدير مباشرة، وكان يسمى دير العذراء على مسمى بيعتنا في قصر الشمع، وهالنا أن أبوابه لم تزل مفتوحة رغم أن الوقت كان حوالي درجتين قبل الزوال، فلما دخلنا رأينا أناساً كثيرين من الرجال والنساء يبيعون ويشترون، وبعضهم يأكل ويشرب، والأطفال يمرحون، وكان جل الناس من الفلاحين، وقد جلبوا معهم شراب السكر والجلاب ومثارد السميذ، وقطع الخمير، والأطفال يشخللون بشخاليل الخوص، وهم في أثواب جديدة ولا يكفون عن النط والصياح والتهييص.

هتف ثاونا وقد أخذ بمشهد الناس غير المتوقع:

– فليرحمني الرب يا بدير، اليوم هو العيد السنوي للبتول، فهو يقام في الحادي عشر من بؤونه. إذن فقد وصلنا هنا يوم العيد.

رددت: آه. ثم تابعت مبهوراً مشاهد العيد، وقد ذكرتنى بمشاهد الأعياد التى طالما عشتها فى بلدتى الحبيبة ترنيط، وإن كان ملبس النساء هنا فى أتريب أجمل وأبهى من جلاليب نساء ترنيط، إذ إن معظمها قد صبغ بألوان الأرجوان الزاهية، والزعفران الأصفر، وقل ما صبغ منها بالنيلة الزرقاء كما فى ترنيط، كما أن نسيجها ناعم رقيق يشف ويرف على الجسد.

أخَذَنا قيِّم الدير إلى ناحية مقر الأسقف، فاستقبلنا بحفاوة وكرم، وقد عرفه ثاونا بنا، وبأسباب مجيئنا، فراح يسأل عن الأحوال فى مصر العتيقة وفى بيعتنا، فأخذ ثاونا يفضفض عما يعتريه من قلق، ويقول:

– نحن فى كرب طوال الوقت، فالوالى يضيِّق علينا بالخراج، مثلما هو حادث فى كل مكان، وعينه على بساتين البيعة ومعاصرها، وهو يرسل بين الحين والحين من يحصى القائمين عليها والعاملين فى أرضها وزرعها، وليشم كل من يجده هناك، ومن يكون غير موشوم بعد بعلامة الأسد، يتعرض لمشقة عظيمة، وأنت تعلم أن دلك كان قد سرى، منذ سنة٤٢٢ شهداء، على الفلاحين القرارية بغرض حصر الضرائب، لكن ذلك صار يسرى علينا الآن نحن أهل البيع والأديرة، والتشديد فى مصر العتيقة على ذلك أكثر من أى موضع آخر فى البلاد بسبب أنه صار فى بساتيننا من القبط والمسلمين من يعمل بالفلاحة، وكذا بالمعصرة، فلزم تمييز هؤلاء عن تلكم. أما فى الفسطاط فالجند يثورون بين الحين والحين بسبب انقطاع الرواتب، وبعضهم صار يعمل لدينا فى البساتين سراً حتى يجد ما يتقوت به، وقد عطفنا عليه، وأثناء قدومنا إلى هنا فى أتريب، قال لنا مقدم حراس الطرق الذى التقيناه أن الناس قد خرجت تطالب بالطعام فى منية السيرج من نواحى شبرا.

تمتم الأسقف مؤمناً على كلام ثاونا، وقال:

– ليرحمنا الرب جميعنا. القلاقل فى كل مكان. وأنا خوفى يتزايد على هذا الدير يوماً بعد يوم، خصوصاً بعد حلول قبيلة كبيرة من قبائل العرب، ورسوها عند مشارف البلدة من ناحية الصحراء فهى لا تفتأ تغير على زراعاتنا وعلى

الفلاحين، فتنهب الزرع وتفسد الأرض، بل إن الأمر وصل ببعض منها إلى حد خطف البنات وأولاد من الأهالى ونحن لا نملك من أمرنا شيئاً، وقد سألنا الوالى أن يحمينا من الإغارات عدة مرات، دون جدوى، والآن الخوف كله، أن يدخلوا علينا الدير ذات مرة وينهبوه، وهذا الدير إن ضاع ضاعت معه المدينة واندثرت، لأن معظم أهلها من المشتغلين فى أراضيه ومعامله، خصوصاً معمل نسج الكتان، ومعمل الزجاج، فلدينا زجاج يضارع أفضل أنواع الزجاج المعمول فى دير الزجاج الواقع ببرية هبيب قرب مريوط، وأنا أتضرع للرب ألا يحدث ذلك، خصوصا وأن كثيراً من الأهالى قد تركوا بيوتهم، وذهبوا للالتحاق بالبشمورى كمحاربين فى جيشه بالأراضى الموحلة.

صلّينا جميعاً طالبين رحمة الرحيم، ثم إن قيّم الدير قادنا إلى موقع قلاية لنستريح فيها قليلاً حتى يحين المساء.

لبثنا فى القلاية وقتاً، وسرعان ما حل المساء فقمنا وشاركنا الرهبان الصلاة ثم تلونا بعض الساذوكيات، وفى الآخر تعشينا عشاء ربانياً خفيفاً، وكانت ساحة الدير لا تزال عامرة بالناس الذين أخذو يوقودون الوقايد والشموع لحلول الليل، أما خارج أسوار الدير فقد كان هناك لغط عظيم إذ تخالطت أصوات الغناء مع دقات الطبول والمزامير وراح الراقصون يشطحون فى حلقات عديدة، ضمت رجالاً ونساء على السواء، وقد بدوا جميعاً فى حالة من النشوة الغامرة.

زفر ثاونا بضيق وهو يحادث الأسقف محتجاً على كل ذلك اللهو داخل ساحة الدير وخلف أسواره، خصوصاً وأن ذلك لم ينقطع حتى أثناء إنشادنا المزامير وصلواتنا وتقديسنا، وكنا قد جلسنا معه بعد تناول العشاء، فقال الأسقف أنه حاول منع الناس مراراً من فعل ذلك دون جدوى، وهو يخاف التشديد عليهم حتى لا ينفروا من الدين وأهله من الرهبان خصوصاً أن معظمهم كان فى الوثنية حتى عهد قريب، ولم يدخل حظيرة الإيمان إلا مؤخراً، بعد ذلك وأثناء توجهنا لقلايتنا حكى لى ثاونا أن الأب شنودة رئيس الدير الأبيض المتنيح منذ زمن بعيد قال ناهياً عن فعل العامة فى الموالد والأعياد: «جميل جداً أن يذهب الإنسان إلى مقر

الشهيد ليصلى ويقرأ وينشد المزامير ويطهر نفسه ويتناول من الأسرار المقدسة فى مخافة المسيح، أما من يذهب ليتكلم ويأكل ويشرب ويلهو أو بالحرىّ ليزنى ويرتكب الجرائم نتيجة للإفراط فى الشراب والبغى والفسادِ والإثم، فهذا هو الكافر بعينه. وبينما البعض فى الداخل يرتلون المزامير ويقرءون ويتناولون الأسرار المقدسة إذ بآخرين فى الخارج يملأون المكان بآلات الطبل والزمر.

بيتى بيت صلاة يدعى، وأنتم جعلتموه مغارة لصوص. لقد جعلتموه سوقاً لبيع العسل والحلى وما شابه ذلك. لقد جعلتم الموالد فرصة لتدريب بهائمكم ولسباق حميركم وخيلكم. جعلتموها أماكن لسرقة ما يعرض فيها للبيع. فبائع العسل بالكاد يحصل على قليل من الزبائن المتشاحنين، أو يستخلص لنفسه شيئاً من الفائدة نظير أتعابه. حتى الأشياء التى لا يمكن أن تحدث للباعة فى الأسواق العامة، تحدث لهم فى موالدِ الشهداء.. يا للغباء؟ يا لعقولكم المغلقة! وإذا كانت بناتكم وأمهاتكم يعطرن رءوسهن ويكحلن عيونهن ويتجملن لخداع الناس الذين ينظرون إليهن، وإذا كان أبناؤكم وأخوتكم وأصدقاؤكم وجيرانكم يفعلون هكذا عند ذهابهم إلى مواطن الشهداء، فلماذا جعلتم لكم بيوتاً؟ هناك كثيرون يذهبون إلى الموالد لإفساد هيكل الرب وليجعلوا من أعضاء المسيح أعضاء للإثم والفجر بدلاً من أن يحفظوا لها قداستها وطهارتها من كل رجس. دعونى أقول لكم بصراحة تامة إن كثيرين منكم يلتمسون لأنفسهم عذراً قائلين: ليست لنا زوجة أو ليس لنا زوج، فلا تجعلوا زيارتكم لموالد الشهداء، فرصة لتدمير أجسادكم فى المقابر التى حولها أو المبانى القريبة منها أو فى أركانها».

هتفت لثاونا متعجباً:

كأن الأب المقدس شنودة حاضر بيننا، يشهد بعينه ما يحدث هنا فى هذا المولد الآن، وهو ما يجرى مثله فى كل الموالد الأخرى بالبلاد فيما أظن، فأنا أذكر من أيامى فى ترنيط أن وقت خروجنا إلى المولد، كان من أبهج الأوقات، ونحن كنا نقيم مولد القسيس استيفانوس فى بشنس من كل عام، ونفعل فيه فعل هؤلاء الناس هنا فى دير أتريب. يا لله!

ولم أفض لثاونا بما فاضت به مشاعرى وأنا أقول ذلك، فلقد أخذتنى الذكرى، وعصفت بروحى، إذ إن ولعى بالغالية آمونة بدأ عند ذلك الوقت الربيعي الجميل، كنت أنا وكذلك هى فى مقتبل اليفاعة والصبا، فوقعت عينى عليها لأول مرة، وقد خرجت مع أخواتها وأمها، وهى ترتدى ثوبا من الكتان الأبيض الخفيف الموشى بخيوط من الحرائر المذهبة، فبدت لى أجمل من بسنتة الماء اليانعة، وأروع من زهرة الرمان المتوهجة، فلم أتمالك نفسى لمرآها واشتهاها قلبى الآثم، وضعفت روحى، تحت وطأة رغبتى فيها، فرحت أتقرب منها وقت أن بدأ الرقص، وأخذت أهمس فى أذنيها بأجمل كلمات الوجد، حتى سرت عدوى روحى فى روحها، فأخذتها وابتعدنا عن حلقات الراقصين، وزحام الناس فى المولد، وجرينا باتجاه الحقول فدخلنا دروة من دروات الفلاحين الطينية المعمولة فى الغطيان للاستفاءة وقت القيظ، ورحنا نتهامس وأنا أقول لها يا أجمل بسنتة على مياه النهر، يا وردة البلاد الجميلة، يا رمانة الشتاء وبرتقالة الصيف، أما هى فقد همست لى بأجمل كلمات الحب وشعرت أن قلبها فاض بما فيه وكأنه فيضان النيل إذ يجيء فجأة كل عام، وأن قلبها بات مثل قلبى ريشة لا تملك أمرها وقد طوحها النسيم.

ولم نتمالك أمرنا، فأخذتنا جاذبية الأجساد، وتملكنا جنون الأرواح إلى الحد الذى أقسمنا عنده على الحب والمودة ما بقينا، وأعلنت لها أننى سأطلب من أبى أن يزوجها لى بعد موسم الحصاد، لكن القدر كان أسبق، فكان من أمرى وأمرها ما كان.

أظن أننى سرحت بعيداً بأفكارى، وأنا أستعيد كل ذلك، إذ لم أنتبه إلا لنهاية كلام ثاونا، وهو يقول:

– ثم إن الأب شنودة مات سنة ٤٥١ بتواريخ الروم بعد رياسة دامت ٦٦ عاماً للدير. وهذا معناه أن كثيراً من الناس لم يتخلوا عن عادات الوثنية الأولى حتى الآن. يا رب ارحم: كيراليسون.

نمت نوماً متقطعاً فى القلاية طوال الليل، فقد كانت الحرارة شديدة خلافاً لما هى عليه عادة فى هذا الوقت من السنة وقد ترطب الهواء ترطباً شديداً ببخر

النيل، رغم أننا لم نبلغ شهر مسرى بعد، وكانت أصوات الطاربين والراقصين خارج الدير مع طبلهم وزمرهم لا تتيح مجالاً للنعاس والنوم إضافة إلى هائمات الريف من الناموس والطائرات المتغذية على أخضر الأرض، وقد سهرت تطن طوال الليل، وما أن قارب الفجر على الانبلاج، وبينما كان النوم يأخذنى حيناً والصحو حيناً آخر، إذ سمعت أصوات صراخ وهرج فى الدير، فخرجت من القلاية مع ثاونا سريعاً لنستجلى الأمر، وكان قد هب مفزوعاً عند سماعه ذلك. تتبعنا مصدر الأصوات فى الظلام، حتى وصلنا إلى الجناح الخاص بقلايات الرهبان عند الطرف الآخر من الفناء المواجه لقلايتنا، فوجدناهم قد تجمعوا حول راهب بينهم، وقد أخذوا في ضربه وركله، بينما هو يصرخ ويستغيث، ثم سحبوه واقتادوه إلى قلاية الأب الأسقف سرابيون رئيس الدير ونحن معهم، فأمرهم أن يكفوا عن ضربه ويتركوه ليتمكن من استجلاء الأمر، وما أن كفوا عن ضربه وتركوه ليتمكن من استجلاء الأمر وهدأوا قليلا حتى تقدم راهب، كنا قد تعرفنا عليه أثناء العشاء واسمه نركيصوص، حاملاً لفائف وأوراقاً بردية خاصة بالراهب المضروب، وكان بعض الرهبان قد أشعلوا خلال ذلك وقيدة ليستضىء بها الجميع، وقال نركيصوص أنه لما فتح تلك الأوراق، وجد بها هرطقات ودساً على يسوع والكنيسة، فأمر الأب سرابيون بإحضار المزيد من المشاعل والشموع، فلما أحضروها، أمر الراهب المضروب أن يتلو على الجميع، والذين كانوا بقمصان النوم الخفيفة، ما بها بعد أن استفهم عن ملكية الراهب لهذه الأوراق، فلما قرأ ما بها، اتضح أنه فسر كلاماً من الكتب العبرانية على غير وجهته، وأخفى ما فيها من نبوات الأنبياء عن السيد المسيح حتى إنه لما جاء إلى ذكر الشجرة التى كان فيها كبش إبراهيم الخليل مربوطاً بقرنيه، وفسر الآباء أنها مثال خشبة الصليب، أخفى ذكرها وأزاله، واتضح أيضا من قرايته أنه فسر كتباً كثيرة كذباً، كما أن له أقوالا مخالفة كلها شقاق، مثل قوله: إن السيد المسيح مولود من مريم ويوسف، وأنكر قوة الولادة العجيبة، وأن السيد المولود بلا تعب، هكذا ولد من العذراء بلا تعب، هو الإله وهو الإنسان بالحقيقة وهو واحد من اثنين، وخالف الإنجيل الصادق كما شهد متّى، وما قال فى الولادة ولا تقدر أبواب الجحيم أن تقاومها،

واتضح من قرايته للفائفه المكتوبة بخط يده الآثمة، أنه قرأ كتب الصابئة والمعتزلة، وكان يتلو ذلك دون أن يعتذر أو يستغفر، بينما نحن جميعاً نصلب ونستغفر ولا تكف أفواهنا عن قول: حاشا لله. وكان الأب سرابيون صابراً عليه، وعلى سماع قوله الطمث حتى يستجلي الأمر منه كله مرة واحدة، ثم إن الأب سأل نركيصوص عن كيفية وقوع أوراق الملعون فلا أس– وهذا كان اسمه– فى يده، فقال نركيصوص إن فلاأس دفعها إليه بعد صلاة الليل ليقرأها، وأنه كان قد تجادل معه فى الصباح، فقال الملعون له، أنه يعتقد بأقوال الألعن منه آرابيا، وخصوصاً مقالته بأن النفس تموت مع الجسد، وتقوم معه فى يوم القيامة، فصلّب الرهبان جميعاً بعد أن قال الأب سرابيون: إن هذه مقالة مفسودة أبعدتها البيعة المقدسة بعد انعقاد مجمع للنظر فيها، ثم إنه آمن بأن الابن مخلوق والروح القدس، فما أن بلغ نركيصوص هذا الحد من أقواله حتى أمره الأب سرابيون بالسكوت، ثم إنه سأل فلاأس عن اعتقاده فى هذه الهرطقات، فلم يرد ولم يستغفر، وعند هذا الحد، أمر الأب سرابيون أن يجر الملعون إلى سرداب مظلم بالدير، وأن يمنع عنه الطعام، وألا يعطى إلا شربتى ماء كل يوم حتى يتوب، ثم إنه أمر بإحراق هذه البرديات الطمث وأن تفتش قلاية فلاأس جيداً ويخرج كل ما فيها، وأن تطهر بطهورات كثيرة حتى تخرج ما بها من شياطين وأن تقرأ بها المزامير عند صباح غد، بعد فعل ذلك.

فأخذ الرهبان فلاأس وظلوا يضربونه حتى سح دمه وتمزقت ملابسه، وبان لحمه، فلما نظروا عورته، وجدوا قلفته كما هى، وظهر لهم أنه غير مختن، فاكتملت فضيحته وتأكدت نجاسته وتيقن الكل من أنه ليس مسيحياً تاوضوسياً حقاً.

وهكذا عدنا إلى قلايانا جميعاً لنلبث بها، حتى وقت صلاة باكر عند الفجر.

كانت هذه هى المرة الأولى منذ التحاقى بالبيعة، التى أرى فيها إنساناً هرطقياً بعينى، وأسمعه بأذنى، لذا كنت مضطرباً جداً، وزاد اضطرابى ما رأيته من ضرب وبهدلة له، وهو لا يقوى حتى على رفع رأسه والنظر إلى أحد لشدة حنق

الجميع عليه وكراهيتهم له، فما أن دخلت القلاية حتى ارتميت على فراشى وطلبت من ثاونا بكل أدب ورجاء أن يعطينى شربة ماء من القلة الموضوعة بجانب كوة القلاية، فلما شربت واستعدت نفسى قليلا، قلت لثاونا وكنت فى غاية الانفعال:

– أنا حتى الآن لا أكاد أصدق كل ذلك الذى رأيته، كيف يجرؤ بريك واحد كافر كهذا الفلاأس أن يخفى أمره ويدلس بالعقيدة على إخوانه فى الدير؟!

ما طينته بحق الرب، والله أظن أنها من طينة الشياطين يا أخى! تنهد ثاونا وقال بعد أن تناول القلة منى وشرب:

– الشياطين ليسوا من طين يا بدير، إنهم من نار، وربما كان فلاأس هذا ملكانياً، وقد ثبتت حقيقته بمسألة الختان، فقد يكون اندس فى الدير لسبب من الأسباب. ربما جاء ليتعرف على أحوال كنيستنا الديرانية، فهو لا يمكن أن يكون يعقوبياً مثلنا، فنحن أشد تحفظاً فى ديننا وممسكون بنظام الديانة أكثر من الملكية، ومسألة الختان هى من مسائل الخلف بيننا وبينهم فى الفروع، فنحن القبط متبعون آثار أبينا إبراهيم فى الختان الذى أمره الله تعالى به، حيث قال له: «أكل نفس لا تفعل هذا تفرز تلك النفس من شعبها» وأطاع إبراهيم مع شيخوخته الله واختتن، والقبط يتبعون ناموس الله فى ذلك هنا فى العتيقة. والسيد المسيح له المجد صاحب الشريعة الجديدة دخل بيت الختان واختتن، وإلا فما كان اليهود يجدون عليه فى صلبه علة أكثر من أنه غير مختون، ولولا أكمل سنّة التوراة فى الختان ما كتب اليهود اسمه فى منظرة الكهنة ليخدم فى الهيكل، كما شهد إنجيل لوقا أنهم دفعوا له السفر ليقرا وكان الفصل الذى قراه: «روح الرب علىّ، لهذا أرسلنى أبشر العميان بالنظر والمأسورين بالتخلية وأبشر بالسنة المقبولة للرب».

– آه. قلت. ثم واصلت قولى:

–كنت أظنّ أن الفرق بين القبط والملكية هو فى أصل واحد فقط وهو الاتحاد.

قاطعنى ثاونا موضحاً:

- لا.. لا يا بدير. فنحن مختلفون فى ثلاثة عشر فرعاً غير الأصل، ومتفقون فى الثلاثة الأقانيم ووحدانية الجوهر. فنحن الذين على مذهب يعقوب، نعتقد أن المسيح له طبيعة واحدة من طبيعتين ومشيئة واحدة من مشيئتين وأقنوماً واحداً من أقنومين، لأن أقنوم الابن الوحيد الكلمة له المجد لمّا شاء اتحاده بطبيعة البشر أخذ من الظهر المريمى ناسوتا كاملاً ذا نفس عاقلة وجعله واحداً مع لاهوته من غير اختلاط ولا امتزاج ولا استحالة ولا تغيير، فصار الناسوت المأخوذ من الظهر المريمى مع كثافته بهذا الاتحاد الذى يفوق العقول البشرية مع الابن الأزلى قبل كلِ الدهور واحداً فى فعله الإلهى من إشفاء المرضى وإقامة الموتى وتطهير البرص وفتح عيون العمى للنظر.

قاطعته بدورى متسائلا:

- ولكن ما علاقة الملكانية بالكتب الممنوعة. لقد اتهم فلاأس بقراءة كتب ممنوعة؟

فبدا الحزم فى صوته وهو يقول:

- بدير، فلننه حديثنا هذا ونصلِّ ثم ننام. الكتب الممنوعة هى للصابئة والمعتزلة، ولا داعى للخوض فى أمرهم وأمر فلاأس الملعون.

فليكن كل منا فيما يعنينا ويخصنا. الدنيا ليل، والشياطين تسعى فى الظلمات، فلا داعى لأن نفتح لها باباً تدخل منه وتهيمن.

ثم أخذ يتلو: «وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد، ولا الملائكة الذين فى السماء ولا الابن إلا الآب. انظروا، اسهروا، وصلّوا لأنكم لا تعلمون متى يكون الوقت. كأنّما إنسان مسافر ترك بيته وأعطى عبيده السلطان، ولكل واحد عمله، وأوصى البواب أن يسهر. اسهروا إذاً لأنكم لا تعلمون متى يأتى رب البيت، أمساءً أم نصف الليل، أم صياح الديك، أم صباحاً لئلا يأتى بغتة فيجدكم نياماً، وما أقوله لكم أقوله للجميع: اسهروا».

غادرنا الدير بعد الصلاة مباشرة، والشمس عروس مزهزهة فى سمائها، فتركنا أتريب لنواصل رحلتنا إلى الأراضى الموحلة دون أن ننتظر لنقف على ما كان

من أمر الملعون فلاأس، وكان الرهبان قد زودونا بزوّادة من عسل أتريب المشهور بجودته وحلاوته، وقدرته على شفاء الأمراض، لأن النحل العامل للعسل أكثر غذائه على زهر البلسان الذى يقال إنه يكثر وينمو جيداً فى هذه النواحى منذ الزمن البعيد، وكذا قدموا لنا جرّة صغيرة من السمن المصنوع من أجود أنواع حليب الجاموس المنتشر بقرى المدينة، والذى أكثر مرعاه من الحشائش الطرية المنتشرة فيما بين النيل وبرية المدينة، وكان من عادة أهل القرى فى هذه النواحى، كما قيل لنا، أنهم يتركون هذا الجاموس يرعى طيلة الوقت فى أحشاش البرية دون خوف وكأنه يرعى فى الحقول، على أن يجمع للحلْب والمبيت أواخر النهار. وقد علمنا كذلك أن العديد من أراضى قرى أتريب هى تبعية ديرها، لذا فهذا الدير يعد من أعظم وأغنى الأديرة فى البلاد، وقد شاهدنا الفلاحين وهم منصرفون لأعمالهم فى الغيطان، فكانوا كلما مررنا بالقرب من بعضهم يرفعون رءوسهم ويحيوننا باحترام وإجلال، أو يسألوننا أن نباركهم. كما قدم لنا بعضهم جميزاً وتوتاً وغيرهما مما كان يجمع من ثمار وقتئذ.

هكذا رحنا نجتاز القرى حتى وصلنا إلى البرية، وبقينا سائرين، حتى وجدنا نفسينا أمام عمارة مهيبة شامخة، قال لى ثاونا: إنها برية أتريب القديمة.

بقيت وقتاً واقفاً أمامها، مأخوذاً بمشهدها العظيم، وقد رأيت عماراتها قائمة على عمدٍ طوال ضخام من الحجر الأسوانى الأسود، المكلل بتيجان حفرت على شكل زهرة البسنت التى لم تتفتح أوراقها بعد، وقد بدت لى هذه التيجان وكأنها تيجان أعمدة بيعتنا التى تركناها فى قصر الشمع بمصر العتيقة. سألت ثاونا أن ندخل قليلا لنشاهد هذه البربا من الداخل، لأن البرابى القديمة العظام قلما كانت توجد فى أراضينا البشمورية، ربما كان ذلك بسبب كثرة الماء والغمر فى مجمل هذه الأراضى، مما يعرض العمائر مهما كانت عظمتها للتلف. وكنت مدفوعاً برغبة الولوج ومشاهدة ما بداخلها، ربما لأن هذه المرة كانت الأولى فى عمرى التى تسنى لى فيها رؤية بربة كهذه من برابى الكفرة ومشاهدتها عن قرب، بدا ثاونا متردداً قليلاً، لكنه سرعان ما تحمس للدخول، وكأن هاتفاً قد هتف به أن

يفعل. نزلنا عن ركائبنا، ودخلنا مجتازين العتبات الحجرية العالية، وما أن انتهينا، حتي وجدنا نفسينا داخل بهو فسيح ممتد، وقد خرجت جوانب من حوائطه وعمده، أما ما تبقى منها، فهو مزين منقوش بالنقوشات البديعة التى لم تقع عينى على جمال مثلها قط، إذ حفلت بتصاوير وأشكال، غاية فى الذوق والتناسق. أخذ ثاونا يصلب وهو يتأمل النقوش. قلت له:

– يا الله! بربا عظيمة يا ثاونا! يبدو أنها كانت ذات شأن فى زمنها القديم، وربما بناها واحد من ملوك العماليق الأقدمين؟!

لم يرد ثاونا، إذ كان منهمكاً فى تأمل النقوش والتصاوير المحفورة على بقايا الحوائط، وبعد ذلك قال لى إنها كتابات سجلت بالقلم العتيق.

لا أدرى، لماذا خيل لى أن ثاونا يقرأ جيداً ويفهم ما هو موجود على هذه الحوائط، فلقد نظرت إليه وراقبته خلسة أكثر من مرة أثناء تجوالى وتفقدى للبهو، فخيل إلى أنه يحرك شفتيه حركة القارئ للكتابات، وهو يصلب بين الحين والحين.

قلت له لأخرجه من تأملاته، ولأجاذبه بعضاً من حديث:

– أترى هذه العُمُد العظام يا ثاونا؟ أليست أخت أعمدة قاعة الصلاة الجامعة فى بيعتنا المحروسة بقصر الشمع؟! وكأن من عمل تلك، هو من أبدع هذه التى نقف أمامها ونراها الآن!

تنهد ثاونا، ورد:

– فى بيعتنا فقط؟! قل فى كل البيع والمساجد، ألم تر أعمدة المسجد الجامع فى فسطاط المسلمين؟ إن عمارة بيع القبط، وعمارة مساجد المسلمين، ما كان لها أن تكون على ما هى عليه من العظمة والجلال، لولا هذه البرابى يا بدير لأن العمد العظام، والأحجار الجيدة من الجرانيت والبازلت وخلافه، والتى شيدت بها البيع والمساجد، إنما جىء بها من عمارة هذه البرابى، وخصوصاً برابى منف

وعين شمس وأتريب لقربها من بابليون وقصر الشمع وفسطاط المسلمين، أما فى مصر العليا، فقد تحولت برابى بكاملها إلى كنائس وجوامع، ولم يسلم منها إلا ما كان بعيداً عن الأعين، عزيزاً على الأيدى. واقعاً خارج القرى والبلدان، ولقد ظلت هذه البرابى لزمن ملاذاً ومقراً لكثير من المؤمنين المسيحيين الفارين من اضطهاد الروم والوثنيين وملوكهم، وفى بربة أدفو دلائل تدل على دخول المسيحيين إليها والعيش تحت أسقف قاعاتها المسربلة بسخام الشموع والوقايد والأسرجة التى كان يستضىء بها هؤلاء الأتقياء أثناء قراءتهم للمزامير وتأديتهم للثاذوكيات.

سكت قليلا وهو يشخص ببصره بعيداً، ثم واصل كلامه:

– لكن هذه البربة لن تستمر على حالها وتسلم من الأذى، إذ سرعان ما ستختفى مثلما اختفت من قبل بربة عين شمس، وهى المدينة التى كانت تسمى قديما «أون»، وهذه البربة كانت فِي الأصل هيكلاً يحج إليه الناس ويقصدونه من أقطار الأرض فى جملة ما كان يحج إليه من الهياكل التى كانت فى قديم الدهر، ويقال أن الصابئة أخذت هذه الهياكل عن هرمس الأول المتكلم فى الجواهر العلوية، والحركات النجومية، وبنى الهياكل ومجّد الله فيها.

ويقال أن هياكل هذه البربا، كانت عدتها فى الزمن الغابر اثنى عشر هيكلاً وهى هيكل العلة الأولى، وهيكل العقل، وهيكل السياسة، وهيكل الصورة وهيكل النفس، وكانت هذه الهياكل الخمسة مستديرات والهيكل السادس هيكل زحل وهو مسدس، وبعده هيكل المشترى وهو مثلث، ثم هيكل المريخ وهو مربع، وهيكل الشمس وهو أيضا مربع، وهيكل الزهرة وهو مثلث مستطيل وهيكل عطارد مثلث فى جوف مربع مستطيل، وهيكل القمر مثمن.

وعللوا عبادتهم للهياكل بأن قالوا: «لما كان صانع العالم مقدساً عن صفات الحدوث، وجب العجز عن إدراك جلاله، ويتعين أن يتقرب إليه عباده بالمقربين لديه، وهم الروحانيون، ليشفعوا لهم ويكونوا وسايط لهم عنده».

وعنوا بالروحانيين الملائكة، وزعموا أنها المدبرات للكواكب السبعة السيارة فى أفلاكها، وهى هياكلها، وأنه لابد لكل روحانى من هيكل، ولابد لكل هيكل من فلك، وأن نسبة الروحانى إلى الهيكل نسبة الروح إلى الجسد.

وزعموا أنه لابد من رؤية المتوسط بين العباد وبين بارئهم حتى يتوجه إليه العبد بنفسه، ويستفيد منه، ففزعوا إلى الهياكل التى هى السيارات، فعرفوا بيوتها من الفلك، وعرفوا مطالعها ومغاربها واتصالاتها، وما لها من الأيام والليالى والساعات والأشخاص والصور والأقاليم، وغير ذلك مما هو فى موضعه من العلم الرياضى.

وسموا هذه السبعة السيارة أرباباً وآلهة، وسموا الشمس إلهة الآلهة ورب الأرباب، وزعموا أنها المفيضة على ألسنة أنوارها، والمظهرة فيها آثارها فكانوا يتقربون إلى الهياكل تقرباً إلى الروحانيين لتقربهم إلى البارى لزعمهم أن الهياكل أبدان الروحانيين، وكل من تقرب إلى شخص فقد تقرب إلى روحه.

وكانوا يصلون لكل كوكب يوماً يزعمون أنه رب ذلك اليوم، وكانت صلاتهم فى ثلاثة أوقات: الأولى عند طلوع الشمس، والثانية عند استوائها فى الفلك والثالثة عند غروبها. فيصلون لزحل يوم السبت، وللمشترى يوم الأحد وللمريخ وللقمر يوم الجمعة.

طفنا بالبربا قليلاً، كانت تماثيل عظيمة الحجم، دقيقة الصنعة، ملقاة هنا وهناك، وقد تهشمت أجزاء منها، أو سلب ما كان يغطى بعضها من ذهب على الرءوس وجوهر فى مواضع العيون، وكانت أحجار كثيرة ملقاة على نحو مهمل. وقد تغطت برسومات ملونة بديعة، أو نقشت بالقلم المصور القديم، وقفت أتأمل كل ذلك بإعجاب، لكنى كنت لا أكف عن اختلاس النظر إلى ثاونا بين الحين والحين، وقد داخلتنى ريبة بشأنه، فقد تيقنت أنه يقرأ القلم القديم، وربما عرف مغزى هذه الرسوم والتصاوير، ويبدو أنه تنبه لذلك، إذ قال لى فجأة:

– هيا يا بدير، علينا أن نجدّ السير، حتى نصل إلى مكان مأمون قبل أن يليل الليل علينا، ونواجه مشاكل قد لا نتوقعها فى الطريق. هممت أن أسأله: هل كان

يقرأ حقاً ما هو منقوش على الأحجار؟ وهل هو ملم بالقلم العتيق المنعدم الآن؟ لكنى خفت أن يظن ثاونا بى الظنون بعدما تذكرت ما كان من أمر الراهب، فلأس، وخصوصاً أننى أبديت له إعجابى بالأصنام- وليسامحنى الرب على ذلك - وقد حبست سؤالى، رغم أن ثاونا لم يكن- فيما يبدو لى- كبعض من الكنسيين المتزمتين الذين أصادفهم فى بيعتنا، بل كان واسع الصدر، غزير العلم، عميق الإيمان، وإن كان قد تردد عنه في البيعة، أنه كان فى حياته العلمانية الأولى، قد درس فى مكتب للصبيان ببلدته أخميم، كما تعلم الحكمة والطبابة وفنون التصوير على يد عجوز مشهورة فى هذه البلدة، يقال لها دلوكة، وأن هذه المرأة ظلت حتى موتها متمسكة بوثنيتها، وكانت تجل دين آبائها من عبدة الشمس، وأن المسيحيين المؤمنين، كادوا أن يفتكوا بها أكثر من مرة، كما جرى مع كثير من الوثنيين.

وفى النهاية تركوها، بعد أن طالبوا الجميع بتجنبها، فلما شاخت، ذهبت إلى بربا قديمة بالبلد، وظلت مقيمة فيها، حتى وجدها بعض البدو الرعاة ميتة هناك ذات صباح، وهناك من يقول إن المؤمنين فتكوا بدلوكة داخل البربة وهدموها، والله أعلم بذلك.

لذا كان بعضهم يتهامسون بين الحين والحين بأن ثاونا له فى السحر والكيمياء والسيمياء، ويقال أن الأب يوساب أمر بتفتيش صومعته ذات مرة، لكنهم لم يجدوا عنده شيئا يشين، بل كانت صومعته كلها -وكما هى الآن- مملوءة بكتب العقيدة، وكل هذا كان بسبب كتاب فيسيولوجى، وجدوه يقرؤه ذات يوم فى فناء البيعة، وهو كتاب به كلام وأساطير وقصص خيالية وتلميحات لاهوتية، فنصحوه بتركه، والفروغ إلى كتب اللاهوت الخالصة.

عند خروجنا من البربا وكانت واسعة جدا، وجدنا جماعة من هوام الناس ينبشون بهمة فى أكوام الحجارة والشقافة، عند الأجزاء التى تهدمت منها. هالنى منظر هؤلاء الناس، إذا كانوا برءوس حاسرة لا تغطيها طواق أو عمائم كما هى عادة أهل الريف والمدن، وكانت شعورهم متربة مهوشة، منكوشة على أجسادهم

شملات خشنة رثة، وبدوا لى وكأنهم من العلمانيين البرابرة الذين لا يعرفون اللسان القبطى أو اللسان العربى، داخلنى خوف من مرآهم، وخشيت أن يهاجمونا فيلحقون بنا مكروهاً، وأفضيت بمخاوفى إلى ثاونا، مقترحا عليه أن نختبئ حتى يذهبوا، لكنه أخذ يهدئنى، ثم إنه أقبل عليهم وحياهم، وسألهم عن الطريق، وكنت أعرف أنه يعرفها كما أنى أعرفها، لكن خيل إلىّ أنها وسيلة ابتدعها ليأخذ منهم الأمان، وقد صدق حدسى، إذ تحمس بعض منهم وتقدم ليدلنا على الطريق، فلما نظرت إليه متأملاً، وجدته يحمل صنما صغيرا من الحجر الأسود لايزيد حجمه على كف اليد، وقد تعجبت عندما سأل ثاونا أن يأخذه ويعطيه مقابله أى شيء.

أخذ ثاونا الصنم من يد النباش، وراح يقلب فيه ثم قال:

- لا.. أريد شيئا أفضل من ذلك، هل لديك ما هو من الذهب أو به جوهر؟

أشار النباش على ثاونا أن ينتظر قليلا، ثم إنه غاب بعض الوقت، وعاد حاملا وعاء ارتفاعه حوالى شبرين، قدمه لثاونا وهو يرمقه، بنظرات ذات معنى.

تناول ثاونا الوعاء الذى بدا لى للوهلة الأولى، وكأنه غير ذى معنى، وراح يرفع غطاءه المحكم عليه، وهو على هيئة ابن آوى، انقبضت قليلا بينما كان ثاونا يعمل ذلك، فلما نظرت معه ما بداخل الوعاء، وجدنا ما يشبه بقايا أحشاء آدمية جافة، وإن كانت زكية الرائحة، أعاد ثاونا الغطاء إلى ما كان عليه مرة أخرى، ووضعه داخل جراب سراج بغله، ثم أعطى للنباش نصف فضة، ومضينا بينما الرجل يلهج بالشكر والامتنان لثاونا.

قلت لثاونا محتجاً:

- ماذا ستفعل بهذا الشيء الذى أخذته من الرجل بربك يا ثاونا؟!

رد ثاونا بهدوء:

- اسكت يا بدير، ولسوف ترى بعد قليل.

وقبل أن ألحف عليه بمزيد من الأسئلة، استمر شارحاً:

– هؤلاء الناس من الحوريات، وهم جماعة من العلمانيين الذين لم تهتد أرواحهم بالإيمان بعد، وقد ظلوا جيلا بعد جيل، لا يتعيشون إلا من نبش البرابى القديمة والحفر والتنقيب فيها، وهم منتشرون فى جميع أنحاد البلاد، ولقد أطلق عليهم اسم الحوريات، نسبة إلى معبود قديم، انتشرت عبادته فى أزمنة قديمة اسمه حور، وكان كثيرا من هذه البرابى يقام لعبادته، والتقديس له.

عندما يتحدث ثاونا بكلام من هذا النوع أشعر أنه يخفى معرفة لا يبوح بها، لكنها تفلت من لسانه بين الحين والحين، وكان يبدو لى كلما تكلم، بكلام من هذا النوع، وكأن هنالك أمراً يعذبه، أو أن روحه لا تعرف الطمأنينة واليقين، وكنت أوشك فى كل مرة يخبرنى فيها بمثل هذا الكلام، أن أسأله:

– كيف عرفت ذلك يا ثاونا؟ من أخبرك بكل هذه المعرفة؟ لكنى كنت أوثر السكوت، إذ يظل شيء ما بداخلى، مخرسا للسانى، يمنعنى من الفضفضة والبوح، ربما لأنى كنت أخاف أن يقول لى ما هو غير إيمانى فأفقده، فقد أكون تأثرت، بما يقال عنه فى البيعة، وربما لهذا السبب أتشكك دومًا فى صحة إيمانه، لكن، فليسامحنى الرب، فأنا لم أسمع عنه أبداً ما يلوثه ولم تخرج من فمه إلا الكلمات الطاهرة الطيبة.

آثرت السكوت، بعد أن قال ثاونا ما قاله، وإن بقيت متشوقًا إلى ما سوف يكون من أمر هذا الإناء الذى حمله معنا.

قطعنا مسافة تاركين أتريب وبربتها خلفنا، وبقينا سائريْن حتى أوشك النهار على الانتصاف. كنا قد درنا حول الزراعات مرة أخرى، وبقينا ملتزميْن الانحدار مع خط النهر، إلى حيث غايتنا فى الأراضى الموحلة، وكنا قد بدأنا ندخل فى مناطق حرشية من البرارى، حيث انعدمت آخر قرى أتريب من نظرنا، بعد مدى قصير من رحلتنا، وكانت هذه المناطق البرية، لا تفلح ولا تزرع من قبل أى إنسان، بل كان ينبت فى أغلبها البوص والهيش وأصناف عدة من الحشائش الطوال، وكانت الطريق صعبة بعض الشيء إذ كانت تضيق حينا فلا يمكن لنا اجتيازها إلا ركوبة خلف ركوبة، وتتسع حينا آخر اتساعا عظيما، حتى إننا نضل،

ولا نعرف إلى أية جهة نهتدى، اللهم إلا إذا بدت لنا علامة تدل على الطريق، كأثر لأقدام ركوبة، أو رِجْل إنسان، وكان خط النهر يضيع منا أحيانا، فلا نعرف أين الأرض وأين الماء، لكثرة المياه المتجمعة فى الأراضى السبخة، فلما بلغنا ذلك الحد من السير، قلت لثاونا:

– من هنا يكون مبتدأ أراضى البشموريين فهى ممتدة من الشمال عند البحر الرومى، لكن مازال أمامنا الكثير من المسير حتى نصل إلى مبدأ البلدان والقرى ونصل إلى موقع حربهم، وهذا الطريق لا يسلكه إلا بعض من الأهالى، إذ إن أكثرهم يروحون ويجيئون بالمراكب والفلايك فى النهر، إذا ما هبطوا إلى بابليون أو بلاد الصعيد، أما إذا أرادوا التعدية إلى الإسكندرية أو مريوط فهم يركبون مراكب فى البحر الرومى، وهو لا يخلو من مخوفات، فقد ذهب عم لى ذات مرة إلى الإسكندرية فظهرت للمركب الذى أقله دابة عظيمة من دواب البحر وكادت أن تقلب المركب أو تفتك بمن عليه، لولا أن الرب ستر، واستطاع المراكبية قتلها بحرابهم والتغلب عليها.

غامت الشمس فجأة لوقت يسير، وسرعان ما هطل مطر غزير، لم يسبق لنا أن شاهدنا مثله فى هذا الوقت من السنة، إذ إن شهر بؤونة الذى نحن فيه من الشهور الحارة، المعتاد فيها انعدام الأمطار، رحنا نحمى أنفسنا من ذلك الهاطل، الذى باغتنا دون أن نحسب له حساباً، فقصدنا شجرة عريضة الأوراق، وقفنا نحتمى بها حتى يتوقف الماء، وبالفعل فقد انتهى دفعة واحدة فجأة، مثلما هطل فجأة، ولكن لم يمر إلا وقت يسير، وبينما نحن نتأهب لمواصلة المسير، وإذ بالسماء تسودُّ مرة أخرى، وتصبح الدنيا وكأنها حالك الليل، رغم أننا كنا فيما بعد الزوال، بقليل، تطلعنا إلى الأفق، فوجدنا جيشًا جرارا من الجراد، يهبط إلى الأرض، ويخبط بعضه بوجهينا ورأسينا، ويحط بعضه على البغلين، فأخذنا ندفعه ونحن نصلب ونقدس، ذاكرين اسم الرب مرارا، بينما راح البغلان ينهقان وينفران وقد فزعا من هذه الهوام الطائرة الهابطةَ من السماء. لا أدرى، كم من الوقت مضى علينا، مغمضْين عيوننا ونحن على هذه الحال، لكن ما أن فتحناها مرة أخرى،

ونظرنا الأرض حولنا، إلا وجدنا الأخضر، وقد تحول إلى أصفر، فقد أتى الجراد على كل مخضوضر مورق، ولم يترك على مرمى البصر إلا الأعواد، التى بدت وكأنها حراب طوال ثبتت إلى الأرض.

تمتم ثاونا بحزن:

- يا مخلصنا يسوع.. إنها مصيبة سوف تحل على الفلاحين وأصحاب الزراعات فى القرى والبلاد، فهذا الجراد لن يترك لهم شيئا من الزرع، الذى أوشك معظمه على النضج والحصاد.

لم أرد، إذ كنت أفكر فى دويبات الأرض ووحوش المكان المختبئة بين الأعواد والحشائش، والتى لابد أن تكون قد خرجت بعد نزول الجراد، كنت أخشى فى الحقيقة، أن تسبب لنا أذى أو مكروها، فلما عبرت لثاونا عن مخاوفى هذه، قال:

- لا أظن ذلك يا بدير، فمعظم دويبات الأرض سوف تسعد بهذا الجراد، فهو وليمة ربانية جاءتها من السماء، إن الرب يسبب لكل شيء سببا، المسألة الآن هى أن لدينا عملا نريد أن ننجزه فى هذا المكان قبل تركنا له.

كان يقول ذلك وهو يتلفت حوله كمن يبحث أو يفتش عن شيء، بقيت أتبعه وهو يسير، حتى بلغنا موضعا توقف عنده وراح ينظره باهتمام، كان بقعة بلقعاً لا نبت فيها ولا خضرة، على نحو مغاير لما حولها كثيرا، تعجبت وسألت ثاونا، وقد لاحظت ارتفاع ذلك الموضع قليلا عما حوله من الأرض:

- كيف تأتى ذلك يا ثاونا؟ كيف تتحجر الأرض فى هذا الموضع ولا يشملها الطين مثل المواضع التى حولها؟!

- انزل يا بدير أولاً، وهيا معى حتى ننتهى من مهمتنا.

طلب منى ذلك وراح يخرج الوعاء الحجرى الذى كان قد أخذه من النباش والموضوع داخل خرجه، وحمله سائرا وأنا أتبعه حتى وصلنا إلى فتحة بالأرض وقبل أن ندخل أمرنى ثاونا:

- اعقل الدابتين وتعال.

ذهبت إلى الشجرة التى كنا قد احتمينا بها منذ قليل وأنا أسحب الدابتين وكانت على بعد خطوات قليلة من الموضع الذى بقى عنده ثاونا ينتظرنى، فلما عدت هبطنا من الفتحة قليلا لندخل إلى مساحة صخرية جافة، وبدا المكان وكأنه مأوى لوحش من الوحوش البرية التى تعيش فى هذه المنطقة. خفت أن أتقدم أكثر لكن ثاونا أشعل وقيدة من الزناد الذى يحمله بجيبه السيال دوماً ولا يفارقه، فلما استبان المكان، هالنا ما رأينا من رسومات ملونة لشخوص وحيوانات على جدران هذا الكهف وزاد اندهاشى لوجوده فى هذا الموضع، وكانت التصاوير جيدة وبحالة سليمة وألوانها زاهية دون فساد وكأنما رسمت بالأمس فقط. تمتم ثاونا وقد حبس أنفاسه:

- إذًا.. فقد قادتنا الكا إلى صاحبها، والجراد كان علامة أظهرتها لنا. ثم أنه شمر عن أكمامه وراح ينقب الأرض بسكينه، حتى نقبها نقبًا يكفى لإنزال الماعون بها، وكنت أرقبه مرتعدا، فأنا لم أفهم شيئًا مما قال، بل والحق أقول- لقد خفت منه قليلا أثناء ذلك، وقد شعر أنه يعمل عملا من أعمال السحر والغموضات، فلما أقر الوعاء فى الحفرة، وهال عليه التراب مرة أخرى، طلب منى أن نشرع فى ترتيل قداس جنائزى، ترددت قليلا قبل أن أفعل، لكنى تذكرت وصايا الأب يوساب، وتذكرت أن مرتبة ثاونا فى الكهنوت هى ضمن التشمسة، وما أنا إلا قيّم يأتى موضعى فى آخر ترتيب الكهنوت، فامتثلت لأمره دون أن أنطق، ورحت أرتل وراءه وأنا أصلب، وقد أخذتنى آيات الرب:

«وكما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا أنتم أيضا بهم هكذا، وإن أحببتم الذين يحبونكم فأى فضل لكم: فإن الخطاة أيضا يفعلون هكذا، وإن أقرضتم الذيت ترجون أن تستردوا منهم فأى فضل لكم، فإن الخطاة أيضا يقرضون الخطاة لكى يستردوا منهم المثل، بل أحبوا أعداءكم وأحسنوا وأقرضوا وأنتم لاترجون شيئا فيكون أجركم عظيما وتكونوا بنى العلى، فإنه منعم على غير الشاكرين والأشرار، فكونوا رحماء كما أن أباكم أيضا رحيم، ولاتدينوا فلا تدانوا. لاتقضوا على أحد

فلا يقضى عليكم. اغفروا يغفر لكم. اعطوا تُعْطَوْا كيلاً جيداً ملبداً مهزوزاً فائضاً يعطون فى أحضانكم. لأنه بنفس الكيل الذى تكيلون يكال لكم».

فلما انتهى وانتهيت، تنحنحت وسألته بأدب واحتشام:

– عفوا أيها العزيز ثاونا، ولكن كيف نصلى ونقرأ كلمات الرب على هذا الشئ الذى هو بقايا جسم لم يتعمد، ألم يقل سيدنا يسوع المسيح للناس: «إن لم تولدوا من الماء والروح لم تعاينوا ملكوت الله لأن المولود من الجسد، جسد هو، والمولود من الروح فهو روح» وحث على حياة النفس بهذا الشرط، فصار كل من يشتهى أن يحيى نفسه من موتها، يقبل شر ط الغطس فى ماء التوبة أولاً، ثم الاعتماد على اسم الثالوث المقدس الآب والابن والروح القدس وحفظ جميع ما أوصى به سيدنا المسيح.

نظر إلىّ ثاونا بمحبة، وقال:

– صدقت أيها الأخ الطيب، وصدق الرب فى كلماته، لكن هذا الإنسان الذى عثرنا على بقاياه، عاش زمن الوثنية، قبل أن يوافى ملاك الرب سيدنا، ربما بأكثر من ألف عام، فهو لم يعش زمن الإيمان، لكنه إنسان ربما لو عاش بيننا الآن، لكان قد آمن وصار مثلنا من أهل الديانة والتقوى، ونحن بصلاتنا هذه نتشفع له ونضمه إلى قطيع المؤمنين، وذلك لأن ساير النفوس كلها كانت ميتة، بخطية آدم منذ أول الزمان، لما أخطأ قال الله له لأجل خطيته: «موتا تموت» فماتت نفسه من الحياة الذى كان حيا بروح القدس الذى كان مشتملا عليه حتى إن آدم بذلك تنبأ وقال عن حوًى: إن هذه لحما من لحمى، وعظما من عظمى، هذه تدعى امرأة لأنها من المرء أخذت وتعرى آدم من الله العلى الذى كان لابسه، وماتت نفسه الموت الحقيقى، ثم جسده بعد تسعمائة وثلاثين سنة، ولم تزل نفوس نسله ميتة كما نفس أبينا آدم إلى حين مجىّ سيدنا يسوع المسيح وظهوره فى عالم الطبيعة.

فصاحب الجثمان الراقد هنا، سلبت منه أحشاؤه الموضوعة فى هذا الوعاء على عادة أهل الزمان القديم، الذين كانوا يعتقدون مثلنا أن الروح تفارق الجسد عند

الموت، لكنهم وليرحمهم الله، كانوا يظنون بعودة هذى الروح إلى الجسم عند الدينونة، لذا فهم كانوا يحرصون على حفظه من التلف، ويبذلون فى سبيل ذلك الشيء الكثير للمشتغلين بالتحنيط والحفظ، وفقا لمقدرة كل منهم وثروته، ولما كانت الحشا هى أكثر أجزاء الجسد عرضة للفساد، فقد كانوا ينزعونها من الجوف بطرق وفن، ويضعونها مع ملح النطرون الكثير، حتى تذبل ويجف ويزول عنها ماؤها، ثم يضعونها فى آنية كذلك الإناء الذى نظرته ويخلطونها بالمر والحنوط وزيت خشب الأرز الثمين المجلوب من الجبل اللبنانى، وها أنت نظرت الإناء بنفسك، فما وجدت غير بقايا المصارين وقد جفت وقطعة من كبد، وقلب متحجر، ويبدو أن نباشى القبور فى الماضى البعيد قد نهبوا مقبرة الميت صاحب هذا الإناء بحثًا عما يدفن معه من ذهب وجوهر وثمائن، لأجل وقت قيامه فى الآخرة وفقا للمعتقد القديم، فحملوا معهم هذا الإناء ضمن ما حملوه من المقبرة، ويبدو أنهم رموه فى بريا أتريب، فعثر عليه هؤلاء النباشون الجدد، وباعه لنا هذا النباش، لكن روح الجسد الهائمة ظلت تدفع بالإناء حافظ الأحشاء إلى موضع الجسد، فقادتنا إلى هذا المكان وظهر لنا الجراد كعلامة، لنتوقف ونرده إلى مثواه، وربما كانت هناك قبور أخرى عديدة، جعلت فى هذه البقعة كلها، لكنها اندرست مع اندراس مدن وقرى أصحابها وتغطت بالطمى والحشائش، فلم يتبق ظاهرا منها غير ذلك الموضع الصخرى لارتفاعه عن بقية ما حوله من أرض، فلم يترسب الطين عليه وتطلع به خضرة، وربما كان الموضع كله فى الأصل من الصخور، لكن الطمى طمرها شيئا فشيئا على مر الأيام والسنين، غفر الله لصاحب الروح ولنا جميعا يا بدير.

لا أدرى لماذا تذكرت فلاأس النجس فجأة، وتشوقت لأن أعرف ما الذى سوف يكون من أمره، فسألت ثاونا:

– ترى أيها العزيز ثاونا، ما الذى سوف يكون بعد ذلك من أمر فلاأس فى دير أتريب؟

زفر ثاونا بقنوط ورد مفكراً:

– فلندعو الرب أن يهديه ويعود إلى زمرة الأتقياء يا بدير فيقر ويعترف بخطاياه ويتوب عنها، فأنت تعرف أن ما قاله تجديف خطير، فإذا أراد أن يحيى نفسه من موتها عليه أن يعترف لأبيه فى دير أتريب بجميع خطاياه وأنه كان عبداً للشيطان بطاعته له فى المخالفة بكتبه المقدسة وقراءة الهرطقات الطمث، وكل خطية أخرى يكون قد ارتكبها سواء بقتل أو زنا أو سرقة أو كذب أو شهادة زور، أو ارتكاب أى من المحارم، فيبتدى الأب يجربه، وهل أقبل إلى الله من كل قلبه، أم ذلك تجربة منه وقنطسة لا لزوم لها، ويوجب عليه الأب صوماً وصلاة وصدقة من ماله وسجوداً على قدر قوته مدة معلومة وإذا ثبت فى حرارة شدة شوقه إلى السيد المسيح وإلى الحياة الدايمة، فيما أمر الأب به، عند ذلك يعذبه الكاهن مرة أخرى فى دهليز سرداب ويوقفه فيه مدة أخرى معلومة. فإن ثبت على هذا الشوق، عبر به إلى أحد جوانب الدير ليحضر سماع الفصول والإنجيل المقدس خاصة، ثم يمسكه الكاهن بيده ويخرجه حتى لايحضر تقديس السراير الإلهية، ولاتتقدس نفسه بحلول روح القدس عليها، كل ذلك امتحان وتجربة لصبره، هل هو عائد ثابت لما يراد منه أو لا، وهذا هو حد الإقامة تحت التوبة والوعظ.

ثم يتقدم به ويدخله إلى عريى البيعة فى الدير ويصلى عليه صلاة الموعوظين أولاً، ثم يقرى عليه التحليل من نجاسة الأمم الغريبة، ويدهنه الكاهن بزيت فارغ ثم يقرأ عليه صلاة تليق بأوايل أمره، ثم بعد ذلك يؤمر برفع يده اليسرى إلى فوق ويستقر على حقيقة جحوده للشيطان وجنوده وأسبابه التى منه وبه، الصايرة إليه، وهى القتل والزنا والسرقة والكذب وشهادة الزور والجور والحقد والبغض والنميمة والكسل عن الصلاة والعظمة التى هى أول الرذايل، والانصراف إلى قراءة الهرطقات والممنوعات، والتجديف والزندقة.

فإذا تحقق عن الموعوظ جحوده ذلك بعدة دفوع، فى حضور جميع الكهنة والرهبان، حينئذ يعرى ذلك الفلاأس، كما تعرى سيدنا المسيح له المجد عند صلبه ويشهره الكاهن كما شهر جسد سيدنا المسيح وهو عريان.

فإن بانت منه الأمانة المستقيمة التى هى: نؤمن بالله واحداً إلى آخرها، ويقول ما يقوله الكاهن ويداه الاثنتان مرفوعتان، ثم بعد فراغ تلقينه الأمانة يسأله الكاهن سؤالاً استفهامياً: آمنت؟ يقول الموعوظ الذى هو هنا فلاأس:

- آمنت. هكذا ثلاثة دفوع.

ثم بعد ذلك يجرى نقله إلى مكان المعمودية المقدسة ويُدْهَن بدهن الغاليلاون. ثم يبتدى الكاهن بصلاة على ماء المعمودية ويسأل الله الأب ضابط الكل باسم الابن الوحيد يسوع المسيح ربنا أن يحل على الماء العنصرى الذى هو فى المعمودية روحه القدوس ليتقدس به الماء، ثم يقدس على الماء قداساً كاملا خصيصاً به فى إحياء تلك النفس المؤمنة بالله وبابنه الوحيد وبروحه القدس.

ثم إنه لابد وأن يجرى تختين فلاأس ونزع قلفته حتى يتطهر بذلك تطهيراً كاملا، كل هذا إذا تاب وعاد، وبرئت نفسه مما بها من غواية الشيطان وجنوده الفاسقين.

سرح ثاونا بعد ذلك ببصره قليلا، وسألنى فجأة:

– ترى كم تبقى لنا من الطريق حتى نصل إلى محلة البشمورى؟

فكرت، وأنا أحسب بالتقريب، البلاد والكور التى علينا أن نقطعها ومسيرة الوقت لزوم ذلك، حتى نصل إلى محلة البشمورى، وقلت:

– سنعبر عدة قرى وبلادا وقد يتطلب الأمر بقية النهار قبل أن نصل إلى قرب بحر حاروس، ومن هناك سننطلق إلى سكة محلة البشمورى بعد ذلك لو شاء الرب.

فكر ثاونا قليلا قبل أن يرد:

– إذن علينا أن نبيت ليلتنا فى مكان قريب. ربما كان أول قرية تصادفنا، ونواصل بعد ذلك المسير مع بزوغ نور الصباح لو أراد لنا الرحيم البقاء حتى ذلك الوقت.

رحت إلى موضع الدابتين لأحلهما من الرباط فى الشجرة التى ربطناهما عندها. فلما جئت بهما وركبنا، بادئين التقدم والمسير، بدت الأرض زلقة للغاية صعبة السير بسبب سقوط المطر عليها، وكان الجراد يفترش الطريق، بعدما تعب من طوال ترحاله وأكله بنهم، فمات أكثره وسقط، ويبدو أن البغلين قد عافا المسير فوق الجراد والزلاقة، إذ إنهما أجفلا وتنحنحا كثيرا، فلم نتقدم فى المشى إلا قليلا، رغم اقتراب الشمس من الدخول فى الغياب وكنا قد تعبنا ومللنا هذا البطء الذى بلا طائل، فقال ثاونا:

– ما رأيك يا بدير، نبيت هنا فى هذا الموضع حتى يصبح الصباح؟ الصباح رباح.

هتفت منزعجاً:

– هنا فى هذه البرية الموحشة غير المسكونة، لا أظن أن ذلك سوف يكون من الحكمة والأمان يا ثاونا.

حاول إقناعى قائلا:

- لابد أن يكون هناك ما نأوى إليه فى هذا المكان، ونحن نستطيع المبيت تحت شجرة من الأشجار، ألا تذكر رحلة السيدة البتول مع السيد المسيح من بيت لحم إلى أرض مصر، وكل تعبها ومعاناتها، دون أن تفكر فى متاعب الطريق، ألم تركن إلى جذع شجرة لتستريح وتستفئ؟ ولم يكن هناك من مأوى يحميها أو سقف يقيها حر النهار وبرد الليل؟ إن الرب هو الحامى يا بدير، ونحن فى رحلة لأجل مجد الكنيسة، وخطاب الأب يوساب يجب أن نحفظه ونصونه حتى نؤديه للبشمورى وتلك هى مهمتنا، فيجب أن نحتمل فيها كل ما يواجهنا من صعاب.

سكتُّ وقد خجلت من اندفاعى فى الكلام، ولم أجادله فيما قال، وقد ردنى إلى طمأنينة الإيمان، بينما راح يجول ببصره باحثا بعينيه عما يمكن أن نأوى إليه، وكنا قريبين من حافة النهر، فتركنى وابتعد قليلا لينظر المكان، وسرعان ما ناداني لأتبعه، فلما وصلت إليه، أشار بيده إلى موضع قريب عند أسفل الشاطئ، وقال:

- أرأيت هذا؟ إنه فيما يبدو خُصّ لبعض صيادى السمك، قد أقاموه ليستفيئوا فيه وقت صيدهم. إن الله لاينسى عباده الصالحين يا بدير، هيا نحتمى به حتى صباح الغد إن شاء الله.

بدا ثاونا فرحًا جدا بعثوره على الخص، وكنت قد بدأت أشعر بالاطمئنان والسكينة بمجرد أن رأيته، فثاونا لايعرف مخاطر الأراضى الموحلة مثلما أعرفها، لأنه لم يعش فيها، إنها مليئة بالحيوانات والوحوش البرية المتخذة من أداغالها مستقراً ومعاشاً، وهى فى أغلب الأحوال شرسة قاتلة كثيرا ما تنقض على الدواب والناس وتفتك بهم، ولعل أخطرها الحلوف الذى يفضل الاختباء والعيش فى الأحراش وكل برية غير مأهولة، وهو شديد الخطورة والكل يحتقره لنجاسته وطياشته فى العدوان على الزرع. نزلت عن البغل ومشيت ساحباً إياه منحدراً مع ثاونا إلى أسفل الشاطئ وقد أمسكت طرف ثوبى الطاهر الكنسى بيدى حتى لايتوسخ ويتدنس من حماة الأرض، ثم إننا دفعنا باب الخص ووقفنا نستجلى ما

خلفه قبل حلول الظلمة، فوجدنا فيه بالفعل ما يدل على أثر لصيادين، مثلما توقع ثاونا، إذ كان به منقد لحرق الأخشاب وبعض من فروع الأشجار الجافة، كما كانت به حصيرة من تلك الحصر التى يصنعها الصيادون، ملمومة ومركونة إلى جانب أحد الحوائط اللبنية للخص، إضافة إلى جرة بها بعض الماء، وسنانير وشبك تالف وعدة من الأشياء لزوم حرفة الصيد.

أدخلنا الدابتين حتى نأمن عليهما، وسارعنا بفرش الحصير، ورحنا ننزل الزاد من الأجربة، حتى نستريح ونأكل شيئاً، وبينما نحن نفعل، قال ثاونا:

- ما رأيك أن نتعشى سمكا من عطايا الرب؟ سأصطاد سمكة أو اثنتين نشويهما. ونأكل قبل أن نبيت ليلتنا.

ثم إنه سحب سنارة وخرج إلى النهر، بينما بقيت أنا أهيئ مائدة مما حملناه معنا، وكان رهبان الدير فى أتريب قد زودونا ببعض أرغفة أتريبية معجونة بليّة الخروف مما تشتهر به أتريب، وبعد ذلك قمت فوضعت بعضا من فروع الأشجار فى المنقد وأشعلتها وخرجت لأجمع بعضاً من الأعشاب لأقوت البغلين قبل أن يحل ظلام الليل علينا، ولانستطيع الخروج من الخص.

صلبت وصليت لله فى سرى وأنا أتمنى ألا تكون بين الحشائش عشبة سامة تفتك بركائبنا، فتتعثر رحلتنا، وكان الأب يوساب قد عرض علينا بغلا ثالثا نسيره معنا طوال الطريق، كما هو متبع فى العادة، حتى إذا أصاب مكروه بغلاً، وجدنا ما يعوضنا عنه، لكن ثاونا آثر الاكتفاء ببغلين، لأن الثالث لابد وأن يلزم الاكليروس فى شئونهم إذا ما خرجوا من قصر الشمع إلى أى موضع من المواضع فى الفسطاط، أو إذا عدوا بالمراكب إلى بر الجيزة، وقال للأب يوساب: وهل ركب السيد غير أتان واحدة؟ الرب هو الحافظ يا سيدى، فسرّ الأب يوساب لذلك وباركه وهو يدعو لنا بالتوفيق.

بينما كنت أحش بعض الأعشاب بالخنجر الصنعانى، الذى أعطانى إياه ثاونا قبيل رحيلنا من قصر الشمع، إذ سمعت صرخة تتعالى من الجهة التى هبط إليها ليصطاد أسفل شاطئ النهر.

تركت ما بيدى، وهرعت إليه قاصدا وجهة صرخته، وقد حملت الخنجر بيدى لأتصدى به لمن يهاجمه سواء أكان وحشا أم إنسانا، إلا أننى عندما بلغته وجدته جالسا القرفصاء، وقد تكور على نفسه، ممسكا بساقه، الذى أخذ ينزف من أسفله بغزارة، وما أن رأيته على هذا الحال حتى صرخت بدورى، لكنه أخذ يهدئنى بصوت متماسك، ويقول:

– اهدأ يا بدير، إنه حنش. لقد لدغنى دون أن أشعر، يا الله، إن أنيابه كأنها موسِى حادة لحكيم، هيا يا بدير، شرّط الجرح بسرعة بالخنجر، قبل أن يسرى السم مع الدم إلى كل أنحاء الجسد.

ترددت قبل أن أفعل ما طلبه منِى، فمنظر الدم يثيرنى ويقلب أحشائى مما يجعلنى على وشك التقيؤ، كما أن جرح ثاونا بخنجرى كان أمرا يشق على نفسى، أخيراً تحاملت وتجلدت ورحت أشرط موضع الجرح باسم الصليب، حتى خرج منه أكثر الدم، ثم إن ثاونا انحنى على ساقه وراح يمتص دمه بفمه، وينقله سريعًا، ثم خلع زناره الكنسى الملفوف على وسطه وراح يربط به ساقه فوق موضع الجرح جيدا، وأخيرا قام وأخذ يتوكأ على كتفى حتى دخلنا الخص.

ما أن تمدد على الحصير حتى قال لى:

– اذهب إلى خرج بغلتى، هناك بعض الحقوق، أحضرها بسرعة وعد لى بها.

مددت يدى إلى الخرج، وأخرجت منه عدة أحقاق مثلما طلب، وكنت فى غاية الدهشة، إذ كانت هذه المرة الأولى منذ ارتحالنا التى أعرف فيها أن ثاونا يحمل معه كل هذه الأشياء داخل خرجه، كان بعض هذه الأحقاق قد صنع من خشب السنط والعنبر والأبنوس، وبعضها الآخر من الألباستر والجمشت والجزع العقيقى، والعاج واليشب، طلب منى أن أفتح ذلك المصنوع من العاج، لأعطيه بعضا مما فيه ليبتلعه.

رفعت غطاء الحُق، وأخرجتُ منه حبوباً بنية صغيرة، لم أر مثلها من قبل، فهى لا تشبه الذرة أو الفول، أو أياً من الحب الذى أعرفه مما يؤكل أو ينقع، وبدا

لى حبا أقرب إلى فول النوبة، وإن كان أصغر حجما مع بنُيته، قدمت له الحبّ فجرشه بأضراسه قبل أن يبتلعه، ويقول:

- هذا حب العرب يا بدير، يجلبونه من بلادهم البعيدة، وهو عظيم الفائدة وسيجعلنى متنبهاً لا يغلبنى النعاس، إياك أن تتركنى أوسّن ولو قليلا يا بدير، حتى لو اضطرك الأمر لأن تلطمنى على وجهى، أو تصب على رأسى ماء باردا، فلو غبت عن الوعى فإن السم سوف يسرى فى دمى بسهولة حتى يصل إلى مكامن الأعصاب فى الرأس ويكون فى ذلك نهايتى المحتمة.

صلبت وأنا أتمتم بخوف وانفعال:

- بعُد الشر عنك يا ثاونا وعافاك. سوف أفعل كل ما تأمرنى به. لا تخش شيئا، أنا معك والرب يحفظك، سأظل ساهرا إلى جوارك طوال الليل. ثم إنه طلب منى أن أعطيه حق الأبنوس بعناية فائقة، وكان حقاً صغيراً للغاية، فتحه بهدوء وحذر بعدما تناوله منى وراح يأخذ شيئًا يسيراً مما فيه من دهن، بدا لى أشبه بدهن الميرون المقدس، وراح يمسح به موضع الجرح حيث غرز الثعبان أنيابه، وهو يجز أضراسه جزا، صابرا متجلدا، دون أن يتأوه أو يتأفف مما أصابه من بلاء، فما إن انتهى من الدّهن، أخذت الحق وأعدته إلى موضعه فى الجراب ثانية، ثم إنى رحت أعمل وقيدة فى بعض من قلاحات الذرة الجافة لنستدفئ بها، فلما بانت النار وأجمرت كما يجب، دفّأت شيئا من العسل فى قارورة من ثلاث قوارير زجاجية كنا ابتعناها، فى أتريب وقدمته له كى يشربه، فلما انتهى جلست إلى جانبه وعرضت عليه أن يأكل شيئا مما معنا أو أن نشرب نبيذا لكنه رفض وقال إن النبيذ لايفيد فى حالة اللدغ. وكنت أظن أنه سيخفف عنه أوجاع الجرح، لكنه أفهمنى أن كل مغيب عن الوعى لايفيد فى مثل حالته.

تضرعت إلى الله فى سرى أن ينقذ ثاونا ويحفظه من سم هذا الحنش الذى طالما كان أبى يحذرنى من أمثاله فحنشان الشط خطيرة. ولدغتها يصعب الفكاك والبرء منها. كنت أقوم بين الحين والحين لأغذى النار حتى لا تنطفئ وأرتل:

«أما الروح فحياة بسبب البر. وإن كان روح الذى أقام يسوع من الأموات ساكنا فيكم، فالذى أقام المسيح من الأموات سيحيى أجسادكم المائتة أيضا بروحه الساكن فيكم» وتلوت كذلك بعضا مما أحفظه من المساغوجى والتعاليم الإيمانية كما رحت أذكر قول يوحنا فم الذهب: «كل إنسان على ظهر البسيطة لابد أن يرى ما كتب عليه».

لكن بعد انتصاف الليل بقليل، بدأ ثاونا يغيب عن الوعى بعد أن أخذته الحمى، وراح جسده فى الارتعاد بشدة حتى إنى وضعت خرج الدابة الصوفى عليه، رغم أنه كان قد تغطى بغطاء الكتان الذى حملناه معنا لنتغطى به أثناء الليل فى الطريق.

سددت باب الخص ووضعت خلفه حجرا، ورغم سخونة الجو فإن ثاونا ظل يرتعد وبدا لى وكأن الحمى قد دخلته وتمكنت منه، إذ صار واهناً ضعيفًا يبذل جهدا كبيرا كى تظل عيناه مفتوحتين وهو يقول بصعوبة:

– اسمع يا بدير، إذا غبت عن الوعى، عليك أن تعالجنى بالماء البارد، اجلبه من النهر فى أى قدْر وبلل رأسى طوال الوقت به، فإن هذا يفيد، أما إذا حم قضاء الله، فلا تبتئس، افَعل ما يفعل للموتى، واطلب لى الرحمة، لكن عليك أن تذهب بأقصى سرعة إلى البشمورى، لأن أبانا يوساب ينتظر رده، فهو يريد أن يواتيه ويكلمه وجهًا لوجه إذا ما وجد منه اللين والقبول. فهذه مهمتنا الكنسية الآن يا بدير، يا أخى الطيب العزيز.

ثم إنه أخذ يدخل شيئا فشيئا فى الحمى، رغم أننى قمت لفورى وجلبت ماء باردا من مياه النهر، وكانت قلنسوتى المضروبة كما هو مفروض فى قلانس الأقباط مفيدة لتشربها بالماء جيدا، حتى بعد عصرها ووضعها على رأسه، لكن ذلك لم يوقف الحمى، بل إنها زادت إلى الحد الذى بت فيه يائسا تمامًا، فرحت أبكى عليه بكاء مرا، إذ كان ثاونا هو كل ما لى فى الحياة الآن، وهو أقرب الناس إلى روحى وقلبى، تذكرت ما كان من أمرى الأول فى هذا العالم، آمونة. أمى. أبى. أخوتى. أصدقائى وأترابى، فلم أتمالك نفسى ورحت أنتحب كالنساء، لأننى

بعد غياب ثاونا، لن يكون لى أحد فى هذا العالم، فليرحمنى الرب. فجأة وبينما أنا جالس إلى جواره، ضائع الروح، كمدا لا أدرى ما الحرىّ بى أن أفعله فى هذه المحنة، إذ به يهذى متمتماً بين الحين والحين:

– يسوع المخلص مريم البتول، عشاءنا الأخير، الحنش. سمّ. البلسان، آه الإله أعظم من الزمن والأبدية وكل المخلوقات. لا يمكن تسميته لا يمكن رؤيته بأى عين. نستعين على معرفته بالأسماء والصور. الذهب. العاج. الصندل. هو رب الجميع. كل يعرفه بطريقته. الثالوث المقدس. هرمس المعظم ثلاثا. تحوتى. مثلث الرحمات. أتريب الضائعة. فلاأس الطمث. البلاد تقاسى الألم. الآلهة هجرت الأرض وذهبت إلى السماء. العوز والاملاق فى كل مكان. إن أردت أن تكون كاملا فاذهب وبع أملاكك واعط الفقراء ن ى ف ى[1] .كا.با.ب ن و م ا[2].

امحوتب. أوكير يوس ميتابنتون إيمون[3]. امحوتب. رئيس الكهنة أين اناتولاس فليباس[4] ملك الحكمة. اناستاسيس[5]. ساكالمورا. ذوكسا. باترى كى ايوكى اجيو[6] ابنفماتى هكسبلا.

لم أتمالك نفسى وأنا أستمع إلى كل ما يتفوه ويهذى به ثاونا. وراح جسدى يرتجف خوفا، مثلما يرتجف جسده بالحمى، وقد أيقنت أن الشيطان قد تغلب على روحه ودفعه إلى مثل هذا الكلام المخلوط مع كل ما هو طاهر ومقدس من كلمات. تملكنى قلق عظيم من أن هذه الاختلاطات علامة على اقتراب تلف أخى العزيز وفنائه. وأن هلاكه سيكون هلاكا للروح والجسد، فهذى هى الشياطين– ويا حسرتى– تقود روحه إلى السعير. أسرعت بإحضار لفيفة الكتاب المقدس الذى كان قد أعطانا إياه أبونا يوساب لنستعين به على مخاطر طريقنا وما قد يصادفنا

---

(١) ن ى ف ى: «روح. نفس» بالقبطية.

(٢) ب ن و م أ: «الروح القدس» باليونانية.

(٣) أوكير يوس ميتابنتون إيمون: «الرب مع جميعكم» باليونانية.

(٤) اين اناتولاس فليباس: «وإلى الشرق انظروا». باليونانية.

(٥) أناستاسيس: القيامة. باليونانية.

(٦) ذوكساباترى كى ايوكى اجيو: المجد للأب والابن والروح القدس. باليونانية.

من شياطين وأرواح شريرة، إن لم تسعفنا الذاكرة مما نحفظه من آيات تستلزم ذلك. كان الكتاب قد دون بالقلم الإخميمى فى كل آية من آياته، يقابله القلم العربى، فكنت أقرأ مرة من هنا ومرة من هنا، إذ كان ثاونا صاحب الفضل، وولى المعرفة قد علمنى قدرا يسيراً من الإخميمية وقد كنت أجهلها، أما العربية فقد حصلّت مقدارا منها على يد خال فى ترنيط كان قد استعمله متولى الكورة التى تتبعها البلدة، كمازوت من موازيت القرى، والذين كان أكثرهم من القبط للترؤس على القرى والبلاد، لأنهم أعلم بأمورها وأعرف بأحوال أهلها.

وكنت خلال قراءتى المتعثرة يداخلني ندم كثير، لأننى لم أتعلم كما يجب ويصح، فليغفر الرب لى إن كنت قد أخطأت فى رسم كلماته المقدسة بلسانى، ولتعمى عينى، إذا لم أتعلم بعد ذلك- بمشيئة السيد- لغة كتبه المقدسة.

ثم أنى نذرت أثناء ذلك، هو أن اعترف صادقا للأب يوساب بخطيتى الأولى وأتوب توبة حقة، إذا ما قدر لثاونا أن يبرأ من علته ونعود سالمين إلى قصر الشمع بعد انتهاء مهمتنا عند البشمورى. وقد حلفت برأس المبارك مرقس ابن القنبرى أن أفعل صادقاً وهو القائل «لا غفران للخطايا بدون الاعتراف».

ذلك أننى أوقن الآن بأن ما حل بثاونا وما أنا فيه من حيرة وضياع. لم يكن إلا بسبب ضعف إيمانى وتدليسى على أبينا فى الاعتراف، فليرحمنى الرب وليواتينى سريعا باللحظة التى أعترف وأتطهر فيها، ولتحل أربطتى بكلمته مثلما أحل الأنبا ساويروس شماساً بكلمته، ولسوف أرضى بحكم أبينا يوساب، وما يأمر به، من تأديبات كنسية تحل علىّ، ولسوف أقف بين يديه بكل أدب كما يجب، جاثيا على ركبتى مطأطى الرأس، مؤديا مطّانيات ثلاثة أمام المذبح، وليصلّ على فى النهاية صلاة التحليل لأمنح بركة التناول. وقد تبت وتطهرت روحى من كل إثم مضى.

كانت دموعى لاتتوقف عن النزول، وأنا أفكر فى كل ذلك، بينما لسانى يعمل فى تلاوة الآيات والمزامير. وإن كنت قد توقفت عن تبليله بالماء، وقد اضطربت وخشيت أن أضع يدى عليه أو ألامسه حتى لايصيبنى مس من الشيطان مثلما

أصابه. وقد تأكد لى ذلك بعدما نطق باسم هرمس الممنوع وتخلط كلامه عن يسوع والعذراء بتجديف خرج من أعماقه. ونطق لسانه بطلْسمات لا أدرى من أمرها شيئًا، ورغم أنى أعتبر ثاونا قرين نفسى، وخليلى، ورفيقى، وتوأم روحى، وأخى الروحانى بالمعمودية إن لم يكن أخى الجسدانى بالدم، إلا أننى بدأت أشك فى صحة إيمانه، وأنا أستعيد، ما كان يتردد عنه ببيعتنا فى قصر الشمع، وما كان يتناقله البعض عنه من أحاديث وحوادث جرت لهم معه مثل تلك الحادثة التى حكاها ذات مرة الشماس اسطفانوس من أنه فى إحدى الليالى أراد أن يخرج من القلاية لشم الهواء فى ساحة الدير، فلما وصل إلى قلاية ثاونا وجد ماء كثيرا آخذا فى الارتفاع شيئا فشيئا، حتى وصل إلى ما هو فوق قامة الانسان وهو واقف فخاف جدا، وتسمر فى موضعه ممتنعا عن التعدية والعبور كيلا يغرق، وعاد إلى قلايته مرة أخرى وهو يرتجف. وكذلك ذكر قَيِّم آخر فى البيعة اسمه سمعان أنه نظر ثاونا ذات مرة عند الظهيرة. فوجده يحادث هدهدا صغيرا، حط على ركبته، ويقول له كلاما بلسان غريب لم يسمعه من قبل، لكن الأب يوساب كان يستمع إلى كل ذلك، ويدحض أقوالهم بالآيات لما ظهر له من حسن إيمان ثاونا وطاعته الكاملة لقوانين البيعة وتفانيه فى الخدمة.

ساورتنى رغبة فى فتح أحقاقه جميعا لأتبين ما بها. وأن أفتش فى خرج البغلة فقد أجد ما يشفى غليلى ويرسينى على حقيقة الأمر لكنى كنت خائفا أيضا. فربما مسّنى ضر من جراء ذلك، أو لحقنى سحر، فبقيت فى مكاني ساكنا، مرتعدا، أنظر إليه، وقد تورم ما حول جرحه وانتفخ. وقد تحول لونه إلى الأحمر وكأنه نقع نقعا فى صبغ الأرجوان، وفى لحظة لم أتمالك نفسى فأوشكت على الصراخ رعبا، إذ وجدته يهتف:

– دلّوكة.. أيتها الأم العظيمة يا من بوركت من المقدسة أم الآلهة إزيس سليلة الآلهة الأوائل، سيدة العطر والمر. يا من زرعتِ الساكمورا وأدخلتها إلى بر مصر. يا ربة الأرباب. معلمتى فى المكتب. يا من دنْتُ لك طوال الحياة بالعلم والمعرفة. ربة أرباب أولئك الذين لا يعْرفون ولا ينْطق بَاسمهم أبدا.

تحوتي.. معلمتي.. أجل.. أجل.. أجل.. أحفظ كيميت في قلبي، مجدها العظيم.. لا.. لن يزول.. البلسان. أجل. أجل. أجل. يا أمي سأتلو عليك ما حفظته من درس. آه. انعدم. وقل. نعم هو في المطرية وعين شمس الآن فقط. أعرف أنه في موضع محوط عليه محتفظ به. سأقول كل شيء يا معلمتي. بريك امهليني فقط. امهليني، لا تعاقبيني، لا تضيعيني في دهليز المكتب المظلم. فيطلع لي انوبيس وينهش قلبي. لساني ثقيل، سأقول لكن لساني ثقيل. وجسدي يغطني كله. آه. شجرته. يبلغ ارتفاعها نحو ذراع. ذراعٍ وربما أكثر. عليها قشران الأعلى أحمر خفيف والأسفل أخضر ثخين. وإذا مضغ ظهر في الفم منه دهنيته. رائحته عطرة محببة. ورقه شبيه بورق السنداب. آه الجنْي سأقول عن الجنْي. يجتنى دهنه عند طلوع الشُّعرى. تُشْدخ السُّوق. إلى ما يحت عنها جميع ورقها وشدخها يكون بحجر يتخذ مجددا، بحيث يقطع القشر الأعلى ويشق الأسفل شقا لا ينفذ إلى الخشب. فإن نفذ إليه لم يخرج منه شيء فإذا شدخه كما وصفنا أمهله ريثما يسيل لثاه على العود فيجمعه بأصبعه مسحا إلى قرن، فإذا امتلأ صبه في قناني زجاج، ولا يزال كذلك حتى ينتهي جناه وينقطع لثاه، وكلما كثر الندى في الجو كان لثاه أكثر وأغزر، وفي الجدب وقلة الندى، يكون اللثا أنزر، ثم تؤخذ القناني فتدفن إلى القيظ وحماره الحر وتخرج من الدفن وتجعل في الشمس، ثم تتفقد كل يوم. فيوجد الدهن وقد طفا فوق رطوبة مائية وأثقال أرضية فيقطف الدهن ثم يعاد إلى الشمس، ولا يزال كذلك يشمسها ويقطف دهنها حتى لايبقى فيها، فيؤخذ ذلك الدهن ويطبخه قيِّمه في الخفية. لا يطلع على طبخه أحد، ثم يرفع إلى الخزائن ومقدار الدهن الخالص من اللثا بالترويق نحو عشر الجملة، الميرون. في ماء المعمودية البلسان.

هل حفظت الدرس يا أمي جيدا؟ قولي بريك براوة.. براوة يا تلميذي النجيب المطيع وامنحيني بركتك. آه يا سيدتي البتول. يا أم السيد. لقد وضع الميرون في ماء المعمودية بأمر الرب. السنسكار أحفظه عن ظهر قلب كما حفظت الحكاية دون زيادة أو نقصان. أقول حفظتها. نعم سأقول أنا أعرفها. فليحفظني الرب

يسوع لما خرجتِ به أيتها البتول العظيمة ومعك يوسف النجار من بيت المقدس.

كان الشيطان هيرودوت ملك اليهود. نزلت أول موضع من أرض مصر بسطا.

بسطا المقدس بوبس. رابع عشرى بشنس. لم يقبلكم أهلها. بقيتم بظاهرها وأقمتم أياما.

بدير.. بدير الطيب. القرارى العائش فى الخطيئة. نعم سرتم إلى سمنود تعدية النيل إلى الغربية. السير إلى مدينة الأشمونين..

هتفت باكيا وقد قال عنى فى هذيانه ما قاله:

- لا.. لا يا ثاونا العزيز.. لا لن أعيش فى الخطيئة بعد ذلك أبداً.

فليرحمنى الرب. اشفُ يا ثاونا وعُدْ لى، ولن تجدنى إلا طاهرا تائبا سأعترف لك يا ثاونا. سأعترف لك بخطيئتى وإثمى الأول الذى يعذبنى ويأكل روحى.

بدأ جسده فى الرجفة والارتعاد، لكنه ظل يواصل، وقد تسارعت كلماته وزاد فى تخليطه:

- فرس النماس القائم على أربعة أعمدة. سقط الفرس وتكسر لما نظرته ودخلت. له المجد. آيته فى الأشمونين. خمسة جمال محملة، زاحمتكم أيها المقدسون فى مروركم. صرخ يسوع فيهم. فيهم صرخ فى الأشمونين. فصارت الجمال حجارة فيلس. فيلس بها أيام، ومنها إلى قس وقام -القوصية- فنطق الشيطان من أجواف الأصنام التى بها. وقال: قال: قال...

كدت ألطم وجهى وقد لبث وقتا يردد قال هذه، وقلت ها هو قد دخل فى النزع الأخير. يا لتعاستى وشقائى. يا لمصيبتى فى خلى وصفيى ثاونا.

ولكن ما أذهلنى بعد ذلك هو أنه يتكلم وكأنه يردد عن ظهر قلب بعضا من الساذوكيات إذ أخذ يقول:

- نطق الشيطان من أجواف الأصنام التى بها، وقال: إن امرأة أتت ومعها ولدها يريدون خراب بيوتكم ومعابدكم، فخرج مائة رجل بسلاحهم وطردوكم عن المدينة.

فمضيتم إلى ناحية ميرة غربى القوصية ونزلتم موضع الدير المحرق وأقمتم به ستة أشهر وأياما، فرأى يوسف النجار- فى المنام -من يخبره بموت هيرودوس ويأمره أن يرجع بالسيد إلى القدس.

فعدتم جميعا من ميرة حتى وصلتم قصر الشمع. أقمتم بالمغارة عند كنيسة أبى سرجه، ثم خرجتم منها إلى عين شمس واسترحتم جميعا بجوار ماء فغسلت البتول ثياب السيد يسوع من ذلك الماء، وصببت أيتها المقدسة غسالتك قبالة الأراضى فأنبت الله هناك البلسان، وكان إذ ذاك بالأردن فانقطع من هناك وبقى بهذه الأرض.

آه.. فلترضى عنى أيتها العظيمة دلوكة.. يا معلمتى. مريم البتول والسيد سيدى.. سيد بدير.. وسيد يوساب وسيد كل من على الأرض أجمعين.

عندما فتحت عينى وقد غشاها ضوء النهار الساقط من بين أعواد البوص المكللة لسقف الخص، لم أجد ثاونا ممددا إلى جانبى فى مكانه على الحصير، فهببت وقد أخذتنى الدهشة، وتملكنى الخوف الذى لم يفارقنى منذ الأمس، وخرجت مسرعا بعد أن وضعت قدمى داخل خفى وكنت قد عدلت شراكه، مخالفا بذلك أوامر والى الفسطاط، كما أشار على ثاونا عند دخولنا فى البرية الحلفاء للأراضى الموحلة، حتى لاتتلوث مؤخرة أقدامنا وكعوبنا بالوحل، ففى هذا المكان لايمكن أن يرانا أحد من رجال الوالى.

وإن كنا قد التزمنا طوال الوقت بملابسنا زعفرانية اللون، وبعقدى زنارنيا المعمولين من خيط الكتان الغليظ على وسطينا وكذا برمانات الخشب على سروج الركائب فى موضع القرابيس، وكل ما فرض علينا كأقباط حتى نفترق فى هيئتنا عن هيئة المسلمين.

ما أن خطوت مبتعدا عن الباب، حتى وجدت ثاونا واقفا قبالتى، يبتسم ويلقى إلى بتحية الصباح، وكأن لم يكن فى الأمر شىء، أو كأنه لم يحم طوال ساعات ليلته.

هتفت مذهولا وقد أخذنى الفرح:

– ثاونا.. العزيز ثاونا.. يا أخى الحبيب، هل أنت بخير، كيف استطعت القيام والخروج؟ حمدا لله على نجاتك. هذه معجزة من عند الرب يا ثاونا.. يا الله!

كنت مضطربا للغاية، والكلمات تتلاحق مندفعة خارجة من فمى، بينما الدموع تنهمر من عينى. كنت أشبه بطفل تائه عثرت عليه أمه بعد حين. ضمنى ثاونا إليه، وراح يربت على قائلا:

– يبدو أنك سهرت إلى جانبى طويلا ليلة أمس يا بدير وتعبت جدا، حتى أنك لم تفق وقت صلاة الصبح، على أية حال لقد أديت صلاتى، وصليت لأجلك أيضا، الحمد للرب، الذى بفضله ونعمته نجوت مما كنت فيه. دهن البلسان من أعظم الدهونات الشافية للدغ الحيات والعقارب، وكل الآفات والدويبات الضارة، كما أن بن العرب أفادنى فى أن الغيبوبة لم تصل إلى مداها فى الدماغ، حمدا لله هيا نتريق، فقد جمعت بعضا من ثمرات رمانة، يبدو أن صاحب الخص قد زرعها بالقرب من هنا ووجدتها دانية فأتيت بها لأنها ممسكة للمعدة إذا ما أكلناها، ولسوف تمنع زلاقة أى خضار نأكله من الأرض أثناء مواصلتنا المسير.

دخلنا لنأكل، وهممت أكثر من مرة أن أفاتحه فيما بدر منه أثناء حمته فى الليل. لكنى كنت أتراجع فى كل مرة، وآثرت تدبر الأمر حتى أصل إلى وسيلة فيها كياسة وذوق لقول ما أريد طرحه عليه من سؤالات دون أن أجرحه، فلما أشار على أن ننجز طعامنا بسرعة ونواصل المسير، وافقته فورا ولم أضف شيئا.

التزمنا السير بحذاء النهر معظم مسيرنا بعد ذلك، وكان الطريق يقطع أحيانا بالمياه التى أخذت فى الزيادة كلما توغلنا أكثر، فنضطر للالتفاف والدوران حتى نجد طريقنا مرة أخرى، وكان بعض الصيادين يتطوعون بنقلنا فى قواربهم لمسافات قصيرة بالقرب من الشاطئ، فهم يخافون الخوض بعيدا داخله خلال ذلك الوقت وكانت كثرة من البلاد والقرى التى عبرناها أثناء ترحالنا، قد خربت، وباتت مهجورة من أهلها تماما وكان كثير من حقولها قد تلف وخرب، وقد أخبرنا بعض الصيادين أن كثيرا من الأهالى الزراع، قد التحقوا مع نسائهم وعيالهم بالبشموريين وراحوا يحتمون بهم معلنين العصيان، بعد أن سدت السبل فى وجوههم ولم يعد لديهم ما يقتاتون به، وهم يخشون التعصير والضرب من قبل مشدى الكور والمحتسبين، وكنا نشاهد أثناء سيرنا كثيرا من الهائمين على وجوههم من الرجال اليافعين، وكذا النساء، وهم يتسولون فى الطرقات، وهم فى ملابس بالية، وأحوال مزرية قذرة، وقد نصحنا الصيادون أن نتجنب هؤلاء قدر استطاعتنا، لأنهم قد يخطفون منا الرحائل. ويسلبون ما نحمله من حوائج وما معنا من طعام عنوة وقد عز القوت عليهم فلم يجدوا ما يأكلونه.

وقد أخبرنا عجوز ممن التقيناهم أثناء ذلك، أن معظم هؤلاء الناس كانوا من أهل القرى الموجودة على أطراف البرية من ناحية الصحارى التى سكنها العرب القبائل، وخصوصا قبائل الحوف الشرقى فأكد لنا أن هؤلاء لا ينأون عن مهاجمة هذه القرى، فيسلبون سكانها ممتلكاتهم وعيالهم وأحيانا نساءهم، وكذلك يتلفون الزرع، حتى خربت معظم هذه البلاد وهجرها أهلها، فرارا من هذا الحال، وأن ذلك العجوز، هو الذى اخبرنا بحادثة دير العذارى العجيبة، ولم نكن أنا وثاونا قد سمعنا بها من قبل، ولا أظن أن أى إنسان من أهل بيعتنا قد علم بأمرها شيئا حتى هذا الوقت، فكل ما علمناه هو أن مروان متولى البلاد قد أباح لأعوانه الذين عادوا إليه بعد أن هزمهعم البشامرة وطردوهم، أن ينهبوا ويعملوا القتل فى كل البلاد التى يطلعون إليها، فسار هؤلاء إلى الصعيد وقتلوا جماعة من الأراخنة ونهبوا أموالهم وسبوا حريمهم وأهاليهم وأولادهم وأحرقوا ديارات الرهبان.

أخبرنا العجوز أن بدير العذارى رهبانات كن عرائس للمسيح وعدتهن ثلاثون عذراء فملكهن عسكر مروان، وكان فيهن صبية عذراء دخلت إلى الدير وهى ابنة ثلاث سنين فلما نظروها بهتوا من حسنها وقالوا ما شاهدنا قط فى بنى آدم صورة مثل هذه فأخذوها وأخرجوها من وسط أخوتها وتشاوروا فيما يفعلونه فيها، فمنهم من قال نقترع عليها، ومنهم من قال نمضى بها إلى الملك، وفيما هم يقولون هذا قالت لهم الصبية أين هو مقدمكم أعلمه بشىء يساوى أموالا، وتخلونى فأنا عابدة لله وما يحل لكم أن تفسدوا عبادتى، بل إذا أعلمتكم بذلك الشىء الذى يحصل لكم فيه أموال تردونى إلى ديرى، فقال لها مقدمهم: أنا هو. فقالت له: آبائى كانوا قوما مقاتلين شجعانا أقوياء، دفعوا لى دواء كانوا يدهنون به إذا خرجوا للقتال فلا يعمل الحديد فيهم شيئا وتصير السيوف والرماح مثل الشمع قدامهم، فإن خليت سبيلى دفعته لك، وإن كنت لا تصدق كلامى فأنا أدهن رقبتى قدامك، وجب أجود سيف يكون مع رجالك ودع أقوى من فيهم يضربنى فلا يقطع فى شىء لتعلم صحة قولى، وإنما قالت ذلك لأنها رأت أن تموت بالسيف ولاتلتصق بها نجاسات الإثم ولايتنجس بها جسدها الطاهر، ثم دخلت بيتها فأخرجت برنية فيها

زيت قد صلى عليه القديسون، وكان محفوظا عندها، فدهنت به رقبتها ووجهها، وجميه جسدها وصلت تركب على ركبها ومدت عنقها؛ فظن الجهال أن الأمر صحيح ولم يعلموا ما فى قلبها. ثم قالت لهم: من كان فيكم قويا وسيفه ماض قاطع فليظهر قوته فى، فإنكم ترون مجد الله فى هذا الدواء، عند ذلك وثب شاب شجاع بسيف يفاخر به فسترت وجهها ببلينها وطمأنت رأسها وقالت له اضرب بقوتك كلها ولاتبال؛ فضرب القديسة الشهيدة، فطارت رأسها فعلموا حينئذ ما فعلت وأنها خدعتهم فندموا وحزنوا حزنا عظيما ووقع عليهم خوف شديد، ولم يلتفتوا بعدها لواحدة من الرهبانات العذارى بل تركوهن ومضوا وهم يمجدون الله.

فتمتمنا بمجده نحن أيضا بعد سماعنا ذلك، وراح ثاونا يكفكف دموعه المتساقطة رغما عنه تأثرا، ومضينا تاركين العجوز، على أن نحكى لأبينا يوساب عن هذه القديسة الشهيدة، بمجرد عودتنا إلى قصر الشمع إن كان لنا عمر ونصيب فى العودة.

لاحت لنا بعد مسافة قرية على البعد، فاقترح ثاونا أن نعرج إليها، لنغتسل ونبدل ملابسنا التى كانت قد اتسخت أطرافها رغم حرصنا على ألا تتلوث بقذارات الأرض، وكنت ميالا للتوقف أيضا، حتى نتمكن من حلق رءوسنا، وفكرت أنه ربما سنحت لى فرصة خلال ذلك لسؤاله عما بدر منه أثناء مرضه، لكن وبينما نحن نسير على الطريق، رحت أفكر فى كل ما مر بنا فلما وصلت إلى حد ما كان من أمر فلاأس الهرطيق. تذكرت حكاية الشماس الساحر، ووجدت أنها تمحيكة مناسبة لمفاتحة ثاونا فيما أرغب بمفاتحته به، فهتفت بسرعة أقول له:

– ثاونا.. هل تذكر حكاية الشماس الساحر التى رواها بعض الآباء البطاركة توقف قليلا، لدرجة أننى تقدمته بعدة خطوات رغما عنى، وقال:

– أعوذ بالله! لماذا تتذكر حكاية هذا الملعون الآن ونحن فى الطريق؟!

صمت قليلا ثم قلت:

- لا أدرى لماذا خطرت ببالى الآن؟ أظن أن ذلك الشماس قام بعمل سحر وقتل طفلا فعوقب لهذا السبب.

تحمس ثاونا، وقال:

- لا.. لا.. لم يقتل الصبى، فوفقا لما هو مروى، أن الله أنزل على كورة مصر بلاء عظيما، لما خرج عبيد الله من مصر وتولى بعده القاسم ولده الذى صار فيه الشر أكثر من أبيه دفعات كقول الإنجيل المقدس: إن كل شجرة ردية تثمر عمرة ردية، هذا فعل الشر قدام الله والناس فى مملكته وسلك المسلك الردى، وقد قال سليمان بن داود الحكيم: الويل لأهل المملكة التى ملكها صبى. وكان هذا القاسم صبيا فى عمره وفعله، وارتكب خطايا كثيرة، وكان أول البلاء. غلاءً عظيماً فأول سنة كانت البلاد شراقياً فقلت الخيرات وغاب القمح وعدم حتى لم يجدوه، ومات خلق كثير وبهائم كثيرة، ثم جاء وباء على كورة مصر ثانى سنة لم يكن مثله، ومع ذلك لم ينقص شر القاسم بل ازداد، وضاعف الخراج على الناس وكان الإنسان إذا نام ليلا يخاف من ضوء الصبح، وما يشتهى الليل حتى يفرغ من كثرة البلايا، وبعد السنة الثانية المواتة، جاءت السنة الثالثة شراقيا، لم يصعد النيل التبة، ولم ير الناس فى أيامه خلاصاً، بل كانت السنين تنقلب، هكذا بأمر الله سنة وباء وسنة شراقى إلى آخر السنة التى أخذت منه فيها المملكة وهى السنة السابعة، وكان الوباء من أول هتور كل سنة إلى الثانى والعشرين من بؤونة، ومعظمه بمصر لكثرة الخطايا التى كانت بها وكان من ثامن يوم من بشنس إلى أول يوم من بؤونة حل بالناس فناء لم يحص بعض من مات فيه. يوم يموت ألفان، ويوم ألف ومائتان ويوم ألفان وأربع مائة بمصر والجيزة من سائر الناس القاطنين بهما، وتجار من الغرباء، حتى انقطع دفن الناس الأموات، والقبور، ولا يدفن رجل حتى يعلم به السلطان، ويكتب اسمه واسم والده، حتى الطفل الذى يرضع ثم إن آباءنا سألوا الرب، وأيضا الفقراء والأغنياء وتضرعوا إليه بالصوم والصلاة والبكاء والابتهال إلى أن ترأف الرب بهم ورفع الوباء ورحمهم.

وبعد هذا باع التجار القمح للناس، وظهر وكثر، فمضى قوم من تجار القمح إلى شماس ساحر كان يسكن فى منف وهى مصر القديمة، ودفعوا له مالا كثيرا وسألوه أن يعمل سحرا ليغلوا به القمح، فبدأ يعمل أعمالا تغضب الله بصنعته وسحره المرذول، وكان عنده صبى يتيم ابن امرأة أرملة ليس لها ولد سواه، فقال لها: أنت مالك شيء تأكلينه ولاتطعمين ابنك، ادفعيه لى أجعله لى ولدا وأعلمه صنعتى، فسلمته له وهى مسرورة، وكان ذلك الكافر قد مضى إلى سحرة كثير فى مواضع حتى علموه سحراً عظيما، ففعل ما غلا به القمح، ثم إن الكافر أخذ ولد الأرملة ودخل به بيتا وأغلق عليه الباب وعلقه بيديه ورجليه عن الأرض وفعل به ما يغضب الله ولم يزل يسلخ جلد الصبى من وجهه إلى رأسه كل يوم إلى أن انتهى إلى أكتافه فغاب القمح وعدم بعد أن كان قد بيع عشرة أرادب بدينار وبيع مدان بدينار، ولا يوجد، فمضى عريف صبيان المكتب إلى الأرملة، وقال لها: لولدك عدة أيام ما جاء عندنا فبأى موضع هو، فمضت إلى ذلك الكافر وسألته عن ولدها فقال لها: لى عدة أيام ما رأيته وخرج من عندى ومضى إلى عندك ولم أعلم له خبرا، فلما سمعت هذا منه مضت بحزن عظيم، وكان الصبى إلى ذلك اليوم لم يمت بل معلقا قد سلخ كثير منه، وكان الصبى العريف ينظر معلمه الساحر يدخل ساعة بعد ساعة إلى الخزانة التى فيها الصبى معلقا، فقال فى قلبه ماذا يصنع معلمى فى هذه الأيام، يدخل هذه الخزانة ويخرج، وكان ذكيا فدخل المعلم فتتبعه الصبى بمكر فسمع ابن الأرملة يبكى ويتضرع إليه وهو لا يرحمه وكان يقول كلاما يحزن القلب: الويل لك يا أمى الحزينة الأرملة لأنك ما تعرفين ما حل بى، الويل لبطنك التى حملتنى ولثدييك اللذين أرضعانى، أين أنت تنظرين عذاب ولدك اليتيم، ليتنى مت وأنت حامل بى ولم تلدينى على الأرض حتى أقع فى هذا العذاب. ويقول مثل هذا كثيرا، والصبى العريف يسمعه، فخرج مسرعا بخوف عظيم يقع ويقوم من شدة الخوف إلى أن وصل بيت الأرملة أم الصبى، فقال لها: قد وجدت ابنك. فجاءت مسرعة بعد أن أعاد عليها ما سمعه من فم ابنها فمضت إلى الوالى وأعادت عليه القضية وما سمعته، فأنفذ معها قوماً ثقات من المسلمين ومعهم أعوان إلى بيت الكافر، فوجدوه داخل الخزانة التى فيها

الصبى معلقا مسلوخا من رقبته إلى كتفيه فحملوه والساحر مكتف معه إلى الوالى وبغتةً ربطوا يديه ورجليه وقطعت أذناه بين يدى الوالى، فاعترف له بكل ما كان منه وأحضروا الصبى، وعاينوه على تلك الحال وكتبوا فى الوقت إلى القاسم ملك مصر، فلما وقف على الكتاب أمر برجم الكافر وحرقه بالنار.

ما أن فرغ ثاونا من حكاية الشماس الساحر، حتى التفت لى بجد وقال وهو يثبت نظره فى ناظرى:

– بدير.. أصدقنى القول: هل قلت شيئا لايليق بينما كنت محموماً أهذى؟

رحت أراوغ، محاولا ألا أغضبه أو أخجله وهو بمكانة المعلم منى، فقلت له أنه تحدث بكلام كثير تضمن اختلاطات فى المعانى والألسنة، وأنه كان يهذى بلسان قبطى حينا، وعربى حينا آخر، كما قال يونانيات، وقد ذكر يسوع الكليم والسيدة البتول، وأسماء أخرى وكلمات غير مفهومة لا أعرف بأى لسان هى، وإن كنت أظن أنه اللسان العتيق.

احتدت نظراته وبدا ساهماً وتساءل:

– أية أسماء غريبة يا بدير تلك التى نطقت بها وأنا غائب عن الوعى؟ بالله عليك قل يا بدير يا أخى الطيب شبيه يوحنا فم الذهب.

قلت وقد ضيق على:

– أسماء لا أتذكرها الآن يا ثاونا.

– بدير.. أصدقنى القول بحق الصليب؟

عند هذا الحد، فاض بى، وكنت قد استشعرت مدى ضيقه وألمه، فقلت:

– الحق وقد قلت بحق الصليب، أقول لك أنك نطقت باسم ذلك الذى لايجوز النطق باسمه، كما أنك ذكرت الأوثان يا ثاونا. رحت أزدرد ريقى الجاف وأنا أخبره بذلك، ولم أكن أجرؤ على النظر فى عينيه خوفا من أن يتهمنى بشىء أو يكشف لى عن إثم أكون قد اقترفته فالشيطان شاطر ويستطيع أن يخدع الإنسان

دون أن يدرى، وما أنا إلا قيم مسكين أخبز القربان وأرعى شئون البيعة، ولا طاقة لى بالعمل الكنسى ولا أملك الخوض فيه، وما زال إثمى الدنيوى الذى اقترفته فى ترنيط يعذب روحى ويدنس أفكارى.

زفر ثاونا بحزن ويأس، ثم قال:

– إذن. فقد أفلت لسانى لما كنت محموماً، ونطق بما لا أرغب فى النطق به. أجل يا بدير لقد عشت زمنا فى الهرطقات قبل أن تطهرنى الكنيسة. وعرفت العلم والفلسفة سنين طويلة. وكنت مسيحيا غنوصيا أقول بالمعرفة الحقة الموصلة للسبب الأول الذى هو الخير عن طريق الحدس واكتشاف النفس للخاصة المصطفين وذلك لفترة من الزمن، لكنى تطهرت بفضل الرب من كل ذلك الرجس وصوت تاوضوسيا حقا، والفضل فى ذلك يعود لكثرة اجتهادى فى الإيمان وقراءة اللاهوت الحق. ولكن الحق أقول لك يا بدير: فى بعض الأوقات تراودنى أفكار مختلطة عن هذا العالم الذى نعيش فيه، وهناك مسائل لا أفهمها رغم اجتهادى فى العلم ودرايتى، بالناس وأمورهم، قل لى بربك يا بدير: ما معنى كل ذلك الذى يحدث الآن. وأبونا فى قصر الشمع يبعث الرسل بين الحين والحين إلى البشامرة يأمرهم بطاعة أولى الأمر والسلطان ودفع ما عليهم من خراج، وها نحن من أولئك الرسل الذين يرسلهم، والخوف كل الخوف أن يتجرأ علينا البشامرة بالعنف، أو يقتلونا مثلما قتلوا إسحق ومن معه، وهو الرسول الذى كان أبونا قد أرسله لهم فى العام الماضى. ثم إن العرب المسلمين يثورون أيضا ضد هؤلاء الولاة ويرفضون دفع الخراج مثل القبط، ودين المسلمين يأمر بالمعروف وينهى عن فعل المنكر، ولا ينكر السيد والبتول، وعامة الناس من المسلمين العرب بسطاء متقشفون فى حياتهم وملبسهم وجوامع الصلاة لا ذهب فيها ولا فضة فهم يركعون ويسجدون للرب فى خشية وخشوع بكل أدب وبساطة، إذن قل لى بربك يا بدير: لماذا يتجبر هؤلاء الأمراء والولاة ويسلكون مسلك أباطرة وملوك الروم فى الزمن القديم، ولماذا يتوسط أبونا يوساب بينهم وبين البشامرة بدلا من أن يقوى البشامرة عليهم؟ ولماذا لا يأمر الولاة بالمعروف وينهاهم عن المنكر،

ليكونوا مثلما كان الولاة فى مبتدأ الإسلام، كما قرأت عنهم فى الكتب وسمعت: أتقياء بسطاء، يخشون الرب ويعيشون فى الزهد والتقشف وكأنهم رهبان داخل قلايات؟ لكن انظر أولئك الذين يحكموننا الآن. انظر هذا المروان، كيف يتصرف ويسلك هو وأجناده، الذين باتوا متغطرسين جبابرة وكأنهم عسكر فى جيش بيزنطة. أنا لم أعد أفهم شيئا يا بدير، لا أفهم لم كل هذه الحرب، ولم كل هذه المشاحنات فى البلاد؟ أنا خائف يا أخى والله، ولم أعد أعرف أين الحقيقة وأين رأسى من قدمى.

صلبت وقد أخذتنى الدهشة ورحت أقول:

– أأنت أيها العزيز ثاونا الذى تقول ذلك؟ أأنت لاتعرف أين الحقيقة وأنت غزير العلم والمعرفة، لا، لا أظن ذلك، ولكن لعلك لاتعرف البشموريين مثلى، فهم أهلى وناسى، إنهم أجلاف، قساة، خشنون لايعرفون شيئا من أمور السياسة، فهم أهل فلاحة وصيد، ولعل أبانا أدرى بمصلحتهم منهم، فهو فى قصر الشمع بمصر العتيقة يرى مالا يرونه هم فى كورهم البعيدة، وهو يريد تجنيبهم سفك الدماء ويحرص على سلامتهم وسلامة نسائهم وعيالهم، ويريد أن يكون واسطة خير بينهم وبين الوالى.

تنهد ثاونا بضيق، وبدا وكأن كلامى لم يعجبه، بل لمحت ما يشبه البسمة الساخرة المشفقة على وجهه، بينما هو يلكز بغله ليبطئ سيره قليلا، ويقول:

– يا لك من برىء طاهر يا بدير الطيب، لا، لا أظن أن ذلك هو السبب فقط يا عزيزى، فأبونا يوساب عينه أولا وأخيرا على بيعتنا اليعقوبية وممتلكاتها وثرواتها، وحربه أولا وأخيرا ضد الملكانيين الهراطقة، وهو يتمنى الوقت الذى يجىء فينقطع دابرهم من البلاد، فانتشار الإسلام فى القرى والكور لايقلقه، هو حريص على رباط الود مع المسلمين جميعا وخاصة الولاة والأمراء، حتى يقوونه فى حربه ضد هذه الكنيسة الملكانية، التى إن سادت فى البلاد، فربما عاد الروم إليها وسادوا مرة أخرى مثلما كانوا فى الماضى، آه يا بدير، فليرحمنا الرب برحمته. إن بلادنا مسكينة يا بدير، مبتلية دوما، تخرج من نقرة فتقع فى حفرة. ربما

كانت مأساتنا تكمن فى أننا نتخذ جل معاشنا من الزرع والفلاحة، ولا نعرف لنا حيلة غير الأرض والطين، فنلتصق بها نروم السلام والدعة ونكره الاشتغال بأمور الحرب.

كان يقول ذلك وهو متألم جدا. فتذكرت ما قاله فى هذيانه وهو محموم «البلاد تقاسى الألم. الآلهة هجرت الأرض وذهبت إلى السماء. العوز والإملاق فى كل مكان يا يسوع المخلص. يا مريم البتول».

نظرت إليه مشفقا، كان سارحا يتطلع بعينيه بعيدا إلى الأفق الأخضر الممتد أمامنا بينما يحث دابته على المسير مرة أخرى، وبدا لى أنه يتألم، لا... بل يقاسى الألم.

دخلنا القرية وقد قيل لنا أن اسمها «غيفة»، وبدت للوهلة الأولى وكأن بها قليلاً من الناس الساكنين، إذ كان معظم أبواب بيوتها مغلقا، وليس هناك من يستقبلنا بالصياح والزياط عند ولوجنا طرقاتها من الأطفال والعيال الذين يوجدون فى ذلك الوقت عادة للهو واللعب، فيعلنون بذلك فى التو لأهاليهم عن مقدم الأجانب والأغراب.

فلما بلغنا ساحتها، وكانت ساحة واسعة لزوم درس البر وذرايته كما هو معتاد فى البلاد والقرى، لم نجد بها إلا نورجا واحداً فى ركن منها، ثم إن فلاحة ذات وجه شائه كثير الغضون انبرت لنا، وراحت تتأملنا باسترابة من خلف باب دارها الموارب، ويبدو أنها اطمأنت لنا بعد حين، وقد تيقنت من لباسنا الأصفر وزنارينا المجدولين أننا من أهل البيع وأصحاب الملة، فرحبت بنا كثيرا، وكأنها عادت إلى الشباب، وهى العجوز التى ليس فى فمها إلا سن وحيد إضافة إلى ناب ظهر لنا وهى تتبسم، ثم إنها اعتذرت عن استرابتها وتلكؤها فى الترحيب بنا بسبب خوفها من الأغراب، وضعف باصرتها بسبب المرض، وقد ألم منذ زمن بعينيها، ثم إنها لما سلمنا عليها وطمأناها ورحنا نستفهم منها ونسألها، أخبرتنا أن القرية صار يسكن بها قلة من الفلاحين المشتغلين بالأرض، بعد أن هجرها معظمهم، وأن القرية صارت منزلة قافلة الحاج فأسلم كثير من الناس لما يحصلون من فوائد

وميز من جراء ذلك، وفضلوا خدمة الحاج على خدمة الأرض لإدرارها عليهم الفضة والدنانير مقابل ما يؤدونه من طعام وشراب للمرتحلين، لذلك لم يعد بالقرية إلا قلة من أهل الكنيسة، وقد أخبرتنا هذه الأم الطيبة لما سألناها، أن هذه القرية قديمة كانت عامرة حتى وقت قريب، وأن من هم أكبر منها وحضرتهم قبل موتهم، كانوا يقولون بأن البلد تعود إلى زمن صواع الملك، الذى فقد من مدينة مصر، وجد فى رحال إخوة يوسف النبى، وأنه كان من «غيفة» هذه.

ثم إن العجوز استقبلت لنا فى مودة، وأجلستنا فى مكان المضيفة، وقدمت لنا الكامخ والصحناء والصبر وشيئا مما طبخته لغدائها، كما أشربتنا شراب الحلبة المحلى بالعسل، وقدمت لنا ما كان عندها من عنب الفيوم وردى اللون كبير الحب، وهو عكس ما كان من كروم بيعتنا المخصص للخمر، الأصفر اللون صغير الحب والمسمى بالبناتى لخلوه من البذر، فلما انتهينا من كل ذلك شكرناها كثيرا وهممنا بتوديعها ومعاودة المسير، لكنا قبل أن نفعل قالت أنها تريد أن تسألنا مسألة، ونساعدها على حل مشكلة، أما المسألة فهى أنه لما كان معظم سكان القرية الذين تبقوا فيها قد تحول إلى الإسلام، ولم يعد هناك إلا قلة من المسيحيين لا يوجد منهم من يصلح لابنتها البكر، فقد اضطرت لتزويجها برجل كان قد دخل فى الإسلام منذ زمن يسير، وشارطته على أن يترك البنت على دينها إذا ما أرادها تحته فى بيت واحد، على أن يكون له كل مالها وموجودها وأرضها بعد أن تموت وترثها الفتاة، فوافق الرجل وترك زوجته على ما هى عليه، تتطقس بطقوس الكنيسة، مثلما كانت تفعل فى بيت أمها، وقالت العجوز أنها تخشى أن تكون قد عصت أمرا لله، لأنها ما أرادت غير سعادة ابنتها والاطمئنان عليها قبل موتها، لكنها لاتريد أيضا إلا رضا السيد المخلص عنها، وأن تموت وهى مطمئنة لتنعم فى ملكوت الرب.

أسقط فى يد ثاونا، وهو المتكفل بالكلام فى هذا المقام، أما أنا فسكت لأنه لا تحق لى الفتيا فيما لا أعلمه، وظل ثاونا صامتا لفترة، يتأمل المرأة وأحوال الدنيا، لكنه قال أخيرا:

- هذا زمن صعب يا أمى، وهناك مسائل لا تحل إلا يوم الدينونة، فليغفر الله لك ولابنتك ولزوجها ولنا جميعا، ولكنى أقول لك ما قاله بولس الرسول إلى أهل رومية من كلمات درية مقدسة.

«وأما أنا فجسدى مبيع تحت الخطيئة، لأنى لست أعرف ما أنا أفعله، إذ لست أفعل ما أريده، بل ما أبغضه فإياه أفعل، فإن كنت أفعل ما لست أريده فإنى أصادق الناموس أنه حسن. فالآن لست بعد أفعل ذلك أنا، بل الخطيئة الساكنة فى فإنى أعلم أنه ليس ساكن فى، أى فى جسدى، شىء صالح لأن الإرادة حاضرة عندى وأما أن أفعل الحسنى فلست أجد، لأنى لست أفعل الصالح الذى أريده، بل الشر الذى لست أريده فإياه أفعل، فإن كنت ما لست أريده إياه أفعل، فلست بعد أفعله أنا، بل الخطيئة الساكنة فى»

ثم إن ثاونا أخذ يصلى ويصلب، والمرأة تصلب وتصلى معنا، وبعد ذلك أشار عليها ثاونا بضرورة أن تتحصل على كتاب الرب وتحفظه فى بيتها، حتى يحفظها ويحفظ ابنتها، ولو أنها لا تقرأ ولا تنظر فيه، كما نصحها بالذهاب كل أحد إلى البيعة للصلاة الجامعة، وكذا بالصوم، والحرص على التطقس بالطقوس التاوضوسية والالتزام بها، وأن تحصن ابنتها على فعل ذلك دوما، لأن المسلمين لا يخالف ملتهم التزوج من ملة اليهود والتاوضوسيين لأنهم أهل كتاب يعترف بنو الإسلام بأنبيائهم ورسلهم، ثم إنه قام برقى العجوز كما طلبت منه. ثم قادتنا إلى موضع المشكل الذى أرادت أن نعينها على حله وكان قناً للدجاج وضعته إلى جانب موضع حيواناتها التى تربيها وترعاها فى فناء دارها الخلفى، حيث كان إلى جواره حضانة كتاكيت، وقالت إنها تتبع الأصول المعتادة فى التفريخ بالحضانة، لكن أغلب البيض يفسد ولاتخرج منه الكتاكيت، ثم أنها أرتنا بيت الترقيد، وكانت صفته مربعا طوله ثمانية أشبار فى عرض ستة فى ارتفاع أربعة تقريبا، وله باب فى عرضه سعته شبران وعقد فى مثله، وفوق الباب طاقة مستديرة قطرها شبر مسقفة بأربع خشبات وفوقها سدة قصب يعنى نسيجا منه وفوقه ساسى وهو مشاقة الكتان وحطبه. ومن فوق ذلك الطين، وكان الطوب

مرصوصا كما هى العادة، وسائر البيت مطين ظاهره وباطنه وأعلاه وأسفله حتى لايخرج منه بخار، وكان فى سقفه شباك كما ينبغى سعته شبر فى شبر بما يحكى صدر الدجاجة، وكان هناك أيضا حوضان من الطين المخمر بساس طول الحوض ستة أشبار وعرضه شبر ونصف وسمكه عقدة إصبع، وحيطانه نحو أربعة أصابع، وكان هذا الحوض لوحا واحدا كما ينبغى على أرض معتدلة. وهذا الحوض يسمى الطاجن وقد جف الطاجنان وركبا على طرف السقف أحدهما على وجه الباب والآخر قباله على الطرف الآخر تركيبا محكما، وقد أخذ وصولهما بالطين أخذا متفقا، وهذان الطاجنان يحاكيان جناحا الدجاجة كما هو مقدر، والبيت مفروش بقفة تبن وممهد وفوقه ضب حصير، والبيض مرصوف فوقه رصفا حسنا بحيث يتماس ولايتراكب لتتواصل الحرارة فيه، وكان كله قد وضع فى هذا الوضع الذى هو وضع الترقيد، والحضانة مسدودة الباب بلبد مهندم، والطاقة مسدودة بساس وكذا الشباك، وفوقه زبل حتى لايبقى فى البيت منفس للبخار. وكان فى الطاجنين زبل البقر اليابس أى الجلة، وهو حوالى قفتين أى نحول ثلاث ويبات، وموقد فيه سراج من جميع جهاته وهو لم يصبح رمادا بعد ولم ينته اشتعاله. وقد قالت العجوز أنها ظلت تتفقد البيض ساعة بعد أخرى بأن وضعته على عينها، واعتبرت حرارته، أى أنها اختبرت زواقه، فلم تجده يلذع العين لتقلبه ثلاث تقليبات فى ثلاث دفعات تجعل أسفله أعلاه وأعلاه أسفله بما يحاكى تقليب الدجاجة للبيضة بمنقارها وتفقدها إياها بعينها، وهذا ما يسمى السماع الأول، لذا فهى لم تزل الزبل الذى صار رمادا ولم تتركه بلا نار إلى نصف النهار، بل أضافت له زبلا وعاودت الإشعال وذاقت البيض بعينيها فلم تجد أن حرارته معتدلة بل كانت تلذع، وقد تكرر معها ذلك عدة مرات، وكان البيض يفسد فسألت كاهنا ممن عرفت عنهم الأعمال ليعينها على نجاح الحضانة، فعمل لها تعويذة لم تنجح ولم تؤت مفعولها، ثم إنها دفعت إلينا برق، أخرجته من حفرة كانت قد حفرتها بالأرض إلى جانب الحضانة، فلما فتحها ثاونا رحنا نقرؤها، وكانت مكتوبة بالعربية واليونانية والقبطية التى أدركت قراءتها جيدا وكانت:

«أنا أدعوك أنت يا أتراك، الملاك العظيم الذى يقف عن يمين الشمس والذى تدين له بالولاء كل قوات الشمس، اذهب حتى حافة الهاوية، الفضة اذبحها، الصلب اكسره. الحديد أذبه. الحجر فتته. مياه البحر جففها. الجبال حركها. إنى أدعوكم يا رؤساء الملائكة السبعة ميخائيل وجبرائيل وأوريبل وراكوئيل وسروييل وأنوئيل وسلفوئيل، لتنزلوا جميعا حتى ميخائيل إلى هذا المكان ولاتسمعوا شيئا إلا ما أقوله لتمنحونى طلبى وتحققوا الرغبة التى تجيش فى عقلى وتتوق إليها نفسى. أنا سأعبر أنهار النار السبعة. وأصعد إلى السماء السابعة حيث يتربع رب الصباؤوت. وسأجد ميخائيل واقفا عن يمين الآب. أسرعوا أسرعوا. أنا أتضرع وأستحلف وأتوسل إليكم أيها الشهداء القديسون. أنا تيودورا المرأة العجوز الخاطئة، أضع أمامكم هذا الاتهام ضد كل من يفسد بيض حضانتى من الناس والأرواح الشريرة المتخفية فى الحيوانات، ولتحل اللعنة على كل من يفسد بيضى وليشتت شمله ولتشمله النقمة ولتنزل فى الحال الذراع الجبارة واليد القوية عليه. أيها الشهداء القديسيون أسرعوا ونفذوا مطلبى. أرسلوا قواتكم ومعجزاتكم. أسرعوا ونفذوا مطلبى؟» دفع ثاونا الرقعة إلى تيودورا مرة أخرى وهو يقول لها:

أستغفر الله من كل هذا. أحرقى يا تيودورا الطيبة هذا اللغو فى النار عندما تخبزين خبزك، أما كتاكيتك وحضاناتك فالمشكل فيها أن السراج لايشتعل كما ينبغى، إذ أن فتيله مهترئ ويحتاج إلى تغيير. ولم تكن العجوز تدرك ذلك بسبب ضعف بصرها.

ثم إنه قال لها بحنو وهو يربت على كتفها:

– هل استعملت يا أمى شيئا يفيد فى تقوية البصر، حتى يمكنك تأدية ما ترغبين لتدبير شئون حياتك؟

ردت المرأة بقبطيتها الممزوجة بالعربية، والتى كانت تحدثنا بها من قبل:

– أنا أقطر فيها بين الحين والحين ملح الشب المطحون، بعد أن أمزجه بالماء الأول من النيل والذى أخزنه فى قواريرى عند نزوله كل عام وقت هلول بشنس.

رد ثاونا بسرعة:

- لا.. لا.. محلول الشب لايكفى وحده يا أمى لعتامة العين، بل عليك بالعصارة الطرية من الجميز، ثم إنه يتوجب عليك بين الحين والحين، خصوصا فى شهور الله الحارة، أن تقطرى فى عينيك مزيجا من الخروع والزاج الأزرق وزيت الفجل وبعضا يسيرا من القلافونية، على أن يكون كل ما سبق بمقادير متساوية ومقدارين من الماء الطهور، فهذا القطر يدرأ سموم الحر التى يدفع بها الشيطان إلى أبصار الناس.

رغم المشقة وتعب الطريق، فإن رحلتى مع ثاونا إلى الأراضى الموحلة، بدت لى من أجل الأزمنة التى عشتها فى حياتى، فملازمة رجل قليل الوجود مثله لهو من دلائل النعم التى يفيض بها الرب على الإنسان، ولئن قال من قال: الرفيق قبل الطريق، فإن ثاونا لم يكن مجرد رفيق جديد، ولا مجرد شماس تقى، غزير العلم، واسع المعرفة، أرافقه فى مهمة كنسية واجبة، بل كان منى بمثابة الروح من الجسد، والهواء من التنفس، أو إنه ضياء يستضىء به وجدانى ويعتمر، فأهتدى إلى شطآن السكينة واليقين، أنا المتخبط دوما فى ظلمات اليأس والعذاب، لا يفارقنى القنوط أبدا وهو من أرشدنى إلى حقيقة أن الحجاب على منى، وأنى الغمامة على شمس نفسى، وأن على أن أعرف حقيقتها ومواطن العتمات واللين فيها.

لقد حدثته ذات مرة بما يثقل صدرى، وكنا جلسنا تحت شجرة نبق لنستفىء ونستريح قليلا، فوجدتنى أبوح له بما لم أبح به لأحد أبدا، حتى لأبينا يوساب وحكيت له حكايتى مع آمونة كما كانت وجرت على وجه الدقة، دون زيادة أو نقصان، فأمسك بكفى، وهو يكفكف دمعى. بمنديله وقال:

–أتعرف يا بدير أن الرب يسبب الأسباب فلولا حكايتك هذه مع آمونه، لما كنت قد سلكت طريقك فى الحياة، حتى وصلت إلى طريق الرب فى البيعة وصرت مسيحيا جيدا سليم الإيمان، وربما لو بقيت إنسانا علمانيا بعيدا عن الخدمة، لم تسلك فى الأكليروس، أخذتك الدنيا إلى شطآن الضلال تتخبطك الأفكار، وتدفع بك فى كل اتجاه ولا تسلمك إلى سكة اليقين أبدا. إن قصتك ليست وحيدة فريدة أيها الأخ العزيز، فأنا أيضا، كلما تذكرت قصتى الأولى عندما كنت

أعيش فى الوثنية والضلال، أتيقن أن الرب إنما وضعنى فيها حتى تقودنى قدماى فى النهاية الى طريق الصدق والإيمان.

هتفت بدهشة، وقد دفعنى الفضول:

– ثاونا.. قل لى بربك ولا تحجب عنى شيئا، هل لك قصة مثل قصتى؟ هل عرفت صنف النساء فى حياتك من قبل يا ثاونا؟ يا الله!!

ابتسم ثاونا ابتسامة باهتة، ربما لانى قلت ذلك بلهفة بينة، ورغبة قوية فى معرفة أمر يخصه ويخفيه. ربت على كتفى وقال:

– ولماذا تظن أننى لم أعرف نساء من قبل؟ وتدهش إذا كان لى قصة معهن ذات يوم؟ ألست رجلا كاملا أمامك. وكنت ذات يوم شابا فتيا يافعا له جسد يطلب ما يطلبه الرجال؟

ثم إنه أخذ يبتسم مرة أخرى وهو ينظر إلى بحنو وعطف.

خجلت من نفسى، وقد رد على بذلك، لكنى فى الحقيقة، كنت أرى ثاونا وكأنه كائن نورانى، وكأنه ساروفييم سماوى وليس كبشر جسدانى، فقلت له:

– لا..لا بحق السيد يا ثاونا، أنا لم أقصد ما يعنى أنك لست كاملا، لكنى أنزهك عن كل خطيئة شهوانية وأستحيلها بالنسبة لك، فأنت حكيم، راجح الوجدان، راسخ المعرفة.

قاطعنى بسرعة:

– لا.. لا يا بدير ذلك لأنك عرفتنى بعد أن اهتديت، أما فى الماضى فقد عشت فى الخطيئة، والمشكل يا بدير– ودعنى أصدقك القول، وليسامحنى ويغفر لى الرب– هو أننى حتى هذه اللحظة التى أجلس فيها وأحدثك، لا أشعر أنها خطيئة بل كلما طافت الذكريات برأسى، وتمثلت صور الماضى أمام ناظرى، وكأنها حدثت بالأمس القريب، انتعشت روحى بالفرح، وغمرتنى سعادة لا أقوى على احتمالها أحيانا فأشعر أننى أرغب فى القفز والطيران والعلو والارتفاع حتى أعالى السحاب.

فتحت عينى بقوة وأنا أحدق فى عينيه بدهشة، وقد وجدتهما تلمعان بقوة زادتهما جمالا وبهاء، فصار وجهه أكثر وسامة وجلالا، وقلت له وقد أخذنى الشوق والعجب. مما يقول:

– يا الله يا ثاونا! أنت تقول ذلك؟ تقول أنك لا تشعر حتى هذه الحظة بالخطيئة؟!

– أجل.. أجل يا بدير.. أن لا أشعر بالخطيئة أبدا، وأتعذب لذلك كثيرا لأنه يفترض أن أشعر بالخطيئة وأتوب إلى الرب، ولا أعرف، لماذا يحدث لى ذلك يا بدير.. قل لى لماذا لا أندم وأتوب؟ بل لماذا أتمنى أن أعيش ما عشته من قبل والذى يسمى خطيئة.

صلبت بسرعة، وداخلنى شعور مباغت، بأن ثاونا بدأت تداهمه اختلاطات.

وقد تذكرت من جديد كل ما أشيع عنه فى السابق وكذا هذياناته وهو محموم، وآثرت أن أنهى الكلام فربما كان ثمة شياطين تحل فى المكان أخذت فى الهيمنة علينا مبتدئة به، قلت له بارتباك:

– ثاونا، هيا بنا نصلى صلاة المساء، فالساعة الآن حوالى الرابعة بعد الزوال، ولنتوجه بعد ذلك بسرعة إلى غايتنا ونعاود المسير.

قال بسرعة، وكأنه يحادث روحه أمام صفحة نبع رائق، وكأن قوة جبارة تدفعه للكلام دفعا ولا يستطيع أحد مهما كان أن يوقفه.

– لا يا بدير لن نعاود المسير قبل أن تسمع حكايتى، أنا أريد أن أقص لك خبرى عن دلوكة، أريدك أن تعرف حبيبتى دلوكة، معلمتى وسيدتى ومولاتى أمس واليوم وغدا، وحتى أبد الآبدين.

كيف أصفها لك يا بدير؟ أأصف لك روحها، أم أنشدك أغنيات جسدها، إنها معلمتى الأولى، عرفت الحكمة على يديها، فهمت الفلسفة والحساب خبرت أمور الطبابة، إنها آخر النساء العظيمات.. وربما لن تجود القرون القادمات بمثلها.

كانت تعلم فى مدرسة برية بلدتى أنطونيوبوليس، وكانت هذه البرية تقع عند آخر البلدة على مشارف الجبل القريب منها، وكانت دلوكة موقرة، محترمة بين الناس، مشهورة بعلمها ومهارتها، التى يقال أنها ورثتها عن آبائها وأجدادها، وكان أبى أثناء ذلك متمسكا بدين الوثنية، يذهب إلى البرابى ويتعبد، فدفع بى إليها لتعلمنى منذ أن أبلغ العاشرة، فلما بلغت وصرت فتى يافعا، تأخذنى أشواق الذكورة والرجولة إلى نوع النساء، تولعت بها، ولم أعد أملك من أمرى أمرا، وكانت دلوكة جميلة آسرة، كشمس شتوية فى نهار بارد وقد زادها العلم بهاء، والحكمة فتنة وحضورا وقد هيمن على جسدها فأصبح يأتمر بأمره، ولعلك تعلم أن أبدع الأجساد هو ما كان مطية للعقول، فتتحول الغرائز إلى ملكات، ويروض الإنسى كل ما هو وحشى، وهكذا كانت دلوكة، فالمرء لا يدرك سر هيامه بها، أهو بسبب تشكيلها الجسمانى المترتب فى تناسق وإحكام، أم أنه يعود إلى فيضها الروحانى السابغ عليه بما لا يقوى على مقاومته ولا يسعفه به الفهم والتفسير؟ وهكذا باتت تهيمن على روحى وعقلى، وتأسر كلى، وبعضى، فزهدت الطعام، وأخذت بالشراب، وصرت، أبيت ليلى وأصبح صباحى، لا أدرى قمرا مثلها أو شمسا، ويبدو أنها فطنت إلى حالى، وهالها ما سوف يصير إليه مآلى، وهى المرأة العليمة الحاذقة، فقالت لى ذات يوم وقد ذهبت إليها فى البرية لأسألها فى أمر من أمور جالينوس فى التشريح، وقد كنت رأيت فى بعض الرمم أن عظم الفك الأسفل هو عظم واحد ليس فيه مفصل ولا درز أصلا، على عكس ما يرى جالينوس فى كتابه حيث يقول إنه عظمان بمفصل وثيق من الحنك، المهم أنها أفادتنى وأجابتنى عن المشكل بما نفعنى، ثم إنها قالت وهى تحدق فى عينى طويلا:

– ثاونا.. اتبعنى يا حبيبى الجميل، إلى حيث أكون معك وحدى.

سرت وراءها كالمسحور، وكأنها أرسلت من لحظ عينيها نارا أشعلت بها جسدى، وضجت بها نفسى، حين هتفت بندائها: «حبيبى الجميل».. فلا أعبر كيف عبرت الدهليز، أسرت أم طرت؟ ثم إنها أمسكتنى لما وصلنا الباحة المنتهى إليها ذلك الدهليز، وراحت تنضو عنى ردائى شيئا فشيئا، وتدفع بجسدها – وقد

تعرت مثلي– تجاه جسدى، فما لبثنا إلا قليلا، حتى غرقنا فى منهل القبل، وسرعان ما ارتفعنا حتى بلغنا فراديس النشوة العلوية، وكانت هذه هى مرتى الأولى التى ألج فيها إلى بساتين النساء، وكانت الأخيرة أيضا أيها الصديق العزيز؛ فقد وجدت دلوكة ميتة بعد ذلك بوقت يسير وقيل وقتها إن جماعة من المسيحيين المؤمنين هاجمت البربا فى وضح النهار؛ وهدمتها بعد أن قتلت كل من فيها– وحطمت ما بها من أصنام وأتلفت كل ما كان على جدرانها مكتوبا بالقلم المرسوم، ثم إن أبى ارتحل بى وبأهلى من البلدة بعد ذلك، بعد أن بقينا مختبئين فيها ننتقل من مكان إلى مكان سرا، وذلك بسبب تخوفه من هذه الجماعة. فليرحمنى الرب يا بدير وليغفر لى، وليحشرها فى زمرة التائبين، لكنى أقول لك إن دلوكة أول وآخر النساء فى حياتى فأنا لا أرى النساء كلهن إلا فيها، ولا أراها إلا كل نساء الأرض، ولذا أقول لك، وليرحمنى الرحيم إننى لا أنساها أبدا، فهى كامنة فى أعماق روحى كسلافة عتيقة، تزيدها الأيام تعتقاً وينذر مذاقها، لذلك فإن ذكراها تعطر روحى وتمنحنى نشوة حاضرة تعيننى كقنديل مضىء فى ليل حالك، فما من شىء– فى عالمنا هذا– يمنح المرء اليقين. كل شىء مضطرب يا بدير، والتحولات لا تترك لك مجالا ترتب روحك عليه بسبب سرعتها، فما هو كائن اليوم يختفى فى الغد، وما تراه عينك فى هذه اللحظة سرعان ما يغيب فى لحظة أخرى.

لقد عشت فى بلدتى وأنا أظن أننى لن أغادرها أبدا، وها أنا قد غادرتها منذ سنوات بعد مقتل دلوكة، وقد عشت زمنا فى الوثنية والعلمانية، لكنى صرت بعد حين من رجال الأكليروس، فلما صرت فى الدير، جلبت إلى بيعتنا فى قصر الشمع وأنا أظن أننى لن أغادرها أبدا، وها أنا الآن أسير إلى الأراضى الموحلة – والله يعلم وحده– هل سنعود إلى قصر الشمع مرة أخرى، أم أنه سيقضى بنا أمرا آخر كان مفعولا.

لم أكن أدرك أن ثاونا مضطرب مثلى، إلا خلال هذه الآونة.

وعندما قال ذلك قاله وهو واثق الإيمان، قوى المعرفة، لكن يبدو أن هناك أشياء تحدث حولنا تدفع بالمرء لأن يتخبط بين الحين والحين.

ربما كانت الأرواح الشيطانية ما زالت أقوى من الأرواح الطيبة فى تسيير كثير من الأمور، قلت لأهون عليه، وقد شعرت بمزيد من الحنو، وبنوع من الشفقة عليه: إنه زمن صعب يا ثاونا، ولكن لكل شيء آخر، والله لن يتخلى عنا أبدا، وهو القادر وحده على منح الراحة لأرواحنا.

تنهد، ثم سألنى فجأة:

– أتعلم أننى متشوق جدا لرؤية الأراضى الموحلة؟ فأنا أتخيلها وكأنها جزر فى البحر يحيطها الماء من كل جانب، ولا أعرف كيف تكون موحلة كما يقال عنها يا بدير!؟

شعرت للمرة الأولى عندما قال ذلك أننى أعرف شيئا لا يعرفه، وربما – وليسامحنى الرب– داخلنى شيء من الرضا بسبب ذلك، فسارعت أقول:

– والله من الصعب أن أصفها لك، لكنك على أية حال سوف تراها بعينك بعد وقت ليس بكبير، وهى على أية حال أرض يتم فيها اختلاط مياه البحر الرومى بمياه النيل العذبة، وقد تداخل فيها رمل البحر مع طمى النيل وغرينه. وترسب ذلك كله ترسبا قويا متينا فى بعض المواضع، بينما بقى لطيفا خفيفا فى مواضع أخرى من الأرض، وباتت له سيولة وزلاقة تغوص فيها أقدام السائر، وأقل إهمال أو عدم احتراز فى السير أو غياب للتنبه، قد يؤدى إلى الغوص والتهلكة لأن كثيرا من مواضع تلك السيولة ليس له قرار، ويمكن أن يبتلع الإنسان ويحتويه داخل الطين مثلما هو الماء الخالص تماما، لذلك يجب أن يكون هناك أدلاء عارفون بمواضع السير فى هذه الأراضى، إذا ما كان هناك غرباء، أما أهالى هذه الأراضى وساكنوها وكلهم من البشموريين أمثالى فهم يعرفونها جيدا بسبب تمرسهم عليها منذ صغرهم، وقد بنوا كورهم وقراهم على ما بها من مواضع راسخة التربة متينة القرار.

تنحنح ثاونا قليلا، وبان وكأنه متحرج من أن يسألني شيئا، فقد صمت، وربما كان يفكر في قول ما يرغبه على نحو لا تجانبه الرهافة، ثم قال:

– ولكن– ولتسامحني في ذلك يا بدير– لماذا اشتهر أهل الأراضي الموحلة من البشامرة بالخشونة والغلظة والعنف؟! ولا تؤاخذني يا عزيزي في ذلك فأنت منذ أن عرفتك في البيعة ومازلت حتى الآن لطيف المعشر لين الطباع، لم يظهر منك ما يعتبر من الغلظة والخشونة في المسلك والأخلاق.

حرت جوابا، فأنا وإن كنت قد سمعت ذلك مرارا خلال تجوالي، لا أدري له سببا، وإن كنت أتضايق كثيرا بسبب ذلك، بل كدت أضرب رجلا ذات مرة، لأنه عيرني عندما عرف أنني بشموري، فقال: مياه مالحة ووجوه كالحة، وكان يقصدني ويقصد أهلي البشامرة بذلك، ولم أتركه إلا بعد أن خلصه الناس مني، وكان ذلك بالقرب من قرية صادفتها وبدت في عيني وقتها كئيبة مريبة لا زرع أو خضار فيها، أهلها المجذومون المنبوذون الذين يترقبون خروج ووصول الحجاج المسلمين عند البركة الواقعة على أطراف الصحراء، فيتسولون منهم ما يقتاتون

أفضيت إلى ثاونا بذلك، ثم قلت مجيبا عن سؤاله: كان أبي يقول لي دائما، إننا نعيش كمن يعيش في الماء، فنحن لا نعرف مبتدأ أراضينا من منتهاها وهي في حالة تغير دائم، بسبب دخول البحر اليها حينا، وانحساره عنها حينا آخر، كما قال لي ذات مرة، إن مبتدأ وجودنا بهذه المواضع، كان سببه البحر، فأجدادنا الأوائل كانوا من راكبي البحر والمشتغلين به، لكنهم مع مرور الأزمنة توطنوا وأسوا إلى الزراعة فصارت معاشا لهم، وإن ظلت طباع البحر وأخلاقه هي المهيمنة عليهم، السائدة فيهم، فانتقلت إلينا من جيل إلى جيل، كما أن وجودنا في مبتدأ البلاد بالقرب من البحر دوما، جعلنا في موضع الصدارة لكل وافد غريب، أو معتد باغ، فطالما تعرضنا للغزو والنهب، خصوصا من لصوص البحر، الذين كانوا يسرقون إذا ما هبطوا – كل شيء حتى الناس.

لذا فأنت ترى أن سحنات الناس عندنا متخالطة، متداخلة، وإن مالت إلى البياض وكأننا من الروم أو من السوريين.

كنت قد تذكرت أبي وأهلي وأنا أروى له ذلك، فجاشت مشاعرى بالشوق اليهم، لكنى تجلدت كثيرا حتى لا تتساقط دموعى، ويبدو أن ثاونا أدرك ما أنا فيه، فقال محيدا بالحديث إلى موضع آخر:

– يا الله يا بدير أذهبت إلى قرية المجذومين أثناء هيامك قبل وصولك إلى البيعة؟! عجيب أمرك والله يا بدير! لكن الحمد للرب لأنك لم تصب بعدوى من هؤلاء المجذومين، لأن الجذام مرض فظيع يا عزيزى، ورحم الله يوحنا بن ماسوية الطبيب، فقد كان واسع العلم، عظيم المعرفة، وقد صنف كتبا كثيرة، فاق عددها الأربعين ومن بينها مصنف عظيم فى مرض الجذام، لم يسبقه إليه أحد ولا حتى جالينوس، ويقال إن هذا المرض يأتى وينتشر من علة تتعلق بدابة عضاضة ربما كانت نوعا من السلاحف، والتى يسميها بعض العرب «فكرون».

بقيت فترة صامتا أسير وقد تجسدت فى عينى مشاهد المجذومين فى قريتهم الغريبة، بعد أن نجح ثاونا أن يأخذنى بعيدا.. عما يهيج ذكريات أهلى فى ترنبط، ربما كانت مشاهد هؤلاء أبشع ما رأيت طوال حياتى، وقد تجمعوا نساء ورجالا فى ذلك المكان وكأنهم ليسوا من أهل الأرض، وقد تساقطت أنوف معظمهم، وبقى كثير منهم بلا أصابع تقريبا، وكانوا قذرين على نحو لا يصدق، وربما لا يدل على بشريتهم إلا عيونهم الشاخصة دوما إلى لا شيء، ورغم توهانى خلال ذلك الوقت إلا إننى لم أنس مناظر هؤلاء القوم أبدا، بل أقول إنهم ربما ردوا إلى جانبا من وعيى وشعورى، وكانوا عبرة لى لأحمد الرب على ما أنا فيه، وعلى كل حال، فى كل وقت ومكان.

هكذا رحنا نتحايل على ساعات الوقت ودروجه، وكلما أوغلنا فى الكلام ومكاشفة النفس للنفس بما يعتريها ويهجسها، ازداد شعورى بأن ثاونا هو قرين روحى، وصنو ألمى وهمى، وهو أهلى وناسى، ومن يمنحنى اليقين ويساعدنى على تقبل وجودى وحياتى.

وبقينا نقطع الطريق تلو الطريق، حتى وصلنا موضعا يقال له الحوف الشرقى، لم أكن قد رأيته من قبل، وكذا ثاونا، فلما ولجنا إليه، وجدنا أن أكثر ناسه من العرب، وإن كان بينهم من هو من القبط، لأن الرجل الذى رأنا عند مبتدأ الغيطان أثناء قدومنا، تحدث إلينا بلسان قبطى مخلوط بلسان العرب، ورحب بنا ترحيبا بالغا، قبل أن يقودنا إلى دار كبيرة حسنة البنيان قال لنا إنها لمترئس هذه البلدة من الحوف، ويقال له بلسان العرب «العمدة» وهو فى مقام المازوت باللسان القبطى، وأنه يتوجب على أى قادم إلى البلدة أن يلتقيه ليستعلم منه عن سبب قدومه، ويأذن له بالمكوث إن أراد.

وقد أخبرنا الرجل أن هذه البلدة، وكثيرا من بلاد الحوف، تقع على طريق حجيج المسلمين إلى البلد المقدس المكرم، وأن كثيرا من الناس صاروا يتعيشون على خدمة الحجاج وتركوا الفلاحة والزرع بسبب تكسبهم الكثير من ذلك. فلما دخلنا على صاحب الدار الذى هو العمدة، استقبلنا بحفاوة كبيرة وكأننا من أهل ملته، لأنه كان من المسلمين، وكان لطيفا بشوشا، دون افتقاد إلى الوقار والنبل، وتعجب كثيرا من مجازفتنا ومرورنا فى هذا الوقت، لأن الحوف كله فى حالة ثورة وانتقاض ضد الولاة، فلما أعلمناه بأننا نحمل رسالة إلى رئيس البشامرة، تعجب أكثر، لأنه لم يكن يعلم بانتفاضة هؤلاء.

وظل يقول: سبحان الله، ويكثر من قول ذلك وهو يصلى على رسوله الكريم.

ثم إنه أصر على أن نأكل فى داره، وقام فأمر بذبيحة، فلما قدم لنا شواؤها، وكانت شاة جيدة المذاق، إضافة إلى ثريد العرب، وفاكهة الموسم. أكلنا وحمدنا الرب كثيرا فراح الرجل يسألنا عن ديننا وطقوسنا، ومبتدأ دخولنا فى ملة المسيح وأنا ساكت تأدبا بينما ثاونا يرد، والرجل يستمع إليه بكل جد ووقار، ثم إن المؤذن نادى للصلاة كما فى عادة المسلمين، فقام الرجل مستأذنا، فدخل إلى محل الأدب ثم عاد وجاءه غلامه بماء طهور فى سطل من النحاس وراح يصب على يديه فغسلها حتى رسغيه ثم غسل فمه ووجهه وأذنيه وكذا ساعديه ومسح على رأسه. وكذا غسل قدميه؛ فتعجبت لذلك عجبا شديدا، وهمست لثاونا مبديا دهشتى ولم أكن قد رأيت ذلك من قبل فقال لى بصوت خفيض إن الرجل يتوضأ، أى يتطهر ويغسل جسده فى المواضع التى تكون عرضة للاتساخ حتى يقف بين يدى ربه نظيفا طاهرا وقت الصلاة. وقال أيضا إن المسلمين يفعلون ذلك خمس مرات كل يوم، فتعجبت أكثر لذلك. ولم أكن أعرف من قبل أنهم حريصون على النظافة والطهارة مثلنا نحن الأقباط، وبدا لى ذلك كثير الشبه بوجوب غسل القدمين قبل الطلوع الى هيكل قدس الأقداس فى البيعة وتطهيرها من الإناء النحاس المملوء ماءً مطهوراً والموضوع على مطهرة الخميس الكبير، وكما شهدت التوراة بأنه كان فى القبة الخارجة والقبة الداخلة سطل من نحاس لتطهير أقدام الكهنة قبل دخولهم قدس الأقداس فى قبة الزمان.

ثم إن العمدة اتخذ موضعا فى ركن الغرفة وراح يصلى ونحن موجودان فى المكان ذاته ليس بعيدا دون أن يتحرج من وجودنا أو يجد ما يمنعه من عقيدة ونحن من أهل البيع كما هو ظاهر من مخبرنا ومظهرنا.

فتعجبت لذلك أكثر، وإن كنت بقيت صامتا وكذلك ثاونا ولم ننطق تأدبا وإجلالا، والرجل واقف يصلى فى حضرة ربه، فلما انتهى سلم وصلى على نبيه وسلم تسليما، وعاد إلى مجلسه بيننا، وأخذ يحدثنا عن العرب اليمانية، وكذا العرب

القيسية الذين جاءوا إلى هذه البلاد وكان مبتدأ ورودهم زمن الولاة الأوائل وأنهم نزلوا بهذا الحوف الشرقى، واتخذوا الزرع معاشا، لكن الولاة ظلوا يضيقون عليهم بالخراج بين حين وحين مثلما فعلوا مع القبط، كما ظلوا يضيقون فى حساب القصبات كثيراً، حتى ضجت الناس وضاقت بعسف هؤلاء الولاة، لذلك فلقد امتنعوا فى نهاية الأمر عن دفع الخراج، خصوصا بعدما جاءهم آخر مساح وأخذوا يمسحون الأراضى المنزرعة، فانتقصوا من كل قصبة أصابع، فتظلم الناس إلى أمير البلاد فلم يسمع منهم، لذلك فقد عسكروا جميعا وثاروا.

كان الرجل يحكى هذا وهو غاية فى الغضب، يمسح على لحيته بعصبية وتأثر بين الحين والحين ويدعو دعوات كثيرة على الولاة، متمنيا على الله أن يحل عليهم نقمته، فتكون آية تجعلهم يرعوون عما هم فيه من ظلم للناس، ويعودون إلى العدل وفعل الخير، وظل يقول إن فعلهم ليس بفعل المسلمين الأوائل، الذين يجب الاقتداء بهم فى الأفعال والأقوال، وإن دين الإسلام ما أمر بظلم أو جور أبدا، وأن هؤلاء الولاة والأمراء، إن استمروا سادرين فى غيهم، يزرعون الشر، فإنهم فى النهاية لن يجنوا غير الحسك والشوك.

وظل الرجل يقول كلاما كثيرا بلسانه العربى، وقد فهمت بعضه، وثاونا يترجم لى ما لا أفهمه، وكنت لا أتردد فى سؤاله أثناء ذلك، ثم إن الرجل خرج ليودعنا بعد أن استأذنا فى معاودة المسير، ومشى معنا ونحن إلى جانبه مترجلين عن الدابتين تحشما حتى بلغنا نهاية البلدة، وكنا أثناء مسيرنا قد رأينا الناس فى الأزقة والطرقات، وقد ارتدى أغلبهم الملابس العربية، وكانت النساء يسرن مكشوفات الوجوه، يخالطن الرجال فيما يستوجب المخالطة من معاملات وبيع وشراء، دون أى حرج، وقد كنت أظن أن نساء المسلمين لا يخرجن من دورهن ولا يخالطن الرجال فى أى أمر من الأمور.

فارقنا الرجل بعد أن ودعناه شاكرين وقد أوصى بنا العسكر الذين كانوا يحرسون مخارج البلدة وهم فى حالة تأهب واستعداد، فأكرموا خروجنا دون أية مضايقة، ودلونا على الطريق الأسهل للوصول إلى حذاء النهر بغيتنا حتى نسلكه

صعودا إلى الأراضى البشمورية، لكن ما أن سرنا قليلا حتى استوقفنا رجل قبطى طيب، حذرنا من السير بحذاء النهر قائلا إن هناك بلدة قبطية يقال لها سمنود يمكن أن يحصل لنا مكروه كبير لو دخلناها لأن بها شغبا كثيرا. وقال بسبب أن بعض الرهبان، قد وفدوا عليها من دير لم يسمه، ودخلوا بيعة من بيعها، فلما كان وقت القداس الإلهى، أضاف هؤلاء الرهبان إلى الاعتراف الأخير كلاما وقالوا: «المحيى كصفة لجسد المسيح، هذا هو الجسد المحيى»، فثار عليهم القساوسة والناس، وكادوا يفتكون بهم.

ثم إن الرجل نصحنا بالدوران حول البلدة لنلزم خط النهر من الجهة الأخرى، فشكرناه ومضينا، فلما بقينا وحدنا بعد أن غادرنا الرجل، قال ثاونا:

- أرأيت ذلك الاضطراب فى كل شىء حتى الرهبان فى الأديرة صار بعضهم يخلط ويهرطق دون خجل أو مواربة! بل ومازال هؤلاء يفعلون مثلما كان يفعل فى الماضى، من صياغات تلفيقية إيمانية لمآرب فى نفوسهم، وأغراض تخص مصالحهم، فيقولون بمشيئة واحدة فى المسيح، بدلا من طبيعة واحدة فى المسيح! كما فعل ذات مرة الطاغية الرومى هرقل الذى ابتدع هذه البدعة المونوثيليتية المرذولة، وحاول إرغامنا نحن الأقباط التاوضوسيين على قبولها، وقام بتعيين بطريرك نسطورى على كنيستنا فى ذلك الوقت. ماذا أقول.؟! لنا الله يا بدير وهو الحافظ للجميع أولا وأخيرا.

بقينا سائرين، أقود ثاونا حامل رسالة الأب يوساب بمنتهى السهولة واليسر، وأنا أميز بين التربة المأمونة الراسخة التى يتوجب السير عليها، وتلك المرملة المبيضة التى هى غيض غائض لا قرار له، حتى أوشكنا على الاقتراب من بلدان كورة البشمورى، ولم نلبث إلا قليلا حتى اجتزنا الأريسيية، بعد أن استجوبنا العسكر الحراس على مداخلها، فشرحنا لهم الغاية من مرورنا بها، ولما أذنوا لنا، توجهنا إلى النجوم وهى محلة البشمورى ذاته، وقد هالنا عندما نظرناها، ما كان قد أخذنا عند مرورنا بالأريسية كذلك، أن الفلاحين منتشرون فى كل مكان وقد تسلحوا بالعصى والقسى والحجارة والمقاليع والآجر المقطع والبارية المقيرة والجعبة أو المخلاة والتراس من البوارى، كما كانت على رءوسهم الخوذ من الخوص النابت كثيرا فى المستنقعات والمجارى بأراضيهم الموحلة، وكان بعضهم يكتفى بمئزر يلف، به وسطه، وقد جعل فى عنقه الجلاجل والصدف الأحمر والأصفر ومقاود ولجما من مكانس ومذاب، وهو عار ما عدا ذلك المئزر الساتر للعورة وموضع الحياء، ثم إننا طلبنا الحمام من بعضهم لنغتسل ونتهيأ قليلا قبل دخولنا على مينا بن بقيرة، فلما أوصلونا إليه، وجدناه حماما قديما حسنا، قال ثاونا: إنه ربما يعود إلى زمن حكم الروم للبلاد. ثم إنهم قادونا إلى حجرة ضيقة قالوا لنا إنها المستخدمة الآن فى أمور النظافة والتطهر من بين مواضع الحمام كله، إذا أن مساحاته وفسحاته كلها قد عينت لأمور الحرب والقتال، فهو بمثابة موضع السلاح ومخزنه لرجال البشمورى المحاربين، كما أنه كرس لمبيت أكثر عسكره، فطلبنا بلطف أن نعاين ذلك ونراه بعد فراغنا فوافق القائمون على الحمام بعد لأى وقد تلمسوا فينا الطيبة والخير، وتأكدوا أننا لسنا من الجواسيس أو البصاصين التابعين لوالى البلاد، بل رجال كهنوت لا ناقة لنا ولا جمل فى هذه

الحرب الدائرة ولا نبغي غير حقن دماء عباد الله سواء أكانوا من القبط أو المسلمين.

فلما جلنا متفقدين المواضع داخل ذلك الحمام، هالنا السلاح الكثير وتعدد الرجال المحاربين من البشامرة الفلاحين ومعهم بعض المسلمين العرب، الذين انضموا للبشموري، وثاروا ثورته. وكان من يجلس منصرفا الى عمل يعمله بسلاحه، ومن يقف يتدرب على الرمي وقد اتخذ من صحن الحمام ميدانا للتدريب والرماية، فلما رأونا التفوا حولنا، وقد سمعت بأذني البعض يرمينا بالشتائم القبيحة وينعتنا بأننا من أهل مصر المنعمين وهو يقصد بمصر أهل قصر الشمع، فلم أترجم لثاونا ذلك حتى لا يغضب ويتضايق بل حثثته على الإسراع بالخروج خوفا مما لا يبتغيه قبل وصولنا إلى موضع مينا بن بقيرة، وقد هالنا خلط النساء بالرجال فى هذا الموضع من الحمام، إذ كان هنـاك من النسوة من يشتغلن بتكسير الطوب وإعداد الحجارة والآجر، وعمل المخالى، كما كانت هناك عجائز منصرفات إلى شؤون الخدمة من طهي وتنظيف وخلافه، وقد شاهدت «أزانا» ضخما يصطلى بنار قوية أعدت من خشب البوص، وبه مرق يغلى من ذلك النوع المسمى السخين، وقد قال لنا من لازمنا أثناء تفقدنا مواضع الحمام، إن جل أكل المحاربين هو من خبز بر الشعير وذلك المرق المتخذ لهم كإدام.

وأثناء خروجنا من الحمام، تقدم منا أحد الفلاحين العسكر برق، فلما فتحه ثاونا، وجد مكتوبا فيه بعربية واضحة:

لا صبر لا صحناة لا دلنيس
ولا نيدة أو ثريد أو خبز
فثرْ على الولاة وقم
لا ترجُ سبباً لهم أو عذر

فوضعها ثاونا فى جيب ردائه وهو صامت، فلما تركنا هؤلاء وخرجنا لنعاود المسير مرة أخرى، قال ثاونا:

– ألا ترى أن هؤلاء العسكر لا يعتنون بأمور الدين كثيرا؟!

قلت له موافقا:

– أجل.. لاحظت ذلك وتعجبت كثيراً، لكن تعجبى الأشد كان لوجود هؤلاء العرب المسلمين بين البشامرة. نحن لم نسمع عن ذلك من قبل فى قصر الشمع.

رد قائلا:

– ليس عربا مسلمين فقط، ولكن مسلمين من القبط أيضا.. ألم تر ذلك الذى كان يحت بسكينة قرون البقر، إنه من المسلمين القبط وملبسه يشى بذلك فهو يلبس عمامة وإن كانت مهترئة. أما المرأة التى كان يحادثها وهى تغرف له المرق فهى قبطية لأن أحد خفيها كان أسود والآخر أبيض.. إن التذمر والغضب دفع أناسا للانضمام إلى البشمورى، وقد تتعدد الأسباب لكن الرغبة واحدة فى العصيان والتمرد، وقد سمعت فى قصر الشمع أن هناك بعضا من أولئك الذين قالوا بخلق كتاب المسلمين قد تسللوا سرا الى مصر السفلى والتحقوا بالبشمورى، بسبب اشتداد الملاحقة لهم من قبل الخليفة، والحث على طلبهم والقبض عليهم. إن من العجيب أن ترى هؤلاء المقاتلين فى نشاط وهمة دائبين يهزرون فيما بينهم ويتضاحكون رغم الهزال الواضح عليهم! أرأيت ذلك الذى كان جالسا يغنى هازجا وكأنه فى حفل وليس فى وقت حرب واقتتال!

وكان قد جاءنا ونحن فى الحمام بعضهم، وطلب منا أن نرسمهم بالزواج وقد رجونا أن نبقى فى البلدة مدة من الوقت فلا رجل كهنوت فيها ليقوم بذلك.

عند مدخل المحلة، وجدنا رجالا مسلحين بعصى وسيوف ونقافات وقسى ونبال وما أن رأونا نقترب منهم حتى صاحوا صارخين فينا وقد وجهوا إلينا أسلحتهم، وكادوا يرموننا برميهم لولا لطف الله وصياحى فيهم بلسان بشمورى جلى ألا يفعلوا لأننا قبط جئنا من مصر العتيقة حاملين رسالة تخص الرئيس مينا من متولى بيعة السيدة العذراء فى قصر الشمع بمصر العتيقة. فتوقفوا قليلا، ثم اقتربوا منا بحذر، وراحوا يفتشون ملابسنا وكذا جرابات البغلين، وبدوا لى أفظاظا

غلاظا، ذوى مسلك يفتقد الى الذوق والأدب، ورغم ذلك صبرنا عليهم وظل ثاونا يتلطف معهم، حتى تيقنوا أننا لم نكذبهم القول، وقد أبرز ثاونا لهم الرسالة وعليها أختامها، فقادونا إلى مقر البشمورى عابرين بنا طرقات البلدة، وقد حرسوا علينا من كل ناحية بأسلحتهم.

كنت أسير خلال ذلك أفكر متوجسا فى أن يتعرف على أحد من الناس فى هذا المكان فيكتشف أمرى، وكنت أتلصص خلال المسير، متطلعا إلى الوجوه التى تصادفنى، دون أن أنظر البيوت والأبنية كما يفعل ثاونا الذى بدا لى مندهشا من تواضع بيوت الفلاحين وافتقارها الى العمارة الجيدة، كما هى الحال فى مصر العتيقة والفسطاط، ورغم خوفى وتوجسى، كنت أتمنى أن أجد أو أتعرف على واحد من أترابى الذين عرفتهم وصادقتهم ذات يوم، أو شخصا من أهلى، لكنى حمدت الله كثيرا على أننى لم أصادف أيا ممن عرفتهم فى الماضى، وربما كان ذلك من حسنات الزمان وقوته.. فهو يغير كلما مر سحنات البشر ويبدلها، دون أن يشعر بذلك إلا من يتأمل نفسه ويطالعها كثيرا، فمن كنت تعرفه فى طور اليفاعة والصبا، قد لا تعرفه عندما يكبر ويشيخ، وللقدير فى ذلك حكم.

لما وصلنا إلى مقر مينا بن بقيرة، وكان دارا قديمة واسعة مبنية من الطوب اللبن كما جرت العادة فى بيوت الفلاحين يشى حسنها واتساعها بأنها ربما كانت فيما سبق مقرا لمازوت البلدة ورئيسها، لم يكن مينا حاضرا وقيل لنا أنه خرج فى أمر من أمور تحصيناته فى قرية قريبة، فبقينا ننتظره، وخلال ذلك رحنا نتحدث الى من مكثوا معنا من أتباعه حتى يجىء، وقد أجلسونا على «دكة» من «دكك» الفلاحين الخشبية المعتاد صنعها من خشب الجميز فى هذه المناطق، وكان فرش المكان كله من الحصير المجدول والطبالى الفلاحى، ولا أكثر من ذلك، بعيدا عن الترف ومظاهر النعمة والغنى، وقد قيل لنا أن مينا كثير التواضع، ميال الى التقشف، لا يسعى الى خير يستأثر به وحده أبدا، وإنه لا يأكل غير الخبز إن وجد ويصوم كثيرا، بل وقال – من يحبه كثيرا من بين الذين تحدثنا إليهم – إنه لا يشرب غير نبيذ البطيخ الأحمر فى بعض الأحايين، وأنه صار يأكل الفأر المتولد

فى الغيطان مثلما بات يفعل الفلاحون، ويطلقون على ذاك سمانى الغيط، والجميع يجله هنا، لأنه عاش قبل ذلك زمنا فى العز أيام أن عمل فى حسابات الخراج، فكان يأكل الحلويات المتخذة من السكر كخبيص اليقطين وخبيص الجزر والوردية المتخذة بالورد والزنجبيلة المتخذة بالزنجبيلية وأقراص العود وأقراص الليمون وأقراص الممسكة، وقد زعم بعضهم أنه رآه يأكل فى زمن العز ما يأكله الولاة والملوك، فكان يصنع فى داره رغيف الصينية وصفته أن يؤخذ من الدقيق ثلاثون رطلا ويعجن مع خمسة أرطال ونصف رطل سيرج ثم يقسم بقسمين ويبسط أحدهما رغيفا فى صينية نحاس، ثم يعبى على الرغيف ثلاثة خرفان مشوية محشوة الاجواف بلحم مدقوق ومقلب بالسيرج والفستق اشهروس والأفاوية العطرة الحارة كالفلفل والزنجبيل والقرفة والمصطكى والكزبرة والكمون والهال والجوزة ونحو ذلك، ويرش عليه ماء ورد قد أضيف فيه مسك، ثم يجعل على الخرفان ويبدو أن من قال ذلك كان جائعا يتشهى الطعام، فبدا كمن يحلم وهو يقظان مفتوح العينين، فتبسم ثاونا قليلا وأخذ يسايره بالكلام، حتى نقطع الوقت، ونصرف ملل الانتظار، ثم إن ثاونا أخذ يسألهم «سؤالات» ويطرح عليهم حزازير لاهوتية حتى يقوى إيمانهم، ويعلمهم العقيدة الحقة دون أن يستشعروا ذلك، أو يدركوا إدراك المتلقى للموعظة والعلم، وكان يستمع لإجاباتهم الخاطئة بكل صبر وعطف مهما كانت مرذولة محشوة بالحماقة والجهل، ثم يدلهم إلى الإجابة الحقة آخذا بيدهم الى طريق الإيمان، وكان مما سأله لهم: لماذا أوجب الرب عقاب الجسد مع النفس؟ فلما تخبطوا فى الإجابة وتشتتوا، قال لهم: إن وجوب عقاب الجسد مع النفس، القصد منه تهديده وتأديبه، لأن البهيمة غير الناطقة إذا أدبت بالضرب عن إتيان شيء مرة بعد مرة، تأدبت وانتهت عن فعل ذلك خوفا من الضرب، وكذلك الجسد إذا عوقب مع النفس عن ارتكاب الخطايا، تأدب هو أيضا كمثل أدب البهيمة، فاذا اشتهى الخطيئة خوفته النفس بالأدب الذى عوقب به، فيخاف ويوافق النفس على ترك الخطيئة التى اشتهاها، هذا إذا كان يبادر بأخذ العقوبة عن كل خطيئة يفعلها أولاً بأول ولا يتوانى عن ذلك، فإذا ما فعل ذلك

مدة يسيرة، يبادر بعقوبة نفسه وجسده كليهما بالفضيحة والقانون، ويثبت ذلك في نفسه ويتوطد، وعندئذ تثبت مخافة العقوبة في نفسه وجسده.

ثم إن البشموري جاء فجأة، ودخل علينا بين ثلة من رجاله وأعوانه، فما أن رآنا حتى نظر إلينا بدهشة وريبة، وسمعته يسأل واحدا من أعوانه عنا، فلما أعلمه قال: مرة أخرى يرسلون رسلا إلينا، ويكتبون لنا كتابا؟ ألن يكفوا عن هذا الأمر أبدا؟ فترجمت لثاونا هامسا ما يقول، وقد كنت حريصا أن أبقى قريبا منه قدر استطاعتي لأقول له كل ما يقال بالبشموري، أو لأجيب عما يريد السؤال عنه، ثم إن مينا اقترب وحيانا، فرددت عليه تحيته بلسانه، فلانت أساريره، وهدأ حنقه، ولطفت خشونته قليلا، وراح يسألني عن أصلي وفصلي وأنا أحتاط في الكلام معه خشية اكتشاف أمري، فقلت إنني تلسنت البشمورية عن أمي التي كان أبوها من هذه المواضع، لكنه ارتحل إلى مصر العتيقة، وقد مات كلاهما مبكرا فلا أعرف شيئا عن أهلي بعد ذلك، وقد تبناني رجل حجار بعد وفاة أبي ورباني حتى اشتد عودي وصرت يافعا، وقدر الله لي الاشتغال في البيعة.

ثم إنه طلب لنا نبيذ البطيخ لنشربه، واعتذر لأنه لا يجد لديه شيئا غيره يقدمه لنا، فشكره ثاونا كثيرا، وبدأ يكلمه بكل أدب واحترام، بينما رحت أنا أترجم له لسان ثاونا الاخميمي، وهو يقول:

– لقد جئت أيها الأخ الطيب حاملا إليك رسالة من رئيس بيعتنا في مصر وهي بيعة السيدة العذراء في قصر الشمع، وأنت تعلم أنه كان قد أرسل رسائل عدة قبل ذلك فأرجو أن تقرأها وتوافيني بالرد في التو، لكني قبل ذلك أقرئك السلام، وأعرفك أني ثاونا الشماس بالبيعة ومن العباد المؤمنين، وقد تشرفت بمعرفتك ودعوت الله كثيرا أن يحفظك ويحفظ رجالك منذ دخولي إلى محلتكم، ولي رجاء أن توافيني بالرد سريعا، لأعود إلى سيدي البطرك المنتظر هناك في مصر، فالأمر لا يحتمل التأخير والإبطاء كما قال لي نيافته، وكل درج من دروج الوقت يعني الكثير الخطير بالنسبة له.

كان أتباع البشمورى ورجاله يتفحصونا مليا أثناء ذلك، وقد التمعت أعينهم بتحد وعداء لنا، بينما نظراتهم تجول بملابسنا الكهنوتية وأحذيتنا، وتنطق بما يعتمل فى داخلهم من إدانة لنا وهم أشباه الحفاة العراة الجائعين، بينما مد ثاونا يده مقدما الرسالة إلى البشمورى، وكانت محطوطة فى جراب من جلد التمساح.

وكانت رقا مخطوطا بأقلام عدة، ومعها رق أخر، قال ثاونا إنه حجاب حافظ صنعه الأب يوساب بنفسه لأجل مينا وعليه أن يحمله معه أينما ذهب وحل.

أخذ البشمورى يقرأ الرسالة بدقة بعد أن فض أختامها على عجل، فلما انتهى رفع رأسه، فبدا كأسد مزمجر بالغضب والعنف، رغم وسامته الظاهرة، ثم قال وقد جلس قبالتنا القرفصاء على الحصير، مثلما كان يجلس من كانوا معه:

– هكذا تطلبون منا مجددا فى قصر الشمع، أن نسلم للوالى ونرمى سلاحنا، فنطيعه وندفع له ما فرضه علينا من دمز[1] كل عام، وأن نحضر بعد ذلك بأنفسنا لملاقاة الأب يوساب بكل سرعة، حتى يقدمنا للوالى ونقدم له فروض الطاعة والامتثال؟

ثم إنه التفت إلى جميع الجالسين حوله، وكانت عيونهم تتطلع إليه بكل جد واهتمام، وقال: سأقرأ عليكم يا إخوانى الرسالة بحذافيرها، وأرجوكم أن تصبروا على ما فيها وأن تملكوا زمامكم فلا تفعلوا ما يغضبنى منكم ويعرضكم للعقوبة، مثلما فعل البعض فى المرات السابقة، ثم تلا:

بعد السلام والتحية:

«كما قال الكتاب فى المزمور٧٧» الذى سمعنا رأينا وأخبرونا آباؤنا، وكما أخبر موسى النبى، فإنه كتب ما كان فى الأرض من آدم الأول إلى زمانه، ثم بعده الأنبياء الذين تنبأوا على هذه القضية وتعاليم الآباء المؤيدين الذين للبيعة

(١) دمز: خراج بالقبطية.

والكلام المقوى للأمانة والأخوة بين المعمودية اللابسين النور والآباء المؤيدين الذين أثبتوا الأساس القوى والدعامة الوثيقة والرب يسوع المسيح المخلص الذى نجانا وخلصنا من آثامنا بتجسده من العذراء الطاهرة والمنعم علينا بفتح قلوبنا وأذهاننا بسماع كتبه المقدسة، فيلن ويستن ويوسابوس الذين من اليهود الذين أخبروا أولا بخراب أورشليم والذين وضعوا لنا سيرة البيعة المقدسة أفريقنوس وأوسابيوس والصوزامنوس، أظهروا لنا الجيد والردىء والبلايا التى حلت بالقديسين والرعاة لقطعان السيد المسيح وما نالهم من التعب على البيعة والشعب الأرثوذكسى من المتولين فى كل زمان ليس بكورة مصر فقط، بل وأنطاكية ورومية وأفسس التى كان فيها هارسيس نسطور الذى يستحق لسانه القطع من أصله، وبقية المخالفين فى ذلك الزمان، وبدد الله جمعهم مثل الغبار أمام الريح شبل الأسد الحكيم كيرلس الذى قطعه وغيره من المخالفين وجعل كتبه فى سائر بيع المسكونة الأرثوذكسية، كما أظهر لنا ذلك الكتاب الذى ابتدأ بأسمائهم الى أن انتهو الى المعترف المجاهد بالحقيقة ديسقرس الذى أحرم لاؤون الذى هو السبع المفترس للأنفس كاسمه وأحرم الستمائة والثلاثين المجتمعين بخلقدونية وأحرم مرقيان الملك والملكة بلخارية المرذولة وجميع من اتبع لاؤون تحت الحرم.

أما بعد، فأنت أعلم أن كورة مصر، قد هلك أهلها من الظلم والخسائر والخراج، كما أن أصحاب تاووفيلكس الخلقدونى لا يألون جهدا لاغتصاب بيعنا التاوضوسية بغير حق، رغم ما تعانى منه بيعنا الطاهرة الآن من ظلم وعسف، وما ندفعه عليها من خراج والخلقدونيون يحملون الهدايا ويدفعون البرطيل لذوى السلطان حتى يغتصبون بيعنا وهم يقولون.. فى البداية كان الملك لنا والكنائس وجميع ما لها لنا، وإنما المسلمون سلموها للقبط عند تغلبهم على ديار مصر ونحن الآن يا ولدى مقيمون فى مواضعنا، وكنائسنا بيدنا والله ما يغفل عنا ولا يتخلى عن معونتنا، ثم إن هؤلاء العرب لا طاقة لنا بمقاومتهم، فهم قوم خلقوا للكر والفر، ونحن قوم قدر الله لنا الزرع والفلاحة منذ ساحق العصور، ولا قدر لنا على نزالهم، فإن نحن نازعناهم وضيقنا عليهم، انقلبوا علينا حتى يهزمونا وعندئذ قد تسوء عاقبة الأمور.

وقد يؤذون الكنيسة الجامعة ويقطعون خبرها من البلاد، فتورد الى منازل التهلكة، لأن الكنيسة هى الحافظة لمصر، فإن ضاعت، ضاعت معها البلاد الى الأبد، فلنفاوضهم يا بنى على الخراج، ونصالحهم على ما يرضينا ويرضيهم حتى نحفظ كنيستنا القبطية الأرثوذكسية من كل شر وضيق.

وأنت تعلم يا ولدى أننى أطلب إليك الكف عن منازلة الحكام كارها. كما تعلم أنه قد أصاب الآباء والكهنة منهم بلاء كثير منذ وجودهم حتى الآن ولعلك تعلم ما فعله عبدالملك مع مروان بعد أن جاءه بحشود كثيرة، وجرى بينهم سفك دماء لا حصر لها، ثم إن عبدالملك جمع بمصر مقدمى جيشه واعتقلهم سبعة أيام واعتقل أيضا كتاب الدولة ومقدمى البلاد والمواريث، وطلب منهم دفع الحساب والقيام بما عليهم، ثم أحضر الأب أنبا ميخائيل الى مصر لأجل خراج البيعة، فلما وصلنا اليه طلب منا ما لا نقدر عليه فأمر أن نعتقل وأن ترمى فى أرجلنا خشبات عظيمة وأطواق حديد ثقيل فى رقابنا وكان معنا الأنبا مويسيس أسقف أوسيم، وأنبا تادرس أسقف مصر، وأنبا إيلياس بولس ولد أنبا مويسيس بالروح، وجعلونا فى خزانة مظلمة، لا ننظر منها الشمس وليس فيها طاق؛ لأنها كانت نقرت فى حجر، وكنا تحت ضيق عظيم من التكبيل بالحديد من الحادى عشر من توت الى ثانى عشر بابه لم ننظر فى هذه المدة شمسا، وكان معنا ثلاثمائة رجل، ونساء أيضا معتقلات فى ضيق أكثر من الرجال، والحزن والبكاء والضيق العظيم عند انقضاء النهار، ويغلق المتولى السجن علينا ويمضى ولا يعود الى سابع ساعة من النهار، وكان المرضى والإعلاء يجيئون إلينا فى السجن لنباركهم ويسروا، ومن النصارى والمسلمين حتى البربر كانوا يجيئون إلينا ويعترفون بذنوبهم التى فعلوها، وكذلك المسجونون.

وأنا أقول لك يا ولدى: هذا بلاء قليل من بلاء كثير قابلناه مع الكهنة الأرثوذكسيين من أبناء بيعتنا، وبيعنا فى خطر، فارجع عما أنت فيه، لنحفظ كنيستنا وبيعنا وتسلم بلادنا من كل أذى، وأنا أكتب لك هذا السوديقا، وأباركك باسم الرب، وأبارك جميع البشموريين فى كورة مصر».

ما أن انتهى مينا بن بقيرة من قراءة رسالة أبينا إلى أعوانه، حتى طواها مرة أخرى بسرعة، ودفعها الى ثاونا، وراح يجز على أضراسه، ثم قال بصوت خنقه انفعال الغضب وهو يقول لإخوانه، وقد بدا لى وكأن شيطانا قد ركبه:

– ها هى الرسالة أمامكم حرفا حرفا دون زيادة أو نقصان، هم هناك فى مصر العتيقة يريدوننا أن نرجع عما نحن فيه، ونسلم لقائد المسلمين، بعد أن دوخنا عسكره وبات النصر قريبا دانيا منا على أولئك الذين أذلونا وأجاعونا وخربوا ديارنا واعتصرونا اعتصارا، وحلبوا البلاد كما تحلب البقرة حتى جف الضرع وذبل الزرع، ألم يقل قائل منهم ذات يوم مخاطبا سيده فى هذا الأمر «إنما أنا مثل ماسك قرنى البقرة لغيرى ليحلبها، أو ليس رأيهم فينا أن يجلدونا بالخراج بدلا من السياط لأننا إن تيسر عيشنا وهنئت حياتنا تفرغنا عليهم وأخرجناهم الآن وقد دوخناهم وهزمناهم جيشا تلو جيش فى كل الكور من أراضى مصر السفلى، وهذا ما لم يحدث منذ مبتدأ انتفاضتنا زمن المدعو الحر بن يوسف الذى تأمر علينا وقت حكم هشام بن عبدالملك، عندما كان متولى الخراء الذى يسمونه الخراج عبدالملك بن الحباب، فزاد على كل دينار قيراطا فانتفضت كورة وتمى، وقربيط، وطرابية، وعامة الحوف الشرقى، فبعث اليهم الحر بأهل الديوان فحاربوهم، فقتل منهم بشر كثير، ثم انتفض بعد ذلك أهل الصعيد.

أتنسون يا إخوانى المقتلة التى أعملوها فى أهلنا، عندما حارب هؤلاء الفلاحون عما لهم سنة إحدى وعشرين ومائة بتاريخ هجرة رسول العرب، فبعث إليهم حنظلة بن صفوان أمير مصر أهل الديوان، فظفروا بنا ولم يتركوا من أهلنا حتى النساء والأطفال؟

أتذكرون خروج بخنس فى سمنود وقتل عبدالملك بن مروان له وأصحابه؟ أتذكرون انتفاضة رشيد، وما كان من أمرهم مع عثمان بن أبى قسعة مبعوث مروان بن محمد الجعدى لهم ودحرهم على يديه؟

أتذكرون حوادث سنة خمسين ومائة التى دونها كتابهم ومؤرخوهم ليشهد شاهد من أهلها؟ حيث خرج الأهالى على يزيد بن حاتم بن قبيصة ابن المهلب

بن أبى صفرة أمير مصر بناحية سخا ونابذوا العمال وأخرجوهم، ثم إنهم صاروا إلى شبرا سنباط، وانضم إليهم أهالينا هنا فى الأرايسية والنجوم، فأتى الخبر يزيد بن حاتم، فعقد النصر بن حبيب المهلبى على أهل الديوان ووجوه مصر، فخرجوا إلى أهالينا من القبط الذين قاتلوا العسكر، حتى ألقى هؤلاء الأخيرون النار فى قرانا وانصرفوا منهزمين.

كنت أنظر البشمورى، وقد أخذه الحماس وبدا لى وكأنه يتألم وهو يتذكر ويتلو كل تلك الحوادث الجسام، إذ كانت يداه ترتعشان، وصوته يرق تارة بالحزن ويخشوشن ويجيش تارة بالغضب. وكنت متعجبا من علمه العليم بكل هذه التواريخ وحفظه لها، ويشهد الله أننى تأثرت جدا بما قال، ولان قلبى له جدا، حتى أن عينى ندعت، وكنت أمسك نفسي وأتصبر حتى لا تفر الدمعة منها، ثم إن البشمورى واصل كلامه، بينما أعوانه شاخصون اليه بكل شعور واهتمام، لا يحيدون بأبصارهم عنه، ولا يهمس بينهم هامس، حتى لا تفوتهم كلمة واحدة من كلماته التى واصلها بقوله:

- أقول لكم كل تلك الحوادث يا أخواتى، حتى أذكركم بما كان فيه أباؤنا، وحتى لا تثبط لكم عزيمة، ولا يهمد لكم حماس، والآن: آباؤنا الطيبون فى مصر العتيقة، يريدوننا أن نترك السلاح.. وما هم إلا أهل بيعة أتقياء، تفرغوا لخدمة الرب، وهم ليسوا بزارعين للأرض ولا كادحين فيها، بل هم لا يعلمون حقا ما نحن فيه، هنا فى مصر السفلى وفى الأرض الموحلة، وقد ضيق هؤلاء الولاة علينا بالخراج حتى أكل الناس حشائش الأرض، وديدانها، وهرب من هرب إلى الصحراء والبوادى مع نسائه وعياله، ومات من مات، بل إن كثيرين قد جنوا، وهاموا على وجوههم بسبب الجوع وانعدام الغذاء، وانتشر الوباء وتمزقت الأسر وتخرب وجدان الناس، لأن البعض آثر الدخول فى الدين الجديد، حتى أصبح تحت سقف البيت الواحد أخوان أحدهما مسلم والآخر مسيحى، بل ويجوز أن يظل الأب مسيحيا دون سائر أهل بيته، والآن أنا أقول إننى لن أدع لهذا الأمر نهاية إلا بحد السيف، ولن أكف عن القتال حتى آخر نفس فى جسدى، وقد صارت الحياة والموت سيان لا فارق بينهما فى ظل هذه الأحوال والأهوال.

فلن أعيش عبدا على أرضى، ملزما بدفع دينارين وثلاثة أرادب حنطة، وقسطى زيت وقسطى عسل وقسطى خل من كدى وعرقى، وأن ألبسهم مما أصنع جبّة صوف وبرنسا وعمامة وسراويل وخفين لزاما فرضا، لا والله لن أعيش مع كل هذا أبدا. وليسامحنى الرب إن كنت قد خالفت ما ارتآه أبونا فى مصر العتيقة، وليرحمنى الغفور، إن كنت قد عصيت له أمرا رغما عنى، لأن الرب لا يرضى الظلم، وهو الحاكم لنا ومقدر معاشنا ومماتنا، وليتولنا برعايته ورحمته الواسعة ويقضى بنا أمره ونحن له لطائعون ممتنون.

كنت أترجم لثاونا خلال ذلك، بصوت خفيض هامس، كل ما يقوله مينا الزعيم، فما أن انتهى، حتى علا اللغط وتداخلت كلمات التأييد له والثناء عليه من جميع القرارية أتباعه، وراحوا يهتفون ويجددون له الولاء معلنين عن تبعيتهم له واستمرارهم معه فيما هم فيه، وعندئذ تيقنت أن هذا الشاب الذى لا يمكن أن يكون عمره قد جاوز الثلاثين بأى حال من الأحوال مهيمن كالساحر بسحره على هؤلاء الفلاحين المأمورين بأمره، وجعلهم من القرارية الملزمين جبرا على عدم مغادرة الأرض كمعظم الآخرين وفقا للأحكام المفروضة عليهم منذ زمن قديم، وقد شعرت أثناء ذلك أن هذا الزعيم البشمورى ذو كياسة وكأن شيئا قد مسه مما لدى أهل المدن من لطافة وذوق. على رغم أن شكله لا يفترق كثيرا عن القرارية؛ فهو غليظ الملامح مثلهم، وإن خالطت ذلك وسامة وعافية، إذ أنه طويل ممشوق لجلده لون الحنطة والشهد، يكلل رأسه شعر أسود جعد.. يمتد حتى كتفيه دون أن يضفره أو يقطعه، وهو يرتدى مثلما يرتدى جميع من معه من الفلاحين اللباس الشيت والصديرية المصفرة بالزعفران، كما هو متبع هنا فى هذه النواحى البشمورية، وإن بدا ذلك الملبس عليه أليق وقد صدق من قال: مهما كانت رداءة الخرق، فإنها لا يمكن أن تخفى حسن الخلق.

وكنا أثناء وجودنا فى الحمام أنا وثاونا، قد تسايرنا بالكلام مع رجل خدم البشمورى طويلا، فحكى لنا شيئا يسيرا عن حياة هذا الزعيم وأنه كان قد تعلم ودرس فى مبتدأ أمره بمكاتب الاسكندرية... فلم يهتد عند ذاك الوقت إلى الديانة

الحقة، وقد أرسله أبوه منذ كان صبيا إلى هناك، فدرس العلم الدنيوى، واطلع لسنوات عدة على علوم الحساب والفلك والتاريخ والفلسفة، وحصل شيئا من السيمياء والكيمياء، وقرأ كتب الأقدمين فى علم الفراسة، وكذا معارف أخرى مما اشتهرت به مكاتب الإسكندرية منذ الزمن البعيد، وتسربت من جيل إلى جيل، فحفظها بعض من أولئك الشغوفين بالمعرفة الدنيوية وكتموها، رغم أنهم أظهروا الديانة للكل حتى لا يفتك بهم مثلما جرت العادة بين الحين والحين، من فتك عامة الشعب المسيحى المؤمن بالوثنيين الذين يظهرون دياناتهم.

وقد قال من حكى لى طرفا من أخبار البشمورى إنه ظل زمنا طويلا فى الضلال يخلط العلم بالدين، وإنه كان قد تخبط وخالط أكثر من مرة بسبب كثرة قراءاته ونظره فى الكتب، وأنه اعتقد فترة فى مقالات وكتاب أوريجانس الذى قطعه الأب ديمتريوس فى الماضى بسبب كتابته السحر ورفضه كتب القديسين وتجديفه بالقول من أن الأب خلق الابن وأن الابن خلق روح القدس، ولم يكن يقول إن الأب والابن والروح القدس إله واحد وأن الثالوث لا يعجزه شيء، بل قوته واحدة وربوبيته واحدة. وقد قال لى ذلك الرجل أيضا، وكان ضمن من رافقونا وقت فراق الوطن، بعد ما حدث ما حدث، أن مينا وقع زمنا فى غواية ما سلكه بولة السميساطى الكافر، الذى بقى على ضلالته مفتريا على الله بكلامه فأنكر وجحد الرب فى أمانته، وهو الذى أخرجه مكسميوس البطرك الجالس على كرسى القديس مرقس بمدينة الاسكندرية زمن الملك غليانوس ،والاريانوس، وكانت صفة بولة أنه استغنى من مال البيعة بعد فقر، وكان ينهب الهياكل بالناموس ويقطع مصانعات الأتقياء فى الحكم، وإذا زاده خصومهم برطيلا عاد معهم عليهم فاكتسب له غنى باطلا من كل وجوه الظلم، وكان مع هذا يظهر أنه عابد لله، وكان يمشى مع الأعوان ويتسلط على الضعفاء ويدور فى الشوارع ويحب أن يتسمى باسم الأسقفية، ويقلق الناس بكثرة من يصحبه من الجمع، وكان معه كتب يقرؤها، كأنه يطلب الخراج، ويوهم الناس أنه مقدم ويصحبه قوم متسلحون قدامه وخلفه، وكان يبغض التعليم الروحانى، ويحب التعاليم البرانية،

ويرفض الغرباء إذا دخلوا في البيعة، ويطلب المجد من المقدمين، ويحتال على المجد الفارغ بكل نوع حتى أنه وضع له كرسيا بمنبر عال كأنه تلميذ للمسيح وهو غريب من البيعة، وكان قد جعل النساء يقرأن في ليالى الأعياد وفي جمعة الفصح عوض المزامير والتسابيح، وكان المؤمنون يسدون آذانهم إذا سمعوهن يقرأن، وكان لا يقبل شيئا من الكتب ولا يقول إن المسيح ابن الله ولا أنه نزل من السماء وتجسد من مريم العذراء، بل كان يجدف تجديفا كثيرا.

ثم إن مينا بن بقيرة، افتتن زمنا كذلك بأقوال الكافر مانى عابد الشيطان، وكان مانى هذا قد أظهر أفعالا ردية زمن فزوبوس الملك، وجدف على الرب ضابط الكل، وعلى الابن الوحيد وعلى الروح القدس المنبثق من الأب، وجسر أن قال إن جميعه بارقليط، وكان هذا عبدا لامرأة أرملة كان لها مال كثير، وكان قد أوى إليها ساحر عظيم من أهل فلسطين وقع من فوق السطح فمات؛ فاشترت المرأة ذلك العبد السوء وعلمته في الكتب، فلما كبر دفعت له كتب ذلك الساحر، فلما قرأها وعرف منها السحر مضى إلى الفرس وحضر إلى الموضع الذى فيه السحرة والعرافون والمنجمون، فلما قوى في علم الخطية ظهر له الشيطان وقواه وحبب له بغض البيعة فأضل قوما كثيرين بسحره وصارت الأموال تحمل إليه وصار له صبيان وصبايا يخدمون شهواته النجسة وكان يستعبدهم بسحره ويضل جماعة من الناس ويقول لهم إنه البارقليط الذى وعد السيد المسيح في إنجيل يوحنا بإرساله، وكان يقول بضلال المعلمين والآباء- قطع الله لسانه- لأنهم يقولون إن الله جل ذكره حل في بطن امرأة، وقد قال الأنبياء قولا غير الحق عن المسيح لأن إله العتيق شرير لا يريد أن يؤخذ منه شيء فأما إله الحديث فهو صالح إذا أخذوا منه لا يتكلم، وقال كلاما كثيرا تجديفا لا يجوز ذكره ولا قال الشيطان قط مثله.

ثم إن البشمورى عاد واهتدى إلى الدين الحق، بعد أن تعقل، واعترف بخطاياه على يد أبى بيعة بلدته النجوم، وصار تقيا حكيما، لا يرتكب الفاحشة ولا يفعل الإثم وذلك عندما عاد الى أرض آبائه وموطنه في الأراضى الموحلة، وكان

أبوه من الميسورين فكرسه للعلم باعتباره أكبر إخوته، وكرس بقيتهم للفلاحة كعادة أهل نواحينا البشمورية، ولم تزل منذ العهد القديم وحتى الآن، فلما تعلم مينا وجد فى العلم، وبانت عليه علامات النجابة والذكاء، ونشط فى علم الحساب، استخدمه متولى الخراج فى مصر السفلى كحاسب لدمز الكور فى بعض النواحى، وليدل ذاك المتولى على أفضل السبل لاعتصار ما بها من خيرات، ولقد ظل مينا على ذلك الحال فترة من الزمن، لكنه فى النهاية تاب واستغفر بعد أن انتفض ضميره، ويقال إنه كان قد عايش وشاهد بأم عينه ما كان من أمر هؤلاء القرارية المساكين، والذين هم أقنان الأرض بأمر المتولى، لا يحق لهم مغادرة الأرض أو أماكنهم هم وذراريهم أبد الآبدين، حتى يزرعوها، على ألا يباعوا أو يشتروا كالعبيد، وكان هؤلاء لا يجدون ما يقتاتون به، حتى عدموا صناعة خبزهم المسمى بتاو والذى اعتادوا عمله من طحين الذرة والحلبة، فى الوقت الذى كان، وهو المتمرد الآن، يستخرج الخراج من أراضيهم وكورهم، حتى أنه استخرج منهم فى عام واحد من الغلة ثلاثة آلاف ألف وثمانمائة ألف وعشرة آلاف ومائتين وتسعة وثلاثين أردبا وثمن ونصف وسدس وثلثى قيراط، ومن العناب ربع إردب، ومن ورق الصباغ ألفين وأربعمائة وثلاث أرادب ونصف إردب، ومن زريعة الوسمة عشرة أرادب وربعا، ومن الفوة أربعمائة وسبعين رطلا ومن الأغنام مائتى ألف وخمسة وثلاثين ألفا وثلاثمائة من الرءوس، ومن الجاموس الأسود غزير الحلب مائتى ألف ومن البسر ثلاثمائة وثلاث عشر قنطارا وثمانية وثلاثين رطلا، ومن عسل النحل خمسمائة وواحدا وأربعين قنطاراً وسدس قنطار، ومن الشهد اثنين وثلاثين زيرا وقادوسا واحدا، ومن السمن ألفين وتسعمائة وستة وتسعين مطرا وسدس وثمن مطر، ومن الجبن بخيره ثلاثمائة وعشرين رطلا.

وقيل إن رجوع البشمورى عما كان فيه من عمل مع الوالى هو أنه بعد ما انتهى من وضع واستخراج الخراج المذكور، وبينما هو يسير ذات يوم من الأيام عائدا إلى داره فى محلته، وكانت دارا كبيرة عامرة بالخيرات على عادة الموسرين من أهل هذه النواحى، إذ به يتسمع إلى أنين واهن لطفلة صغيرة فى

موضع من المواضع بين أعشاب الحلفا الطوال النابتة دوما فى المستنقعات بالأراضى البشمورية، بينما رجل يحادثها حديثا عنيفا غليظا وهى لا تكف عن التشكى والرجاء، فنزل مينا عن دابته واتجه إلى ناحية الصوت، ظنا منه أن الرجل يسعى إلى مفاحشتها وقضاء وطره منها، لكن ما أن وصل إلى موضعهما، حتى هاله ما رأى من أمرهما، إذ كان الرجل- يهبر- ناهشا بأنيابه لحم الفتاة الصغيرة وهى حية وينهب منه، حتى أنه نهش لحم الذراعين والفخذين والمواطن الطرية منها، بينما الصغيرة تتوجع وتتوسل أن يكف أذيته عنها ويتركها، لكن الرجل ظل سادرا فى نهشها دون أن يتسمع لرجاها واسترحامها، فلما نظر البشمورى ذلك، غلى دمه، وأخذه الغضب، وانقض على الرجل منتزعا الصبية من بين يديه، وهى بين الموت والحياة، ثم إنه نازله لفترة من الوقت، وكان الرجل دون الحالة الانسانية، وقد دخل فى الصفة الوحشية، بسبب شدة الجوع وانعدام الغذاء، فأجهز عليه مينا دون جهد كبير، بسبب ضعف بنية الرجل، وبحلول بركة الله وقوته عليه. ومن وقت ذلك، صغرت الدنيا فى عين مينا، وقد هاله ما رأى من أحوالها، وأدرك أنه مشارك فى الجرم الواقع على مثل هذه الطفلة المسكينة، بسبب عمله فى الخراج، فتركه ولم يعد إليه بعد ذلك أبدا، ثم إنه أخذ الطفلة إلى داره فجلب لها الحكماء ليطببوها، وكانت مليحة الوجه، نورانية الروح، فصبر عليها حتى بلغت، وعزم التزوج بها رحمة بها وتيمنا بوجودها، إذ اعتبر من حكاياتها واعتبرها آية قد أظهرها الله له ليكف عما هو فيه من ظلم وجور، ثم إنه بعد أن أظهر الندم على زمنه الأول جمع حوله البشموريين والفلاحين القرارية، بعد ما وزع ما كان يملكه من أراضى وممتلكات عليهم عملا بقول يوحنا فم الذهب: إن أردت أن تكون كاملا، فاذهب وبع أملاكك وأعط للفقراء.

وقد قال من حكى حكاية البشمورى لى ونحن مرتحلون من مدينة تنيس العظيمة فى المراكب، بعد ذلك، أنه حضر عرس البشمورى على هذه الصبية، وقد صارت شوهاء، وأن ذلك كان مشهدا مؤثرا لن ينساه أبدا طيلة حياته،

وخصوصا عندما تحرك الكاهن القائم بالخدمة من الخوروس الأمامى وهو يقود العريس داخل البيعة، إلى المكان الذى تنتظر فيه العروس، ثم طلب الكاهن من مينا أن يلبس عروسه الدبلة المربوط بها التاج، فلما لم تمد الفتاة يدها كما هو متبع لتدلل على موافقتها، لأن يدها كانت مقطوعة بسبب ما جرى لها، بكى جميع المدعوين تأثرا، خصوصا وأن مينا أزاح الثوب عن قدمها بعد أن انحنى أمامها ووضع يده على الأرض، فلامست الفتاة كفه براحة قدمها، فألبسها الدبلة فى إصبع القدم، وحينذاك قام الكاهن بحنى رأسيهما بحيث تلامستا معا، ثم إن مينا أخذ عروسه إلى مدخل الخوروس وأوقفها عن يمينه كما هو متبع، فقام الكاهن بتغطيتهما بعباءة من الحرير الأبيض رمزا للاتحاد النقى المقدس، وكانت الصلوات تقرأ أثناء ذلك وتنشد الألحان وتطلق البخورات.

وقال لى ذلك الرجل: إن العرس أبكى الجميع، حتى أن بعض الشمامسة القائمين بالخدمة بكوا خلال ذلك، خصوصا وقت أن كان الكاهن يباركهما ويمسحهما بقنينة من الزيت المقدس، على جبهتيهما ورسغيهما كما هو متبع، ويبارك أيضا التاجين ويضعهما على رأسيهما، فلما لم يجد الساعد والرسغ عند الفتاة، لم يتمالك نفسه وتهدج صوته ضعيفا، بدلا من أن يصيح بصوت مرتفع وفقا للأصول وهو يقول «بمجد وكرامة توجهما أيها الأب، باركهما أيها الابن، وتوجهما أيها الروح القدس، وحل عليهما وكملهما. فلم يتمالك الحضور أنفسهم جميعا، حتى أن صوت البكاء قد ارتفع فى بعض المواضع بالبيعة، وجرى نواح كثير، رغم أن المناسبة كانت وقتا للفرح ولم تكن وقتا لموت أو تجنيز.

وقد قال لى ذلك الرجل أيضا: إن مينا بن بقيرة، ظل يحث هؤلاء القرارية، وظل خلفهم، يدفعهم إلى التمرد والعصيان والثورة وعدم دفع الخراج للمتولى، وهو يقول لهم: إنكم لن تخسروا شيئا، فأنتم مقتولون بسبب قلة القوت، فقاتلوا سارقى قوتكم حتى تقتلوهم أو تقتلون، ثم إنه ظل يقويهم بالكلام، ويحسن فى أعينهم الخروج على الوالى ومحاسب الخراج وكل من يتعامل مع الدولة، ويقول لهم إن ذلك يتم برضا ومباركة السيد المسيح، الذى لم يقبل أبدا ظلما، بل هو لعن

جامعي المال ومحبيه، ولعن كهنة أورشليم بسبب حبهم للدنانير، فانقلبوا عليه. وإن مرقص لم يدعنا لدفع الدمز ويقصد بذلك مرقص البشير، وراح يزين لهم الكلام، حتى وافقوه وتجمعوا حوله، بعد أن يئسوا من حياتهم البائسة، ومن تحسن أحوال معاشهم ومعاش عيالهم، فخرجوا معه يقاتلون، وقد سلحهم بالقسى والحراب، التى قيل إنه كان يجلبها سرا عبر مراكب فى النيل من بلاد النوبة، وكانت المراكب تسير على نحو لا يشتبه فيه، إذ كانت توضع عليها الأسلحة، وتغطى بالجرار والقلل والأزيار وكل الفواخير القناوية المجلوبة من مصر العليا، كما جرت العادة فى جلب الآنية والفواخير منها لمصر السفلى.

ويقال إن القسى والحراب هذه كانت من أفضل الأنواع التى تصنعها قبيلة يقال لها البجة. اشتهرت نساؤها بعمل ذلك، وأنساب هذه القبيلة من جهة النساء، ولكل بطن منهم رئيس عليهم متملك، وهم يعترفون بالرب ويتقربون إليه بالشمس والقمر والكواكب، ومنهم من يعبد الشمس والنار، ومنهم من يعبد كل ما استحسنه من شجر! وبهيمة! أى أن معظمهم فى الوثنية، ويقال إنهم يورثون ابن البنت وابن الأخت دون ولد الصلب، ويقولون إن ولادة ابن الأخت وابن البنت أصح، فإنه إن كان من زوجها أو من غيره فهو ولدها على كل حال.

وكان البشمورى يسلح جيشه بهذه الحراب المجلوبة من البجة، والتى يطلق عليها اسم الحراب السباعية، مقدار طول الحديدة ثلاثة أذرع، والعود أربعة أذرع وبذلك سميت سباعية، والحديدة فى عرض السيف، وكانت هذه الحراب لا تخرج من يد حاملها إلا بصعوبة، لأن فى آخر العود شيئا شبيها بالفلكة يمنع خروجها من أيديهم، وكان البشموريون حاملين لهذه الحراب، عند دخولى عليهم مع ثاونا الشماس، ويقال إن صناع هذه الحراب من النساء يتخذن لها موضعا فى كورة البجة لا يختلط بهن رجل إلا المشترى منهن، فاذا ولدت إحداهن من الطارقين لهن جارية استحيتها، وإن ولدت غلاما قتلته، ويقلن: إن الرجال بلاء وحرب.

وكانت القسى التى رأيناها مع البشمورى آنذاك أيضا، كبارا غلاظا، صنعت من شجر السدر والشوحت، يرمون عليها بنبل مسموم، يعمل من عروق شجر

الغلف بعد طبخه على النار حتى يصير مثل غراء وقد حكى ثاونا، كثير العلم؛ عن ذلك لما سألته، بعد خروجنا من عند البشمورى.

لا أعرف ما الذى حدا بثاونا إلى السكوت وعدم الرد على كلام البشمورى، ولا أدرى لماذا لم يحثه على ترك القتال وإطاعة كلام أبينا يوساب، والحقيقة أن سكوته هذا جعل شعورا خفيا يساورنى- وليغفر لى الرب- بأن ثاونا قد تأثر بمقالة البشمورى ويوافقه عليها، وكنت أنا قد شعرت وتأثرت بكل ما قال- لكن هذا شيء ومخالفة كلام أبينا شيء آخر، لذلك هممت أن أتكلم لأذكّر مينا بما جاء فى رسالة أبينا إليه، لكن ثاونا لكزنى برجله كى أصمت، وكنت جالسا إلى جانبه، فسكت.

فلما وجد البشمورى من ثاونا الصمت والسكوت وعدم الرد، تمادى وراح يعتب على أبينا أنه يسعى لتثبيط همته، بدلا من أن يقويه على حربه ويباركه وينصحه بالكف عن القتال، بدلا من الاستمرار فيه. ثم إنه قال: إن رئيس بيعتنا يخشى على بيعته من المسلمين إذا ما ساندت البشموريين. وإنه لا يعنيه إلا أن يغضب الوالى على البيعة الأرثوذكسية. فيشمل برعايته الكنيسة الملكانية، فلما وصل إلى هذا الحد من الكلام، رأيت ثاونا وقد غضب غضبا شديدا- وكنت أراه لأول مرة منذ ملازمتى له فى البيعة وخلال ترحالنا يغضب إلى هذا الحد- يندفع بالكلام قائلا:

- أنت لا تقر بالحقيقة بل تخشى منها حتى تظل سادرا فى القتال، إن الأراضى الكنسية هى أرضنا جميعا نحن الأقباط، وممتلكات الكنيسة سوف تذهب مع كل ما فى البيع من فرش وأوان إلى الملكانيين الهراطقة وكنائسهم، وجلهم من الأروام الأجانب، إذا ما غضب الوالى وعسكره على كنيستنا وآبائها التاوضوسيين، وهذا معناه أن تذهب كل ممتلكاتنا وأراضينا التى ورثناها وحزناها منذ أوايل الدهور عن آبائنا وأجدادنا إلى الإغريق والروم، وكل الأغراب من أتباع المذهب الملكانى، ثم ألم تسائل نفسك مرة: من أين جاءت ممتلكات الكنيسة هذه، هه؟ قل لى بربك: أليس كثيرا من هذه الممتلكات والأراضى، كان فى مبتدأ الأمر لكثير من الآباء الأغنياء الذين زهدوا بالدنيا ومتاعها ووهبوا كل ما لديهم من

ثروة وجاه للأديرة والبيع؟ أأذكرك بأن الأراضى وعقارات البيع جاءت جلها من الهبات والتبرعات وما ذاك إلا ملكية لنا جميعا نحن الأقباط؟ ثم إن.. سكت ثاونا فجأة، إذ دخل علينا بين أيدى الحراس، رجل وامرأة وأربعة من العيال، وقال الحراس أنهم وجدوا هؤلاء يتسللون إلى الكورة، فظنوا بهم الظنون، فضربوهم واقتادوهم إلى هنا، وكان الرجل والمرأة وجميع العيال فى حالة مزرية بائسة وقد تسربلوا بعجينة الوحل لكثرة سيرهم حفاة فوقه، وكان الأطفال شبه عراة، ينظرون ذاهلين وقد تمكنت منهم البلادة لشدة الجوع والهزال والتعب. فلما سأل البشمورى الرجل واستفسر منه عن أمره وأمر من معه، طلب الأخير الماء أولا، ثم حكى أن اسمه بخنس وأنه هرب ذات ليلة مع امرأته القادمة معه وعياله من بلدته الأصلية فى الصعيد بسبب انعدام ما يدفعه إلى ملتزم الخراج فى ناحيته الذى يتشدد فى التحصيل والجباية، وأنه ذهب بامرأته وعياله إلى بلدة تسمى كوم أشقاو يلتمس الخلاص، مثلما فعل كثيرون وجدهم فى تلك البلدة، وقد أطلق رجال الوالى على هؤلاء الفارين من أمثاله اسم الجالية، وأنه تناهى إليه أن الوالى كتب إلى صاحب أشقاو برد كل من كان من الجالية إلى أرضه مرة أخرى، فخرج مع عياله هاربا، وراح يركب الماء تارة صاعدا مع النهر فى مراكب الصيادين خلسة، ومرة أخرى يسير مع عياله فى البرارى حتى وصل إلى مبتدأ الكورة فتسلل إليها وهو لا يعلم شيئا عن الحرب الدائرة فيها بين الأهالى وجيش الوالى، ثم إن الرجل سجد محاولا تقبيل قدمى مينا بن بقيرة ليرحمه، فلا يسلمه لمن يعيده مرة أخرى إلى أرضه، وظل يسترحمه ويستعطفه على نحو مؤثر دفع الدموع إلى عينى، فطمأنه مينا ورفعه بيده لينهض عن الأرض، وطلب من أعوانه أن يأخذوه وأهله ويقدموا لهم ما يؤكل ويشرب ويستر أجسادهم، ثم إنه طلب من الرجل أن يبقى إن شاء وينضم إلى أعوانه المحاربين. ران الصمت بعد أن ذهب الرجل وعياله، قبل أن يقول البشمورى بصوت خفيض: أرأيتم؟ هذا يسير من كثير يمر علينا هنا كل يوم، ووالله لو تراجعت بينى وبين نفسى لحظة عما أنا فيه، فإننى واجد ما يردنى إلى الحقيقة فى اللحظة التالية لذلك، فإنما أنا مثلى كمثل من يده موضوعة فى النار، لا يشعر من الدنيا بشىء غير لسع السعير وأكلانه للحمه، ولو عشتم معنا

هنا أيها الآباء الطيبون يومين فقط، لانقلبتهم عما أنتم فيه، وكفرتم بوجود أى حق، أو عدل فى هذه الدنيا، وهذا العالم الصعب.

صلبنا واستغفرنا عند سماعنا ذلك، وكنت أترجم لثاونا بسرعة وبصوت خفيض كل كلمة يقولها البشمورى، لذا رد عليه قائلا بحزم:

- اسمع يا مينا، أنا أستطيع أن أحكى لك العديد من القصص مثل ما رأيناه الآن، فما تقوله.. وما رأيناه هو من الحادثات المعتادات فى كل مكان من البلاد الآن، لكن هذا شيء، وما أنت فيه شيء آخر، فحريك ضد الولاة المسلمين لا يمكن أن تدوم إلى الأبد، وإنهم إن آجلا أو عاجلا لها زموك بعتادهم الأقوى وجيوشهم الأعتى، فالعرب قوم قوتهم الكر والفر، وليسوا بأهل أرض وزرع، وأنت لا يمكن أن تستقل بأرضك وأهلك.. وتكون لك سياسة ورياسة بمعزل عن أولئك القائمين المتحكمين فى مصر والفسطاط، فارجع عن أحلامك وأوهامك ولعلى أرى ما لا ترى لأنى بعيد، وعموما فأنا لم آت إلى هنا لإقناعك ومحاججتك. ولا تفويض لى بالرد على مقالتك، فالرسالة هى رسالة أبينا إليك، وما أنا إلا حاملها لك، ومطلبى هو أن تحملنى رسالة منك، أعود بها إليه فى قصر الشمع، وهذه هى غايتى ومهمتى أولا وأخيرا، أذكرك فى النهاية أن هؤلاء المسلمين هم أقرب إلينا من الروم الملكانيين، فهم وإن كان بعض من ولاتهم قد عسف وتجبر وجار علينا، إلا أنهم فى مبتدأ الأمر لم يبتغوا لنا إلا السلامة والأمان، ورسولهم كريم أوصى بنا خيرا، وفى مبتدأ أمرهم ببلادنا أحسن ولاتهم معاملة الناس، والآن أنت تعلم أن هناك الكثير من القبط المسلمين، والعرب المسلمين، ضد الولاة وظلمهم ولا تنس أننا نحن الذين جلبناهم فى سالف الزمن ورحبنا بهم لنتقوى بهم ضد الروم، وارتضينا حكمهم بديلا لحكم هؤلاء الأجانب؟ أتريد يا مينا أن تقع البلاد فى أيدى الروم مرة أخرى؟ فكر فى الأمر واتق الله فنحن فى زمان صعب، كل شيء فيه يتحول ويتغير ويتبدل، والحصيف هو من ينظر إلى الأفق البعيد، ويترك النظر إلى ما تحت رجليه. وثورتك هذه قد تقود البلاد إلى طريق لا عودة منه لأنها إن وقعت مرة أخرى فى أيدى الملكانيين، فلن تقوم لكنيستنا قائمة بعد ذلك، ولسوف

تضيع ممتلكاتنا وثرواتنا إلى الأبد، ولعلك تعلم أن الآباء الطيبين يسعون بكل وسيلة للحفاظ على الكنيسة، ولقد عربوا الصلاة حفظا للديانة، وسلامة للطقس اللاهوتى، وقد وجدوا أن أكثر الشعب لن يفهم الديانة ولا الصلاة القبطية، بعد تحول أكثره إلى لسان العربية يوما بعد يوم، وأنا أقول لك: لو قضى على انتقاضتك فدماء هؤلاء الفلاحين سوف تكون فى رقبتك، لأن بطش العسكر لن يكون يسيرا، وأنت أدرى بمعنى المثل القائل: إن وقع العجل كثرت سكاكينه، فلن يرحمك أحد، وكما تدين تدان، والناس يا عزيزى- وهذا أمر لله فيه حكمة- مع الغالب ضد المغلوب دائما، وأنا أقول لك ذلك حرصا عليك وعلى هؤلاء الذين حولك، وقد توسمت فيك صدق العقيدة، وطباع القديسين، فأنت تعيش عيشة خشنة مثل هؤلاء القرارية لا تبغى جاها ولا تروم مجدا، ولكن فكر فى الأمر، وزنه بميزان العقل والحكمة، ولا تكن كمن ينطبق عليه القول: خيرا تفعل، شرا تلقى. وهذه مقالتى لك، من عند أخ لا يبغى لك غير الخير، ولا يرتجى لقومك إلا الأمان والسلام.

حدق البشمورى فى ملابسنا الكهنوتية مليا، وكأنه يفكر فى أمر من الأمور، ثم قال بصوت بحه الانفعال، دون أن يطرق له جفن:

- ما سمعته ورأيته الآن عندنا أيها الأب المحترم هو رسالتى إلى أبينا المعظم فى قصر الشمع، وزد عليه ما تراه عندنا، فنحن قوم دفعنا لأن يأكل بعضنا بعضا، ورحم من قال: الفقر يولد الكفر. ووالله لن يستمر ذلك حتى أبد الآبدين فإننا قد عزمنا على أن نأكل بحرابنا وقسينا من أكلوا قوتنا، وأباعونا أولادنا وعيالنا، ولسوف نكون نارا تشوى أجسادهم، أو نكون مأكلة لسيوفهم وخناجرهم، وليكن لحمنا خراجهم ورءوسنا المقطوفة جزيتهم.

ما أريد أن توضحه لأبينا فى قصر الشمع أن الأذى الذى جرى لرسله السابقين إلينا قد تم دون علم منى، فالذين ضربوا أو سرقوا أو أخذ ما معهم، جرى لهم ذلك من قبل بعض أتباعى الدهماء بسبب سوء مسلكهم وترفعهم واستكبارهم على هؤلاء الرجال، والذى قتل، جرى له ذلك لأنه سب الجميع هنا بمن فيهم أنا،

واتهمنا بالكفر والمروق، فلم يتمالك أحد الرجال نفسه فقتله. ورغم ذلك فلقد عاقبت جميع من تعرض لأولئك الرسل ورميت القاتل بنفسي حتى يكون عبرة لمن لا يعتبر، أقول ذلك وأنا غاية فى الأسف والحزن، لأننا لسنا قطاع طريق، ولا لصوصا مجرمين، لكننا قوم اضطررنا لما نحن فيه، والله وحده أعلم كم أكره الحرب، وكم أمقت السلاح فأنا رجل لم أشتغل بمثل هذا أبدا طوال عمرى، ولم أكن أتصور أن الأيام سوف تدفعنى لما أنا مدفوع إليه.

انصرف الآن أيها الشماس المحترم إن أردت، وإذا رغبت أن تكون بيننا حتى صباح الغد، فأهلا بك فى ديارنا، والأفضل ألا تذهب وقد أوشك الليل على الحلول، فتتعرض لأى شر فى الطريق.

توجست خوفا من أن يوافق ثاونا على المبيت فيحدث ما لا تحمد عقباه، لكن ثاونا رفض البقاء، متذرعا بضرورة عودتنا سريعا إلى مصر العتيقة، وأنه لا يرغب فى التلكؤ ليوافى أبانا يوساب بالجواب ويرسيه على حقيقة ما يدور هنا.

هب البشمورى واقفا عندما وقفنا، ومد يده بالتحية لنا، ثم قال:

– إذن... أنتما سوف تمضيان الآن.. كما تشاءان. فلترافقكما السلامة. ثم أمر أتباعه أن يوصلونا إلى أبعد نقطة ممكنة بالنسبة لهم خارج حدود البلدة ولاحظت أثناء ذلك، أنه اكتفى بالشد على أيدينا، دون أن يقبلها مثلما يفعل المؤمنون عادة مع أهل البيع والكهنوت.

كـان الوقت قـد أوشك على الغـروب، حـينمـا بدأنا الخـروج من أراضى البشمورى، وكانت الأرض قد زادت وحلتها بسبب زيادة مياه النيل المفاجئة، فلم نكد نسير قليلا، مبتعدين عن الشونة الواسعة التى التقينا فيها البشمورى، وندخل فى طرقات القرية، لنعبر طريقها الرئيسية ونخرج منها فى اتجاه خط النيل إلا وكان رجال ونساء وأطفال قد خرجوا من دورهم وتجمعوا حولنا لمشاهدتنا، بعد أن شاع خبر وجودنا بالمحلة. نظرت إلى الجميع فداخلنى شعور بأنهم يحدقون فينا، وكأننا بدعة من البدع، أو أعجوبة من الأعاجيب لم تصادفهم خلال حياتهم من قبل، وكان الأطفال والصبايا يسيرون ركائبنا ، وقد راحت تتحرك بصعوبة وبطء على زلاقـة الأرض المتـزايدة، مما دفع الأطفـال لانتـهـاز المناسبـة، فـأخـذوا يتحسسون أرديتنا الكهنونية، وينظرون بدهشة إلى أخفافنا كما لو كانوا لم يروا أخفافا من قبل، أو كأنها من الثمينات المفتخرات النكات، وكان بعض الصغار عراة تماما ليس عليهم ما يسترهم، والبعض الآخر تسترهم أسمال بالكاد، أما النساء فقد بدون- رغم دلائل الضنك عليهن- صبوحات ذوات وجوه حسنة، وقد لفت ثاونا نظرى ونحن نسير ونتحادث إلى أن الصبايا هنا يمكن أن يصادفن مصائب كبيرة إذا ما انهزم البشمورى أمام عسكر الوالى بسبب حسنهن، الذى لم يغب رغم هزالهن الشديد وملابسهن المهترئة. وقد ظل ثاونا يعطى من زادنا للأطفال حتى نفد كل ما كان معنا من خبز ومنين وسمن وعسل ، وكانت النساء يخطفنها منهم لفرط جوعهن وحاجتهن إلى القوت، وبينما كنت أقدم لصبية من الصبايا ما تبقى معى من عسل فى خابية صغيرة. إذ بها تنظرنى طويلا وقد طفح من عينيها شعور الشكر والامتنان، فلم أتمالك نفسى من النظر إليها كذلك وكانت مليحة، ناهدة، ناعمة، حسنة القوام، وقد تعرى جسدها واستبان فى أكثره،

بسبب قلة ما يستره، فاضطربت نفسى كثيرا، وقد تداخلت مشاعرى بين الشهوة والشفقة، وقد راعنى حالى وانتعاش الرغبة فى بدنى، ومباغتتها لروحى ونفسى، ويبدو أن ثاونا كلن قد لحظنى وقد اضطربت. فرحت أحث الركوبة على الإسراع دونما ضرورة، وأظن أن شفتيه رسمتا ابتسامة، وهو يقول:

- يا الله أيها الأخ العزيز بدير. صدق السيد إذ قال: العين سراج الجسد. تمهل يا أخى فى المعمودية، والجم جسدك بتلاوة الآيات وذكر الحق، واحفظ دوما ما قاله اللسان العطر بولس فى رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس: «أم لستم تعلمون أن جسدكم هو هيكل للروح القدس الذى فيكم، الذى لكم من الله، وأنكم لستم لأنفسكم؟ لأنكم قد اشتريتم بثمن. فمجدوا الله فى أجسادكم وفى أرواحكم التى هى الله».

هتفت أرد عليه وأنا أزدرد ريقى بصعوبة، وقد شعرت بسخونة تسرى فى كل جسدى وبنار تستعر لتحرق روحى:

- فليرحمنى الرب أيها العزيز ثاونا، فليرحمنى الرب وليغفر لى إثمى الذى داهمنى رغما عنى، وليذهب شيطان الجسد إلى الجحيم.

لم أشعر إلا والدموع تنحدر من عينى، فرحت أمسحها بكم ردائى، وقد تدافعت ذكرياتى مع آمونة تطوف بمخيلتى، وقد جاشت ذكراها بداخلى جيشان ماء تفجر من باطن نبع عميق، فرحت أتذكر أوقات سعادتى الدنيوية معها، وما كان من شقائى وتعاستى بعد فراقها، ثم إنى أخذت استغفر الرب كثيرا وأقرأ آيات التوبة والندم، محاولا طرد صورة الفتاة التى رأيتها من مخيلتى فتغيب صورتها برهة، لكن شيطان الجسد ظل يراوغنى ويلاعبنى، فكانت صورتها تتجسد من جديد فى ذهنى على نحو كبير من القوة والوضوح، وأنا أحاول جاهدا أن أهدئ نفسى، وأستعيد ثباتها ويقينها الضائع ميمما البغل بعيدا عن الفتاة التى سرعان ما لحقتنى، وبحركة مباغتة، مدت يدها وتحسست صليبى المدلى فى حبله الطويل على صدرى، وكنت قد وضعته من سيور جلد البقر الجيد، فلم أتمالك نفسى- ولم يكن قد تبقى معى شىء لأعطيه لها- فخلعته دون أن أشعر ووضعته فى عنقها،

وأنا أتجنب النظر إلى لحمها المستبين، فأمسكت كفى بكلتى كفيها وضمتها إلى صدرها قويا، ثم انحنت عليها ولثمتها، وعندئذ خفت ألا أقوى على لجم مشاعرى فسحبت يدى متسرعا، ورحت أدفع البغل دفعا حتى كأننى رغبت أن يطير بى طيرانا، ولم أتوقف إلا عندما صرخ ثاونا فى: أبطئ. أنسيت أن الأرض زلقة موحلة ومن الخطر العجلة والإسراع عليها.

كان البشامرة الحراس، الذين ظلوا برفقتنا حتى أواخر البلدة، يوبخون الناس ويعنفونهم، حتى لا يقتتلوا على ما أخذوه منا من طعام، وقد أخبرنا بعض هؤلاء الحراس، ونحن نسير، أن العسكر التابعين للوالى قد نهبوا كل شىء فى الكورة أثناء إغاراتهم المتتالية عليها، وأنه لم تعد هناك بيعة واحدة بين مدينتى دمياط ورشيد، على امتداد بلدان الساحل البشمورى، إلا ونهب كل ما فيها من فرش ومهم، حتى صنوج الخورس، وأوانى الهيكل، وأن أحدا لم يذهب إلى الصلاة الجامعة. وأن المقابر خربت ونهبت، إن لم يكن بفعل العسكر، فبفعل اللصوص والعيارين وأولئك الباحثين عن أى شىء يأكلونه أو يلبسونه، وقد قال واحد ممن خرجوا لحراستنا، أنه بالقرب من سمنود مقبرة ليهود نهبت فكان أعجب ما وجد فيها موتى جرى تصبيرهم ولفهم باللفائف، كما جرت العادة فى الأزمان الغابرة، مثلما يوجد بين الحين والحين فى البرابى الوثنية المتبقية من الزمن العتيق.

وقالوا لنا كذلك إن عقود الزواج ظلت تتم داخل ما تبقى من البيوت وأحيانا فى الطرقات، وأن القسس ندر وجودهم لعمل ذلك، لأن معظمهم تركوا هذه البلاد وغادروها إلى برية هبيب وأديرة النطرون، بعد أن يئسوا وخربت بيعهم، ولم يجدوا من ينفق عليها، أما الميرون المقدس اللازم للتعميد، فقد انعدم فى هذه النواحى تماما وعز وجوده، ولم يعد يوجد ما يعمد به، وقد حدث أن بعض الناس جلبوا قسيسا بالقوة إلى بلدة مجاورة، وحملوه إليها مقيدا بالسلاسل، فاستبشر الناس خيرا بذلك، لكنه امتنع عن التعميد والطقس بسبب انعدام الميرون، فعجبنا أنا وثاونا لذلك أشد العجب، وقد قيل لنا كذلك إن أكثر المكاتب قد خربت ولم يعد الصغار يذهبون للدرس وبات أكثرهم لا يعرفون قراءة أو كتابة الحرف، كما أن الصناع وأهل الحرف قد ضجوا بالحياة هنا، فهاجر من هاجر منهم للاشتغال

بالبلاد الأخرى، ويقال إن جماعة منهم عدت البحر إلى جزيرة قبرس عن طريق اللسان الموصل إليها من مدينة الفرما والعريش.

وقال رجل: إن أقباطا كثيرين قد أسلموا بعد أن ضاقت بهم السبل وعدموا الحيلة، واستصعبوا الحياة مع مينا بن بقيرة، لكن هناك من المسلمين من انضم إليه ثائرا منتفضا، وإن ظل على دين الإسلام، والبشمورى لا يحول بينهم وبين ما ارتضوه من ديانة، وفى كل يوم يتسلل قوم من هنا إلى مواضع عسكر الوالى ويلتحق قوم من الغرب المسلمين بالبشموزى والأمر غاية فى التقلب والتغير والاختلاف بين الحين والحين.

فلما سمعنا ذلك تأثرنا كثيرا حتى أن ثاونا تندت عيناه بدموع واضحة، وقال إنه يشعر بالأسف والحسرة، لأنه لم يجلب معه طعاما ولا لباسا لهؤلاء المساكين، ولأنه لم يأت بمراهم وعقاقير ليعطيها لأولئك النسوة والأطفال، وقد لاحظ عليهم كثرة الأمراض الواضحة على أجسادهم التى ملأتها التقيحات والبثور، وتبدت الانتفاخات فى أعضائهم وبطونهم خاصة مما يعنى انتشار علة الخلوروز بين الناس وهى العلة الناتجة عن عظم فقر الدم، وذلك لشدة، افتقاد الغذاء وانعدامه، وقال: إن هذه العلة على الرغم من خطرها إذ ما استدامت طويلا، يسهل الشفاء منها إذا ما خلط تين بنسبة ١/٣٢ إلى ملح بحر بنسبة ١/٨ إلى خبز صابح بنسبة ١/٨ إلى فقاع حلو بنسبة ١/٣، ثم يطبخ جميعه ويصفى ويؤخذ فى يوم واحد، وأن هذه وصفة قديمة جدا متوارثة منذ أجيال بعيدة، وأنه لو علم بوجود هذه العلة بكثرة هنا، لكان قد أعد من دوائها الشيء الكثير بنفسه وأحضره معه ليوزعه على الناس.

وقال لى ثاونا: إن هناك عللا تشفى بالقرايات الربانية عليها، وعللا تشفى بالتطبيب والعقاقير، وإن أكثر علل البطن الناتجة عن الجوع تشفى بالعقاقير المعوضة للأكل الجيد، ولما كان هؤلاء القرارية يأكلون أكلا ضعيفا رديا منذ زمن طويل، فقد أصيبوا بالهزال واصفرار الوجه وانتفاخات الأمعاء مما يمكن التغلب عليه.

أما ما يكثر هنا من بعوض وأهوام بسبب كثرة المياه الراكدة وانتشار السبخات فهو الطامة الكبرى، لأنه الجالب للحميات وأمراض الدم التى تروح وتجيء كلما زاد وكثر اللدغ، وهنا تذكرت ما كان ذات مرة، زمن طفولتى البعيدة حين مات فى قريتى خلق كثير بسبب الوباء، والذى قيل وقتها إن سببه ذبابة شيطانية وفدت إلى البلدة من البرارى، وراحت تعمل المرض فى الناس، حتى اكتشف أمرها، بعد أن أفنت عيلا بأكملها، فلما ذكرت لثاونا ذلك، قال:

- إن الوباء يحل على الكور والبلاد، ويفنى أكثر الناس، عندما تنزل عليهم لعنة من لعنات الرب بسبب جراير اقترفوها، فيسلط عليهم الزلازل أو الصواعق، أو السيول المهلكة حينا، كما أنه يسلط عليهم الهائمات كالبعوض وخلافه، بعد أن تحل بها الأرواح الشريرة، فتهجم على الجسوم، وتحدث الأمراض والأوجاع وتوهن العظام وتشرب الدم وتحدث النهوكة فى أجسادهم ويعقب ذلك الموت. لذلك فعلى الحكماء المطببين، أن يبحثوا فى سبب اللعنة، حتى يرفعوه كما أن عليهم تبيان حقيقة الأرواح الشريرة الحالة فى الهائمات، ويكون ذلك بكثرة التعزيم والقرايات الربانية، ثم عليهم معالجة الناس بالنباتات والمعادن ووصف الجواهر التى تناسب أمراض الوباء.

ظللنا سائرين نتحادث، والناس يتبعوننا ماشين خلفنا وحولنا من كل جانب كى نباركهم حتى أوشكنا على الخروج إلى البرارى، وهم وراءنا فى الطرقات الضيقة، فلما بلغنا الطريق الذى كنا قد جئنا منه، توقفوا وتركونا نسير منفردين بعد أن ودعونا وداعا حميما مؤثرا.

سرنا والمشاهد التى رأيتها فى محلة البشمورى لا تفارق خيالى، الأطفال الهزيلون فى أسمالهم، النساء الجائعات وهن يتخاطفن الطعام، البيوت المهدمة، رجال البشمورى القرارية فى ملابسهم الغريبة، وأسلحتهم التى كأسلحة اللصوص والحرافيش، كانت مشاعرى تتردد وتنقلب من لحظة لأخرى، بين العطف على أولئك الناس وبؤسهم المريع وبين الكره لعصيانهم وتمردهم وعدم امتثالهم لكلام أبينا يوساب، وكان الحنين يأخذنى أخذا، ويخطف قلبى خطفا وأنا أخرج من هذه

المواضع، وأخذت أسأل نفسي: ترى.. هل لو بقيت هنا فى مسقط رأسى، وأماكن أهلى، وسارت حياتى فى مجراها المفترض، ولم يدفع بها القدر إلى ما أنا فيه الآن، هل كنت سأكون واحدا من هؤلاء؟ هل كنت سأصير واحدا من أتباع البشمورى، أأتمر بأمره بينما أرتدى مئزرا وأعتمر خوذة من الخوص وأتسلح بحربة من الحراب؟ كنت أشعر أننى ضائع، حزين، وكأن كبدى قد انتزع منى انتزاعا فأسئلتى لا إجابة لها، لكن ما تيقنت منه وأنا على هذه الحال، هو أن للأوطان ملمسا وروائح وصورا مجسمة، محسوسة لا يمكن أن تغيب عن الحواس والنفس، مَهما تباعد الوقت وطال الزمن. يبدو أن ثاونا لاحظ كدرى وسكوتى الطويل، فقال:

- إذن. ها نحن نعود مرة أخرى من حيث جئنا، لينطبق علينا قول من قال: «تيتى تيتى، زى مارحتى زى ما جيتى»؟. إن أبانا الذى ينتظرنا فى قصر الشمع سوف يتنكد لعودتنا، دون البشمورى بل حتى دون وعد منه بالكف عن القتال، لأنه سيبدو أمام متولى البلاد، وكأنه لا كلمة له على أتباع بيعته، ولا سلطان لأمره عليهم، ثم إن الملكانيين سيعملونها جنازة، وهات يا لطم، بينما يلعبون فى أذن المتولى ويزينون له كلاما شيطانيا بأن الأب يوساب، لا يرغب فى إخماد فتنة البشامرة، وأنه متواطئ معهم، ويرغب فى إحداث القلاقل بالبلاد، وكثير من مثل هذه الأكاذيب التى طالما يروجون لها عنده، أملا فى أن يكون لهم ما لبيعتنا، من هيمنة ونفوذ على الشعب، وطمعا فى الاستيلاء على كنائسنا وأديرتنا وما للبيعة من ممتلكات.

على أية حال، ها أنت رأيت مسقط رأسك وبلدتك مرة أخرى، ودون حدوث مالا يرغب فيه، ألست مسرورا بذلك بالله؟

همهمت بسرعة، بينما كنت ما أزال منشغلا بما قاله لى فى التو:

- أجل أجل، والحمد للرب الإله لأن أحدا من معارفى لم يرنى أو يتعرف على.

تابع ثاونا وهو يتبع سيرى بدقة ويحترس كثيرا كيلا يمشى بالدابة على موضع غائص:

– لكنى أخشى يا بدير أن ذلك البشمورى سوف ينتهى نهاية بائسة مؤسفة، ولعلى أخبرتك بما يتردد سرا فى البيعة قبل خروجنا إلى هنا، من أن خليفة المسلمين سوف يأتى بنفسه لحسم الأمر، إذا لم يسكت هؤلاء البشامرة ويكفون عن قتال عسكر المتولى، ويرضخون لدفع الخراج المطلوب منهم، لقد آثرت ألا أخبر مينا بذلك، حتى لا يثور ويتمرد، ويظن أننى جئت حاملا إليه تهديدا من أبينا، يوساب، فيسلك معنا مسلكا خشنا قاسيا قد لا تحمد نتائجه، لكنى لا أكتمك سرا، أننى كدت أضعف، فى لحظة من اللحظات، خصوصا كلما زاد تشدده– وبت على وشك أن أهتف صائحا: أتدرى أيها الأحمق أن خليفة المسلمين سوف يأتى بنفسه لإنهاء هذا الأمر، إذا لم ترتدع وتعود عما أنت فيه؟ أو تعلم معنى ذلك؟ إنه سيكون المحق والسحق ولا شيء، غير ذلك؟ لسوف تكون الجانى، على قومك ونفسك، لأن الرجل لن يرحمهم أو يرحمك، وهو الذى يحارب بعسكره، جيش بيزنطة ولن يكون قتالك بالنسبة له إلا كاللعب والبرجسة فى ساحة من ساحات البرجاس.

قلت بسرعة:

– لا.. لا.. حمدا لله أنك لم تقل له ذلك، لأنه وكما رأيت ليس من النوع الذى لا يأخذ بالنصيحة ويرعوى، ثم إن الأب يوساب لم يطلب منك أن تحدثه فى هذا الأمر، لكن ما يحيرنى يا أخى هو انضمام بعض هؤلاء العرب المسلمين للبشمورى، فكيف يكون ذلك بربك؟

صمت ثاونا قليلا، ثم قال:

– إن المسلمين شيع وفرق مثلما نحن فى المسيحية يعاقبة وملكانية، وهناك اختلافات ومسائل تتعلق بصحة الديانة بين هذه الفرق. أتذكر عندما كنت تغتسل بالحمام، وأنا أنتظرك خارجه؟ لقد جاءنى أثناء ذلك رجل وهو يلتفت يمينا ويسارا، فلما اطمأن إلى خلو المكان، أعطانى رقعة وهو يرجونى أن أقرأها،

ومضى بسرعة فلما دخلت لأغتسل بعدك، قرأتها، فوجدته يطلب منى أن أصل إلى أهله وعياله القاطنين عند جبل يشكر المشرف على النيل، وعلى بركة الفيل، لأنه التحق بالبشمورى سرا، بعد أن هرب من ملاحقة الوالى له ولجماعته التى يقال لها القرامطة، وأن الخليفة نفسه يشدد عليهم ليس فى العراق فقط، ولكن فى جميع أمصار خلافته، وأن كثيرا من رفاقه قد صيروا فى الحبوس وعذبوا بسبب خروجهم على الخليفة الذى جعل المشايخ وأهل الدين يرمونهم بالكفر والزندقة، وكان رجاؤه هو أن أطمئن أهله عليه، وأقدم لهم ما أستطيع إليه سبيلا بسبب انعدام من يعولهم وينفق عليهم.

وقد سمعت عن جماعة أخرى من المسلمين يقال لها العلويون، وهم ممن شقوا عصا الطاعة على الخليفة أيضا، وها أنت رأيت بعينيك ما يقع فى الحوف الشرقى. إن الصراعات لا تنتهى هنا وهناك، والدنيا كلها فى فوضى واضطراب، وكل ذلك يبلبلنى كثيرا يا بدير، وأشعر أن قلاقل الدنيا حولى، تهز داخلى، فأنا رغم إيمانى وصدق معتقدى- لا أكتمك أنى خائف، خائف جدا، وكأننى ملاح ضائع فى بحر الظلمات الرهيب، وأنا أخشى على مصير كنيستنا ولا أعرف ما سوف يكون عليه إذا ما قدر وانتصر البشمورى، وأخاف على هؤلاء المساكين إذا تمت هزيمتهم، ولا أعرف ماذا سيكون عليه الحكم فى البلاد، ولأى فريق من المسلمين سوف تكون الغلبة، وكل ما أتمناه يا بدير هو ألا تقع بلادنا أبدا ومهما حدث، مرة أخرى، تحت سيطرة الأباعد من الروم الملكانيين.

لم يكد ثاونا ينتهى من كلامه، إلا وكان الأفق أمامنا قد ارتسم بشريط قاتم من السواد الممتد إلى ما لا نهاية، وكأنه خط من المداد قطع زرقة المدى السماوى المفتوح فوقنا عن خضرة الأرض المترامية على مرمى البصر، وكان قرص الشمس قد توهج بنار حمراء وهو يغيب شيئا فشيئا معلنا نزعه الأخير، مفسحا السماء لظلمة تتقدم حثيثا، والشريط الأسود يتدفق باتجاهنا شيئا فشيئا، وقد وقفنا متسمرين فى موضعنا ونحن مبهوتان مأخوذان، وسرعان ما راح ثاونا يحثنى على الفرار، وقد ملك أمره مرة أخرى، وهو يقول:

– لابد أنهم فرسان الخليفة لابسو السواد، ترجل واهرب قبل أن يدركونا ويدهسونا بسنابك خيلهم.

فما أن تحركت وفعلت، إلا وكانوا قد بلغوا الموضع الذى كنا فيه وأخذوا يتقدمون شيئا فشيئا فى يسر، ودون معاناة، فلقد كان معهم من يدلهم على المواضع الحسنة للسير من الأدلاء القبط، وقد توضحوا وبانوا بسبب أرديتهم عسلية اللون.

كنت قد اختبأت فى موضع ليس ببعيد بين أعشاب الحلفا الطوال والبوص وقد قفزت بسرعة من فوق البغل وتركته، ولم أنتبه لما فعل ثاونا، لشدة ارتباكى وخوفى، وقد بوغت فأنا لم أحسب لما حدث لنا حسابا من قبل.

وقد كاد قلبى يتوقف من الخوف.. لما رأيت أحدهم يسحب البغلين ويتردد قليلا فى المسير وكأنه يرغب فى التفتيش عن صاحبيهما، لكن من كان خلفه حثه على الحركة والمسير وعدم التلكؤ حتى لا يعوق من وراءه، ثم إننى أخذت أزحف زحفا يسيرا باحتراس حتى أخفى نفسى جيدا بين الحشائش محاولا التدثر بها والاختباء فيما بينها حتى لا يلحظنى أحد من العابرين، ثم أخذت أنادى ثاونا بصوت خفيض محاولا استبيان مكانه وقد هبطت الظلمة شيئا وغشت المكان، كنت أثناء ذلك متخوفا جدا، أدعو الله ألا تلدغنى حية، كتلك التى لدغت ثاونا، أو تخرج على دابة من دواب البرية المفترسة فتهبر لحمى أو تحدث بى مكروها، ولم يمض على اختبائى إلا وقت يسير، حتى كان العسكر قد انقطع مقدمهم وورودهم، إذ كان أواخرهم قد بقوا فى موضعهم على مقربة منى فى الطريق الضيقة عرفت ذلك رغم الظلمة بسبب صهيل الأفراس وتحمحمها المثير، ويبدو أنها أخذت تجفل كثيرا بسبب غرابة المكان بالنسبة لها وكثرة مواضع الماء فيه، وخمنت أن العسكر هؤلاء ربما كانوا على الأرجح قد حوطوا وحاصروا الطريق والطرقات المؤدية للمحلة، وقد صدق حدسى، إذ سرعان ما أشعلت المشاعل، وأخذت تلقى باتجاه المحلة، وسرعان ما جاء الرد من ناحية عسكر البشمورى، إذ أخذوا يرمون بدورهم النيران باتجاه عسكر الخليفة، فأخذت أزحف مجددا ملتمسا النجاة لنفسى،

لكنى خشيت أن تسحبنى المياه الموحلة الى بعض مواضعها الخطرة، فرحت أربط نفسى بالأعشاب اللينة الطوال الراسخة المستقرة دون أن أقطعها، وكنت قد تعثرت كثيرا خلال ذلك وتوسخ ثوبى وأكثر جسدى، حتى أن وجهى لحقه الطين وقذاه، واستمر القتال دائرا، وأنا أدعو الله ألا يصيبنى مكروه، وقد أخذ البشامرة يرمون فى اتجاه جند الخليفة الأحجار وقطع الطوب وما جهزوه من مقذوفات للمقاليع، أما عساكر المسلمين فكان أكثر رميهم بالحراب والسهام وإن ركزوا على كرات النار الملتهبة، وكأنهم يبغون حرق المحلة كلها، قبل الدخول إليها.

أخذت أصلب كثيرا وقد أخذنى اليأس وهدنى التعب ورحت أقرأ القرايات ليعيننى الرب على ما أنا فيه، وفككت نطاقى الكهنوتى وربطت نفسى أكثر بالحشائش إذ شعرت أننى على وشك النعاس وبقيت قليلا على هذه الحالة، حتى غبت عن الوعى تماما.

أفقت عند الصباح على تغريد طير حاطط على مقربة منى، فلما فتحت عينى ونظرته وجدت بشروشا ضخما ينبش بحثا عن سمكة من الأسماك التى تصل سابحة من المالح إلى هذه المواضع، وربما كانت من البنى أو اللبيس أو الراى أو الشلبة، استبشرت خيرا حين رأيته واعتبرته فألا حسنا أستقبل به هذا اليوم الجديد، خصوصا وقد أخذ يغرد ساردا تراتيله الصباحية للرب، فقمت أنظر نفسى، فإذا صعوبة تعترينى، كلما حاولت تحريك طرف من أطرافى، فتحاملت على نفسى بصعوبة وقد صممت أن أنهض مهما كانت آلامى، لأبحث عن ثاونا العزيز، وأقف على ما كان من أمره واكتشفت أن ملابسى قد توسخت وتبللت بطين الأرض الأخضر الذى كنت راقدا فوقه، فدرت بعينى باحثا عن موضع ماء جار، أذهب إليه فأطهر لباسى الكهنوتى فيه إلا أن عينى لم تر غير مدى ممتد من الأخضر، بسملت وصلبت، وقلت لروحى: فلأسر قليلا حتى أجد موضعا هنا أو هناك.

سرت أجر ساقى بصعوبة، كأننى وليد يخطو خطواته الأولى، وكنت حريصا على تمييز الماء من الأرض لئلا تزل قدمى فى زلاقة تسحبنى إلى

داخلها فأغرق، ثم إننى وصلت أخيرا إلى قناة ضيقة بها ماء جار، فوقفت على أطرافها وخلعت ردائى الكهنوتى وبقيت حاسر الذراعين لا أرتدى سوى الصديرية الفلاحى واللباس اللذين حافظت على لبسهما تحت الرداء، رحت أغمر الثوب فى الماء أبسمل وأصلب وأقرأ قرايات الطهارة، ثم إننى عصرته، ونفضته حتى أزيل ما به من ماء قدر استطاعتى، وسطحته فوق الحشائش، على أمل أن ألبث ساعة فى مطرحى حتى تجففه الشمس فأرتديه، وبينما أنا أفعل ذلك أخذت أفكر فى كيفية عودتى مرة أخرى إلى مصر العتيقة فى ظل هذه الظروف الصعبة، وكنت أرغب فى معرفة ما تم من أمر البشامرة مع عسكر الخليفة ليلة أمس، لذا قلت لروحى: إننى سأعود بمجرد أن أرتدى ثوبى مرة أخرى قافلا إلى محلة البشمورى حتى أستجلى الأمر، ولعلى أجد ثاونا الذى ربما كان تسحب أثناء الليل وقت العركة إلى هناك ليحتمى، بجماعة البشمورى، إن لم يكن قد استطاع الفرار عائدا إلى بيعتنا فى مصر العتيقة.

فجأة، تذكرت أن ثاونا قد جاءنى فى المنام أثناء غفوتى بالليل، رحت أستعيد المنام فى مخيلتى، كان ثاونا يرتدى أسمال وخرق المساكين ويتوكأ على نقف من الجميز على النحو الذى يفعله أولئك الهائمون فى البرارى، وكان يعتلى تلة عالية وهو يشير نحوى بيده، ويقول: اتبعنى يا بدير العزيز إلى برية هبيب، وبدا لى وهو يقول ذلك مبتسما راضيا نورانى الوجه وكأنه قديس من القديسين، فالتفت حولى، أفتش عن موضع أسير فيه لأصل إليه، فإذا أنا محاط بوحوش كواسر من كل ناحية، تمنعنى من النفاذ والتقدم إليه، فرفعت يدى وصرخت بعزم ما فى: ثاونا.. ثاونا يا غزير العلم والمعرفة، هب لنجدتى، فإنى غير مستطيع، وبقيت أناديه، لكنه كان يبتعد عنى شيئا فشيئا، حتى اختفى تماما، فأخذت أنوح وأندب حظى العاثر وأصلب وكان ثاونا وهو آخذ فى الغياب يباركنى بيده المرفوعة، و أنا أمد يدى إليه آملا فى الخلاص.

انقبضت روحى وقد تذكرت ذلك المنام، وأخذتنى الطيرة، إذ صاح البشروش فجأة وطار، فنظرت السماء فوقى، فإذا بنسر رهيب من نسور الفلاة

يحوم فوق البقعة التى جلست فيها انتظر جفاف ثوبى، ولم تكن النسور من الطيور المعتادة فى هذه النواحى البشمورية حسب علمي ودرايتى بها، إذ أن أغلب طيورها تكون من ذلك النوع المهاجر القادم من جهة البحر الرومى كالسمان والطورية والذهبية، واللقالق، بالإضافة إلى طائر أبيس الأبيض المشهور بالديار كلها.

لبثت وقتا أفكر حائرا، وقد جف حلقى لكثرة انفعالى وتوجسى، وقلت لروحى: ربما أراد النسر اقتناص طير قد حط، أو دابة خرجت تسعى من دواب الأرض المحوشة فى هذه البقعة، رحت أصلى مشجعا نفسى على الاصطبار، وقد أخذ عطشى فى التزايد، ولم أرض أن أحفن بيدى شيئا من مياه المجرى خوفا من أن يكون به شيء من عليق الحشا ينفذ إلى جوفى، بسبب أن بعض البرابرة من ساكنى البرارى كانوا قد حذرونى من مياه السبخات وجداولها الصغيرة حتى وإن بدت جارية، وكانوا قد أتوا إلى البيعة وفاء لنذر نذروه لأمر من الأمور، فقالوا إن بنواحيهم نوعا من العليق يدخل إلى الحنك مع الماء المشروب، لينفذ إلى مواضع البلع ويلتصق بها، ويظل ثاويا بها، يقتات على دم الجسد، حتى يفنى صاحبه ويتلف تماما.

هبط النسر المحلق فجأة وخطف لباسى الكهنوتى فى لمح البصر وارتفع عائدا إلى السماء، لم أتمالك نفسى، فحاولت الجرى خلفه واللحاق به، لكنى لم أتمكن من المضى فى ذلك بسبب ضعف ساقى وجسدى ولخوفى من الانزلاق، شعرت بحنق وغيظ عظيمين وأنا أرى النسر يبتعد بثوبى، وقد بهت من مسلكه، فماذا يفعل ذلك الطائر بمثل هذا الثوب، دعوت عليه وتذكرت قول القائل:

ما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع

بقيت فى مكانى مذهولا ساكنا لفترة، أنظر نفسى وأنا على هذه الحال بلباسى أبو دكة وصديريتى الكتان، وتحيرت كثيرا فيما أنا فاعل، وقد شعرت أننى صرت كالعريان حقا، وقلت لأنهض وأسير قليلا، فربما يكون النسر قد ألقى بالثوب على أرض قريبة، فألتقطه وأضعه فوقى لأستر نفسى، حتى لو كان قد

توحل بكامله فى الطين وربما وجدت أناسا طيبين، أسألهم أن يعيرونى ثوبا أيا كان، أعود به إلى مصر العتيقة. على أية حال. كنت فى حال عجيبة من اليأس والدهشة، وبقيت حائرا لا أجد تفسيرا لما جرى لى، فقلت لروحى: ربما ينعم على الرب ويظهر لى كرامة الآن، فيسترنى ويطمئن روحى الضائعة، ورحت أتصبر وأعين نفسى على ما أنا فيه متمتما بما قاله بطرس الرسول إلى أهل رومية: «فإذ قد تبررنا بالإيمان لنا سلام مع الله، بربنا يسروع المسيح الذى به أيضا قد صار لنا الدخول بالإيمان إلى هذه النعمة التى نحن فيها مقيمون، ونفتخر على رجاء مجد الله، وليس ذلك فقط، بل نفتخر أيضا فى الضيقات عالمين أن الضيق ينشئ صبرا، والصبر تزكية، والتزكية رجاء والرجاء لا يخزى، لأن محبة الله قد انسكبت فى قلوبنا بالروح القدس المعطى لنا». ورحت أتلو أيضا ما تيسر لى من آيات الرب وأصلى وأصلب كثيرا وأنا أتذكر سير القديسين والشهداء، والآباء البطاركة، قائلا لنفسى: فليكن لى فيهم عبرة وموعظة، وليكن اتكالى على الرب وحده، وأنا فى هذه البرية الموحشة وحيدا غريبا كفرخ سمك صغير فى شبكة صياد هائلة، ولأكن شاهدا على زمنى، وأحوال هذه الدنيا الغريبة، ثم إنى أخذت فى تذكر وقت هيامى وترحالى فى البرارى بعد خروجى من ترنيط، وكيف صادفت وحوش الفلا وبت الليالى الطوال على لحم بطنى دون أن تدخل فى جوفى لقمة خبز أو شربة ماء لكن الرب فى الأعالى، أراد لى النجاة والسلامة، فإذا كان – وهو الجبار السيد – قد امتحننى فى صباى الأول ببلية الهوى الجسدانى، والعشق الشهوانى، فما ذلك إلا ليدخلنى فى هوى العبادة وعشق المسيح زمن رجولتى، واكتمالى، فها أنا بكرم الله وفضله، صرت فى الأكليروس راضيا قانعا حامدا له على كل حال، وهو لابد ناظر فى أمرى الآن، مثلما نظر فى أمرى من قبل، ولعله يدخلنى امتحانا أمتحن به حتى أفوز بما يحوز نعمته ورضاه.

لبثت على هذه الحال ساعة، وربما أكثر من ساعة، إذ كانت ظلال النباتات حولى قد أخذت فى التغير، وقد بدأت فى التطابق معها، مما يعنى إن الشمس باتت فى كبد السماء، وقد تعامدت على الأرض، والوقت وقت ظهيرة، فقلت

لروحى: فيم الانتظار يا ولد، إن الوقت يسرقك وأنت جالس لا تفعل شيئا غير التفكر، فقم وامش حتى تجد ما يخرجك مما أنت فيه وتحصل بأى طريقة على ما تلبسه بدلا من ثوبك المخطوف، ولتبحث عن ثاونا وتطمئن عليه، لكنى ما إن هممت بالوقوف والمشى، إلا سمعت وقع أقدام أفراس تقترب منى وهى تدب على الأرض، فلما نظرت وقد ظننت أن الفرج قد جاء، وأسعفنى بما أبتغيه من رجاء، إذ أجدنى محاصرا، حصار طير فى فخ، وقد وقف فوق رأسى جماعة من لابسى السواد، وقد تمنطقوا بعدة الحرب. خفت وتراجعت قليلا بينما هم يتصايحون ويشيرون نحوى قائلين بلسانهم، هذا بشمورى قرارى مختبئ هنا، تعالوا بسرعة فأتى عسكر آخرون وسحبونى من مكانى وأنا أصيح بدورى بلسان عربى كى يفهموا، وقد أخذنى الرعب، وسيطر على هلع كاد يرسل البول منى، وقد فقدت كل سيطرة على مواطن الشعور فى أعضائى وجسدى: لا...لا، لست بشموريا، لست فلاحا قراريا أنا بدير قيم بيعة السيدة العذراء بقصر الشمع فى مصر العتيقة. ثم إنى وجدت الدنيا تلف حولى، ولم أعد متمالكا لنفسى، فغشى على من شدة الهول، وعظم الصدمة.

أفقت من غشيتى، لأجد نفسى فى محلة البشمورى مرة أخرى، وفى الدار ذاتها التى كنا التقينا بداخلها مينا بن بقيرة الزعيم، أخذت أتلفت حولى لأتبين الأمر فوجدتنى فى المكان هو هو الذى جلسنا أنا وثاونا فيه بين رجال البشمورى فى اليوم الفائت وقت كلامنا معه، لكن الجدران كان قد تهدم معظمها بفعل النزال والرمى، وقد ملأت آثار الحريق والنار من سخام وخلافه ما تبقى من هذه الجدران، ورحت أهتف لروحى: ثاونا- أين أنت يا عزيز عينى ثاونا، هل هربت أم قتلت، أم أسروك مثلما أسرت؟... كنت أرتعد وقد بدد حواسى القنوط وأقول محادثا روحى: سبحان مغير الأحوال بين عشية وضحاها، ثم رددت بصوت خافت قانط «وليرأف بى أبو الرأفة وإله كل تعزية، الذى يعزينا فى كل ضيقتنا، حتى نستطيع أن نعزى الذين هم فى ضيقة بالتعزية التى نتعزى نحن بها من الله»، وظللت أردد هذه الكلمات العطرة لبولس الرسول مرارا وقد وجدتنى محاطا

بجماعة من العسكر ومقيدا بقيد الفولاذ، وكذا كانت أحوال جماعة كبيرة من النساء والرجال والعيال، بعضهم أخذ يبكى ويولول والآخر ظل ساهما واجما ربما لشدة التعب، أو لفرط الصدمة والذهول، حاولت أن أشرح للعسكر حقيقة أمرى، لكن مقدمهم قال قبل أن أبادر بالكلام، وهو يضحك:

- هه.. أمازلت مصرا على أنك واحد من رجال بيعة قصر الشمع بمصر العتيقة؟

استبشرت خيرا بكلامه، وقد ظننت أنه قد فهم وصدق ما سبق أن قلته له من قبل:

- أجل يا سيدى.. أنا بدير قيم السيدة العذراء بقصر الشمع.

ضحك العسكر جميعا، وقال واحد منهم:

- قسيس بلا لحية؟ هل رأيتم ذلك من قبل يا ناس؟

تحسست ذقنى بيدى رغما عنى، وشعرت بضيق لأننى أمرد، لا شعر على صدغى وذقنى، لكنى سرعان ما تذكرت ثاونا العزيز عندما كان يقول لى: يا شبيه يوحنا فم الذهب، لم أتمالك نفسى وقد هاجت مشاعرى بذكره وأخذتنى اللهفة عليه، فرحت أبكى وأنتحب وقد أسقط فى يدى، ولم أعد واجدا ما يقال، فهم لن يصدقونى مهما قلت لهم، وقد التفوا حولى، التفاف وحوش صادوا فريسة، وراحوا ينهشونها، قلت ليكن ما يكون فلأسألهم عن ثاونا، فقلت بضراعة:

- بحق دينكم ومعبودكم أيها السادة، هل رأيتم زميلى ورفيقى الشماس ثاونا؟

ضحكوا جميعا لقولى هذا، وقد بدوا مصرين على عدم تصديقى، لكن واحدا منهم قال بجد:

- ماذا قلت أيها الرجل؟ هل كان معك رفيق من القساوسة. أظننى رأيته؟

هتفت وقد صرت كمن هو ميت وردت إليه روحه:

-- هل هو حى؟.. قل لى بربك ينوبك ثواب فى الدنيا والآخرة.

رد وقد بدا مذهولا:

– لقد خيل لى أننى رأيت إنسانا فى رداء القساوسة، بدا لى كالمخبول، وهو يعبرنى سريعا عند دخولى البلدة، وهو يصيح زاعقا، إذن لا أمل ولا ملاذ غير البرية، فلتدم لنا بريتنا.. برية هبيب المقدسة. ولنلوذ بها مثلما لذنا بها من قبل. ثم إنه التفت إلى زملائه العسكر، وقال:

– أظن أن هذا الرجل صادق، فهو من القساوسة، وربما يتوجب علينا تركه وإخلاء سبيله.

– صادق؟.. أتقول صادق؟

قال رئيس العسكر بغضب وهو يزيح زميله من أمامى، ويمسك بساعدى شاهرا إياه فى وجوههم جميعا وهو يسألنى بسخرية:

– وما هذا الذى على ساعدك أيها الفلاح الكاذب اللئيم، أليس هذا وشم الأسد؟ أهذا يكذب أيضا؟

كدت أقول له مدافعا عن نفسى، إن هذا الوشم قد وسمونى به عندما كنت طفلا صغيرا وقبل دخولى البيعة بزمن طويل، ومع ذلك، فحتى الرهبان فى الأديرة باتوا يوشمون كالفلاحين وسائر الأقباط المفروضة عليهم الجزية بعد صدور مرسوم من الوالى يقضى بذلك بعد أن تمادى الولاة فى تعصير الأقباط، وبعد أن دخل كثيرون منهم فى الإسلام هربا من دفع الجزية، أو التحاق بعضهم بالأديرة تهربا من تلك الضريبة الغشومة، إذ كان الرهبان لا يدفعون جزية فى مبتدأ الإسلام زمن أوائل الخلفاء المسلمين، كما أردت أن يمهلنى وقتا يسيرا حتى أثبت له حقيقة أمرى وسبب وجودى فى محلة البشمورى، لكن الرجل كان عنيفا غشوما– قبحه الله ووضعه فى سعير الآخرة– فلم يستمع إلى ولم يمهلنى لأقول له ما أريد، بل لطمنى لطمة قوية على وجهى جعلتنى أدوخ، إذ كانت يده ثقيلة، غليظة، مؤلمة، فلم أعد أدرى من أمرى شيئا حتى غشى على وقد كنت تعبا

يائسا، بائسا مكدودا، لا أستشعر فى هذه الدنيا غير الخراب، وقد وضعت أملى فى أن يصدقنى هؤلاء الناس، مهما قلت أو حاولت إقناعهم.

أحسب أننى نقلت إلى شونة غلة واسعة، ربما كانت تستخدم لتخزين البر وقتما كان الفلاحون لا يزالون يزرعون الأرض، إذ إننى وجدت الليل قد غشى عندما أفقت من غشيتى، وألفيت نفسى مطروحا على الأرض ضمن جماعة أكبر من أولئك الذين كنت بينهم من قبل، وقد أبصرت ملامحهم التعسة على ضوء مشاعل الحراس الذين حوطوا علينا من كل ناحية، وكان مشهد النساء يدفع الدمع دفعا إلى العينين، مهما حاول المرء التحامل والجلد، إذ كان معظم النسوة من الصبايا الصغيرات، وربما كان جلهن من الأبكار العذراوات، فهم لم يعتدوا بالعجائز- وما الرجاء فيهن لأولئك العسكر- وكان هناك عديد من الأطفال إلى جانب النسوة يستصرخونهن طلبا للطعام، أما الرجال واليافعون من الشبان، فقد كانوا فى حالة مزرية بين جريح ومكسور، وقد ضرب الذل عليهم جميعا فأخذهم اليأس والبهات.

ومضت ساعات عدة قبل أن يأتوا لنا بمقطف خبز وزلعة ماء، فصاروا يوزعون على كل منا رغيفا، ويمررون الزلعة علينا لنبل ريقنا، فما يكاد الإنسان يرفعها إلى فمه ليلعق منها شربة سريعا، حتى يخطفها منه الجندى وربما قبل أن تصل فمه، ليعطيها لإنسان آخر، فلم يشرب أكثر الناس، وظل الأطفال على صراخهم وربما أزهقت أرواح بعض منهم بسبب ذلك. ثم إن واحدا من المعسكر أخبرنا أمرا أنه يتوجب علينا الاستعداد، لأننا سنرتحل إلى تنيس بعد ساعة من طلوع النهار، وأن علينا بمجرد أن ينفخ فى الصور، ونسمع ذلك، أن نهب جميعا ونصطف، النساء مع النساء والأطفال، والرجال مع الرجال فى طابور مؤلف من اثنين وراء اثنين، فما أن سمع الجميع ذلك حتى ارتفع البكاء والعويل، بل راح بعض من الرجال يصرخون كالنساء ويلطمون الخدود، وقد أدركوا أنهم مأسورون أسرا لا فكاك منه، ولا راد، وكأن حمامهم قد حم وقضاءهم قد أذن، خصوصا أن الجندى أضاف أننا سنرتحل من مدينة تنيس بالسفن والمراكب إلى مقر خليفة المسلمين فى مدينة بغداد.

كنت قد بدأت فى قضم رغيفى، عندما سمعت ذلك، فتوقفت عن الحركة وبقيت جامدا واجما أشخص إلى لا شىء، فالأمر برمته منذ خروجنا من البيعة فى قصر الشمع، وحتى هذه الحظات، بدا لى وكأنه كابوس من كوابيس الشيطان، التى تهيمن على المرء أحيانا إذا ما نام دون أن يخلص فى صلواته، وينقى قلبه من آثام النهار، وكنت أجدنى فى لحظات، أثناء ذلك- وكأنى وقعت تحت ضرب من ضروب السيمياء أو السحر، فمهما شطح خيالى، بخصوص المخاطر والصعوبات التى طالما حدثنى عنها ثاونا منذ خروجنا من قصر الشمع إلى هنا، لم أكن أتخيل بأى حال من الأحوال، أن ينتهى مصيرى إلى ما سيكون عليه فى الغد عند انبلاج النهار، أأرتحل عن بلادى وأرضى مرغما؟! وأؤخذ كأسير، قد يباع فى أسواق النخاسة ببغداد، أنا بدير بن بشاى البشمورى المصرى، الذى ولدت وعشت حياتى كلها على هذه الأرض التى عاش آبائى وأجدادى عليها منذ أقدم السنين، أينتهى بى الأمر أسيرا من أسرى الخليفة المرحلين إلى بغداد! لا أعرف أأبكى أم أبتسم؟! إنها مسخرة والله كمساخر الكافر الهرطيق بولة السميساطى، كما كان يقول ثاونا دائما عن أى شىء يتداخل فيه الجد والهزل، تصورت حالى، وقد وضعونى على منصة دلال، يتفرج على الرائح والغادى ويساوم النخاس فى ثمنى وكأنى بهيمة من البهائم، أو متاع من الأمتعة، شعرت أننى على حافة الجنون، وقد صعبت على نفسى، ورحت أسترجع كل ما قاسيته خلال حياتى كلها، وكل العذابات التى عشتها فزفرت رغما عنى وأنا أهمس متضرعا للرب:

«أوصنا[١] .. أوصنا يا يسوع الرحيم»، مثلما كان يقول دوما ثاونا الحبيب، كلما تضايق أو ألمت به ملمة.

رحت أصلب بيد مرتعشة، إذ شعرت بأنه لم يتبق لى إلا معجزة سماوية من عند الرب، تحدث فجأة فتخرجنى مما أنا فيه، ويبدو أن جارى الذى كان يرقد

---

(١) أوصنا: اللفظ اليونانى للكلمة العبرية: هوشعنا، أى: خلصنا.

إلى جانبى، قد لاحظ ذهولى وجمودى وانصرافى عن الطعام، فسألنى أن أعطيه رغيفى إن كنت زاهدا فيه، فقدمته له راضيا، إذ لم تكن بى رغبة فى طعام أو شراب، بل كانت أمنيتى أن أموت ويحشرنى الرب فى ملكوته، قبل أن ترى عينى فراقى لأرضى وأوطانى، وهوانى فى بلاد غريبة لا أعرفها ولم تطأها قدماى من قبل.

قلت وقد رجعت أقوى نفسى، وأثبت إيمانى ويقينى بالله: لابد أن تكون هناك حيلة ما للخروج مما أنا فيه، ولابد أن يظهر الرب علامة إن عاجلا أو آجلا، تبين لأولئك العسكر الغشومين خطأهم وحمقهم فيما فعلوه معى، وربما سارع أبونا يوساب فى قصر الشمع بإرسال من يدركنا ويغيثنا أنا والعزيز ثاونا، وقد حمل معه أمرا من الوالى أو الخليفة، إلى هؤلاء الحراس ليفكوا أسرى، ويأتون بثاونا فنعود إلى حيث جئنا، انتعشت روحى وأنا أفكر فى ذلك، وداخلنى أمل كبير، حتى أنى عدت لا أشعر بآلام جسدى، وبذلك العطش الشديد المحرق لحلقى، فأخذت أعب مرتويا من الماء الذى كانوا قد جاءونا به فى أساطل، وقررت أن أشرع فى تلاوة صلوات الليل، وأخلد إلى النوم، حتى حلول الصباح، فيكون الرب قد نظر إلى بعين العطف وشملنى برحمته الواسعة.

نمت ربما ساعة أو ساعتين وأفقت فزعا، إذ شعرت أن هناك من يتلمس جلدى ويتحسس لحمى، فانتفضت جالسا فى مطرحى، وسرعان ما أبصرت على الضوء الشاحب للقنديل الوحيد، الذى تركه الحراس مضاء فى ركن الشونة، الفتاة الشابة المليحة، التى كنت قد رأيتها فى الطريق، عند خروجنا فى اليوم الفائت أنا وثاونا، بعد أن التقينا البشمورى، وقد جلست إلى جانبى، أجفلت، ورحت أباعد ما بينى وبينها وقد شعرت أن نارا سرت فى جسدى وأحرقت روحى وكيانى، اضطربت وتعجبت لوجودها فى هذه البقعة بجوارى، لأنهم كانوا قد وضعوا الرجال والصبيان الذكور فى جانب من الشونة، أما النساء والصبايا والأطفال الرضع، فقد كانوا فى الجانب الآخر منها، رحت أتلفت حولى، وقد أسقط فى يدى، ولم أدر ما أنا فاعل، وقد داخلنى خوف، فربما استيقظ واحد من النائمين

فظن بى الظنون، أو لحظ واحد من الحراس الساهرين على بوابة الشونة وجودها إلى جانبى، فاستراب فى أمرنا، وحدث ما لا تحمد عقباه ويبدو أن ما اعتمل بداخلى قد ظهر على وجهى، لأن الفتاة همست إلى متوسلة أن أبقى ساكنا، وكنت على وشك نهرها بصوت عال كى تبتعد عنى، ثم إنها أخذت راحتى بكفيها وهى تقول هامسة:

- أرجوك أن تستمع إلى أيها الأب الطيب، لقد رأيتك فى اليوم الفائت مع رفيقك الأب الآخر عند خروجكما معا من محلتنا وأعطيتنى صليبك، وكنت ضمن اللواتى باركهن رفيقك الأب الآخر، لذا أرجوك أن تساعدنى وتجد حيلة لئلا يأخذنى هؤلاء العسكر معهم، أريدك أن تجنبنى ما سوف يحدث لى إذا ما تملكونى وصرت وحيدة بين أيديهم فأنا عروس بكر، قتل أهلى جميعهم، ولسوف أجن إذا ما مسنى واحد من هؤلاء الملاعين، أو لامست يده موضعا من مواضع جسدى.

ثم إن الفتاة راحت تبكى بمرارة وأنا لا أدرى ماذا أفعل لها، وفجأة توقفت عن البكاء وحدقت بى بقوة وهى تقترب بأنفاسها من أنفاسى وتلامس جسدها بجسدى، وتقول:

- تزوجنى أيها الأب الشاب- اسمى سويلا- تزوج سويلا الضائعة. الآن، الآن وبسرعة، فربما حدث ما يفسد عليهم آمالهم، إذ أصير حاملا، فلا أباع عند النخاسين إلا بأبخس الأثمان إذا ما عرفتهم أننى حبلى، وربما أخذنى أحدهم لأخدم في بيت من البيوت، فتأمن نفسى وتستقر روحى، إذ أظفر بالبعد عن هؤلاء، فأنا يا أبى فكرت فى قتل نفسى، لكنى أخاف... ولا أقوى على فعل ذلك.

ثم إنها ارتمت على صدرى بسرعة وراحت تعانقنى وتلثم وجهى وفمى بقوة وعنف، فلم أتمالك نفسى وقد ثارت شهوتى، فنسيت الدنيا، وفقدت لزمن الزمان، ولم أعد أنتبه إلى المكان، فرحت أضمها وأقبلها، وأتحسس كل مواضع جسدها اللين الناعم، وأنا أهتف هامسا: سويلا.. سويلا.. فلما لامست أناملى وشفتاى فاكهة صدرها اليانعة، لم أتمالك نفسى وصرت كمن مسه مس من

الجنون، فطرحتها وجثمت فوقها ورحت أستجمع طاقة الحياة التى انتفضت فى جسدى، نافخا إياها لها، وكأننى كنت خلال ذلك، أتحدى الضعف واليأس والفناء، وقد أخذتنى لذة شيطانية باهرة لم أستطع لدفعها سبيلا، فلما انتهينا، وكانت سويلا قد قابلت جوابى لها بجواب أشد- وجدت نفسى بعد ذلك وقد غمرتنى راحة لا حد لها، وكأن كل آلام جسدى لم تكن، وشملت بصفاء عجيب لم تعهده روحى منذ زمن وصالى القديم مع الفانية آمونة، فبقيت فترة أضم يد الفتاة إلى صدرى، عند موضع القلب منى، وأربت عليها حينا، وألثمها حينا آخر، وأنا أقول لها: لن أتركك أبدا، سأضعك فى بؤبؤ العين، وسأجعل رمشى حجابا عليك ولن أتركك أبدا ما حييت، وأنت منذ هذه الساعة ومن مبتدأ ذلك الوقت زوجتى وخليلتى ووليفتى حتى يوم الدينونة، ثم إن سويلا لملمت حالها وقامت متسحبة بهدوء واحتراز دون أن يشعر بها أحد، وهى تشكرنى وتحمد الرب كثيرا، فلم أعرف ماذا أقول أو أفعل، إذ رغم عهدى لها- وقد كنت صادقا- داخلنى ندم شديد، وقد أدركت أننى وقعت فى الخطيئة، وأن الشيطان قد تمكن منى وهيمن على روحى وجسدى بنجاسته. وأننى استسلمت له وضعفت دون أن أسعى لدفع غوايته وشره، وعرفت خلال هذه اللحظات معنى الخطيئة والإثم، وأن ما كان ينصحنى به الآباء فى بيعتنا بقصر الشمع، لهو عين العقل، إذ طالما نصحونى بأن أتزوج حتى لا تقع نفسى فى الخطيئة، وأشاروا على أكثر من مرة بصبية صالحة لأربطها معى برباط الزوجية المقدس، لكنى كنت أذهب عن ذلك بوجهى، وأرفض قطعيا، إذ لم تكن لى رغبة فى النساء بعد فناء غاليتى آمونة، أما هذه الفتاة فلا أدرى بربى كيف أقبلت عليها نفسى، والحق أقول الآن، وأنا أندم على فعلتى: إننى اشتهيتها منذ اللحظة التى وقعت عينى عليها فيها، بل واضطربت نفسى كثيرا لما وجدتها تنظرنى طويلا ونحن فى الطريق.

رحت أستغفر وأستعيد بعضا من رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس، والتى طالما كان ثاونا يسعى لأن أستذكرها وأحفظها حتى تعصمنى دائما، كلما تذكرتها ورددتها بلسانى: (أم لستم تعلمون أن من التصق بزانية هو

جسد واحد؟ لأنه يقول: «يكون الاثنان جسدا واحدا» وأما من التصق بالرب فهو روح واحد. اهربوا من الزنا. كل خطية يفعلها الإنسان هى خارجة عن الجسد، لكن الذى يزنى يخطئ إلى جسده. أم لستم تعلمون أن جسدكم هو هيكل للروح القدس الذى فيكم، الذى لكم من الله، وأنكم لستم لأنفسكم، لأنكم قد اشتريتم بثمن. فمجدوا الله فى أجسادكم وفى أرواحكم التى هى الله).

بكيت بحرقة، وتمنيت لو كنت قد استطعت إخصاء نفسى، مثلما فعل القديس أوريجانوس بنفسه فى الماضى، رغم غضب البابا عليه وقتها لذلك، إذ إن معاناة الرغبة والتغلب عليها لهو ضرب من ضروب اختبار صدق الإيمان.

تمنيت أن تحدث معجزة فأغمض عينى وأفتحها لأجد نفسى فى بيعتنا بقصر الشمع وقد وقفت بين يدى أبينا يوساب لأعترف له بكل خطاياى: خطيئتى التى وقعت فيها الآن وخطيئتى القديمة مع آمونة، بل وأن تتم فضيحتى ليس أمامه فقط، بل فى خورس خاص لوحدى، ليفتضح أمرى أمام جميع الناس، وأن تحل على العقوبة التى يرتضيها؛ لأنى لم أؤمن إيمانا خالصا أن الذى فى الصينية والكأس هو المخلص وهو الديان، ثم إنى عاهدت نفسى ألا أعاقب جسدى بصوم أو بسهر أو بغير ذلك قبل اعترافى وقبولى الفضيحة، وإن لم يقدر الرب لى العودة إلى بيعتنا فى قصر الشمع، فسوف أعترف داخل أقرب بيعة ألتقيها بعد خروجى من هذا المكان، حتى لو لم تصادفنى بيعة فى طريقى إلا فى بغداد.

كان كل ما لاقيته من متاعب وأهوال فى حياتى كوما، وما قابلته خلال خروجنا من محلة البشمورى وحتى وصولنا إلى تنيس كوما آخر، فالرحلة التى قطعناها فيما لا يزيد على يوم واحد، مرت على وكأنها دهور بكاملها، فلقد أخرجونا فى الصباح الباكر ونحن مصطفون ثم اقتادونا سيرا ونحن محوطون بالحراس والعسكر من كل جانب، وقد سار أمامنا مقدم العسكر فى كوكبة من فرسانه، وكانت الطرقات الصاخبة بالحياة والناس حتى ما قبل المعركة، وكأنها طرقات سدوم وعمورة بعد أن حلت عليها اللعنة، فرائحة الموت والحريق كانت منتشرة فى كل مكان، وقد اختلطت بروائح التراب الناتج عن تهدم البيوت الطينية

البائسة، بينما الجثث ملقاة هنا وهناك، ولقد تعجبت من طغيان هؤلاء الجبابرة، فلم كل هذا التخريب والدمار لهذه المنازل البسيطة التى يمكن أن تنهار بسرعة إذا ما ألقى عليها بعض من الحجارة.

وكان خروجنا ونحن فى أبأس حال وسيرنا فى طرقات هذه الخرائب، من الأمور التى يصعب وصفها فقد مشينا نجرجر أرجلنا جرا، وقد كابدنا آلام العطش والجوع، وأوجاع الجسد، فما من أحد منا إلا وكان مكدوما أو مكسورا أو جريحا، وبقيت أحوال النساء اللواتى سرن فى المؤخرة هى الأسوأ، ومعاناتهن ظلت أشد، وقد فقد كثير من الأطفال خلال تلك اليوم حتى وصولنا إلى تنيس.

كنت خلال ذلك أقول لروحى: إن كل ما عانيته، وما سوف ألاقيه بعد ذلك، ما هو إلا حصاد زراعتى الإثم منذ زمنى الأول مع آمونة، وكذا بسبب إثمى الأخير الذى أوقعنى فيه الشيطان داخل الشونة، وشعرت وكأننى خلقت للإثم والخطيئة، وأن هذا قدرى الذى لا فكاك منه مهما مرت الأيام. أليس استسلامى السريع لسويلا تأكيدا لذلك أيضا، وكأن روحى لا تعيش ولا تحيا إلا بعذابات الإثم، والندم عليه فى كل ساعة ووقت، وكان يزيد عذابات روحى - خلال رحيل الأسر - هذا عدم تيقنى مما آل إليه حال ثاونا وعدم وجوده إلى جانبى، فهل هرب ونفذ بجلده بعد أن رآه الجندى؟ هل ما قاله الجندى صحيح من أنه ذهب إلى برية هبيب؟ أم تراه عاد إلى أبينا يوساب فى قصر الشمع؟ كان أخشى ما أخشاه أن يكون قد حدث له مكروه أو قتل، ليته كان إلى جانبى هنا، يواسينى ويعضدنى بروحه الطاهرة وعلمه الغزير فلربما كان ألجمنى وحال بينى وبين سويلا وردنى إلى جادة الصواب، لكننى كنت رغم شعورى البالغ بالإثم، أشعر بالشفقة على سويلا، هذه الفتاة المسكينة التى أظن أنها ستلاقى أسوأ مصير فى حياتها المقبلة، بعد أن فقدت أهلها وذويها وكل من يهتم بها فى هذه الدنيا، كنت أنظر هؤلاء المرتحلين معى جميعا وأفكر فى مصيرهم المجهول، الذى هو مصيرى أنا كذلك، ورحت أتخيل حالنا وقد عرضنا جميعا فى سوق النخاسة، ليتفرج علينا، ويقلب فينا الرائح الغادى فتذكرت مشهدا كنت قد رأيته أثناء هيامى

بعد خروجي من ترنيط وقبل وصولي إلى قصر الشمع، ربما كان ذلك فى مدينة منف، وربما كان عند عين الصيرة أو حلوان، لا أذكر الموضع الآن على وجه الدقة، كانت بلاد مصر جميعا غير معروفة بالنسبة لى، وهى تتشابه على الأغلب، لكنى لا أنسى كيف كان النخاس قد نصب خيمته على أطراف بستان، وقد أوقف عددا من الغلمان على دكته وراح ينادى عليهم، والناس واقفوان يقلبون فيهم وكأنهم بهائم من جنس الحيوانات وبينما هو يفعل ذلك، إذ برجل عجوز، وبصحبته امرأة شمطاء، وقد جرا خلفهما صبية مليحة، وهو يصرخ ويقول صائحا إن النخاس قد غشه، لأنه باعه الجارية على صفة أنها قندهارية، صفراء، مولدة ولهذا قبض ثمنها عشرين دينارا، فلما ذهب بها إلى البيت، بان تدليسه وغشه، إذ وجد أنها من جملة أجناس السودان ذات بدن يابس، وقد غاب عنها اللون الذهبى، بعدما استحمت وقد قالت فى سبب ذلك أن النخاس وضعها فى أبزن فيه ماء الكراويا أربع ساعات من النهار السابق لبيعها.

ثم قال الرجل، وكان يستشيط غضبا ويزيد لشدة غيظة، إنه اشتراها لكونها بكرا، فوجد أنها ثيب، وشهدت العجوز التى كانت معه أنها اختبرت الفتاة فوجدت فيها قلوب الرمان الحامض وعفص أخضر وقد عجنا بمرارة البقر. وقالت: إن الطامة الكبرى بالنسبة للمشترى، وكان قريبها على الأغلب، هو أن الجارية حامل، وأنها عرفت ذلك، بأن وضعت تحتها بخور العنبر، ومنعت خروجه من أردانها وفرج ثيابها فلم تظهر الرائحة، من فم الجارية، وأنها متيقنة- والعلم عند الله- أن الجارية حامل فى أنثى بسبب كآبة لونها وعدم إشراقه بعد أن راح عنها ذهب الكراوية، وأنها قاستها بخيط من وسط السرة حتى وسط الفقرة المحاذية لها من أحد الجوانب، ثم علمت المكان بمداد وأدارت الخيط إلى الجانب الآخر، فطال الخيط ولم ينقص مما يدل على أن الجارية حامل فى أنثى.

عند ذلك الحد، هجم الناس على النخاس وأوسعوه ضربا هو وغلمانه، وأجبروه على أن يرد الدنانير لصاحبها ويستعيد الجارية المغشوشة، ثم إنهم اقتادوه إلى صاحب الشرطة فى ديوانه.

شعرت بآلام رهيبة فى بطنى عند تذكرى ذلك، وقد تخيلت أن يحدث ذلك لسويلا البائسة، فشعورى بالحنو عليها كان هو الأشد كلما فكرت فيها، وكنت أرجو من الله ألا يمسها مكروه، بل وتحدث معجزة فلا تؤخذ كسبية أو تباع فى سوق النخاسة.

أما خراب الديار وفراقها، فكان ينحر فى قلبى وكأنه نحر الموج لشطآن البحر، فالأسر، وفراق الأوطان هو العدم فى عز الحياة، وهو آية البلوى التى كتب على أن أحياها على مدى حياتى وأيامى. فكرت فيمن سوف يشترينى، فأنا وإن كنت صحيح البدن، موفور الصحة، إلا أننى –وأحمد الله على ذلك وأشكره شكرا كثيرا –، لست بالشاب الذى يقبل عليه الرجال بغرض المتعة، كما أنى لست من القوة والعافية المغرية للشارى لاستخدامى فى عمل من الأعمال الشاقة المجهدة، رحت أتخيل من سيشترينى: صفته وعمله، وعملى معه، وكيف سيسلك معى؟ وهل سيصدقنى إذا ما أعلمته أننى قيم بيعة السيدة العذراء فى قصر الشمع بمصر؟

كنت أفكر فى ذلك وأدعو الله أن يلهمنى فكرة ووسيلة أهرب بها من أسرى هذا، فأنجو بجلدى وأعود إلى مصر العتيقة مرة أخرى ولا أغادر الديار، أخذت أقدح ذهنى، باحثا عن مخرج مما أنا فيه، وقد حضرتنى حكاية، رحت أتمثلها جاهدا، لأغزل على غرارها واحدة تنفعنى، إذ كنت قد التقيت لصا أثناء هيامى بعد خروجى من ترنيط فى موضع خرب آويت إليه لأبيت فيه حتى طلوع النهار، فلما رأى ما عليه حالى من مسكنة وذل، وأن لا رجاء له فى أن يحصل على شيء منى، أشفق على وصادقنى وأخبرنى أنه ذات مرة تسور إلى منزل رجل يهودى من أهل الغنى والمال، لكن اليهودى اكتشف امره، واستطاع هو وخدمه أن يحبسوه بالدار، ثم سلمه إلى متولى الشرطة، الذى أمر بحبسه فى حجرة لها جدران عالية داخل السجن، وكان على باب هذه الحجرة سجان يحفظه ويكلمه من خلف الباب، ويناوله من تحته ما يتقوت به، فقال له زعبل – وكان هذا اسمه – أن أظافره قد طالت جدا وهو محتاج إلى مقراض، فجاءه الحارس بمقراض.

ثم قال للحارس:

- إن فى هذا البيت فيرانا تؤذينى إذا قربوا منى، فاقطع لى جريدة من النخل تكون عندى أطردهم بها ففعل، فأخذ يضرب بها فى الحجرة التى هى محبسه، ويسمعه صوت ذلك أياما، ثم إنه قشر الخوص عنها، وقطعها على مقدار يوهم أنه من عمل الفيران، وضم كل ما قطعه منها بعضه إلى بعض وقطع اللبد الذى كان يتخذه وطاء وفراشا بالمقراض وضفر منه حبلا تسلق به إلى أعلى الحجرة وتدلى من طاقها خارجا أثناء هزيع الليل الأخير دون أن يشعر به أحد.

وتمنيت أثناء رحيلنا هذا أن نلاقى فى طريقنا وحوشا كاسرة تطلع علينا فتفترسنا ونخلص مما نحن فيه، أو أن يرسل الرب ريحا صرصرا تطيح بالمركب التى ستنقلنا إلى الشاطئ الفلسطينى لنعبر من هناك إلى مقر الخلافة فى بغداد، وكانت يداى تؤلماننى كثيرا، بسبب الوثاق الذى أوثقونى به مثلما أوثقوا بقية المأسورين، وكان العسكر لابسو السواد يحثوننا على السير كى ندرك تنيس قبل حلول الليل، وما أن فارقنا محلة البشمورى، حتى علا الصراخ والعويل من جديد، وقد استشعر الجميع أن فراق الوطن حادث لا محالة، وأن البعد عن مرابع الأهل والأحباب آت كالموت الفاجع، فأخذت أبكى بدورى، وقد شعرت بضياع حياتى، وبلوغ أوج شقائى، توسلت للرب أن يرحمنى، ويرفعنى إلى ملكوته لأستريح، لكننى سرعان ما تذكرت ما كان يقوله لى ثاونا عن رحلة السيد وأمه المباركة، ومعاناة الآباء البطاركة وسائر القديسين الأحرار فهدأت روحى قليلا وتصبرت، وقلت لنفسى: ربما أراد الرب حشرى فى رحلة هؤلاء المساكين المعذبين، حتى أشد من أزرهم وأعمل على تقوية إيمانهم، وأدفعهم لأن يصبروا على ما هم فيه من بلاء، وقلت لروحى: سوف أحدثهم عن القديسين الشهداء، سوف أحدثهم عن عذابات البابا ديوناسيوس زمن الملك الكافر ولاريانوس الذى أخذ نوابه البابا واعتقلوه بأمر منه وقتلوا جماعة من الشهداء لا يحصى عددهم، وكانوا يشقون بطون الأطفال ويأخذون مصارينهم ويصلحونها لفائف على أنابيب القصب ويرمون بها للشياطين، وقد عاقبوا ديوناسيوس البطرك وطالبوه أن يسجد

لأوثانهم، فقال لهم: نحن نسجد لله تعالى، وأنتم تسجدون لما تحبون وسجودنا للسيد المسيح خالق السماء والأرض الذى نحبه. فقال له الحاكم: أنت ما عرفت قدر صبر الملوك عليك فإن سجدت لآلهتهم أكرمناك. وأخذ جماعة ممن كانوا معه فأمر بقتلهم بعد أن خاطبه خطابا كثيرا، ثم أخرجه ونفاه إلى موضع يقال له «قولوئى»، وتفسيره حاجب؛ فعمل أهل ذلك الموضع الجميل معه ومع كل من كان معه ممن لم يسجدوا للأصنام، وبعد ذلك أعاده رجال الحاكم إليه ليحكم عليه بالموت، فقال له: بلغنا أنك تنفرد فى الموضع وتقدس أنت وأصحابك. فقال له: نحن ما ندع صلاتنا ليلا ونهارا وخاطبه خطابا كثيرا، ثم تركه. والتفت البطرك إلى الذين كانوا معه وقال لهم: امضوا إلى كل موضع وصلوا وقدسوا فإن غبت عنكم بالجسد فأنا معكم بالروح. ثم إن البطرك أعيد إلى الموضع الذى كان فيه منفيا فحزن الذين كانوا معه لأنه افترق عنهم، لكنهم قالوا: نحن نعلم أن السيد المسيح معه فى كل طرقه. ثم استشهد فى تلك الأيام جماعة لا يحصى عددهم على اسم السيد يسوع المسيح لامتناعهم عن السجود للأصنام.

وقد شاهدت أثناء صعودنا إلى تنيس الخرائب والدمار الذى خلفه العسكر وراءهم، فلم نمر بمحلة ولا بلدة، ولا كورة، إلا وكانت محروقة الزرع، متهدمة المنازل والبيوت، وكانت الطرقات والسكك خالية إلا من الكلاب والقطط والهوام الضالة.

وفى أثناء سيرى تصاحبت مع شاب من البشموريين اسمه بخنس بن أيوب، قال لى: إن العسكر قد خربوا كل مواضع البشموريين فى سمنود وسحا وشبرا سنباط والأريسية والنجوم، ولم يتركوا فيها حجرا على حجر، بعد إضرامهم النار، حتى أن حيوانات الدور الداجنة كالأوز والفراخ والأرانب، كانت تجرى فى الطرقات صارخة ناطة والنار مشتعلة بريشها وجلودها، وأن ما حدث فى ناحيتنا، يقصد ناحية البشرود كما يطلق عليها هؤلاء العسكر بلسانهم، لم تكن الوحيدة وإن كانوا قد شنوا عليها أكثر لعلمهم بأن الزعيم مينا بن بقيرة، كان يتحصن فيها ويتخذها محلة لحربه ضدهم لصدهم عن البلاد.

وقد قال لى ذلك الشاب، أثناء سيرنا أيضا: إن مينا ظل يرمى على العسكر ويقاتلهم حتى نفذت ذخيرته، وكان أكثر رميه ورمى رجاله لا ينفع لأن العسكر كانوا واقعين فى الظلمة وما يسقط عليهم من مشاعل البشمورى ينطفى فى الحال لكثرة الماء فى المواضع التى كانوا فيها، أما الوقايد التى كانت تسقط على محلة البشمورى، فقد كانت تحول الليل نهارا لكثرتها، وتجعل كل شىء يستبين وكأنه تحت ضوء الشمس، فلما تمكن العسكر منه ودخلوا عليه، أعملوا السيوف فيه وفى أعوانه، وكان بخنس منهم حتى قتل أكثرهم، لكن البشمورى ظل يدفعهم عنه وقد أخرج لهم سيفه وهو من الحسامات القوية التى كان قد جلبها له بعض خواصه من عند الروم، فظل يزود عن نفسه حتى دوخ العسكر فلما تناهى ذلك إلى مقدمهم المدعو الأفشين، وكان هذا هو الذى يتقدم مسيرتنا الآن- جاء ونازله بنفسه ودام النزال بينهما ساعة، حتى أجهز الأفشين على مينا، فظل مينا يلعن ويسب ويدعو عليهم بالخيبة، ويتمنى على الله أن ينتقم منهم وتدور عليهم الدوائر حتى لفظ أنفاسه.

ثم إن الشاب بكى بكاء مرا على زعيمه مينا بن بقيرة، وهو يقول لى: إن الفتاة المسكينة التى كان قد أنقذها وصارت زوجته بعد ذلك، جاءت ولبثت تبكى على جثته وتندبه مدة، فلما رأى العسكر ما أصابها بسبب ما كان قد جرى لها، تركوها دون أن يسبوها ضمن السبايا، وقد وجدوا أن لا نفعا ولا رجاء فيها.

كانت سويلا تسير خلفنا مع جماعة النساء المسبيات، وقد حرصت على تجنب النظر إليها، خشية أن يتصادم نظرى بنظرها، فأضعف ويلين قلبى بسبب ذلك، أو تهيج ذكرى مواقعتها بجسدى، فأصبو إليها من جديد ولا أملك من أمرى أمرا لكن عندما أوقفونا لنستريح قليلا ونشرب بعضا من الماء اختلست النظر إليها رغما عنى فوجدتها فى حالة شنيعة، وقد أخذها الضعف والإعياء، وتسخم وجهها بالغبار، وتشعث شعرها الجميل، فلم أتمالك نفسى من الرثاء لحالها ورق قلبى من جديد، وعاهدت نفسى أن أبذل كل ما فى طاقتى لأحميها، وأنا أدعو الرب وأقرى القرايات لأجل ذلك دون أن أصلب كما أشتهى بسبب يدى المغلولة.

دخلنا مدينة تنيس قبل الزوال بحوالى ساعة فوجدنا عسكر الخليفة ممن كانوا فيها، قد تهيأوا وخرجوا لملاقاتنا، وقد تجمع هوام العوام لمشاهدتنا وتجريسنا مثلما هى عادتهم فى نصرة كل غالب على المغلوب، فأخذوا يصيحون فى وجوهنا، وينعتوننا بالكفار المارقين، وراح عيالهم يرموننا بالوسخ والقاذورات، بينما العسكر يذبونهم عنا بالأسواط لئلا يهجموا علينا ويفتكوا بنا، فلما دخلنا إلى الطريق الكبير بالبلد، لنتجه منه بعد ذلك إلى جهة البحر ونركب المراكب التى سوف تخرج بنا من بر مصر، وجدت بخنس بن أيوب يبكي وهو فى غاية الحزن والألم، فرحت أواسيه وسألته الصبر والتجلد، وحاولت الأخذ والعطاء معه فى الكلام، لأسايره فينسى ما هو فيه من غم وكرب، فقال: إن ما يبكيه هو أن أمه أصلها من تنيس وأنه عاش جانبا من طفولته فى هذه الكورة عندما كان يأتى لزيارة جده مع أمه وقت الأعياد، وأنه يحب هذه المدينة حبا عظيما لذا فهو حزين لأنه سوف يفارقها ويكون فراقه لبر مصر منها، ثم قال لى إنه كان قد قرأ فى المكتب، وله ولع بمعرفة تواريخ الأولين رغم أنه من الفلاحين، لأن جده لأمه كان من الوراقين المشتغلين بالكتب، وكذا بوضع التواريخ، وقد ترك عدة من الكتب، قرأ فيها- أى الشاب- عن كورة تنيس أنها واحدة من أعظم كور المعمورة رغم وقوعها وسط الماء لأنها من كور الخليج، وأن البحر أغرقها مرة، وكان لها قرى ومعاصر للخمر وعمارة لم يكن أحسن منها، لكنها قامت مرة أخرى بعد غرقها بزمن طويل فعمرت واستوت جنانا ونخلا وكرمة وشجرا ومزارع، وكان فيها مجار على ارتفاع من الأرض، وقد أخبرنى ذلك الشاب العليم أيضا- وكنت أحثه على الكلام حتى نتناسى ما نحن فيه ولا ننتبه لأذى العوام- أن الماء لا يزال ينحدر إليها لا ينقطع عنها صيفا أو شتاء، وسائره يصب - بعدما يأخذ الناس حاجتهم منه - فى البحر، وأنه كان بين البحر وأرض تنيس مسيرة يوم، وكان فيما بين العريش التى ربما نهبط إليها بالمراكب وبين جزيرة فى البحر يقال لها قبرس طريق مسلوك تسلكه الدواب يبسا حتى علا الماء وغطى ذلك الطريق.

وأنه لما مضت لدقلطيانوس من ملكه مائتان وإحدى وخمسون سنة، هجم الماء من البحر على بعض المواضع التى تسمى اليوم بحيرة تنيس، فأغرقها، وصار يزيد كل عام فما كان من القرى التى فى قرارها غرق، وأما الذى كان منها على ارتفاع من الأرض فبقى منه تونة وبور، وغير ذلك مما هو باق إلى هذا الوقت، والماء محيط به.

وكان أهل القرى التى فى هذه البحيرة ينقلون موتاهم إلى تنيس، فنبشوهم واحدا بعد واحد.. وكان استحكام غرق هذه الأرض بأجمعها قبل أن يتملك المسلمون مصر بمائة سنة.

قال: وقد كان لملك من الملوك التى كانت دارها الفرما، مع أركون من أراكنة البلينا وما اتصل بها من الأرض، حروب عملت فيها خنادق وخلجان، فتحت من النيل إلى البحر، يمتنع بها كل واحد من الآخر، وكان ذلك داعيا لتشعب الماء من النيل واستيلائه على هذه الأرض.

وأضاف، أفاده الله، أنه قرأ أيضا فى كتاب أن لهذه المدينة سورا كان فى الماضى له مائة باب، وأن أهلها اشتهر عنهم فى القديم اللهو والخلاعة وأنه كان يولد بها كل سنة- كما قال بعضهم- مائة مخنث، وأهلها كانوا محبين للنظافة والدماثة والغناء واللذة، وأكثرهم كانوا يبيتون سكارى، وقد حصل لهم مرة مرض يقال له الفواق التنيسى أقام بأهلها ثلاثين سنة، وقد لاحظ بخنس ونحن نسير فى الشارع الكبير تعجبى من عمارة البلد الجميلة ودورها العظيمة وانتشار الحاكة الجالسين على أبواب دكاكينهم وجلهم من الكبار العجائز يحيكون الثياب الموشاة، وهم يرفعون رءوسهم عما بيدهم بين الحين والحين وينظروننا دون مبالاة، وكأنهم قد تعودوا على مناظر الأسرى المرتحلين من مدينتهم بين أيدى العسكر إلى السفن جهة البحر، فقال لى بخنس إن أكثر أهل البلد هنا من الحاكة المنصرفين إلى أعمالهم، إنهم لا يحبون دس أنوفهم فيما لا يعنيهم، لأنهم يتكسبون كثيرا من حياكة الثياب الشروب وهى نوع فخيم لا يصنع مثله فى كل أنحاء الدنيا، وأن أعظم ثوب لخليفة المسلمين يصنع هنا فى هذه الدكاكين، وهو

ثوب يقال له البدنة، لا يدخل فيه من الغزل سداء ولحمة- غير أوقيتين، وينسج باقيه بالذهب بصناعة محكمة لا تحوج إلى تفصيل ولا حياكة، وتبلغ قيمته ألف دينار وليس فى الدنيا ثوب كتان يبلغ الثوب منه- وهو ساذج بغير ذهب- مائة دينار عينا غير طراز تنيس، وربما مدينة دمياط، مما جعل تنيس من أجل مدن مصر، وإن كانت شطا وديفو ودميرة وتونة، وما قاربها من تلك الجزائر، يعمل فيها الرفيع، فليس ذلك يقارب التنيسى. وقد أخبرنى بخنس أيضا أنه حدث فى تنيس منذ سنوات أن ولدت معزى جديا له قرون عدة ورأسه مع صدره، وبدنه ومقدمه بصوف أبيض ومؤخره بشعر أسود، وذنبه ذنب شاه، كما حدث فى العام الماضى أن صيد بأشتومها حوت طوله ثمانية وعشرون ذراعا ونصف، من ذلك طول رأسه تسعة أذرع، ودائر بطنه مع ظهره خمسة عشر ذراعا، وفتحة فمه تسعة وعشرون شبرا وعرض ذنبه خمسة أذرع ونصف، وله يدان يجدف بهما طول كل يد ثلاثة أذرع، وهو أملس أغبر، غليظ الجلد، مخطط البطن ببياض وسواد، ولسانه أحمر، وفيه خمل كالريش طوله نحو الذراع يعمل منه أمشاط شبه الذيل، وله عينان كعينى البقر، فأمر أمير تنيس به، فشق بطنه، وملح بمائة أردب ملح، ورفع فكه الأعلى بعود خشب طويل، وكان الرجل يدخل إلى جوفه بقفاف الملح، وهو قائم غير منحن، وقد فشى خبر هذا الحوت العظيم فى جميع أنحاء الأراضى البشمورية، وصار الناس يحجون إلى موضعه، وقد وضع ملقحا فى مكانه للفرجة عليه ومشاهدته بأعينهم.

فصلبت وتعجبت من قدرة الخالق العظيم، فقال لى: إن بتنيس أمورا وغرائب كثيرة، تحتاج إلى ساعات وأيام لحكيها، ويكفى أنها منذ مدة عذبت بحيرتها صيفا وشتاء، ثم عادت فى العام التالى لذلك ملحا صيفا وشتاء، وعادتها أن تقيم ستة أشهر عذبة وستة أشهر مالحة، فلما وصلنا حتى خليج المدينة، وكنت قد أنست وتصبرت كثيرا بحكايات بخنس عن تنيس رغم تعبى وألمى الجسمانى الشديد، أجلسونا قليلا لنستريح، مثلما كانوا يفعلون بين الحين والحين، فى الطريق ليعطونا رغيف الخبز وشربة الماء، وماكدنا نجلس إلا وضجت السماء بالرعد

والبرق، وهبت ريح شديدة، وعم سواد عظيم فى الجو، فبقينا على ذلك الحال نحو ساعتين والحراس معنا، ثم ظهر فى السماء عمود نار أحمرت منه السماء وصارت الأرض أشد منها حمرة، وخرج غبار ودخان يأخذ الأنفاس استمر إلى ما بعد منتصف الليل، فأبقونا فى أماكننا، وبتنا فى مطرحنا على الشاطئ ولم نصعد إلى المراكب إلا بعد انصرام نهار اليوم التالى، وقبل حلول الغروب بقليل، صعدنا جميعا الى المراكب حيارى نقدم رجلا ونؤخر رجلا، وقد صعب علينا مفارقة الأرض والديار، ولسوف أبقى ما حييت دون أن تغيب عن أذنى أصوات العويل والبكاء والصراخ الذى أخذ يتعالى من جميع المأسورين رجالا ونساء.

ولن أنسى مشهد الدموع التى كانت تسيل وتشر على وجوه الجميع وكأننا فى مندبة نندب عزيزا مات، وقد لبثنا على هذه الحال وقتا حتى بدأ النوتية يحلون القلوع والأشرعة ويفردونها فى وجه الريح، فطبت قلوبنا جميعا، وأدركنا أننا مودعون الديار لا محالة، وأن هذا هو القضاء المكتوب لنا، فتعصرت قلوبنا، ودفن بخنس رأسه فى صدرى وراح يبكى وينهنه كالنساء، وفجأة تصاعد صوت شجىّ بالغناء، كان آسرا عميقا خلال هذه اللحظات العصيبة، فالتفت ناحية الصوت مثلما التفت الجميع، فإذا بنا نرى مجذوبا من مجاذيب الصوفية المسلمين، وقد وقف قبالتنا على الشط، وجسده قد تعرى بكامله إلا من خرقة يستر بها عورته، وراح يقول:

أفى كلِّ عامٍ غربةٌ ونزوحُ ... أما للنَّوى من منيةٍ فتريحُ

لقد طلَّح البينُ المشتُّ ركائبى ... فلا أرينَ البينَ وهو طليح

وأرّقنى بالرى نوح حمامة ... فنحت وذو الشجو الحزين ينوح

على أنها ناحتْ ولم تذْرِ دمعة ... ونُحتُ وأسرابُ الدموع سفوح

فلم أتمالك نفسى وشهقت مثلما شهق الجميع ونحن نبكى، وسرعان ما تذكرت قصة أرخليدس وسنسكلتيكى ورحت أستريح جانبا مما قرأته منها فى السنكسار الذى كان قد دفعه إلى ثاونا العزيز ذات يوم لأقرأه، وقد كتب على رق غزال بخط قبطى مذهب جميعه، وبدأت أهمس لروحى:

إننى أبحث عن شخص أبدى

أبثه أشجانى

فإذا مت صلى من أجلى

وحضرنى فى التوقول يوحنا فم الذهب:

كل إنسان على ظهر البسيطة

لابد أن يرى ما كتب عليه

ثم إنى نظرت الفتاة سويلا، فقلت لأواسيها بصوت سمعه الجميع:

اهدئى أيتها الصغيرة وتذكرى ما جاء فى السنكسار:

ليست الصداقة أكلا وشربا

إنما الصداقة الحقة هى:

إذا وقع صديقك فى خطية

عليك أن تبذل نفسك لتخليصه

إن المسيح صديق لآدم

فما أن وقع فى معصيته

حتى بذل جسده ودمه لأجله

وأعاده إلى المركز الذى كان يشغله.

ثم إن المجدفين بدأوا فى التجديف والسير، وأخذت المراكب تندفع إلى عرض الماء مبتعدة عن الشط، وبدأ بر مصر يغيب عن ناظرى شيئا فشيئا وأنا شاخص إليه لا أحيد بنظرى عنه، وكلما كانت صورته تتضاءل وتبهت أمامى كانت ترتسم داخلى وتقوى فيه قوة لا حد لها ستبقى معى ما حييت.

تم الجزء الأول من «البشمورى»، رواية روايات:

١- ساويروس بن المقفع
٢- ألفريد بتلر
٣- زبيدة عطا
٤- سيدة كاشف
٥- الشيخ يوسف الشربينى
٦- المقريزى
٧- الحسينى صالح
٨- چون أنتيس
٩- عادل محيى الدين الألوسى
١٠- چيمس بنتلى
١١- أنطونيوس الانطونى
١٢- حبيب زيات
١٣- بانوب حبشى
١٤- يسى عبدالمسيح
١٥- صابر جبرة
١٦- منير شكرى
١٧- باهور لبيب
١٨- الحسن بن زولاق
١٩- مارتن برنال
٢٠- أحمد كمال
٢١- عبداللطيف البغدادى
وآخرون

البشمورى

الجزء الثانى

لم أكن قد ركبت البحر من قبل، ولم يكن لى خبر بحضرنه، فشعرت لما مثلت أمامه، ونظرت هيأته، كأن قلبى قد انشق وانشطر، وأن دمى قد غاب وانقشع، وأنا على ما أنا عليه من يأس وانفطار وتسلسل فى العجز والمرار، بسبب كل ما قد كان، وحتم البعد عن الأوطان، وهكذا سرت لا أدرى كيف أرفع القدم وأحطها وأنا أصعد إلى العمارة البحرية الكبيرة التى سمعت الجند يطلقون عليها الحراقة، وهى من جاريات الماء، ذات مرامتى للنيران، يرمى منها العدو فى البحر، وهيأتها هيأة عقاب ضخم مخيف، مما زاد فى وجل القلب، وفعل فعل الزهومة فى النفس.

أخذوا يفرزوننا- نحن الأسرى- وكان عددنا كثيراً جمّاً، فمن قال إنا كنا ثلاثة آلاف نفس، ومن قال دون ذلك، أما النساء والأطفال فقد تحوطوا عليهم فى موضع قصى بمؤخرة العقاب، بينما جرى تقسيم الفتية والرجال كل حسب هواهم وغرضهم منه، وكان قدرى أن أوضع ضمن شغيلة الوقايد فى بطن الحراقة.

ولم تك الحراقة التى أودعونى بها هى الوحيدة المغادرة من مياه البر المصرى، بل كانت هناك حراقات أخرى وزع عليها المأسورون، إضافة إلى ثلاثة سلالير، كما أخبرنى بنيامين الصورى - بعد ذلك - وهو خير من تعرفت عليه أثناء عملى بالوقايد، والسلالير من المراكب البحرية الأصغر فى هيأتها من هيأة الحراقة، ذات شرع ثلاثة، قال بنيامين، وهو خبير عليم بهذا المضمار لكثرة عمله واشتغاله بالبحر: إن الواحدة منها تحوى أربعين مجدافاً، وهى سريعة الحركة، وقد سميت على مسمى نوع من الطير يحلق سريعاً فى السماء، وأن سلورة من هذه السلالير وقد حمّلت بكل ما جلبه الخليفة من أرض مصر، سواء أكان قد حصل عليه عن طريق الأعطية والهدايا، أم كان أخذ عنوة رغماً عن أهلها، مثلما كان

أمره مع كل المتحصل من ورق البردى الذى صنعه أهل البشمور، وما كانوا يتخذونه تجارة ومعاشاً لهم.

أما حراقتنا، فكانوا -قبل صعودنا- قد وسقوها بكل ما يحتاجه الملاحون من الميرة والزاد، على نحو الخبز والماء، ومن جميع الفواكه، والأدم، والسفرجل، والبطيخ، والشاه بلوط، والحمّص المجوهر، والباقلايا مطبوخاً، والبصل، والثوم، وجبن الحلّوم، والشبّ اليمانى الأبيض الذى يحمل إلى الآفاق، وغير ذلك مما يطول ذكره، والذى أخبرنى به أيضا بنيامين الصورى، وهو الذى أعلمنى - بعد ذلك - أن مخازن الغلال التى تسمى الأهراء المباركة تخرج منها جرايات رجال السفن والأسطول، وكذا جرايات السودان العاملين بها.

كان بخنس قد أُخذَ ضمن خدام السوارى والبنود على السطح، فافتقدته وابتأست لفرقته كثيراً، ويبدو أنهم توسّموا فيه الشدّة والبأس بسبب عظم جثته وقوة عضلاته، فتوجع قلبى لفرقته رغم معرفتنا القصيرة ببعضنا البعض، وتنادمنا القصير السريع، لكن الربّ شاء أن تكون أرواحنا أسبق من الزمان فى حركَة التلاقى وحدوث التصافى، فالمحب تظل بلورة روحه دائرة دون توقّف حتى تصادف بلورة محبّة دائرة بحثًا عن الاقتران والمودة، فإذا ما تصادمتا وتماستا مع سرعة الدوران وشدّتها، تولّد شعاع المحبة متدفقًا عظيماً لا يدانيه شعاع الزمان قوة وبأساً رغم هيولة حدوثه.

وربما كان ما حكاه بخنس لى عن سويلا سبباً فى توثق محبتى له، فقد أخبرنى أنها كانت قد فقدت ذويها أجمعين فى آخر طاعون شهدته أراضى البشامرة قبل الحرب الأخيرة، وكان ذلك قبل عدة أعوام خلت، وكان فناءً عظيماً لكثير من الناس والدواب، وسويلا كانت حينذاك صبيّة لا تتجاوز أعوامها العشرة، فهامت على وجهها فى الوحلات، حتى حنّ عليها رجل طيب فحشرها ضمن عياله ورعاها، لكن علّة شيطانية باتت تعتريها بين الحين والحين، تجعلها تذهل عن الدنيا، فتصرخ ساقطة على الأرض ويتخشّب جسدها تخشّب الأجساد الميتة - إلى حين - فتظل على ذلك الحال، وقد زاغ بصرها وترغرغ ريقها خارجاً من

فمها، حتى ينظر الرب فى أمرها ويرحمها، فتفيق وتثوب إلى رشدها مرّة أخرى، وأن الرجل مربيها- وكان من الميسورين المشتغلين بصناعة قراطيس الكتابة من ورق البردى المنتشر بالأراضى البشمورية- لم يبخل عليها، بل اهتم لعلتها، وطاف بها على كنائس الملكانيين حيناً، وعلى كهان الوثنية حيناً آخر، دون أن يتوصل لمخرج من مأزقها؛ وذلك بعد أن أعيته الحيل، وباركها العديد من آباء كنيستنا المباركة الذين مسحوها مراراً بالزيت المقدس، وقرأوا عليها قرايات إيمانية دون جدوى.

صرت فى الأسفل أعمل عند بيت النار مع الوقادين، وكان دورى أن أظل حريصًا منتبهاً إلى اشتعال جمراتها طيلة الوقت دون ملل أو كلل، بينما تدور آلاتها ويدفعها المجدفون، وهم عصبة من الرجال الأشداء المقدامين لم أر أخشن منهم طيلة حياتى، وجلهم من العبيد السودان شديدى السواد، حتى إن جلودهم- وقد تعرقت- كانت تلتمع كالأبنوس المصقول، وليس عليها إلا ما يستر عوراتهم، ومواضع العفّة فيهم، وقد وقف عند رءوسهم عسكر الخليفة يلهبون ظهورهم بالسياط، إذا ما تباطأوا فى عملهم أو زيّنت لهم نفوسهم التوانى والكسل، أما من كانوا معى فى عمل الوقايد فقد كان جلّهم أجلافاً وأدنى من ذلك، وكانوا يتكلمون معى بلسان عربى خولط بلكنة ثقيلة لا تخلو من سذاجة، أما فيما بينهم فكانوا يتحدثون بلسان غريب لم أسمع مثله من قبل، فلما سألت بنيامين الصورى، وهو الدارى بأحوال الملاحة من المبتدأ للخبر؛ بسبب أن أهله من المشتغلين بالبحر أباً عن جد، قال لى إن هؤلاء معظمهم من طائفة عبيد يقال لها «المنبوذون»، يجرى جلبهم من بلاد الهند والسند، ويباعون فى أسواق النخاسة بأبخس الأثمان، بسبب جهلهم وفظاظتهم وخيبتهم فى تعلم الحِرف والمِهن، وأنهم كانوا فى موطنهم بالأصل لا يقبل عليهم الناس ولا يحادثهم كائن من كان، فيعيشون محتقرين منبوذين ملعونين، حتى إن أشراف بلادهم كانوا يعاقبونهم بصب الرصاص المصهور فى آذانهم إذا ما تجرأ أحدهم ورفع صوته بالكلام فى حضرة واحد من هؤلاء الأشراف الهندوس.

كان بنيامين الصورى لطيف المعشر، ظريف الهيأة، وهو فتى باسم بشوش، بادر بالعطف علىّ والتودد إلىّ، وهو يحدثنى بقليل من قبطية حيناً، وبالعربية حيناً، وكان قادراً على التفاهم مع المنبوذين أيضًا، ويقول لهم شيئًا بلسانهم، وكانت مهنته رئاسة الوقايد، والإشراف على الداخل منها إلى بيت النار – فى موضعنا أسفل الحراقة – وضبطه بمعيار الخبرة، حتى تظل جذوته متقدة دون انطفاء، فلما لاحظت نباهة لسانه ورطانته بكل كلام مهما تباينت الأجناس، ضحك، وقال:

إن هذا دأب كل من اشتغل بالبحر، فكثرة الطواف والذهاب والإياب تلقى به على شطوط البشر، فيستقر على لغاتهم وعاداتهم ومشاربهم ومآربهم فى الحياة.

ظللنا نعمل طيلة اليوم، وكان هدفنا بعد الخروج من أشتوم بحيرة تنيس هو شطّ مدينة الفرما، لكن بسبب معاكسة الريح لنا، ولهوها بسير الماء عند أشتوم البحيرة، تعطّل خروجنا بعض الوقت إلى فناء البحر الرومى، فما لبثنا إلا وكان الليل قد سحبنا إلى غزير عتمته، فجاء إلينا بعض الحراس، وأمر بعضنا بالذهاب معهم، فلما امتثلنا وسرنا وراءهم حتى صرنا فى موضع آخر بجوف الحراقة، حمّلونا إناءً كبيراً مملوءاً بملح النطرون، وضعناه بحيث لا تطوله ريح، ثم أتوا بسلٍّ من الحديد على هيأة الصليب غرسوه فى حلقة من خشب السنط وألقوا بهما فى الإناء، فطفت على سطح الماء، وبعد ذلك جاء الربابنة، فأظهروا حجراً عجيباً فى حجم قبضة اليد أو أقل، وأخذوا يقربونه من سطح الماء فى حركة دائرية من اليمين إلى اليسار، حتى ظهرت آيته، وهى دوران السلّ على السطح فى اتجاه موضع دوران الحجر، وكانوا يسحبون يدهم بسرعة، فيكف السلّ عن الحركة، ويستقر طرف منه نحو الجنوب والآخر نحو الشمال، وهكذا حددوا الوجهة التى يتوجب أن تجرى إليها الجارية فى الماء.

وصلنا مدينة الفرما عند الفجر الليلة التالية، وعندما استبان بعض من معالمها فى الأفق، سارع المنوطون بخدمة الأشرعة بلمّها لترسية الحراقة عند برّها، وقد توسّلوا لذلك بالثقالات الحديد الغلاظ، وقد راح النوتيّة يفكون حبالها ويدفعون بها إلى جوف البحر، فما أن وصلنا الوصول الأخير، وتوقفت الحراقة والسلالير، حتى هرع إلينا الحمالون أتباع جيش الخليفة وأصحاب الركائب والذين كانوا ولابد قد طيّر لهم الحمام ووصلهم البرق ونحن فى سبيلنا للحلول فى هذى البقعة، وإلا ما كانوا قد بلغونا فى هذا الموضع عند هذا الحد الأدنى من النهار، ثم أنهم بدأوا فى نقل بعض من حمولة السلالير على ظهور الجمال، وقد أمرونا، نحن المأسورين، بالحمل جميعًا، ولم يعف من ذلك غير النساء والأطفال، فنالنا من ذلك مشقة عظيمة بسبب الحمل والجهد العظيم الذى كنا قد عانيناه طوال ما مضى من نهار وليل.

أزاح الفجر ستائره فجأة عن شمس فتية لا مثيل لها، وقد تألقت فى هذا الفضاء الأزرق المديد المجتمع من سماء وماء، فانشرح صدرى ورحت أصلّى خلسة، شاكراً الرب على كل شىء حامداً نعمته لحلول نهار جديد، وما لبثت إلا قليلا حتى رأيت بخنس بن أيوب قادماً نحوى، وقد حمّلوه بما حمّلنا بمثله، فما أن رآنى حتى سارع بحطّ حمولته واندفع إلىّ معانقًا، وقد أخذه شوق لا يدانيه إلا شوقى له، وكان وقت الزوّادة قد حل، فجلسنا على الرمال نأكل ما قدموه لنا من خبز وبصل وتمر جاف، وقد أخبرنى بخنس أن كثيرين من الناس قد مرضوا وخصوصًا من النساء والأطفال، بل إن بعضهم أوشك على التلف، وأن المداوين والمطبّبين على سطح السفن، باتوا موزعى الجهد لكثرة المرضى، وأنهم يكتفون بماء الراوند، وشموم النوشادر، لإفاقة من غشى من الناس بسبب انتفاء عهده بركوب البحر، وأنهم كادوا أن يفتكوا بواحد من الأسرى أشار عليهم بجرعات من

الخمر يشربها الملتاعون فتهدّئ من روعهم؛ لأن المسلمين يحرّمون شرب الخمر مهما كان الأمر حتى لدفع مرض، أو لمداواة داء من الداءات.

وكنت عندما اعتنقت بخنس قد راعنى تصاعد ريح الخل منه، فأنفت من ذلك، وعجبت له، ولم أستطع كتمان الأمر فى صدرى، فلما سألته، قال إنهم أمروه مثلما أمروا كل من على السطح من خدام الصوارى بشرب ماء البحر ثم تقيوئه، وبعد ذلك طلوا وجوه الجميع بالخل، وكل ذلك بغرض دفع دوار البحر وآثاره المدوخة والضارة للنفس والبدن.

رحنا نتسامر، بينما معالم الفرما ترتسم وتتوضح لنا، كلما تجلّت الشمس أكثر وشددت نورها، فلما نظرتها وجدت أنها مدينة ذات حصن مطلّ على البحر، وبدا لى أن بها أخلاطاً من الناس، كما وضح من حال الحمالين وأصحاب الركائب، الذين هم من البدو والعرب والأقباط، فأعلمنى بخنس أنه كان قد قرأ فى بعض الكتب، أنه كان منها طريق إلى جزيرة قبرس فى البر، فغلب عليها البحر، ويقال: إن فيما غلب عليه البحر مقطع للرخام الأبلق، وأخبرنى أيضاً أن مما قرأه عنها أن أحدهم شرع فى هدم أبواب من حجارة كانت شرقى الحصن ليعمل منها جيراً، فلما قلع منها حجراً أو حجرين، خرج أهل الفرما بالسلاح، فمنعوه من قلعها، وقالوا: هذه الأبواب التى قال الرب فيها قولاً مقدساً على لسان يعقوب؛ فلا يجوز هدمها.

ما حييت لن أنسى صورة بخنس وهو يحدثنى عن الفرما بينما نحن جالسان على الرمال، والأزرق المديد أمامنا بلا حدّ يفوقه غير حدّ الحزن فى عينيّ بخنس شديدتى السواد، بينما تعبير شامل من الأسى قد هيمن على وجهه ذى الجبين العريض والأنف الأشم المرتسم تحته شارب داكن ولحية خشنة خشونة شعر رأسه، فبعد ذلك الوقت لم أر بخنس، ولم تتكرم الأيام علىّ بلقياه مرة أخرى أبداً، ولقد سألت عنه مراراً، بعد ذلك، كل أولئك الذين يمكن أن يكونوا قد صادفوه، ولكن دون جدوى، وتضاربت رواياتهم حول موضعه ومصيره، فمن قال لى مرة: إنه سقط أثناء مسيرنا فى البحر من فوق أحد الصوارى فابتلعه الماء فى التو ومن قال

لى: إنه شاهده وهو يساق فى جملة الأسرى الذين سيقوا إلى دمشق. وهكذا ظل اختفاء بخنس وعدم وقوفى على مصيره، لغزاً يعذب روحى حتى يومى هذا.

كنت فى البداية أظن أنهم سوف يسوقوننا مباشرة إلى مقر الخلافة ببغداد، لكن بخنس أخبرنى قبيل فراقنا ونحن فى الفرما أنهم سيذهبون بنا إلى أنطاكية، وأن الذين رفعوا السلاح على الخليفة سيؤخذ جلهم إلى دمشق، وقال إنه سمع بعضهم يقول: إن الخليفة أمر بهدم ودرس كل الكور البشمورية المنتفضة ونواحيها، وحمل كل من تبقّى فيها من الناس على السفن، وأنه كان قد جاء إلى مصر لتهدئة فتنة العرب الذين استقروا فى الغرب نواحى الإسكندرية ولوبية، وهو يخشى أن يتكرر ما جرى بعد عودته إلى بغداد، فتثور الفتن من جديد ويتّحد العرب المنتفضون مع الأقباط مرة أخرى، وأنه خيّر رؤساء الكور المستسلمين فى الرحيل إلى واحدة من بقاع عدة بأرض الخلافة، فاختاروا مدينة أنطاكية العظمى، التى بها أعظم كنيسة فى سائر أرض الخلافة، وكان اختيارهم أنطاكية؛ بسبب تقارب الكنيسة اليعقوبية مع كنيسة أنطاكية هذه، وضعف الخلف بينها وبين الكنيسة القبطية فى مبادئ العقيدة.

وقبل صعودنا إلى المراكب مرة أخرى قاموا بتعليق جلود ولبود مبلولة بالخل والماء والشبِّ والنطرون حول المراكب من الخارج؛ وذلك لدفع أذى النفط، إن وجد من تسول له نفسه الاعتداء على السفن من لصوص البحر، أو عساكر الروم البحرية الذين كانوا ما يفتأون يجوبون ذلك البحر خصوصاً أثناء الليل، وقد احتاطوا لذلك أيضا بالطين المخلوط بالورق والنطرون والخطمى المعجون بالخل، فكل ذلك يقاوم فعل حرايق النفط هذه، وقد راقبوا الأمتعة والمنقولات ومنعوا نقل بعضها، وكان من الممنوعات عدة ديكة، أراد رجل مرتحل معنا من الفرما أن يأخذها فى أقفاصها معه؛ بسبب أنها مما يستخدم فى الصراعات المحببة إلى الناس هناك، وهى تجلب لصاحبها من اصطراعها فى الأسواق المال الجيد، غير أن العساكر أصروا على إجباره على تركها، إذا كان يريد السفر، حتى لا تصيح أثناء الطريق فتكشف موضع السفن للمغيرين إذا ما أغاروا أثناء الليل، فآثر الرجل

عـدم السفـر والبقـاء مع طيـوره التى قال إنـها لا تقـدر بمال، وإنهـا عـزيزة عليـه للغاية.

اتجهوا بنا بعد ذلك إلى مدينة العريش، لملاقاة بعض تجار الكارم الوافدين إليها من بلاد الصين والهند، فحملوا بعضهم معنا كما سمعت من بنيامين الصورى، الذى قال أيضا: إنهم صعدوا محملين بنفائس من الحرير والعطور والتوابل والورق السمرقندى المشهور وثمائن أخرى مجلوبة من بلاد الشرق البعيد سيذهبون بها إلى أنطاكيـة ومنها إلى القسطنطينية وبلاد البنادقة. ومن العريش راحت السفن تنهب البحر ليل نهار.

لم أغف خلال ذلك إلا سويعات قليلة، عندما كان الريس يسمح لى بوجبة نوم قصيرة يحل غيرى خلالها محلى فى عملى، وهكذا وجدتنى بين عشية وضحاها أركب البـحـر عـابراً المدن والبـلاد، وهو مـا لم أتصـوره أبداً ولا حلمت بـه يومـاً، فصرت كمن يعيش وهماً لا حقيقة، حتى أننى عندما كنت أخلد إلى النوم، كانت تأتينى المنامـات والأحـلام الغريبـة التـى تخلِطِ زمانـاً كـان بزمـان آت، على نحو أتيقن معه مدى ضياع روحى ووقوعها فى جبِّ اليأس والحيرة.

قبل وصولنا إلى أنطاكية بقليل، غرقت ذات مرة بالنوم قبيل الفجر بعد انتـهاء نوبتى فى العمل، فرأيت فى لطيم موج الحلم أن ثاونا وآمونة وسويلا وشابة أخرى بيضاء فارعة الجسد، ينسدل شعرها ستارة من السواد على ظهرها، قد وقفوا جميعاً على شاطئ بحـر صاخب الموج، مضطرم، وهم يلوحون لى أن تعال إلينا، فرحت أسبح مجتـهداً فى الماء العاصف محاولاً الوصول إليهم، لكننى كلما كنت أحاول الاقتراب منهم لا تمكننى قواى ويأخذنى الموج بعيدا عنهم، فأعيد الكرة من جديد دون جدوى، حتى يئست وتعبت، فرحت أبكى وأنتحب بمرارة، وبينما أنا على هذى الحال من اليأس والقنوط، إذ انبثق الماء عن لجة نورانية مبهرة، وإذا بالفتاة التى كنت قد رأيتها معهم تطلع من داخلها، أثيرية نورانيّة، هيولية التجسد وكأنها ملاك من ساروفيم السماء، ثم إنها راحت تدفعنى دفعاً فى الماء بكل لطف، حتى صيرتنى على الشط، وكل ذلك دون أن تمس بدنى أو أشعر بلمس أناملها لجلدى.

كان شوقى لرؤية سويلا يزداد كلما توغلنا فى السير قاصدين أنطاكية، فللبحر وشيش وخفخفة، وزمزمة وهدير وصخب وزمجرة، تؤرق الشجون وتعصف بالقلوب، فكنت أتمنى على الله أن أراها ولو مرة واحدة ثم يكون ما يكون، وكانت دموعى تسيل حيناً، رغما عنى، لفرط شوقى إليها، بينما كان كل من حولى يظنون أنها تسحّ حسرة على حالى، أو أن مقلتى لا تحتملان شدة النار وسخونتها، وبينما كنت أعمل فى ليلة من الليالى، وقد أوشكت نوبتى على الانتهاء، إذ بمن يدخل علينا من الحراس فى موضعنا بالوقايد، وينادى طالباً أباً قبطياً فى الحال، ولما لم أكن سوى قيم فقير إلى الله فى بيعة من البيع ذات يوم، لم أردّ، بل واصلت عملى بكل انشغال، لكن الرجل لكزنى بقدمه، وقال: أيا أنت، ألم تقل إنك كنت من أهل الكنيسة فى مصر العتيقة، فما بالك لا ترد؟ ولماذا تصاب بالخرس وتتجاهل الأمر، وكأن بك صمماً، أو كأن الأمر لا يعنيك؟ قلت لروحى: حمداً لله لقد آمنوا وصدقوا الآن أننى من أصحاب المنجلية والعباءة، ولست من أهل السيف والرماية. فما كدت أفرح بذلك، وأقول مؤيداً قوله بأى نعم، حتى أمرنى بالوقوف وبالسير وراءه فى التو والحال، فمضيت خلفه صاعداً إلى سطح الحراقة، حتى بلغنا موضع النساء والأطفال، فوجدت سويلا راقدة بينهم على الأرض، وقد التف حولها بعض من النسوة والعجائز وهن يبكين وينتحبن ويندبن الندب القبطى المعروف، أما هى فكانت مسبلة العينين، تعانى سكرات الموت، فلم أتمالك نفسى واندفعت تجاهها آخذاً رأسها بين يدى وأنا أهتف بلهفة: سويلا سويلا، ورحت أكرر ندائى لها كمن أصابه مس من الشيطان، فلم يعد يقوى على السكوت والجلد، فما كان منها إلا أن فتحت عينيها قليلا، وأومأت برأسها بصعوبة مشيرة إلى صدرها، فلما نظرته على ضوء المشاعل المتراقص بفعل ريح البحر الغاضبة، وجدت صليبى متدلياً من عنقها وقد استقر عليه، فلم أتحكم بمشاعرى وشهقت شهقة ملتاعة سمعها الجميع، ورحت أنتحب رغماً عنى، لكنها عاودت الإشارة إليه بمعنى أن: خذه. فرحت أمسك براحتها، وأمسح وجنتها، ولسانى يتمتم بآيات الربّ: «لا تحبوا العالم ولا الأشياء التى فى العالم، إن أحبّ أحد العالم فليست فيه محبة الآب؛ لأن كل ما فى العالم شهوة الجسد، وشهوة العيون، وتعظّم المعيشة

ليس من الآب، بل من العالم. والعالم يمضى وشهوته، وأما الذى يصنع مشيئة الله فيثبت إلى الأبد».

وظللت أتلو وأصلّى وأنا فى غاية الأسى، وقد تذكرت وقت موت آمونة، وكيف كانت راقدة ممددة أمامى كما سويلا الآن، فلما وصلت إلى قوله الجليل:

« ها نحن نطوب الصابرين. وقد سمعتم بصبر أيوب ورأيتم عاقبة الرب؛ لأن الرب كثير الرحمة ورءوف».

وبقيت أردد لحظات بصوت خفيض قوله: «هو ذا الديان واقف أمام الباب. هو ذا الديان واقف أمام الباب»، وجدت سويلا تنفرج شفتاها عن ابتسامة واهنة راضية، ثم مالت برأسها ناحية الأفق البحرى حيث جئنا من بر مصر وهى تحدق مفتوحة العينين عن نظرة حزينة آسية، فأدركت أن ملاك الموت قد حل عليها وسوف يرتحل بها. وجمدت الدموع وتحجرت فى عينى، وقد بدأت أثوب إلى رشدى، وبراحتى أسبلت جفنيها، ورحت أواصل قراياتى الربانية وانا أريح رأسها على الأرض، وسرعان ما طلب الحراس منى أن أنتهى سريعاً حتى أعود إلى عملى، فخلعت الصليب من رقبتها وضممته فى يدى وأنا أقبله، ووقفت متوسلاً إليهم أن يشركونى فى مراسيم رحلتها الأبدية الأخيرة؛ لأكون آخر من يودعها خلال هذه اللحظات. شعرت أن الحراس أيقنوا أننى من أهل الكنيسة؛ لأن معاملتهم لى لانت قليلا، ثم إنهم لما بدأ الفجر يلوح فى الأفق، أتوا بعدة جثث أخرى من مواضع متباينة بالحراقة، فبلغت الجثث التى عددتها إحدى وعشرين جثة، بينها أربع عشرة جثة لصبية وأطفال رصوها إلى جوار بعضها البعض على الأرض، ثم طلبوا منى أن أصلى عليهم صلاة التجنيز، فأخذت أتلو ما تيسر من الآيات وأدعية المغفرة، بينما رحت أصلب عليهم واحداً واحداً وأنا راكع خشوعاً وتأدباً، ويدى تمسحهم – وليغفر الرب لى – عوضاً عن غياب الميرون المقدس، طالباً لهؤلاء الأبرار جميعاً كل رحمة ومغفرة، وبينما أنا مستغرق فى كل هذا بهمة وإخلاص، إذ بصوت مؤذن يتعالى حنوناً شجياً بالآذان، ثم نادى بالصلاة على جماعة من موتى المسلمين، كانوا قد ودعوا الدنيا كذلك، ووضعوا على

جانب من الطرف الآخر للحراقة ، فلما فرغت من صلواتى، انتظرت حتى فرغ الناس من الصلاة على المسلمين المتوفين أيضا، ثم بدئ إلقاء الموتى فى الماء، فعددت عدد الرميات المجتمعة من كلا الجانبين، فوجدتها قد بلغت ثلاثاً وستين رمية، يصدر عن كل منها صوت مهيب رهيب ، وكأنه انطلاقة واحدة من المنجنيق، وذلك وقت بلوغ الجسد الإنسى الماء وارتطامه به، ولسوف أظل حتى حين حينى، وموارتى التراب، لا أنسى ذلك الصوت الصارم المزمجر، ولا مشهد الأفق البحرى المهيب وهو ينزع ستائر الظلمة عن شمس حزينة أخذت تصعد رويداً رويداً إلى الفضاء، فبدا كل ذلك مما يحفر فى الذاكرة، وهو يدون بقلم الحزن الرهيب فى أعماق الحس والشعور.

كان الحراس، وكل من حضر ذلك الوقت على سطح الحراقة، قد وقف واجماً خاشعاً، تطل من عينيه نظرات الأسى وكأنه يتأمل قوة الموت، ورخص الدنيا وتواضعها أمام جلاله وسره العجيب، وقد تصادف أن عبرت نوارس الماء فوقنا، ففاضت قيعان نفسى بألم شفيف، وتسارعت دموعى تنهمر مرة أخرى وقد بدت لى صوصوات تلك النوارس ضرباً من النوح ذكرنى بترنيمة قديمة كنت أسمع أمى ترددها كلما فاض حزنها لأمر من الأمور، وهى تقول:

صيَّرنى حزنى على أحبابى   عليلاً بلا علة

وكاد الأسى والنوح   يخرجنى من الملة

ودهر يروح يا عين وشوقى   لخلى لا توصف له خلة

وبقيت دموعى تسح حينا حتى بللت صليب سويلا فرحت ألثمه بشفتى حسرة وألماً.

بعد رحلة مضنية استغرقت ما يربو على العشر أيام، لاحت لنا أنطاكية عن بُعد. كانت الحراقات والسلالير تتوقف طوال رحلتنا ببعض الثغور الشامية التابعة للخلافة حينا، حتى تتزود بالميرة والوقود، وكان البحر قد عاكسنا وقتاً؛ فزمجر وهاج، حتى إن سلورة من السلالير كادت أن تنقلب، لولا عناية الرب ورعايته

لنا، وكان فى حين آخر سلساً هادئاً، فسارت السفن دون عُسر أو خوف، اللهم إلا من دواب بحرية كانت تظهر بين الحين والحين، كذلك الحوت الصغير الذى ظهر لنا مرة، فسارع البحارة والنوتية بصيده، وكانوا غاية فى السرور والبهجة، فعدا الفائدة المرجوة من لحمه الذى يؤكل جانب منه، له فوائد أُخرى، وقد راحوا يطبخون أكثره فى قدور فيذوب جميع لحمها ويعود شحماً مُذاباً، يستخدم فى قلفطة السفن وسد خروق أخشابها، وقد أخبرنى بذلك بنيامين الصورى، وأضاف أن أكثر ذلك إنما يعمل لسفن بحر القلزم لكثرة الشعاب المعترضة فى هذا البحر.

فلما بدأت السفن فى دخول البحر الأنطاكى، وثبت أمان التسفير، وأن لا خوف من غارات بحرية الروم، أو لصوص البحر، رفعت البنود والرايات السود، وهى علامة الخلافة، إلى أعلى حدود الصوارى، وانتابت الجميع، رغم التعب والحزن والألم، أحاسيس الفرح بالسلامة، ونشط كل إنسان فيما بين يديه من مهام ليتمها على خير وجه، قبل الرسو والنزول الأخير من السفينة.

عندما أنزلونا البر الأنطاكى، قال بنيامين: إن الساعة بلغت الثانية بعد الزوال. فعجبت لأن الشمس كانت محجوبة عن المدينة، فلما تقدمنا إليها خمنت أن سبب ذلك ربما كان قلعتها العالية المشيدة على نتوء جبلى عظيم العلو، ثم بدا لى سور المدينة، والحق أقول إننى لم أشاهد سوراً مثله فى الضخامة والارتفاع من قبل، وقد عرفت بعد استقرارى بأنطاكية أن لهذا السور ثلاثمائة وستون برجاً، يطوف عليها أربعة آلاف حارس، يضمنون حراستها سنة، ويستبدلون فى السنة التالية، وهذا السور مبنى على السهل والجبل وهو عجيبة من العجائب.

وكان عدد كبير من الناس قد تجمع لمشاهدتنا وقت وصولنا، وقد قيل وقتها: إن هؤلاء قد ترقبوا وصولنا؛ لأن البرق الشامى كان قد سبقنا يعلمهم بأمر حلولنا على المدينة بعد الذى جرى فى الكور البشمورية والأراضى الموحلة، فصار الناس يهللون لمقدمنا، ولم أدر ساعتها أهللوا بسبب نصرة خليفة المسلمين، أم لأنهم من أهل الملة مثلنا وعلى جادة المستقيم فى حب المسيح؟ وقد علمت بعد ذلك أن بطرك أنطاكية رحّب كثيراً بحلول البشامرة على هذه المدينة الإيمانية العظيمة.

ثم إنهم ساقونا إلى بيعة كبيرة بالمدينة سمعتهم يطلقون عليها بيعة القسيان؛ وذلك حتى يتسنى لهم إحصاؤنا وفرزنا مجدداً فى سبيل إرسال من يشاءون إلى بغداد، واستبقاء من يريدون استبقاءه فى أنطاكية، وإرسال بعض الأسرى لبيعهم فى سوق النخاسة الكبير بالشام.

وجدت أن البيعة مهيبة، ذات أسوار ضخام، لبابها العالى صحنان أحدهما لساعات الليل والآخر لساعات النهار، يعمل كل واحد منهما اثنتى عشرة ساعة - كما أدركت فيما بعد - فلما ولجت منه، أى الباب، ودخلت مع الداخلين إلى باحاتها الفسيحة المترامية حيث وضعونا، كان هناك من الخدم والمسترزقة ما لا يحصى، ثم إنه برز من ديوان مخصوص بأحد أطرافها جماعة من الكتاب جاءوا بقراطيسهم وأقلامهم وراحوا يسجلون ما يخص كل شخص منا بعد إحصائنا، وذلك ما عدا النساء والأطفال الذين كان يجرى حصرهم دون الوقوف عند صفاتهم وماهيتهم، فمن كان من أهل الحرب جنبوه فى ناحية، ومن كان من أهل الزرع والحرف المعاشية وضعوه فى ناحية أخرى، حتى انتهوا من ذلك دون أن يتركوا شيخاً أو شاباً أو صبياً أمرد، ثم إنهم بعد أن تمموا عملهم وزعوا على الجميع الزاد والقوت، فجلسنا نأكل، وبعدها تركونا نغتسل فى حمامات السبيل، وهى المنشأة بجانب سور البيعة لأجل السابلة والعوام والمساكين، فلما دخلت الحمام وجدت أن ماءه عذب سيح، ووقوده من خشب الآس الجيد، فتطهرت وحمدت الله على كل حال حمداً عظيماً.

كان الفرازون قد ترددوا طويلاً فى تصنيفى وتجادلوا زمناً حول حقيقتى، فمنهم من كان يرى أننى كاذب دعى على الكنيسة، أتمسح بمسوحها حتى أنجو من البيع فى سوق النخاسة، أو من الحشر فى زمرة الفلاحين، وكان آخرون يرون أننى من أهل الكنيسة حقاً، فلا يجوز أن يتحمل وزرى أمام الله يوم القيامة عندما يسأل؛ لأن قرآن المسلمين أوصى بأهل الكتاب خيراً، وكان هؤلاء من المسلمين الأتقياء الذين سأظل أدعو لهم بالخير والصلاح ما حييت، فقد رجحت كفتهم فى النهاية، خصوصاً عندما أشاروا بضرورة مثولى بين يدى آباء الكنيسة، لحسم

أمرى بالاختبار والوقوف على حقيقة درايتى بالديانة، وقد سارعوا بذلك بعد أن أكلت واغتسلت مثل الجميع، فأدخلونى فى قلاية على بعض الآباء والذين يطلق العرب عليهم قساوسة، وقد كانوا ينعتون كل من ارتدى مسوح الكنيسة بهذه الصفة، فلما دخلت عليهم رحت أجأر بالشكوى لهم مما حل بى، لكنى أدركت أنهم لا يفهمون ما أقوله؛ لأنهم كانوا يتحدثون لغة غريبة، ليست كلغة العرب، ثم كان بينهم شيخ طاعن فى السن، طلب منى الكلام بحكمة وهدوء، وكنت أتكلم بالقبطية المتخالطة ببعض العربية قدر استطاعتى، وكان العسكر إلى جانبى وقوفاً، وأنا بين أيديهم ملتاع مأخوذ مما أنا فيه، ثم إن ذلك الأب الشيخ، أخذ يسألنى سؤالات عن أحوال البيع في مصر، ويتقصى عن أحوال الديانة والأقباط فيها، وكنت أتعجب خلال ذلك وأنا أجيبه عما يسأل بكل أدب واحترام؛ لأن سؤاله كان بلسان قبطى لم يخل من لكنة غريبة، وبدون أن أتمالك نفسى وجدتنى أندفع – وليغفر لى الرب – وأسأله بلهفة عارمة:

– هل أنت قبطى يا سيدى؟

بدا الرجل لى طيباً ديناً ذو سحنة سمحة، وقد تأكد لى ذلك عندما رد علىّ قائلاً بهدوء :

– كلنا عبيد الله يا ولدى. أمى أمها قبطية.

ثم إنه خاض معى فى سؤالات عن الصلاة والصوم وشؤون العقيدة والسبوت والذى يصح فيها، فقلت له: إن «السبت إنما جعل لأجل الإنسان لا الإنسان لأجل السبت. فابن الإنسان هو رب السبت أيضا ». وهذا ما قاله المخلّص ورويت له قصة هذا القول كما وردت على لسان مرقس الرسول والتى كنت أحفظها عن ظهر قلب كما رواها لى عزيز عينى ثاونا، إذ أن السيد اجتاز فى السبت بين الزروع، فابتدأ تلاميذه يقطفون السنابل وهم سائرون، فقال له الفريسيون: « انظر. لماذا يفعلون فى السبت ما لا يحل؟ فقال لهم : أما قرأتم قط ما فعله داود حين احتاج وجاع هو والذين معه ؟ كيف دخل بيت الله فى أيام ابياثار رئيس الكهنة وأكل خبز التقدمة الذى لا يحل أكله إلا للكهنة، وأعطى الذين كانوا معه أيضا ».

فلما سمع منى ذلك، خلت أنه قد ابتسم قليلاً وهز رأسه موافقاً، ثم كلم العسكر بلسانهم العربى أن يتركونى لأنه سيقبلنى فى البيعة، ثم كلم الآباء بلسانهم الغريب علىّ فتركنى العسكر فى القلاية ومضوا لشؤونهم.

مكثت زمناً أعمل قيماً ببيعة القسيان فى خدمة الأب توما، ومسؤولاً عن شؤونه بقلايته المخصصة له بأحد بروج البيعة، وقد جرت العادة على أن تكون قلايات الآباء مكرسة فى بروج البيعة العديدة، وأن يكون عبيد كل منهم قاطنين فى الأسفل، ومن خلال عملى هذا تعرفت على الكثير فى هذه الكنيسة والتى بدت لى مختلفة فى كثير من الأمور عن كنيستنا القبطية، وإن كانت كما أظن من أعظم كنائس الرب فى هذه المعمورة، فأهل البيعة من الآباء وسائر الأكليروس يعيشون فى رغد من العيش على العكس من كنيستنا ببر مصر، ونظام الخدمة هنا مختلف فى أمور عدة عنه فى مصر، ودستور الإيمان كان يتلى صباح الخميس الكبير أمام الأسقف أو الكاهن، وكان التائبون الذين يأتون من الآريوسيين والمقدونيين والنوفاتيين والأبوليناريين يقبلون بعد مسحهم بالميرون المقدس على الجبهة والعينين والأنف والفم والأذن، أما البولسيون والأقنوميون فكانوا يعمّدون بغطة واحدة، والمونتانيون والصقاليون الذين يعتقدون بأن الأب والابن أقنوم واحد فهؤلاء يقبلون كالأمم، أى فى اليوم الأول يعدون مسيحين، وفى اليوم الثانى موعوظين، وفى الثالث يستقسمون بالنفخ فى وجوههم وفى آذانهم ثلاثاً، وهكذا يوعظون ويبقون مدة فى الكنيسة ويسمعون الكتب، ومثلهم المانويون. أما النساطرة فينبغى أن يعترفوا بالإيمان كتابة، أو أن ينكروا هرطقتهم مع نسطوريوس وأوطيخا. وكان القربان يتناول باليدين وهما متقاطعتان، اليمنى فوق اليسرى بشكل صليب والخمر من الكأس.

وكان القداس يبدأ بقبول تقادم الشعب وبتهيئة القرابين وتقدمتها على البرويثسيس، ثم بقراءة الذيبتيخة، وكانت تشمل ذكر الأحياء والأموات من البابوات وجميع الكهنة والشمامسة ثم الأباطرة فالشعب، وكانت الشمعة تسبق الإنجيل والترتيل: «هلموا نسجد ونركع»، وبعد ذلك يصعد الأسقف إلى السنثرونون

ويبارك الشعب، وبعد هذا تقرأ الرسائل إشارة إلى أن المسيح أرسل تلاميذه ليبشروا بالإنجيل، ثم يتلى الإنجيل ويقبل العطاء وينادى الشماس بخروج الموعوظين، وعند هذا الحد يفتح الكاهن الانديمنسى، أى القائمة مقام المائدة، ويصار إلى الايصوذن الكبير المعروف بدورة القداس، وفيه تدخل القرابين، وهى لا تزال غير مقدسة، إلى المائدة. والايصوذن الكبير، كما فهمت من الأب توما، يرمز إلى نقل جسد يسوع من الجلة، أى المذبح، إلى القبر، أى المائدة، وكان الشاروبيكون يرتل عندئذ؛ وذلك لمناسبة دخول الملائكة والروح القدس والقديسين مع المسيح الملك، وكنت أتأثر للغاية عندما يتلى:

«أيها الممثلو الشاروبيم سرياً والمرنمون التسبيح المثلث التقديس للثالوث المحييى لنطرح عنا الآن كل مهمة دنيوية؛ لأننا مزمعون أن نستقبل ملك الكل محفوفاً بالمراتب الملائكية - بحال غير منظور- هللويا».

وكانت المراوح تعمل دون توقف أثناء ذلك؛ لأنها تمنع وقوع شيء من هوام الهواء فى أوانى الخدمة وهى تشير إلى أجنحة الساروفيم الستة. وكان من الممنوعات فى بيعة القسيان، بعد دخول الكهنة مساء السبوت إلى الهيكل، أن يحنى أحد ركبتيه حتى عشية الأحد التالى؛ لأن الليل الذى يلى السبت يتخذ تقدمه لقيامة المخلص، ومنها تبتدأ النشائد الروحية ويقام العيد من ظلام إلى نور.

كان الأب توما من أحن الناس الذين عرفتهم طوال حياتى، وكان كريماً عطوفاً ديناً، وقد سبق له أن طاف بكثير من كنائس وأديرة مصر وفلسطين وبيروت وأقريطش وقبرس. وعرفت أنه أمضى زمناً طويلاً بالبلاد المصرية عرف خلالها اللسان القبطى، أما ما كان يحببنى فيه كثيراً فهو ولعه بالتراتيل الكنسية على نغمات الموسيقا، وكان يحفظ تراتيل الأقدمين - كما قال لى - مثل ما ابتدعه رومانوس المرتل الأبيروتى الشهير، وصفرونيوس من القدس، وأندراوس الأقريطى الذى ولد فى دمشق وخدم زمناً فى كنيسة القيامة، لكنه جنح حيناً إلى انمونوثيلية ثم تاب، وكان الأب توما مولعاً بتدوين الألحان عن طريق علامات ورموز يقرؤها بعدما يدونها فى قراطيس مخصوصة، وكنت خلال عمله

فى التدوين أقف بين يديه لساعات حاملاً الشموع أو ملبياً لطلباته، دون أن أجرؤ على النطق أو الكلام؛ لفرط تنبهه أو انصرافه لما يقوم به، لكنى فى إحدى المرات جرؤت على الكلام وقد أكلنى الفضول، فسألته عن معنى ما يدّونه من إشارات، فقال:

– ألا تعرف هذا ؟! ألم تر أحداً يدون ألحاناً كنسية فى بيعتكم بقصر الشمع.

فلما أجبت أن لا، دهش وسأل مرة أخرى:

– وكيف تحفظون نغمات الثاذوكيات والتراتيل الجليلة؟

قلت بسرعة:

– لدينا المثلث والمزهر، ولعلك اطلعت على ذلك وقت إقامتك فى بر مصر، لكنا لا نستخدم مثل هذه، وكنت أقصد ما يستخدمه فى العزف، وهو آلة من أوتار عدة يقال لها –اللير–.

لم تكن الألحان الكنسية أو نظام الخدمة، هو المختلف هنا فى كنيسة أنطاكية عن كنيستنا فى مصر، فبيعة القسيان هذه التى تنسب إلى الملك القسيان، كما أخبرنى الأب توما والذى أحيا ولده رئيس الحواريين بطرس الرسول، كانت لا تنقطع عنها المحاكمات الكنسية الخطيرة، وتعقد بين حين وحين؛ وذلك بسبب تفشى الهرطقة وانتشارها بالمدينة والمناطق المحيطة بها، كما أن المجاميع اللاهوتية كانت كثيرة الحدوث هنا؛ لأن البيعة هى البيعة العظمى لساير المشرق سيريا، وكيليكيا الكرجية، وكذا بلاد ما بين النهرين.

وفى أحد الأيام، وبعد انتهاء الهيئة الكنسية من قداس البريجياز مينا والذى يقام فى كل أيام الصوم الأربعينى المقدس، ما عدا يومى السبت والأحد ويوم عيد البشارة، حدثت ضجة عظيمة عند الباب الشرقى للبيعة، وسرعان ما اندفعت جماعة من المؤمنين وهم يسوقون عِدداً من الرجال والنساء، وقد أصابوهم بضرب مؤذ، إذ كان الدم يسيل من رءوسهم وأنوفهم وأبدانهم، وما يتنكرون به من جلود حيوانات ويصنعون به وجوههم على هيئتها، فلما خرجت لأستجلى

الأمـر مع جـمـيـع من خـرج من أهل الـبـيـعـة، علمت أن هؤلاء الناس وجـدوا وهم يمارسـون الطقـوس الوثنيـة القـديمة احـتـفـالاً ببـدء السنـة الوثنيـة وفـقـاً للطقـوس الممنوعـة والتـى تتـضـمن تكريـم كـرونــــوس KRONOS إله الزمـان، وأن هؤلاء ضبطوا بعد أن كرسوا الأسابيع الثلاثة بين الرابـع والعشرين من تشرين الثانـى، والسابع عشر من كانون الأول، وهذه أسماء الشهور فى أنطاكية - لشرب الخمر، وتغيير الأزياء والرقص وغير ذلك مما يشاع فى عـهد الوثنيين احـتفـاءً بعيد إله قديم يـسمى باخـوس. وما أن استقر هؤلاء بباحة الكنيسة حـتى سارع إليـهم الآباء والرهبان وراحـوا يشاركون المؤمنين فى سب هؤلاء الرعـاع، ويوسعونهم ضرباً وركلاً، حـتى أصاب أكثرهم الإعـيـاء وسقطوا على الأرض موشكين على التلف، ثم سرعان ما ساقوهم إلى حبس الكنيسة لحين عقد محاكمة لهم، بسبب مخالفاتهم لما منعه الباباوات من قبل، وخصـوصاً أن هؤلاء كانوا يقيمون الميومـة أيضا وهى ضـرب من احـتـفـالات الربـيـع، وكـانوا يـبـقـون النيـران فـى أول الشـهـر القـمـرى، ويتبادلـون الألبسة بين النساء والرجـال لمناسبة عيد القطاف، وكله من الممنوعات المشرعة كنسياً.

بعـد انفـضـاض ذلك وخلودى إلى نفسى بالليل إثر انـتـهـاء خـدمـتـى، هاجت بداخلى ذكرى العزيز ثاونا، فرحت أستعيد صورته وهو يسلك مـع النـاس، ويدفعهم دفعاً عطوفاً هيناً ليناً للوصول إلى نبع الإيمان، لم يك يعنفهم أو ينهرهم قط، ولم أره يوماً مؤذياً لأى علمانى جاهل، لم يـقـف علـى حـقـيـقـة الديانة من قبل، وكان صبوراً، مثابراً فى الرد على سؤالات هؤلاء، مـهما كـانت ساذجـة سخـيفة، تشوبها فجاجة فى كثير من الأحيان. وجدتنى فجأة أحادث روحى، بينما أتطلع إلى سماء غاضبة ملبدة بغيوم ليلية سوداء، عبر كوة قلايتى الضيقة، كـان حنينى لبر مصر وسمائها الصافية المرصعة بالنجمات قد وصل إلى مداه، فسحت دموعى وأنا أردد كلاماً منظوماً حفظته عن ظهر قلب من بنيامين الصـورى، الذى مـا فـتئ يغنيه بينما كنا عند الوقايد فى جوف الحراقة، فرحت أقول:

صبراً لدهـر نـال مـنك فهـكذا مضـت الدهـور

فــرح وحــزن بعــــده لا الحزن دام ولا السـرور

كنت منقبضاً جداً بسبب مشاهد العذاب التى وقعت عليها عينى خلال اليوم المنصرم، فتهيجت مشاعرى، وقد تذكرت ما رأيته من آلام عند خروجنا من الأراضى البشمورية ببر مصر: الجثث الملقاة فى كل مكان بعد القتال ولا تجد من يدفنها، الجرحى والمتحرقون الصارخون بآلامهم وأوجاعهم ومنهم من ينادى طالباً شربة ماء، فلا يعثر على من يسمع نداءه، النساء والأطفال وهم يسيرون بصعوبة ومشقة دون أن يتعطف عليهم أى إنسان يشعر ما هم فيه من عذابات، ثم ما جرى لآمونة وسويلا، واختفاء ثاونا الذى يأكل روحى السؤال عن مصيره، ثم ضياعى فى هذه البلاد الغريبة التى ما كنت أظن يوماً أن قدمى ستطأها قط، وأخيراً كنيسة أنطاكية التى بدت روحها غريبة بالنسبة لى- عن روح كنيستنا بعض الشىء، ولم أعتد طقوسها، ونظام الخدمة فيها يختلف عن نظام الخدمة فى كنيستنا المصرية، فعندما كانوا يجرون سر المعمودية، كان الموعوظون يأتون إلى البيعة لابسين ملابس بيضاء، ويقصدون حوض ماء يغمرهم فيغطسون فيه ثلاثة دفعات على اسم أبى الأنوار وابنه والروح القدس، بعد أن يكونوا قد جدّدوا اعترافهم بالإيمان، وأقروا بأن لا صلة لهم بعبادة الأوثان والشياطين التى كانوا يعبدونها، أما بالنسبة لعديمى النطق، أى الأطفال، فكان يتكفل بتربيتهم وتهذيبهم، بحسب مبادئ الإنجيل، أشخاص فضلاء يدعون أشابين، أى وكلاء، وهؤلاء عند المعمودية يقومون مقام الأطفال بالاعتراف بالمسيح والكفر بالشيطان.

مرت أيام كان خلالها يجرى التجهيز لطقس اعتراف الذين جرى سجنهم بعد أن عذبوا حتى أعلنوا توبتهم وندامتهم، وهكذا جىء بهؤلاء إلى ساحة الكنيسة فى الصباح، وبدوا فى حالة يرثى لها من الضعف والهزال، وجرى تقسيمهم إلى أربعة صفوف، صف الباكين، وقد وقف عند مدخل الكنيسة حتى يتضرعوا إلى المؤمنين الداخلين إليها ليصلوا عنهم، وصف السامعين، وكان هؤلاء مسموحاً لهم بدخول الكنيسة، وقد ثبت أن خطاياهم كانت أقل من خطايا الأولين، على أساس أن يكونوا فى موضع مخصوص لسماع تلاوة الفصول المقدسة والصلاة، ثم

صف الراكعين، وكان يتوجب عليهم الإقامة مدة الصلاة ركوعاً، ويلى ذلك صف المشتركين المسموح لهم أن يقفوا داخل الهيكل ويشاركوا المؤمنين فى الصلاة، لكن بدون مناولة الأسرار المقدسة، وقد علمت من الأب توما بعد ذلك، لما سألته، أن هؤلاء كانوا قد أعلنوا أنهم سيدفعون جعالات ذهبية إلى الكنيسة فى حالة تخفيف الأمر عليهم، كما علمت أن هؤلاء جميعاً، وقبل الإتيان بهم وتقسيمهم إلى صفوف، كانوا قد أجروا فعل الندامة أمام عدد من الكهنة، على أن يقدموا فيما بعد شهادة على تقديس ونزاهة سيرتهم، تقدم من معتبرين إلى الكنيسة.

و على رغم تعجبى من كل ذلك، وعدم ابتلاعى لكثير مما يجرى فى بيعة القسيان، إلا أننى لم أكن أحسب أن ما رأيته، لم يكن إلا قليلاً من كثير سوف أعيش حتى تراه عينى وتستشعره نفسى.

ففى إحدى الليالى الربيعية وبعد قدومى إلى البيعة بحوالى سنة وكسر، حدث بعد أن تكاثرت الأمطار أكثر أيام الشهر، وكان نيسان بلغة السريان، واستمرت فى تواصلها، زخمت السماء ببرق ورعد أكثر مما ألف وعهد وسمع عنها أصوات كثيرة مهولة أزعجت النفوس، ثم وقعت فى الحال صاعقة على صدفة مخبأة فى مذبح البيعة، ففلقت من وجه النصرانية قطعة تشاكل ما نحت بالفأس والحديد الذى تنحت به الحجارة، وسقط صليب حديد كان منصوباً من علو على هذه الصدفة وبقى فى المكان الذى سقط فيه، وانقطع من الصدفة قطعة يسيرة، ونزلت الصاعقة من منفذ فى الصدفة، تنزل منه إلى المذبح سلسلة فضية غليظة يعلق فيها الثيموطلون، وسعة هذا المنفذ إصبعان، فتقطعت السلسلة قطعاً كثيرة وانسبك بعضها، ووجد ما انسبك منها ملقى على وجه الأرض، وسقط تاج فضة كان معلقاً بين يدى مائدة المذبح، وكنا قد هرعنا جميعاً إلى موضع الخدمة بالكنيسة محاولين إنقاذ ما يمكن من أدوات الخدمة، فكان مما وجدناه أن الثلاثة كراسى الخشبية المربعة فى غربيها، والموضوعة على علو قد سقطت عنها، وقلعت صلبانها الفضية الكبار المطعومة بالذهب والتى كانت منصوبة عليها، بينما

انكسر الكرسيان الطرفيان وتشظيا، وتطايرت الشظايا إلى داخل المذبح و إلى خارجه من غير أن يظهر فيها أثر حريق كما ظهر فى السلسلة، ولم ينل الكرسى الوسطانى ولا الصليب الذى عليه شيء، وكان على كل واحد من الأعمدة الأربعة الرخام التى تحمل القبة الفضة التى تغطى مائدة المذبح ثوب ديباج ملفوف على كل عمود، فتقطع كل واحد منها قطعاً كباراً وصغاراً، وكانت هذه القطع بمنزلة ما قد عفن وتهرأ ولا يشبه ما قد لامسته نار ولا ما احترق، ولم يلحق المائدة، ولا شيئاً من هذه الملابس التى عليها، ضرر ولا بان فيها أثر.

غير أن من المصائب التى جرت، انقطاع بعض الرخام الذى بين مائدة المذبح مع ما تحته من الكلس، والنورة كقطع الفأس، وكان من جملته لوح رخام كبير طفر من موضعه فتكسّر إلى علو تربيع القبة الفضية التى تغطى المائدة وبقيت هناك على حالها، وتطافرت بقية الرخام إلى ما قرب من المواضع، وكان الأب توما أثناء ذلك حاملاً فراخ قناديل زجاج، محاولاً إنقاذه والهرب به بعيداً عن موضع التكسير، لكن شظية من الرخام خبطت القنديل فتكسر لتمسك النار بقميص نومه المصنوع من الخزّ الخفيف اللين، فتحول فى لحظات إلى ثوب من لهب، فما أن رأيت ذلك، وكنت وقتها مشغولا بإنقاذ منجلية قديمة مصنوعة من خشب الأبنوس ومطعمة بالفضة والعاج، حتى تركت ما بيدى وجريت ناحيته، وكذا فعل كل من كان بهذا الموضع من أهل البيعة ورأى النيران تمسك به، ورحنا جميعاً نحاول إطفاءه، فرمينا عليه زربية صوف مما يفرش فى أرض الكنيسة لمنع الهواء، وكذا طيلساناً مبلولاً، ثم حملناه سريعاً إلى فناء البيعة ووضعناه تحت سيل المطر المنهمر، إلا أنه سرعان ما وافانا بعض من عبيده بسطل مملوء بولاً، وسارعوا بصبه عليه من أعلاه إلى أسفله بعد أن أخذناه مرة أخرى بعيداً عن المطر، وقد دهشت لفعل النجاسة هذا كثيرا، لكننى عرفت بعد ما هدأت الأمور أن ذلك مجرّب ومفيد جداً فى علاج الحريق.

بقى الأب توما عدة أيام يصارع الموت، فقد تحرق معظم جلده ولحمه ورأسه، وغارت النار إلى بعض أحشائه، وسملت عيناه، وكان آباء البيعة المشهور عنهم

الحكمة والتطبيب، قد بذلوا كل علمهم فى الحكمة والمداواة لأجل شفائه، فعالجوه بالمراهم المعمولة والعقاقير المخصوصة، أما الشمامسة والقسس فقد سهروا على رأسه بالقرايات الإنجيلية والأدعية الربانية الشافية، فبدا لحين أنه يتحسن ويبتعد عن التلف، ولكنى كنت - وليسامحنى الرب - غير مطمئن إلى ما سوف يكون عليه حاله، فما أحد منهم صنع حجاباً أو قرأ مقروءاً يفيد حالته، فلما تسلسل فى المرض أشرت عليهم بكل تواضع وأدب أن نفعل له ما فعلناه يوماً ببر مصر مع المحروقين فى المعادى وقت ريح الحسومات، فقد أشعلت الريح، هذى وكانت شديدة مترية أكثر من عادتها كل عام، النيران بأكواخ بعض من أصحاب المعادى على النيل، فتحرق بسبب ذلك كثير من الناس، فذهبت مع ثاونا وآخرين من البيعة فى قصر الشمع إليهم، وكان ثاونا يعالجهم بعصارة العِمعت الأسود وبعر المعز المحروق المختمر جيداً ولبخة الخرنوب، مع عزيمة تقرأ على موضع الحرق، وكنت أحفظها عن ظهر قلب لكثرة ترديدى لها، وهى:

«حوريس يا ابن الشمس، النار فى البلد، فإن كان هناك ماء أو لم يكن، فالماء فى فمك والنيل فى أرجلك متى جئت لإطفاء النار».

وكانت هذه العزيمة تُقرأ أيضاً على لبن امرأة ولدت غلاماً وعلى رغيف خبز وعلى صوف كبش، ومجتمع ذلك يوضع على الحرق كلبخة فيفيد للغاية، غير أن الجميع هنا فى كنيسة أنطاكية رفضوا ذلك كله، بل ظهر من سخر من ذلك، فتأسفت أشد الأسف لعدم تقديرهم لما هو مجرّب، ومتّبع منذ أقدم الدهور، ولعدم تصديقهم إياى فى ذلك، ثم إن الأب توما تسلسل فى المرض ودخل شيئاً فشيئاً فى زمن الغياب وحيز الضياع والتلف. وقد أعقب ذلك بوقت قصير حدوث زلزلة مكثت مقدار ساعة وسمع صوت هائل من السماء، ووقعت بنايات كان قد بناها الملك يوستينوس ومات تحت الردم خلق كثير قيل إن عددهم أربعة آلاف وثمانمائة وسبعون رجلاً، وكل من تبقوا من ذلك الرجز بالمدينة هربوا ومضوا إلى أماكن أخرى، وغرقت مراكب بالبحر بسبب المد، ونفقت بهائم، وفسد مد القمح المخصص، والذى كان يرسل لها كل عام من ملك الروم، ويبلغ ستة

وثلاثين ألف مد، وحدث فى أعقاب ذلك أن كثرت الفئران بالمدينة، وخصوصا ذلك النوع العظيم كالودل الذى لم أره فى أى بقعة غير أنطاكية، وأتلف كثير مما تبقى من الزرع بعد الزلزلة، وقد خافت الناس وتضرعت إلى الله ألا يبلو المدينة بطاعون من الطواعين التى تتلازم مع كل ذلك.

ألحقوني بعد وفاة الأب توما مباشرة بخدمة الأب ميخائيل، وكنت قد تعرّفت عليه لماماً قبل ذلك، فقد كنت أرى ذلك الشيخ ذا العينين المحولتين دوماً، والندبة الغائرة في جبينه يتودد إلى كلما رأيته عابراً بدهاليز البيعة أو ماضياً بساحتها لأمر من الأمور، فيبتسم ويحييني وهو يرسم علامة الصليب مباركاً لي، وفي ذات مرة استوقفني قائلا :

– لدي رقّ قبطي قديم. هل جئت ساعة إلى قلايتي لتقرأه لي بعد انتهاء خدمتك.

فرحت جداً لأنني وجدت شيئاً يذكرني بوطني، هنا في أنطاكية، فقلت متلهفا دون أن أكتم مشاعري :

– سمعاً وطاعة ياسيدي. سآتي إليك بعد الغروب عندما أفرغ من مطالب الأب توما، ويأذن لي بالانصراف إلى موضع سكني. ابتسم ابتسامة لن أنساها ما حييت وراح يتأملني من قمة رأسي إلى أخمص قدمي بتفحص، وسرور، ثم أردف:

– تعال. ولسوف أدعوك إلى أكلة حلاوة حمراء ربما لم تذق مثلها من قبل.

لا أعرف، لماذا داخلني شيء من عدم الراحة آنذاك، رغم شوقي لأكل حلاوة سد الحنك التي يطلقون عليها هنا في أنطاكية حلاوة حمراء، ورحت أتذكر كيف كانت تعدها أمي لنا في المساء ليلة عيد الغطاس، وكيف كنا نتحلق حولها أنا وأختي بينما هي تحمّر الدقيق في لية الخروف، وتضيف إليه شيئاً فشيئاً شراب

السكر حتى يحمرَّ ويتحرَّق وتتصاعد رائحته شهية محببة إلى أنوفنا، فنأكله ساخناً حاراً فى عز برد طوبة العنيف، كانت نظرات الأب ميخائيل هى التى أحرقت شيئاً ما بداخلى، خلال تلك اللحظات التى استوقفتنى فيها، فمضيت بإحساس الملسوع مسرعاً إلى قلاية الأب توما، أخطف خطواتى خطفاً، عابراً فناء البيعة، فلما أدركته وحكيت له ما كان من أمرى مع الأب ميخائيل، ورحت أستأذنه فى الذهاب إليه بعد انتهائى من خدمته. حدجنى بنظرة طويلة باردة متسائلة، وكأنه يبطن شيئاً بداخله، ثم قال بامتعاض لم أعهده فيه من قبل:

- ستكون مشغولاً معى بعد الغروب، لأن الهيئة الكنسية ستجتمع كلها استعدادا لمحاكمات سوف تعقد فى الغد.

ثم قال بإصرار :

- إياك أن تتخلف عن هذا.

كان الأب ميخائيل، قبل انتقالى إلى خدمته، يبدو لى إنسانا هادئاً وديعاً، رغم عدم ارتياحى له، لكنى عندما اقتربت منه وعايشته، تكشف لى عن كائن غامض غريب الأطوار، وشيئاً فشيئاً أيقنت أنه شيطان فاسد الخلق بحق، فلقد كان يدهن وجهه وراحتيه كل مساء، وقبل أن يخلد إلى النوم، بمعجون من الزبد والعسل، كما كان يتعطَّر بزيوت فواحة كالتى تتدلك بها النساء، ثم إنه كان يبيت بقمصان بلا أكمام في العادة وذلك خلال الليالى الحارة، وفى أحد الأيام صرفنى مبكراً وظل بصحبة أحد الفتية الحمالين الذين يجلبون الأخشاب من الغابات الواقعة بالجنوب الغربى من المدينة، وبعد قليل من التحاقى بالخدمة، بدأت ألاحظ أن كثيراً من الشمامسة والرهبان يتجنبونه ولا يصطفون بجواره أثناء الصلاة، أو يجلسون ناحيته أثناء العشاء، وفى إحدى المرات، جرت محاكمة مجموعة من الناس لجأوا إلى السحرة والمشعوذين، وكذلك رجل كان يعرض الدببة وغيرها من الحيوانات ويبيع صوفها تعاويذ وأحرازا، وطالت المحاكمة لكثرة المخالفين، إذ كان هناك رجل تغيّب عن الاشتراك فى صلوات الآحاد ثلاث مرات متتالية، رغم أنه علمانى وليس من أهل الكنيسة، وكذا امرأتان كانتا قد ثرثرتا وبقبقتا فى

أثناء صلاة عيد القيامة، وجماعة من تجار العطور أتلفوا الكتب المقدّسة وباعوها ليصنعوا منها أبواقاً، فلما تأجلت المحاكمة إلى صبيحة اليوم التالى بسبب دخول المساء، جيء عند موعدها بامرأة ورجل، وكانت المرأة صبية فى قمة الجمال، وقد أدينت مع الرجل لأنهما يتعاشران معاشرة الأزواج، ويتخذان من صناعة الصور الفاسقة معاشاً لهما، بعد أن يرسماها ويروجاها، وقد أدينت المرأة أيضا لأنها كانت تتفنن فى ترتيب شعر رأسها للفت النظر والإغواء، فلما صدر عليها الحكم، وهذا ما لم أكن قد شاهدته من قبل- أى أن يحكم على إنسان لمثل هذه الأمور- لاحظت أن الأب ميخائيل ظل ساكنا واجماً، وكذا طوال فترة المحاكمة على عكس جميع من كان حاضراً من الهيئة الكنسية، فقد صار لغط كثير وتزاعق بسبب أن المرأة والرجل رفضا التوبة والندامة والاعتراف بخطيئتهما، بل وسبا الكنيسة وقالا إنها تحرم ما أحله الله، وإن الرب قد خلق النساء والرجال ليتمتعوا بالحياة ويرفلوا فى لذائذها، وإنه لو لم يرد أن تتمتع النساء بالرجال، والرجال بالنساء، لكان قد خلق الناس أجمعين من نوع واحد فقط، وكلام آخر من هذا النوع ملىء بالهرطقة والكفر مما يشيب له الولدان، فلم يتمالك الجميع أنفسهم، ثم إن هذين الشيطانين أنكرا صعود السيد السماوى، وقالا إن البتول ما كانت بتولا، وإنها ولدت سفاحاً من يوسف النجار، فلم يحتمل بعض الآباء عند ذلك الحد وراحوا ينتفون لحاهم غيظاً وغضباً، بينما أخذوا يلطمون ويولولون كالنساء، وأوشكت جماعة من المؤمنين الحاضرين على الانقضاض على الرجل والمرأة للفتك بهما، لكن الحراس حالوا دون ذلك، كل هذا والأب ميخائيل واجم صامت، وكأن الأمر لا يخصه أو يعنيه.

كان القلق قد أخذ يتزايد بداخلى كلما مضت أيامى فى خدمة الأب ميخائيل، إذ كان يصر على أن أقوم بتكبيسه وتدليكه كل ليلة قبل أن ينام، متذرعاً بوجود آلام بلحمه وعظامه تتزايد أثناء الليل، ولا تزول عنه إلا بالتكبيس، ورغم كراهيتى لهذا العمل إلا أننى كنت أقوم به ولو على مضض؛ بسبب دأبى على طاعة الآباء وعدم عصيانهم، وذات ليلة، وجدت الأب ميخائيل يلاطفنى بالقول،

ثم يدعونى لشراب كأس من عرق العنب مما اعتاد شربه كل ليلة قبل النوم، فلما تمنعت، قال لى إنه ما فعل ذلك إلا بعد أن لاحظ كونى مهموماً يائساً، وكان على حق فى ذلك، فقد كنت خلال ذلك اليوم متعكّر النفس، حزيناً، وقد هاجت علىّ الهموم وصعب علىّ حالى، فلما قال ذلك خجلت، وأخذت منه الكأس تأدباً، ورحت أرتشف منه شيئاً فشيئاً، بينما هو يسكب من البطحة الموضوعة أمامه ويعبّ من كأسه عبّاً، ثم إنه شرب حتى بدا ثملا، وتحامل حتى صعد سريره طالباً منى تدليكه، وهكذا رحت أدلكه بصعوبة، إذ كنت خدراً ضعفاناً بسبب الكأس التى شربت، وبينما أنا أفعل وجدته يبالغ فى التأوه وافتعال التألم، ثم استدار راقداً على ظهره وطلب منى أن أدلك وركيه وقد كشف عن عورته وموضع العفة فى جسده، فلما تمنعت وقد ألجمنى مطلبه، وجدته يقبض على يدى بكلتا يديه ويدفعنى دفعاً لملامسته وفعل ما لا أرغب فى فعله، فلما بلغ هذا الحد، دفعته بعيداً عنى وجريت هابطاً من قلايته بالبرج إلى موضعى لأفرغ ما فى جوفى، إذ كانت رأسى تدور، وأمعائى تثور، وحالة مريعة من الغثيان تتملكنى.

لم يغمض لى جفن فى كنيسة القسيان بعد تلك الليلة، إذ أخذت أسترجع كل ما يقال عن الأب ميخائيل فى البيعة، وما كان من أمره منذ مبتدأ اشتغالى بخدمته، فلقد كنت ألاحظ أن البعض ينظر إلى بإشفاق دونما سبب أفهمه، كلما قلت، إننى صرت فى خدمة هذا الرجل، وفى إحدى المرات همس لى قيّم شاب ونحن نخدم فى تعميد جماعة من الأطفال، وكنت قد تعرفت عليه، أن أنتبه من الأب ميخائيل، فلما استحلفته، وكنت قد شعرت بالقلق لغموض عبارته، أن يقول لى معناها، أخبرنى وهو فى حالة من الوجل الشديد أن معظم الذين خدموا مع هذا الأب انتهوا نهايات غامضة وبدون سبب مفهوم، فمنهم من اختفى ولم يقف أحد على مصيره، ومنهم من مات فجأة، وأن سيرة الرجل هنا فى البيعة يشوبها كثير من السوء، وإن كان أحد لا يستطيع إمساك ممسك عليه لشدة لؤمه وخبثه واحتياطه. ثم إنى تذكرت ما كان من أمر رحلتى معه عندما سافرنا إلى القسطنطينية، فقد ذهبت فى تبعيته مأموراً إلى القسطنطينية ضمن مجموعة من

الآباء الآخرين، ولم أكن قد حضرت مجامع من قبل، ولم أسمع بمثل ذلك أبداً في كنيستنا ببر مصر، وكان السبب في ذلك الانعقاد الكنسي الخطير، كما قالوا، هو أن شقاقاً قد ذر قرنه بين الأرثوذكسيين وأصحاب الطبيعة الواحدة، وهب البولسيون والمانويون يشاغبون، فظلت المناقشات تحتدم، حتى أقرت قوانين تحرّم تحويل المساكن إلى أديرة بدون موافقة الأساقفة، وتوجب على كل راغب في الزهد والتقوى أن يتخلص من ممتلكاته قبل دخوله في الرهبنة، ومنع منعاً باتاً أن يقوم بطرك من طبقة العوام أو الرهبان ما لم يتمرس في درجات الكهنوت درجة درجة ويتمم المدة القانونية فيها. فلما كان المجمع يناقش مسألة الأيقونات، وكان وقتها منعقداً في كنيسة الحكمة الإلهية، تجمع خلال ذلك عدد من محاربي الأيقونات خارج الكنيسة، وكانوا كثراً. ففتحوا أبوابها عنوة بعد أن هاجموا الحراس واندفعوا إلى حيث الفوروم محدثين هرجاً ومرجاً زاعقين صارخين، وحدث هرج ومرج كبير وتم التضارب بالأيدي والركل بالأقدام، وعطّلوا الجلسات بالقوة، وكان أمرا لم أسمع أو أر مثله من قبل، فبينما نحن نتدافع إلى الداخل محاولين الاحتماء مما يحدث، إذ الأب ميخائيل يدفع بي إلى ممر مظلم يؤدي إلى منابر الوعظ والإرشاد بالكنيسة، وكان الممر طويلاً، فبقيت أركض خلفه حتى وجدتني أصل إلى باب يفضي إلى موضع من القصر البطريركي المجاور للكنيسة، فما أن فتحه ودخلنا إلى دهليز أشد إظلاماً، بسبب أن الوقت كان قد جاوز الغروب بقليل والشمس في القسطنطينية بخيلة كما عهدتها طوال وقت إقامتنا، حتى وجدته يعتنقني ويربت على جسدي وكأنه يروم تهدئة روعي وإبعاد خوفي، لكني وجدت في تربيته مبالغة لم أستسغها وخصوصاً بعد ما أخذ في ضمّي واعتناقي، وشعرت أن فعله هذا قد تجاوز فعل من هو في مثل مكانته وحرمته، وليس بهذا تكون تهدئة روحي وإبعاد خوفي وشملي بالسكينة والاطمئنان، فتملّصت منه بلطف وذوق ولم أكن أظن وقتها أنه على هذه الدرجة من الفسق والشيطنة.

كان الأب ميخائيل قد بات يعاملني بقسوة وجفاء بعد تلك الليلة في أنطاكية، فلقد راح يطالبني بمطالب لم يكن يطلبها مني من قبل، ففي ذات مرة طلب مني الذهاب إلى الشمال الغربي للمدينة، حيث منطقة المستنقعات، لجلب بوصات

يبريها ويستخدمها فى التدوين والكتابة، وكانت هذه المنطقة من المناطق غير المأهولة بالمدينة، وتكثر بها دويبات وحشية مؤذية، والذهاب إليها مشقة كما هو معروف للجميع، ولولا ستر الرب وإلمامى بطبيعتها؛ بسبب تشاكل طبيعتها مع طبيعة مناطقنا البشمورية، لكنت قد هلكت فيها لا محالة.

وفى مرة أخرى، طلب منى إحضار أعشاب برّية ليتطبب بها من عند المقبرة الواقعة شمال باب الدوق خارج سور المدينة، وهى برّية موحشة تكثر بها العقارب وهوام لاسعة من العناكب السامة وخلافها، كادت إحداها أن تفتك بى، بعد ما تشبثت بجلد قفاى، ولولا شعورى وحساسيتى السريعة بها، لكانت صبت سمها فى دمى وتلفت لا محالة.

وهكذا، بتّ أستشعر الخطر من ذلك الشيطان، وقد أيقنت أنه يريد التخلص منى بأسرع ما يكون؛ لظنه أننى سوف أفشى سره وأفضحه كلوطى مرذول بين أهل البيعة.

لكن حتى ذلك كله، لم يكن دافعاً لإقدامى على ما أقدمت عليه بعد ذلك، إذ أن الأب ميخائيل بدأ يضعنى فى ورطة بدا لى أنه لن يخرجنى منها إلا الموت، فلقد خشيت أن يرمينى بما يرمى به أولئك الذين لا رجاء فى حياتهم ولا نفع فى صلاحهم إلا بالنار المطهّرة، ففى أحد الأيام، وبعد أن انتهيت من خدمته بعد الغروب، قال لى بلهجة آمرة :

- بعد انتصاف الليل، وعندما تهدأ البيعة وينام كل من فيها، ستخرج بهدوء ماضياً فى المدينة، حتى تصل باب القديس جاورجيوس، وهناك سيقابلك شخص، ستعطيه هذا، ثم تعود كما ذهبت بهدوء. لن تقول له أكثر من القرنفلة السوداء تهديك السلام، فإن أعطاك شيئاً عد به، وإياك أن تلمسه أو تحاول معرفة ما فيه.

تملكنى الرعب، وأنا أمد يدى لآخذ منه رقًا ملفوفاً وموصوماً بختم، وهو يطالعنى بنظرات باردة متوعدة، تنبئنى بمغبّة المصير إن أنا خالفته. لم أكن أعرف مسالك المدينة جيداً، فأنا أمضى جلّ وقتى بين جدران البيعة، ولم يكن مسموحاً لى بالتجول خارجها، أو الخروج منها لأمر من الأمور، وقد ذهبت مرّة

أو مرتين إلى موضع باب القديس جاورجيوس، أثناء حياة الأب المرحوم توما، فلقد ذهبنا إلى هناك، ليبارك الأب امرأة وضعت أربعة توائم ذكوراً ماتوا بعد قليل، ومرة أخرى للإتيان بمجموعة من الناس، قال الأب توما إنهم خالفوا جانباً من المئة قانون وقانونين، الذين شرّعوا في مجمع سنة ٦٩٢، وكانوا يربون الماشية ويشربون الخمر ويتناولون الطعام بداخل كنيسة موجودة هناك. رحت أفكر في ذلك كله، وقد خفت أن أتوه أو أضلّ طريقي في العودة، حتى إذا نجحت ووفقت في الذهاب إلى الموضع الذي يريده في دامس الليل وبهيمه، كما خشيت أن يلتقيني لص من اللصوص أو قطاع الطرق، فقلت له راجياً :

– لكني يا سيدي لا أعرف كيف أصل إلى باب القديس جاورجيوس، ولا أعرف من هو الشخص المعني برسالة غبطتكم على وجه التحديد.

شعرت أنه على وشك افتراسي وهو يردّ بسرعة، دون التريث حتى أستكمل كلماتي:

– ستخرج من الباب الجنوبي للبيعة، ومن هناك ستسلك طريقاً واحداً عليك السير فيه حتى تصل إلى باب جاورجيوس، وقبل وصولك سوف تكون هناك علامة لن تجعلك تضل أبداً وهي البيمارستان، فعندما يصادفك، لا تترك السير حذاءه. عند باب جاورجيوس ستلقى هناك أباً جليلاً، سوف يقرؤك السلام بلسان عربي، ردّ تحيته، وهات ما سوف يعطيه لك إذا ما أمرك بأخذ شيء.

قلت محاولاً إيجاد عقبة تحول بيني وبين الذهاب.

– والباب ياسيدي ؟

صرخ بصوته المحشرج المخنوق :

– ستجد من يفتحه لك أيها الغبي. ثم إنه تردد قليلاً قبل أن يقول وهو يبتسم بخبث :

– لو حدث وصادفك شخص عند ذهابك أو مجيئك، فقل له إنك كنت عند بنت يحنا.

أسقط فى يدى، وكدت أصعق، كيف يمكننى قول هذا، لو حدث وصادفت إنساناً فى طريقى، فبنت يحنا هذه مغنية معروفة بالمدينة تحن إلى القرباء، وتضيف الغرباء، وكان إذا أراد أحدهم فى البيعة أن ينتقص من شأن الآخر يزدريه، يقول له، ليت لى بنتاً تغنينى عنك، حتى ولو كانت بنت يحنا.

خرجت متسللاً من البيعة بعد انتصاف الليل، وقد هالنى أننى وجدت الباب مواربأ بالفعل دون أن يكون عنده أى إنسان، ثم إننى أخذت أسير متسارع الخطى، وقد تملكنى الخوف العظيم، بينما كانت رءوس الجبال تتراءى لى عن بعد وكأنها خلق شياطين مخيفة تطل علىّ من عليائها على ضوء قمر شاحب تواريه غيوم قاتمة بين الحين والحين، ثم وجدت نفسى أسير إلى جوار سور البيمارستان، كما قال لى الأب ميخائيل، فشعرت بارتياب ورحت أترحم على الأب توما الذى كان يدخل المرضى إلى ذلك المشفّى بنفسه، ويدخل المجذومين حمّامه ويغسل شعورهم بيده مرة كل سنة، يعينه على ذلك الشمامسة والقيمين فى البيعة، ثم إنى وصلت بعد حين إلى باب القديس جاورجيوس، وهو أحد أبواب المدينة وقد بدا لى فى هذه اللحظات وكأنه قريب جداً من البحر، إذ كانت رائحة النسيم البحرى تتسلل إلى أنفى بينما تلاطم الأمواج العنيف يبدد كل صمت، فما أن اقتربت من الباب وقد بلغ الخوف مبلغاً عظيماً من نفسى، حتى وجدت رجلاً واقفاً، تبينت على ضوء القمر الشحيح ملابسه الكهنوتية، فما إن رآنى حتى تقدم منى، فقلت له بصوت مرتعد متعجل : القرنفلة السوداء تهديك السلام يا سيدى، فرد على بصوت جاف، خلت أننى سمعته من قبل : وأنا أرد عليه سلامه كذلك، ثم مضى، وقد سلمنى كيساً من المخمل دسسته فى ثيابى ومضيت، بينما وقع خطواته المنتظمة القوية يضرب الأرض وكأنه فارس من الفرسان.

رحت أكرر صدى الصوت فى أذنى، كانت عربيته غريبة، وخيل إلى أنه قال: -أرت-، بدلاً من أرد، ظللت أهجس بذلك، وقد أكلنى فضول المعرفة من يكون ذلك الرجل؟ أخرجت الكيس من ثيابى وتحسسته، فبدا لى وكأن بداخله رق ملفوف، توجست أكثر وأنا أتساءل عما يكون قد كتب عليه. بينما كنت على وشك

الاقتراب من باب البيعة، تذكرت فجأة من يمكن أن يكون صاحب الصوت، وقفت متسمراً لحظات، وقد ألجمتنى المفاجأة، وشعرت بخطورة الأمر فى حال صدق حدسى.

قبل موت الأب توما بقليل جاء إلى البيعة أب رومى قابله عدد من آباء البيعة، ومنهم الأب ميخائيل، وقد كنت حاضراً وقت هذه المقابلة، أصبّ شراب الخوخ للضيف الذى كان يتكلم العربية بلكنة غريبة وقد قال كلاماً كثيراً عن الساراسينيين، وكان الأب توما يجادله راداً عليه، وهو على حال شديد من الغضب والرفض لما يقول، فلما انفض اللقاء، وبقيت بعد ذلك فى المساء مع الأب توما، سألته عن معنى الكلمة، وكنت أسمعها لأول مرة، فقال إنه يقصد الإسماعيليين أو المسلمين أبناء إسماعيل وهاجر، المنحدرين عن النبى إبراهيم، وقال إن الرجل هو مبعوث البابا الرومى أربانوس الثانى، وقد جاء بعد انعقاد مجمع فى مدينة ببلاد الغال تسمى كليرمونت، بهدف حثّ أبناء يسوع فى بيعة القسيان على معاونة الكنيسة الرومية والعسكر الرومى المساند لها فى تخليص الأماكن المقدسة من أيدى هؤلاء الساراسينيين.

إذن، هو ذا ميخائيل يراسل هؤلاء مرة أخرى. يا الله. هتفت لنفسى وأنا أكاد لا أصدق بينما خطاى تتباطأ وأنا أهم بالاقتراب من باب البيعة، وقد زايلنى كل خوف من الطريق ومخاطره، وبدأ يداخلنى خوف من نوع آخر.

لقد قال الأب المرحوم توما، وقتها: إن ما يقوله ذلك الرجل، ما هو إلا كلمة حق يراد بها باطل، فهؤلاء الروم لا يبغون إلا مصالحهم، ولا يعنيهم فى شيء الأماكن المسيحية المقدسة. وإنه، أى الأب توما، ردّ عليه قائلاً: إن هذه الأماكن الطاهرة هى آمنة فى أيدى المسلمين، وإن المسيحيين جميعاً يحجون إليها دون أية عقبات، ثم إن المسلمين هم عرب كسائر السريان، وإن اختلفت ملّتهم، وإن المسامحة ظلّت ديدنهم منذ أن تولوا أمور البلاد.

أيقنت أننى هالك لا محالة طالما بقيت مع الأب ميخائيل، فهذا الرجل فى حياتى فناؤه، وفى فنائى حياته، لذلك بقيت بعد عودتى إلى البيعة ساهراً لا

يغمض لى جفن، أقلّب الأمر على كل الوجوه، وقد شعرت أننى كلما خرجت من نقرة، وقعت فى حفرة، فكنت أخاف أن أفضى لأى مخلوق، بما فى داخلى، حتى لا ينقلب الأمر ضدى، وأنا هنا لا آمن أحداً بعد وفاة الأب توما الذى كان يحنو على ويعزنى كثيراً، لكن فجأة، هدانى الله لأن أبوح بأمرى للشماسة رصفة.

كان السماح للنساء بالشمسنة من أكثر الأمور التى استرعت انتباهى فى كنيسة أنطاكية، وقد علمت أن ذلك من المعهود فى هذه الكنيسة، منذ قرونها الأولى، ووفقاً لرسالة بولس الرسول الأولى إلى تيموثاوس، إذ قال: لا تكتتب فى عداد الأرامل إلا التى لها ستون سنة على الأقل ولم تتزوج إلا مرّة واحدة، ويشهد لها بالأعمال الصالحة بأن تكون قد أحسنت تربية أولادها، وأضافت الغرباء، وغسلت أقدام القديسين، وأمدت المتضايقين، وسعت فى كل عمل صالح. وكانت رصفة ضمن هاتيك الشماسات المنوط بهن معاونة الكهنة فى تعميد النساء وتعليم الموعوظات، ومراقبة النساء المؤمنات فى الغونايكيون، وهو مدّ النساء أثناء القدّاس الإلهى، وكذا تفقد المرضى والمصابين. وكانت رصفة، كما قالت لى مرة، ضمن الذين شملهن قانون يوستنيانوس، فرحمها الربّ وقبلت كشمّاسة وهى تحت الخمسين، بعد التزامها، كما نصّ القانون، بالمحافظة على الآداب والوقار، وهى المرأة المكلومة الثكلى، بسبب فقدها أربعة من أبنائها دفعة واحدة بعد أن خرجوا للبحر للصيد والرزق، فابتلعت المياه قاربهم ولفظهم الموج جثة إثر جثة، وكانت رصفة تحنو علىّ كثيرا وكأنى ولد لها، وذلك بعد أن أنقذتها يوم التعبد لتذكار القديسة بربارة السنوى فى الرابع من شهر كانون الأول، وكان يوم سرور وفرح والناس فى غاية الغبطة والحبور، وقد ارتدوا أفخر الحلل والثياب، وكثر منهم من يعلو على المهارى والبغلات، ثم كان أن توجهت الجموع مع الوالى والبطرك ورؤساء الدولة إلى هيكل القديسة كما جرت العادة، وكنت أسير مع الهيئة الكنسية خلف الشماسات، وفجأة اندفعت الناس إلى الكنيسة وراحوا يتسابقون؛ إذ صاح من صاح أن أيقونة القديسة تذرف الدموع من عينيها، فجرى الجميع محاولاً مشاهدة المعجزة والتيقن منها والتبرك بها ، وكل منهم يسعى للوصول قبل غيره، فسقطت

جماعة من الناس وكانت منهم الشماسة رصفة، فلما شاهدت ذلك رفعتها بسرعة ، وحلت بينها وبين أقدام الناس المتدافعة، والتى كان من الممكن أن تطأها وتدهسها.

ومنذ ذلك اليوم انعقدت مودتنا، وعرفت أنها طاهرة نقية مؤمنة، وكأنها قديسة بحق، وباتت تفضى إلى بالكثير من أحوال هذه الكنيسة، وذلك بلسان عربى بيّن، فأبوها، كما قالت لى، من قبائل يمانية الأصل تدعى الغساسنة، أما أمها فهى من سريان أنطاكية، وهكذا استقر أمرى، ومضيت إليها طالباً منها النصح والمشورة، عند أول فرصة واتتنى فى الصباح، فذهبت إليها بحجة أن ألماً فى رأسى وصداعاً أخذا يداهمانى، وأريد منها شيئاً لتسكين ذلك، وهذا ما قلته للأب ميخائيل، وحكيت لها على وجه السرعة ما جرى لى بليلة الأمس، فقالت لى هامسة، وهى تتلفت يميناً وشمالاً:

– إياك أن تبوح لأى مخلوق بما قلته لى الآن. اسمع. نهايتك محتمة إن بقيت فى هذه البيعة، فهو سيتخلص منك إن عاجلاً أو آجلا، لم يبق لك غير أمر واحد هنا.

قلت بلهفة:

– وما هو يا أمى المباركة ؟ أعينينى وليرحمك الرب، فقد أعيانى التفكير.

ثم إنها همست بما لم يكن يخطر لى على بال.

بقيت طول النهار أفكر فيما قالته لى الأم الشماسة رصفة، وأقلبه على كل وجه من الوجوه، لكنى أيقنت فى النهاية أنه لا بديل لى إلا ما قالته، وهكذا ذهبت فى ظهيرة اليوم التالى إلى موضع الأب ديونيسيوس، رئيس البيعة، فلما مثلت بين يديه بعد أن ضربت مطانيا وأنا مطأطئ الرأس، استجمعت كل ما بداخلى من شجاعة، وقلت:

– أريد أن أعترف لك ياسيدى. لقد كذبت وليسامحنى الرب، وقلت إننى من أهل بيعة قصر الشمع فى مصر العتيقة. هذا غير صحيح يا أبى، فما أنا إلا فلاح فقير من أهل البشمور بالأراضى الموحلة.

ورحت أشمّر عن ساعدى حتى كشفت عن وشم الأسد، لأدعم قولى بأنى فلاح قرارى وعبد مسكين؛ ليصدقنى الرجل ويقتنع بما أقول.

استمع إلىّ الأب ديونيسيوس، بروح هادئة كمن تعوّد على حدوث مثل هذا، راح يفكر وقتاً متفرساً بوجهى، وبعد قليل قال ببرود مشيراً إلى قيّميه:

-خذوه إلى الحبس حتى ننظر فى أمره.

كان عليّ أن أدفع ثمن كذبي ألما ومراراً في سراديب حبس أنطاكية، بعد ذلك، ففي حبس كنيسة القسيان هذا، لا يشتهي المرء إلا أمراً واحداً هو الموت، فلقد كان محبسي ضيقاً بقدر ثلاث أذرع في ذراعين، أشبه بجحر نحت في الصخر أسفل الأرض، وهو لا يتسع إلا لبقاء المرء جالساً القرفصاء، يتنفس بالكاد، فإذا كان من المحظوظين المرضيّ عنهم، يترك وحيداً دون إنسان آخر يشاركه الهواء الذي لا يدخل إلا عبر فتحات ضيقة متباعدة، ويبقى الحراس بعيداً بعد إغلاق البوابة الحديدية للحبس، عند مبتدأ الطريق المؤدية إليه، والتي هي سرداب طويل مظلم وشديد الالتواء والضيق. فلما أدخلوني إلى الموضع المتحفّظ عليّ به، تركوا لي ماءً وإداما من الخبز الجاف والملح المخلوط بلب نوى المشمش المر، وقد علمت بعد ذلك إنهم يضيفون ذلك إلى الملح درءاً لداء الزرب، ولزوم البقاء على قيد الحياة.

إن أسوأ ما مر بي خلال حياتي كلها كان حبس بيعة القسيان هذا، فهو الهول الحاضر، والعذاب القاهر، والإيذاء المريع للروح والجسد، وكنت طوال فترة حبسي أدعو الله أن يساعدني على أمر واحد هو ألا أذهل أو أجن، فالجنون لا بد وأن يكون مآل من يحبس في هذا المكان مدة تطول، وكنت لذلك أحادث نفسي كثيراً، وأقرأ قرايات إيمانية متنوعة، وأستعيد مترنماً جانبا من الثاذوكيات الجليلة التي كنا نرددها في كنيستنا بقصر الشمع، ثم إنني بدأت ألاعب نفسي ألعابا ابتكرتها، فأشكّل بأصابعي على الضوء الضعيف المنسكب من كوة السرداب حيوانات وطيوراً بأشكال طريفة أرى أشباحها على الحوائط الصخرية المحيطة بي، كما رحت أستدعي مشاهد طفولتي البعيدة ومناظر بلدتي البشمورية، خصوصاً عندما تبدأ شهور الصيف الحارة فتغلب مياه الفيضان العذبة على مياه البحر المالحة فتزخر الأنهر والقنوات بالأطيار والأسماك، وسائر الكائنات الربانية من أهل هذه

المياه، والمستوطنة فيها منذ القديم، فيبدو المكان وكأنه فردوس من الفراديس، ونعيم لا مثيل له فى الدنيا، وقد تفتح البسنت الأبيض، وأظهر نبات البشتين العوّام زهوره البنفسجية فى كل مكان، وبدا البردىّ بسيقانه الطوال وزهوره الداكنة هنا وهناك، فلا تشبع العين من نظر كل هذا، ولا تملّ الأذن كورس الأطيار وهو يرتل مزقزقاً، صادحًا، مشقشقاً، شادياً بسحر الأصوات وأبدعها، كنت أغمض عينى، وأطير بروحى بعيداً عن حبس أنطاكية، وأحط بها على أرض وطني وبلدتى، فأدخل دروبها الضيقة، الحزينة، وأتشمم ثوب أمى ممسكاً به، وأنظر أبى وهو يبذر الحب في الغيطان، وقد شمر ساعديه عن قميصه الأبيض الكتانى، ثم أنظر إخوتى أجمعين، ماريّة الكبرى التى ارتحلت مع نوتى ملكانى إلى بلاد الجريك ذات يوم، ولم نعد نسمع عنها شيئاً بعد ذلك، حتى أن أمى كانت تندبها ندب الأموات منذ ذلك الحين، ثم أختى الصغرى بسنت والتى كانت الأقرب إلى مهجتى من كل إخوتى، ولا أشتاق لأى منهم مهما حييت، قدر اشتياقى لها، وهى التى كانت تصغرنى بثلاثة أعوام، ولها من الجمال والحنان ما لا يوصف وما لا تنساه الروح، وقد انطبعت صورتها الأخيرة فى مخيلتى وقت عدم آمونة، إذ بدت كالمصعوقة، صامتة لا تنطق، وقد جحظت عيناها كحبتى عنبر كبيرتين، تصلدتا بالمفاجأة والأسى. هكذا كنت أبقى وقتاً طويلاً مستعيداً بمخيلتى كل المناظر والحياة التى كانت وعشتها، ذات يوم هناك، فأحزن حيناً، وتنتعش روحى بها حيناً، فأهفو أن تعود عجلة الزمان إلى الوراء، وتأخذنى بدولابها إلى ما تبتغيه روحى وترقّ به مشاعرى، وكنت أفرح حيناً آخر، إذ تذكرت أن الحياة بها من مسرّات الربّ وخلقه ما يرتفع بالعبد إلى السمو والصفاء، فأشكره على ما جاد به على عبيده، وتنتعش روحى بالأمل، فأفتح عينى لأواجه جدران الحبس الحجرية أمامى دون أن أخشاها، وأجدد قراياتى الإيمانية مرة أخرى، أو أصلّى صلوات الشكر والحمد، وأكثر من طلب المغفرة لكل الذين عرفتهم وماتوا، وكل الذين أحببتهم وصعدوا إلى ملكوت السماء، وكنت كثيراً ما أردد بعضا من المزامير الداودية، التى أحفظها عن ظهر قلب، حتى تتقوى نفسى ويثبت إيمانى، ولن أنسى كم ردّدت :

إنى ولو سرت فى وادى الظلمات لا أخاف سوءاً لأنك معى

عصاك وعكازك يسكـنان روعـــــى

تُعِدُّ مائدة أمامى تجـــاه مضايقـــى

وبالزيت تطيب رأسى فتفيض كأســى

ثم إننى كنت أحاول صرع الوقت، فأحاول تذكر ما فى نواحينا البشمورية من أسماك وأطيار، وأعدد أسماءها واحداً واحداً محاولاً استدعاء أشكالها وأجسامها، فعددت من الطيور: السلوى، النصطفير، الزرزور، الباز الرومى، الصفرى، الدبسى، البلبل، السقاء، القمرى، الفاخت، النواج، الزريق، الهونى، الزاغ، الهدهد، الحسينى، الجرادى، الأبلق، الراهب، الحساف، البرين، السلسلة، درداری، الشماس، البصبص، الأخضر، أبو الحفاء، الدورى، الزنجى، الأطروش، ابن السمان، ابن المرعة، الوطواط، الملاعقى. وفى ليلة عددت من أنواع الطير التى أعرفها ما يربو عن المائة، ونوعين بين صارخ وشاد ونائح وهادل ومغرد وزاعق وناعق ومزقزق ومشقشق ومصفر ومصوصو، أما الأسماك فقد واسيت نفسى بها ذات مرة حتى عددت منها تسعة وسبعين نوعاً كانت: البورى، البلمو، البرو، اللبت، البلس، السكسا، الأران، الشموس، النسا، الطوبار، اليقشمار، الأحناش، الانكليس، المعية، البنى، الأبلبل، الفويص، الدونيس، المرتنوس، الاسقلموس، النفط، الجبال، البلطى، الحجف، القلارية، الرخص، العبر، التون، اللت، القجاج، القروص، الكليس، الأكلس، الفراخ، القرقاح، الزليخ، اللاج، الأكلت، الماضى، الجلاء، السلاء، البرقش، الصد، البلك، المشط، القفا، السور، حوت، الحجر، البشين، الشربوت، النساس، الرعاد، الشعور، المحبرة، اللبس، السطور، الراسى، الريفن، اللبيس، الأبرميس، الأبونس، اللباء، العميان، المناقير، القلميدس، الحلبوة، الرقاص، القرندس، الجتر، هوكبارة، القبج، المجزع الدليسى، الاحشبالة، البسال الأبيض، الرقوق، أم عبيد، البلو، أم الإنسان، الإنسارية، اللجاه. وبقيت على هذى الحالة لا أدرى كم مرّ على من الوقت، ولم أعرف مبتدأ الليل من مبتدأ النهار، إذ كنت أبيت على ما أصبح، وقد اتصل زمانى، ولم يعد لى من الإمكان مفارقة

مكانـى، فصرت كالعائش الميت، أو الميت الموجود الذى لا يحق له فعل الوجود، وصرت أغيب فى نوبات لا أدرى أهى حمّى أم نوم، فلا أصحو إلا لشرب جرعة مـاء، أو لازدراد كـسـرة إدم، ثم إنه حـدث ذات صـبـاح أن جـاءنى الحـراس وأخرجونى، فسرت بصعوبة أمامهم، بينما هم يدفعوننى دفعاً، وكان امتناعى عن الحركة والسير مدّة قد يبّس أوصالى، وبت كالمفلوج العاجز، وكان امتناعى عن النور والشمس كل هذا الوقت، قد جعل عينى لا تقويان على مواجهة سطوعها وإبهارها، إذ صرت فى فناء البيعة عابراً بينهم إلى موضع الحمّام، فتركونى حيناً لأتحمم، وليسامح الله الأب ديونيسوس، إذ كانت رائحتى نتنة عفنة لكثرة مكوثى دون تطهّر أو نظافة.

استقرّ الأمر على ترحيلى إلى بلد الخلافة بغداد، فأنا أسير الخليفة، وطالما أنا لست من أهل البيع كما ظن الجميع هنا فى بيعة القسيان، فقد كان عليهم تسليمى مرة أخرى إلى عسكر الخليفة حتى أكون ببغداد ويجرى التصرف بى كما يشاءون هناك.

سلّمت أمرى لله، فمهما سيكون لن يكون كما الذى كان، وما سوف يمر لن يعادل ما مر، وهكذا وجدتنى أغادر فى صبيحة اليوم التالى بيعة القسيان، التى رأيت فيها ما لم أره من قبل، وذلك بعد أن لملمت حاجياتى القليلة من ملبس وأشياء لا أهمية لها إلا لكونها أشيائى.

خرجت عند الغروب مغادراً أنطاكية، وكان آخر عهدي بها وقت أن حكموا على شماسة شابة بالبيعة تسمى برسيس، أجحفت بالنذر، وحادت عن السيرة الحسنة، وضبطت بجريمة الزنا مع رجل شمّاع ممن يزودن الكنيسة بالشمع، وكنت ضمن جماعة من الناس في حراسة غير كبيرة، وتوجهوا بنا إلى بلدة أخرى من البلاد الشامية المؤدية إلى بغداد، وتسمى هذه البلدة حلب، فقطعنا المسافة إليها في يوم وليلة، وكانت الطريق بين الكورتين عامرة لا خراب فيها، ومزروع جلها بأنواع عدة من الخيرات والزروع والغلة، وكنا نبقى وقتاً في بعض القرى التي تعترضنا، وهي في جملتها ذات رياض مزهرة ومياه متفجرة، فيتركوننا لنأكل شيئاً ويطعمون الخيول ويسقونها، وقد حدث أننا كنا قد جلسنا على طرف فلثر من الأرض لنستريح، وهو ما يحاكي الفدان والحريب وما إلى ذلك، فخرج إلينا بعض الفلاحين مسرعين، فلما شاهدونا وتعرفوا على عسكر الخليفة، نصحوهم بالمضّي سريعاً، لأن هذا الموضع قريب من جبال يقال لها اللكام، وأن بها حصن قديم مشرف على بحيرة، ويتخذه جماعة من الروم مقراً لهم، وهم قوم حبسوا أنفسهم على قتال المسلمين، ومنعوا أنفسهم عن النكاح، فهم بين الرهبان والفرسان ويقال لهم الداوية، فسارع العسكر بجمعنا، ونهضنا لنعاود المسير مرة أخرى إلى مدينة حلب.

دخلنا حلب وهي مدينة مسوّرة بسور عظيم من الحجر الأسود، والقلعة عليه، وذلك من باب أنطاكية، وكان لحلب خندق عظيم وصل حفره إلى الماء، وفي وسطه مصانع للماء المعين.

كان بعض العسكر قد تركونا وذهبوا لشحنة المدينة لتسلم الخارجين عن الخليفة، وفي هذه الأثناء جاء من قال: إن تنيناً قد ظهر منذ فترة بالمدينة، بغلظ

منارة وطول مفرط ينساب على الأرض يبلع كل حيوان يجده، ويخرج من فمه ناراً تحرق ما تلقاه من شجر أو نبات، واجتاز على بيوت أحرقها، والناس يهربون منه يميناً ويساراً حتى انساب قدر اثنى عشر فرسخاً، فأغاث الله تعالى الخلق منه بسحابة نشأت ونزلت عليه فاحتملته، وكان قد لف ذنبه فى كلب ورفعه والكلب يعوى فى الهواء والسحاب يمشى به، والناس ينظرون إليه إلى أن غاب عن الأعين، وقد قال الحاكى الذى حكى هذه الحكاية: رأيت الموضع الذى انساب فيه كأنه نهر.

فلما عاد العسكر إلينا، كان معهم جماعة من الناس المرحّلين إلى مقر الخلافة مثلى؛ وذلك بسبب أن والى المدينة قد أمر بإقصائهم عنها؛ لأن بعضهم، وهم من قرية تسمى هوته، قد اقتتلوا مع جماعة أخرى من قرية تسمى عين الجارة، وأن بين القريتين حجراً قائماً كالتخم، فما كان من أهل هوته إلا أن أوقعوا الحجر وطرحوه، فخرجت نساء عين جارة أجمعين متبرجات ظاهرات لا يعقلن على أنفسهن طالبات الفجور، ولا يستقبحن فى الحال ما هن عليه من غلبة الشهوة، إلى أن يتبادر الرجال إلى الحجر فيعيدونه إلى حالته الأولى فيتراجعن إلى بيوتهن، وقد عاد إليهن التمييز لقبيح ما كنّ عليه من التبرج، فأمر الوالى بإقصاء الحجر والقبض على بعض من أهل هوته لأنهم لصوص، وكانوا كثيراً ما يسخّرون الحجر لصالحهم ويلحقون العار بأهل عين جارة، وأن الوالى قد طلب من الخليفة ألا يعودوا إلى مواضعهم أبداً.

ثم إننا تخللنا المدينة متجهين إلى باب العراق فوجدت أن بها نهراً يقال له قويق، فلما مررنا بجانبه وقفنا قليلاً لأن واحداً من العسكر أراد إحضار سلحفاة من السلاحف التى تكثر به؛ وذلك للحصول على دمها لأمه فى العراق، وقد قيل له أن التطلخ به ينفع من وجع المفاصل. فلما تريثنا إذ بصوت عذب لصياد يأتى من الناحية الأخرى للنهر، يتصاعد وهو يشدو :

فلو دام الحب الوصال ولم يكن … فراق ولا هجر لما اشتاق

قويق سيِل الغيث يأتى وينقضى … ويأتى انسياقاً تارة ثم ينساق

وقد لاحظتُ الناس فى الطرقات، والذين كانوا يتوقفون قليلاً لينظروننا، فوجدت أنهم من أحسن الناس وجوهاً، وأجساما، والأغلب على ألوانهم الدرية، والحمرة، والسمرة، وعيونهم سود. وقد عجبت من كثرة حارات المدينة، ودورها، وجنائنها، وحماماتها، وكذا رصانة البناء فيها، وحسن حجارتها، وتعدد أسواقها، والمعروض فيها من الخضر، والفاكهة، والزيت، والصابون، والأقمشة، وأنواع الفرا التى تعلق للعرض على أبواب الدكاكين، وهى على هيئة حيواناتها كالسمور، والوشق، والفنك، والسنجاب، والثعلب، وسائر الوبر، أما سوق الرقيق، الذى مررنا به كذلك، فقد رأيت فيه أصنافاً من الجركس، والترك، والروم، والحبش، ثم إننا أُخرجنا من باب العراق قاصدين مدينة الخلافة بغداد.

كنت خلال الطريق لا ينقطع ذهنى عن التفكير والتأمل، فأدركت أن السفر هو المسافة بين هنا وهناك، أو هو هنا التى ما أن تقبض عليها، حتى تفر منك إلى هناك، فأنت فى برزخ مستديم، يستقدم التاريخ وينبذ الخرائط، لتهيم الروح فى ماضيها وما كان، وتقبض على الكون فى سياحات فريدة من التأمل والاستشفاف. وهكذا صرت، طوال الطريق، كلما خلوت إلى نفسى أفكر فيما كان من أمرى ببر مصر و أنطاكية، وأضعه تحت نور الشهاب الثاقب، ونجم التأمل الساطع، فأتوصل بعد لأى من الهجس والتمحيص إلى أن ما كنت أعتقده يقينا، ما هو إلا ضرب من شك لا يشبع سريرة، وأن البداهات إنما هى بمثابة بدايات، وأن العقيدة الحقة لا تتجلى وتكون إلا بالفعل المفعول، دون الكلمات ومعسول الترهات، وأن هناك من يتخذها مطية ورهينة، ليتمكن من أمور الدنيا وشهواتها، وليس كل من تلا كلمات الرب هو عامل بها، فهناك من يرتل الكلمات المقدسة، بينما هو يتلتل الدنانير المدنسة، وإنما القول الإيمانى يجب اقترانه بالفعل الإنسانى، وإلا كان غشّاً وبهتاناً وتزويراً وإعمالاً فى خداع الناس والهيمنة عليهم بالآيات المصدقة والطقوس المكرسة.

لقد كفرت – وليرحمنى الرب – خلال ولوجى فى برزخ السؤال، بأمر ما، وتشككت فيما كنت أظن أنه لا يشك فيه أبداً، وبت أطرح علامات استفهام، لا

أدرى أهى من نتاج تعاظم شعورى بالألم والبؤس وقلة حيلتى ومشقة السفر، أم هى من قبيل الجود الربانى والكشف الجوانى، وكان إلحاحى الدائم على: هل يحتاج خالق القطر، والشجر، والسحاب، والثمر، وصنوف الطير، والحيوان، وسائر أجناس بنى الإنسان، وما على البر، وداخل جوف البحر- إلى كل هذه التوافه العوارض من التيجان والطيلسانات والمذهبات المفضضات، والعمارات ليدلل على قدرته؟ إن أى جبل قد خلقه - مما خلق - لا يضارعه مهما كانت عظمتها بناية من الأبنية أو عمارة بيعة من البيع. فالرب جليل مرتفع عن كل هذا فى أعماله وآيات قوته وأفضاله، وهو العزيز عن مصنوع موضوع بيد عبد من عباده.

حمار وصفار وخضار وسواد من الأرض، قُدّر لى اجتيازه مع تلال من الدهشة والعجب وأنا أعبر القرى، والبلاد، والصحراوات مرتحلاً فى الطريق إلى المدينة المدورة المسماة بغداد. إنها المدينة التى ظلت تتراءى فى خاطرى كحلم شيد من ضبابات التخيل وتهويمات التكهن، وقد رسمتها بمخيلتى من فسيفساء الأماكن وتفاصيل العوالم التى شهدتها وخبرتها، ورغم مشقة الترحال والسفر، وعبودية الأسر ومرارته، فإن تشوقى لبغداد كان يتزايد كلما غذينا المسير وقطعنا الطريق بعد الطريق، فما أجمل أن تشتهى رؤية مدينة، وتحلم بأنك سوف تعاينها معاينة البصر وتلجها ولوجاً بالقدم، بعد أن شيّدتها بداخلك لبنة لبنة من أوهامك عن المدن والبلدان فى العالم المضطرم والمتمور بالقسوة والعنف والصراع دوماً.

كانت قد مرت علينا فى الطريق أحداث كثر، لكنها تضاءلت وتصاغرت جميعها إلى جانب ما رأينا عند مرورنا بصحراء من الصحراوات المحيطة ببعض القرى والتى يتوجب على التجار وقوافلهم اجتيازها خروجا أو دخولاً إلى بغداد، فقد تصاعدت إلى أنفى وأنوف كل الذين كنت معهم ريح نتنة وجيف، فظننا أنها من بقايا فريسة لوحش من الوحوش، وقد تعفنت وتجيفت بفعل سخونة الشمس وشدّة حرارتها، لكن، وبينما نحن نتأفف ونشمئز من ذلك، إذ بنا نسمع أنيناً موجعاً يمزق سمعه القلوب، فبادرنا إلى موضعه، فهالنا ما رأته عيوننا، فقد كان على الأرض رجل موثق يتأوه من فرط آلامه، جاحظ العينين وقد خرج لسانه مورماً مقدداً مسوداً من فمه، بينما آلاف الديدان تسعى مسربلة جسده وكأنها ثوب

يغطيه، فلما تشجع بعضنا، واقترب أكثر وجد أن الرجل مُكفن في لية الخراف، ومربوط عليه باللبد والحبل بإحكام، ويبدو أنه ملقى منذ زمن في الشمس الحامية، فاستحالت اللية بعد حين إلى ديدان أخذت تلتهم جسم ذلك التعس بينما هو على قيد الحياة، وقد حكى لنا واحد من الحراس ذلك، فلم أتمالك نفسي ورحت أفرغ ما بجوفي وأنتحب انتحاباً شديداً، وقد أصابتني نوبة من الألم، لم أعد قادراً معها على الإتيان بأي فعل أو حركة، خصوصاً وأن بعض الحراس سارع ليفكّ الرجل من أسره، لكن مقدم الحرس منعه، لأنه لم يعد منه رجاء، فقد أصاب الدود أكثر من موضع في لحمه، وصار موشكاً على التلف والفناء، وخشي أن يصيبنا منه مرض أو آفة إن اقتربنا منه أكثر أو حاولنا مساعدته، ومضى بنا مسرعاً، تاركين المسكين لمصيره المؤلم. فلما اجتزنا فرسخاً أو فرسخين وجدنا بعض الناس يسألوننا عن موضع رجل مقيد ومتروك في الصحراء، قالوا إنهم يبحثون عنه منذ عدة أيام دون جدوى، فأرشدهم مقدّم الحرس إلى موضعه الذي كنا توقفنا عنده، وسألهم عما كان من أمره، فقالوا: إنه تاجر من التجار، قيل إنه خان بعضا ممن كانوا معه بالقافلة وسرقهم، فعاقبوه بعقاب قوم يقال لهم الإيلخانيين وهم من القساة الغلاظ المتفننين في تعذيب أعدائهم وضحاياهم، ففعل التجار بالرجل ما يفعله هؤلاء الإيلخانيين بأعدائهم، وزاد هؤلاء بأن شطروا صبياً كان للسارق، إلى نصفين، من باب الانتقام والتشفي، ودون أن تأخذهم رحمة أو شفقة به.

كان ذلك الأمر، قد أصابني طوال الطريق، بعد ذلك، بحد من التبلد وفقدان الشعور، وقد بهت لكل هذه القسوة، وهذا القدر من العنف وشهوة الانتقام، وفي لحظة تمنيت الموت، وبدا لي أنه الواحة الممكنة الوحيدة، بعد تيهي الممتد في بيداء هذه الدنيا المقفرة، وكان شعوري بذلك يتماسك ويتكثف، كلما حثونا على الإسراع والنشاط في السير حتى نجتاز المسافة إلى مدينة الخلافة في أقل وقت ممكن.

ثم إنه لاحت لنا بعد زمن قباب وأبنية، كأنما صُبّت في قالب، وكأنما أفرغت إفراغاً، وكان بعض العسكر قد أخذ يطلق صيحات الفرح، ويلغط بسعادة عن

وصولنا واقتراب بلوغنا أبواب المدينة المقببة، وقد ظهرت بينها قبة عظيمة خضراء اللون عليها صنم على صورة فارس فى يده رمح نبهنى إليه قول واحد من العسكر ونحن نتقدم بالمسير، إذ قال:

- انظروا. رمح الفارس يتجه نحو الشرق. لعل الخوارج سيخرجون من هذه الناحية كما يقال.

ضحك آخر بسخرية وعلّق:

- أتصدق هذه الترهات، إنها خرافة ولا أكثر أن يخرج خارج على الخليفة من جهة الرمح. سر وأنت ساكت؛ خلينا نصل وننهى مهمتنا بسلام.

بدا لى سور المدينة، وقد اقتربنا، عظيماً ممتداً على نحو لم أره ولم أعهده فى أية مدينة أخرى كنت قد شاهدتها من قبل، سواء فى بر مصر أو فى بلاد غربتى، وكان السور مدوراً يحيط بالمدينة داير ما يدور، وبالتخمين، فإن ارتفاعه إلى السماء، قد يزيد عن خمسة وثلاثين ذراعاً، وبدت أبراجه بسمك قد يكون خمسة أذرع، وكانت على السور شرف، فلما اقتربنا من ذلك السور اقتراب المعاينة والتدقيق استبانت لى أبواب عديدة فيه، ثم إنهم أوقفونا عند باب قيل له باب الشام الأول، فوجدت أن للباب هذا بابين بينهما دهليز ورحبة يؤديان إلى الفيصل الدائر بين السورين، وبدا لى أن الأول باب الفيصل، والثانى باب المدينة، فلما ولجناه، بعد إذن الحراس، إلى دهليز أزج معقود بالآجر والجص، وجدت على الأزج مجلساً له درجة على السور، يرتقى منها إليه، وعلى هذا المجلس قبة عظيمة ذاهبة فى السماء، سمكها، قد يكون، خمسون ذراعاً مزخرفة، وكانت هناك قباب أخرى على السور، وهى التى كانت قد استبانت لنا من بعد قبل ولوجنا إلى المدينة، ثم إنهم ساقونا عبر شوارع المدينة إلى قصر الخليفة، فهالنى وأخذت بما وجدت عليه العامة فى الأسواق والشوارع وأسطح المنازل، فوقف العسكر الذين جلبونى مع بعض الأسرى الآخرين، يتساءلون ، وقد أخذوا بما أخذت به من ازدحام الناس حتى فى الدكاكين والشرف، فقيل لهم:إن الخليفة أذن بدخول رسول الروم والجميع ينتظر وقت مرور موكبه قادماً من دار يقال لها

دار صاعد، وقد مكث بها شهرين لا يؤذن له بالمثول بين يدى الخليفة، وقال من أخبر العسكر بذلك إن كل صاحب دكان أو غرفة مشرفة على مشهد خروج رسول الروم إلى قصر الخليفة، قد أكرى ما لديه بدراهم كثيرة، و أن فى دجلة صارت الشذاءات والطيارات والزلالات والسميريات بأفضل زينة وأفضل ترتيب وتعبئة.

ثم إنهم ساروا بنا، فعبرنا أسواقاً وحمامات وأرياضاً عديدة حتى أوصلونا إلى قصر الخليفة الملاصق لجامع جميل، وقبل أن يدخلونا جاء رئيس، قد يكون مقدم الدرك، وظل يجادلهم فى شأنى مثلما كان يحدث دائماً فى كل مرة يجرى تسليمى فيها، ثم إنه، وبعد كلام كثير، استقر الأمر على وضعى فى الوقايد بمطبخ الخليفة.

لا أدرى أكنت محظوظاً لأننى وصلت إلى قصر الخليفة فى الوقت الذى كان فيه الجميع مشغولون باستقبال رسول صاحب الروم، فقرروا سريعاً إلحاقى بالوقايد، فلم أبع، أو أوضع فى حبس من الحبوس؟ أم أن ذلك كان بسبب درايتى بالوقايد من قبل، أثناء ترحيلى من مصر إلى أنطاكية، فى الحراقة، وعدم انتفاعهم بى على أى وجه من الوجوه إذا هم باعونى، وذلك بسبب ضعف بنيتى واعتلال صحتى؟ على أية حال، لقد قدر الله لى أمراً كان مكتوباً، فقد عبروا بى ساحة القصر، بينما كان الجميع منهمكا بفرش المكان بالفروش الجميلة، وتزيينه بالآلات الجليلة، وكان الحجّاب، ومنْ خلفهم، والحواشى آخذين بالانتظام فى طبقاتهم على الأبواب، والدهاليز، والممرات، والمخترقات، والصحون، والمجالس، وبقى الجند واقفين صفين بالثياب الحسنة، وتحتهم الدواب بمراكب الذهب، والفضة، وبين أيديهم الجنائب، على مثل هذه الصورة، وقد أظهروا العدد المكسية والأسلحة المختلفة وبعدهم الغلمان الحجرية، والخدم الخواص الدارية والبرانية بالبزة الرائعة والسيوف، والمناطق المحلاة.

ثم إنهم أدخلونى بصحبة واحد من العسكر من باب قصى فى الساحة يفضى إلى مطبخ الخليفة، ومهما وصفت فلسوف أظل مقصراً، عاجزاً عن وصف ما رأيت، إذ إننى، بمجرد أن تخطيت هذا الباب، وجدت نفسى فى فناء واسع، محاط داير ما يدور بغرف كثيرة، بينما عدد كبير من فراخ الطاووس، والبط،

والإوز، والديوك الرومية تجرى هنا وهناك، ثم إننا دخلنا إحدى هذه الغرف فوجدت أنها كبيرة واسعة تفضى إلى غرفة أخرى، استبان من بابها أكداس من خشب وفحم حملت وتراصت على بعضها البعض بترتيب ونظام، أما الغرفة الأولى فكانت غرفة الأفران، وقد توضعت مجموعة من بيوت النار إلى جوار بعضها، فلما عددتها وجدت أنها عشرة، وكان عليها رجال وغلمان يعملون بهمة ونشاط، والسخام يغطى حيطانها العالية ويحيل لونها إلى السواد، ثم إن الجندى الذى أنا تبعيته نادى على رجل ناعتاً إياه بالريس حسين، وسرعان ما جاء رجل ضخم الجثة، فى عينيه حدّة وقوة تأخذ النفس، وتسيطر عليها، فحيا رئيس العسكر، فقال له:

– هذا أسير الخليفة، هو قبطى مصرى، ستكون ملتزماً به منذ الآن فصاعداً، ولسوف يكون تحت إمرتك فى الوقايد، وكل ما يخصه ستسأل عنه على أية حال.

ردّ الريس حسين بهدوء:

– أمرك يا سيدى.

ثم إنه اصطحبنى إلى موضع بغرفة الحطب والفحم، فأدركت أنها واسعة، أقرب إلى الخان الواسع منها إلى الغرفة المحدودة. قال:

– سوف يكون مستقرك ومنامك هنا. عندما تنتهى نوبة عملك كل يوم. ستعمل معى فى البداية خلال نوبة الليل، ثم تنام سويعات بعد طلوع الفجر تبدأ بعدها فى التهيؤ حتى وقت الغروب، وإياك ومخالفتى فى أمر من الأمور. هلاّ قلت لى ما اسمك؟

قلت وأنا أزدرد ريقى، بينما مرارة تتصاعد إلى حلقى:

– بدير. بدير يا سيدى.

وبينما كنت أردّ عليه، إذ دخل علينا واحد من خدام القصر، وصرخ:

– هيا يا حسين، هات مجامر البخور، وتعال لتشرف عليها بنفسك، ستبقى حاملاً المجمرة الكبيرة أثناء طواف رسول الروم بالقصر، اغتسل سريعا وهاك بزّة جديدة لترتديها.

– نعم . نعم. فى غمضة عين إن شاء الله سأكون جاهزاً.

لو سئلت ذات يوم عمّن أمتنّ له فى هذه الدنيا بعد الله العلى القدير، لقلت وكلّى يقين، حبيبى وقرّة عينى ثاونا أولا، ثم سيدى صاحب الفضل الذى لا أنكره أبداً مهما حييت، الحسين بن فالح المراغى، والذى وفد إلى بغداد من بلدة من أعمال الخلافة تدعى مراغة، فثاونا هو الذى عطف على نفسى بالمودة والرحمة، وأرشدنى إلى كثير مما كنت أجهله قبل ذلك، وكان لى بمثابة الأب والأهل، والنديم الصديق، والمعين الصبور على عذابات روحى وأوقات يأسى وقنوطى، ثم هو الذى ثبّت نفسى على الإيمان، وأمدنى بكل محبة وحنو. أما الحسين بن فالح المراغى، فامتنانى له هو امتنان الغارق فى جبٍّ عميقٍ لمن أخرجه إلى الحياة مرة أخرى، وهو ذاك الذى ساعدنى على البصر بعد عمى، والنطق بعد خرس، والسمع بعد صمم.

كنت كلما عقدت أوجهاً للشبه والخلاف بينهما، أتعجب من نفسى، فما يجمعهما قليل نادر، وما يباعد بينهما كثير فادح، لكنى كنت أدرك فى النهاية أن لديهما الجوهر ذاته، وإن كان قد تموّه واختفى بالخارجيات الشكلانيات، وكنت أدرك أن هذا الجوهر هو الذى جذبنى إليهما، وعلقنى بهما تعلّق النجوم بالسماوات، فالرجلان بداخلهما ما يسمو على هذى الحياة، فهما فيها وليسا فيها، وهما العائفان كل ظاهر بارق، المهمومان بكل ما هو داخل باطن، بل والمدركان لعبث الدنيا ولهو الوجود، فلا يهتمان لعبوسه أو يغتران بسطوة عروشه، وهما فى بعض من هيئات الزمن الشاغلة، فهذا فى بيعة وكنيسة، وهذا فى قصر الخليفة، لكن لا هذا ولا ذاك يتكالب أو يصطرع على ما يتكالب ويصطرع عليه العاملون فى مثل هذى الهيئات.

كان معاشنا ومبيتنا نحن الفحامين والوقادين فى خزانة الحطب والفحم، وكان عملنا أمام بيوت النار والمواقد لا ينقطع؛ لأن العمل بالمطعم لا يتوقف أثناء النهار أو الليل، وإعداد الطعوم العذبة، والمالحة، والدسمة، والحلوة، والحامضة، والمرة، والقابضة، والحريفة – لا يتوقف أبداً، وكان جل العاملين فى الوقايد، إما من

الأسرى الذين لا رجاء فيهم ببيع أو متعة مثلى، أو من أولئك الذين حُكم عليهم لأمر من الأمور لأزمنة طويلة، فكان العمل فى الوقايد هو قضاء لعقوبتهم، ويستفاد به للصرف على قوتهم بتشغيل طاقة جسومهم.

أما الحسين بن فالح فقد ساقه قدره للعمل فى الوقايد، فهو لم يكن أسيراً، ولا مذنباً مثل الباقين، لكنه نشأ وتربى فى مطبخ الخليفة، ولم يكن يعرف له فى الدنيا بيتاً أو وطنا غيره، فلقد تربّى وعاش جل عمره فى هذا الموضع، ويقال إنه لم يعرف له أباً أبداً، جاءت أمه نازحة من بلدتها البعيدة إلى مدينة الخلافة ومعها الحسين طفلاً رضيعاً، ثم ظلت تقتات زمناً من بيع خبز التنور فى أسواق المدينة، فاشتهرت بصنعته وإجادتها له، حتى لقبت بين العوام بست التنور، فلما ذاع صيتها جلبوها للعمل فى مطبخ الخليفة، وقيل إن والد الخليفة الحالى صار لا يأكل خبزاً إلا من عمل يديها، وإنها كانت تصنع له كل يوم ما يزيد عن مدين من القمح وهو يعدّ من الشيء الكثير.

وهكذا تربى الحسين طفلاً يجرى ويلعب بين أقدام الطباخين، والوقادين، وكافة العاملين فى المطبخ من خدم وعبيد، وظل هانئ العيش حتى وافى الأجل أمه ذات يوم فتيتم بعد أن ماتت بعلّة الفواق، وكانت هذه العلة قد استشرت وتمادت تمادياً كبيراً فى الناس خلال سنة من السنين، وراح ضحيتها خلق كثير لا يحصى عددهم، فلما راحت، أشفق الناس ممن يعملون فى المطبخ عليه واستبقوه بينهم، وصيروه وكأنه واحد من عيالهم، فتعهدوه بالرعاية والربابة حتى شبّ، فعمل فى الوقايد من يومه، وقد كان مولعاً لأمر لا يعرفه أحد بالنظر إلى النار واللعب بها، ثم إنه حذق فى هذا الكار، حتى صار المعلم الأكبر المختص فيه، وكنت أتعجب فى بداية الأمر من نعت الحسين بالمعلم، وأظن أن ذلك ضرب من ضروب التهويل والمبالغة، لكنى، وبمرور الوقت، بعد أن خبرت عمل وقايد الطبخ، أدركت أنه يحتاج إلى مهارة، وشطارة، وحس، وذوق، وعلوّ فى موهبة التمييز، والتقدير، والموايمة، والتخمين، وذلك فى اختبار درجة النار، وشدة اللهب، ومناسبتها لكل نوع من أنواع المأكول والمطبوخ، فالساذج منها قد يفسد نوعاً من الطبيخ وقد

يحسن غيره، فما يناسب الخشكنانج المصنوع من دقيق السميذ والسكر واللوز المقشر المطحون، المبثوث بالكافور وماء الورد قد لا يناسب الأسفيذباجة الخضراء، وما يستلزم السفدية قد لا ينفع الفالوذج، وكان تنوع الطعوم وتعددها يحتاج إلى تنبه وتيقظ بالغين من العامل فى الوقايد، فكل يوم كان يرد للطهى أصناف غير التى كانت فى اليوم الذى قبله، وقد حدث أن عددت عدد القدور الكبار التى حوت السكباجات، والحنطيات، والسلاقات فكانت أكثر من عشرين قدراً من الفخار عدا المتوسطة، وعدا قدور النحاس، وقلايات الطباهج، وكان أن أنضجنا يومها أهلاماً من لحوم البقر وإجبارية سمك، ومأمونية، وجواذب الدجاج المعمولة من الأرز والخبز تارة، ومن السكر والأرز واللحم تارة أخرى، ومن الحلو مخ معمول بالسكر المعقود والعسل، وبهطة أرز ولبن وسمن وعسل، إضافة إلى صنوف من الخبز كالخبز الإفرنجي المسمى أفلاعمونى، والخبز الفرنى المرقد، وخبز القناوى، والخبز الماوى، والخبز المجمر. وكنت أجدنى بمرور الوقت مشدوداً إلى الحسين بن فالح، على رغم أننى عند بداية عملى معه توجّست منه، ولم أقبل عليه، فقد كان غشوماً عنيفاً لا يفتأ يأمر وينهى ويزجر، على نحو به خشونة وفظاظة، حتى إننى عندما عاد فى مساء يوم استقبال رسول الروم، وحكى لنا نحن الوقادين ما رآه أثناء مروره حاملاً المجمرة ضمن الموكب، لم أنبسْ ببنت شفة، وآثرت السكوت، والتلذذ بأطايب الطعام الذى قدّموه لنا من بقايا الوليمة العظيمة والسماط المهول الذى مدّ لرسول الروم، ولقد حكى الحسين وقتها عمّا لا يمكن أن يصدّق ولا يدرك بعقل عن موكب هذا الرسول، وما بذل فى سبيله بالقصر؛ لإظهار عظمة خليفة المسلمين ومدى قوّته وجبروته، فقال: إن الخليفة رسم أن يطاف بمبعوثى ملك الروم، وكانا شيخاً وشاباً، فى جميع أنحاء القصر بعد إخراج العسكر جميعاً منه، ولم يبقَ فيه إلا الخدم والحجاب والغلمان السودان، وعددهم سبعة آلاف خادم، منهم أربعة آلاف من البيض وثلاثة آلاف من السود، أما الحجّاب فزادوا عن السبع مئة حاجب.

وفُتحت الخزائن للموفدين، والآلات فيها مرتبة، كما يُفْعَل لخزائن العرائس، وقد علّقت الستور، ونظم جوهر الخلافة فى قلايات على درج قد غشيت بالديباج الأسود.

فلما دخل الرسول إلى دار الشجرة ورآها، كثر تعجّبه فيها، وكانتِ شجرة من الفضة وزنها قد يزيد على خمس مئة ألف درهم، عليها أطيار مصنوعة من الفضة، تصفر بحركات قد جعلت لها، فكان تعجب الرسول من ذلك أكثر من تعجبه من جميع ما شاهده.

وكانت الستور الديباج الموشاة بالطرز المُذهبة الجليلة المصورة بالجامات، والفيلة، والخيل، والجمال، والسباع، والطرد، والستور الكبار الصنعانية، والأرمنية، والبهنسية، السواذج، والمنقوشة، والدبيقية المطرزة تبلغ الآلاف من حيث العدد. وكذا كانت البسط والنخاخ الجهرمية، والدار بجردية، والدورقية في الممرات والصحون التي وطأ عليها القواد، ورسل صاحب الروم، سوي ما في المقاصير من الأنماط : الطبرى والدبيقى التى لحقها النظر دون الدوس.

ورغم أننى أثناء ذلك كنت ما أزال متحفظاً تجاه الحسين بن فالح، إلا أننى شعرت بتباسطه وتلاطفه مع صبيانه ومن هم أدنى منه فى عمل الوقايد، ولم يكن يغضب منهم حتى حين نعته أحدهم بالمبالغة والكذب، بينما كان يروى انبهار رسولى ملك الروم بكل ما شاهداه خصوصاً لما أدخلا إلى الدار المسماة بخان الخيل، وهى دار، كما قال، أكثرها أروقة بأساطين رخام، وبها من الجانب الأيمن خمسمائة فرس، عليها خمسمائة مركب، ذهباً وفضة بغير أغشية، ومن الجانب الأيسر خمسمائة فرس، على كل منها جلال من الديباج بالبراقع الطوال، وكل فرس فى يد شاكرى بالبزّة الجميلة، ثم أدخلوا من هذه الدار إلى الممرات والدهاليز المتصلة بحير الوحش، وكان فى هذه الدار من أصناف الوحش التى أخرجت إليها من الحير قطعان – كما قال – تقترب من الناس وتتشممهم وتأكل من أيديهم.

ثم أخرجوا إلى دارٍ فيها مئة أسد: خمسون يمنة، وخمسون يُسرة، كل سبع منها فى يد سبَاع، وفى رءوسها وأعناقها السلاسل والحديد.

وبملازمتى للحسين الوقت الكثير خلال عملى معه فى نوبات الليل، وجدتنى أنجذب إليه شيئاً فشيئاً، ولم أكن قد افتهمت لماذا يبقى عاملاً ساهراً طوال ذلك

الوقت وهو الريس المعلم الذى يعمل الجميع تحت إمرته، ولا تدخل فحمة أو حطبة إلى بيت النار إلا بإذنه، لكننى بعد حين أدركت أن الخليفة يسهر عادة أثناء الليل حيث تجلب له المغنيات والقيان ويتنادم معه الأفاضل من أهل العلم والسمّار، وأصحاب المغانى من العبيد والجوارى الحسان، وخلال ذلك تقدم له أطايب الأطعمة وكل مفتخر من الأشربة، وما نحو ذلك من النوادر المجلوبة من كل صقع من أصقاع الخلافة، لذلك يبقى الحسين ساهرا على ما تحتاجه سفرة الخلافة وصاحبها من مطالب ومآكل تحتاج الحرارة والإنضاج.

وفى ذات مرة، وبينما نحن جالسان أمام الوقايد بمفردينا، الحسين وأنا، إذ كان أقرانى من تبعيته قد خلدوا إلى النوم، وإذ بالرجل الذى كنت أظنه غليظ القلب، يشرع فى الدندنة والغناء بصوت حساس شجى، ووجدت من أظنه خشناً غشوماً يرق ويلين وهو يذهب بالغناء من مذهب إلى مذهب، بسلاسة وطلاوة، وكأنه طارب قدير، فلما وصل بغنائه إلى الحدّ الذى قال فيه :

ألا رُبَّ هَمٍّ يمْنعُ النوم دونَهُ   أقام كقبضِ الرَّاحتيْنِ على الجمر

بسطتُ له وجهى لأكبتَ حاسداً   وأبديتُ عن نابٍ ضحوكٍ وعن ثغرِ

وشوقٌ كأطراف الأسنَّةِ فى الحَشَا   ملكتُ عليه طاعةَ الدّمعِ أنْ يجرى

وجدتنى لا أتمالك نفسى وقد هزتنى الكلمات وأسكرتنى النغمات، وحلّقت بى المعانى، فتركت لروحى العنان ورحت أبكى وأنتحب حتى أخرجت ما حبسته فى قيعان نفسى من ألم ومرار، وقد أصبحت دون القدرة على ضبط النفس والاصطبار.

فلما وجدنى الحسين باكياً ترك ما بيده، وكان يراقب عكيكة قد اشتهاها الخليفة وطلبها خصيصاً فى هذه الليلة، ثم إنه التفت إلى وبدا مدهوشاً وقد فاجأه نحيبى، وسرعان ما تحرك نحوى وراح يربت على كتفى وكأنه يفكر فى أمر من الأمور، ثم أبرز من جيبه لفيفة صغيرة، أخرج منها كريّة ذات لون أخضر مكتوم، طلب منى ابتلاعها، فلما تراجعت متسائلاً عن كنهها، وقد تمنعت ورفضت تذوق ما لم أعرفه وأخبره، قال بجد :

– ابتلعها ولا تخف، فإنها سوف تعينك وتريحك كثيراً مما أنت فيه، إنها حشيشة الفقراء يابنى، وما أدراك ما حشيشة الفقراء، ألم تسمع من قال فيها:

دع الخمرَ واشربْ من مُدامة حيدرِ معتّقة خضــــراء لون الزبرجــدِ

هى البكرُ لم تُنكحْ بماء سحابــةٍ ولا عُصِرَتْ بالرِّجل يوماً ولا اليـدِ

ولا عبثَ القسيس يوماً بكأسهــا ولا قرَّبوا من دنّها نفسُ ملحــدِ

ولا أثبت النّعمان تنجيسَ عينِــها فخُــذْها بحــدِّ مشرفىِّ مُهـنَّد

وفيها معانٍ ليس للخمــر مثلهـا فلا تستمعْ فيهــا كلامُ المُفــنَّدِ

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهــلاً ويأتيــك بالأخــبار من لم يــزوَّدِ

فلما سمعت ما قال، وكنت لم أفتهم إلا بعضه لقصور عربيتى حتى ذلك الوقت، زاد ترددى، لكنه ثبت عينيه، فى إصرار بعينىّ، وكنت ما أزال قانطاً وروحى فاقدة لكل همة وفى أسفل سافلين، فمددت يدى إلى ما قدمه لى الحسين، وقد تمنيت أن يكون سماً يفنينى ويأتى علىّ، فأموت وأستريح من عذابات هذى الدنيا، ثم إنى ابتلعت الكريّة واستعنت على ذلك بشربة ماء حار كما أمرنى، بينما هو ينظر إلى متأملاً إياى، فما لبثت إلا قليلاً، حتى وجدت روحى قد هدأت، وشعورى قد راق وشفّ، وشملنى صفاء برواق، بينما لهيب الجمرات تشتد حمارته، وتستحسن عينى منظره وحلاوته، فلما رآنى الحسين على هذى الحال، ضحك وراح يربّت علىّ، ثم أخذ يغنى مرة أخرى، ويقول:

وخضراءُ بل لا تفعل الخمر فعلها لها وثَبَــاتٌ فى الحَشَا وثبـاتُ

تؤجج ناراً فى الحشَــا وهى جنّـة وتُبدىِ لذيذَ العيشِ وهى نبــات

قاطعته وأنا أقول بهدوء :

– فليسامحنى الرب، ولتغفر لى ثورتى يا معلمى، فأنا تنتابنى أحوال من صميم اليأس حيناً، فلا أدرى لماذا يتوجب على مواصلة الحياة، وأن أتحمل مزيداً

من الألم والكرب. ثم إننى فضفضت بكلام كثير نحو هذا، وكأننى أرغب فى البوح بكل هواجسى لأستريح.

ظلّ الحسين مطرقاً إلى الأرض، مستمعاً إلى كلماتى حتى أفرغت كل ما بداخلى وأنا أحكى له قصتى، وكل ما عانيته، فلما انتهيت وكان هناك شىء أشبه بالخدر يسرى فى أعطافى، فتنحل معه وتسترخى أوصالى شيئاً فشيئاً، رفع رأسه، وقال:

– اسمع يا ولد. أنت فى حاجة للتسرية والتلهى، يجب أن تتلهى بشىء، فلو ظللت على هذى الحال فلسوف تطق وتموت بالفعل.

ازدرد ريقه، بينما التمعت عيناه وابتسم ابتسامة ماكرة، قبل أن يضيف:

– هل تعرف النساء ؟ سآخذك إلى بيت الخنا. هناك لا بد وأنك سوف تستريح.

قلت متسائلاً بدهشة:

– وما بيت الخنا هذا يا سيدى؟

ضحك بشدّة، فتحركت تفاحة آدم المتضخمة أسفل رقبته بسرعة، وكأننى قلت ما يضحك، وردّ:

– منزل هو كسلّة الفاكهة المشتهاة، تقلب فيها حتى تختار ما تشتاق إليه من صنوف النساء حسب ميلك ورغبتك، فيه البيضاء، والصفراء، والسوداء، والحمراء، فتقضى حاجتك وتطفئ شهوتك حتى تستريح نفسك ويضيع قلقك وتوترك.

– تملكتنى سورة غضب شديدة، رغم ما أنا فيه من خدر وضعف، حتى إننى نسيت أنه معلمى فى الوقايد، فقلت بغضب:

– ملعون أبو الشيطان، ماذا تظننى؟ ألم أقل لك إننى كنت قيماً فى كنيسة قصر الشمع بمصر العتيقة؟! أتظن أننى واصل إلى هذا الحضيض؟ ثم إننى لم أتمالك نفسى وقد داخلنى شعور بالضياع، فرحت أبكى من جديد.

أسقط فى يد الرجل وشعرت أنه ازداد إشفاقاً على حالى، ووجدته يهمس بحنو:

- والله إنك لحنبلى أشد من ابن حنبل نفسه. اسمع أيها الولد الطيب، لماذا لا تتعلم قراءة وكتابة اللغة العربية؟ هذا شيء مناسب تتلهى به، ويحسّن كلامك الركيك، ونطقك الملكون بالقبطية، وحتى تكف عن قول إديّنى، وديّنى، البتاع، البتوع. راح يضحك مرة أخرى، وهو يقلّدنى عندما أتكلم، بينما أخذتنى الفكرة فتوقفت عن البكاء، وبدأت أفكر فيما يقول. صمتّ قليلاً وتساءلت :

- ولماذا أتعلم العربية بالله عليك وأنا قبطى؟ أنا أستطيع التفاهم بها الآن، ولا توجد لدى مشكلة فى الكلام مع كل من حولى هنا، والكل يفهم ما أقول وأنا أفهم ما يقولونه.

رد الحسين وهو ينظرنى متأم :

- لا أعرف. أنا أحاول إيجاد سبيل يخرجك مما أنت فيه؛ ولتنشغل نفسك عمّا بنفسك من هموم وآلام، قد أستطيع أن أعلمك شيئاً يسيراً كل ليلة، أثناء فترات صبورنا على النار والوقايد حتى تنضج وتستعر.

ثم إنه تحرك مسرعاً وأخرج العكيكة من الفرن، فتعجبت من منظرها، ولم أكن قد شاهدت طعاماً مثل هذا من قبل، فلما رآنى أحدّق فيها مليّا وقد ظهرت دهشتى، خصوصاً عندما جاء خادم وأخذها إلى المطبخ كى يهيئها فى الصحاف، قال :

- لا تدهش، فكل يوم يمرّ سوف ترى فيه عجبا، فهم يطبخون للخليفة من أطايب كل مطابخ الأرض، والعكيكة هذه من الطبخات النادرة التى لا تطبخ إلا هنا، ولا يعرفها حتى كثير من الخواص، وليس العوام فقط، وصنعتها كما شاهدتهم يصنعونها ذات مرة فى المطبخ، أن تؤخذ الإلية الطرية، ثم تقطع وتسلى ويخرج حمّها، ثم يؤخذ اللحم السمين، يقطع صغاراً ويلقى على الإلية المسلية ويحرك حتى يتورد، ثم يجعل عليه غمرة ماء ويسير ملح، ويترك حتى ينضج وينشف، ولا يبقى من مائيته سوى الدهن، وتلقى عليه كسفرة يابسة، وكمون مدقوقين دقًّا ناعماً ودار صينى، وفلفل مسحوق، ومصطكى، ويحرّك، ثم يؤخذ

من اللبن الفارسى بقدر الحاجة فيجعل فيه الثوم المدقوق، ويطرح فى القدر، ويترك حتى يغلى، ثم تقطع النار من تحت القدر مثلما فعلتِ منذ قليل وتترك على نار هادئة حتى ينعقد اللبن ويقذف دهينه أعلاه، ثم يذرّ يسير من دار صينى مسحوق ناعماً، وتمسح جوانب القدر بخرقة نظيفة وترفع.

ثم إنه راح يدندن من جديد حتى غلبه النعاس، فانقلب على ظهره ونام فى موضعه على الأرض، بينما بقيت ساهراً أفكر فى كل ما قال وأنا أحدق فى الجمرات ولهيبها المتراقص أمامى.

صارت معرفتى بالحسين بن فالح تتوثق شيئاً فشيئاً، فكلما مرت الأيام توغلت فى دروب نفسه، وكشفت له عن آبار روحى. كان قد أخذ بتعليمى العربية، و كنت قد تعلمت منها شيئاً على يد عزيز عينى ثاونا فى بر مصر قبل ذلك، وقد حمدت الله كثيراً، لأن ما أدركته منها أعاننى على محنتى التى عشتها بأنطاكية، وكانت العبارات التى ألممت بها هى معينى وسبيلى فى تفهم الذين التقيتهم هناك.

غير أن الحسين بن فالح المراغى هو الذى جعلنى أتقدم وأحرز أشواطاً فى تعلم العربية، فقد ظل صبوراً علىّ مثابراً منذ البداية، بينما كان يعلمنى رسم الحروف بخط موزون جميل، وهو الذى أتانى بدواة وحبر كان يضعه فيها بعد أن يصنعه بنفسه من سناج الفحم المتبقى بالوقايد بعد خلطه بالصمغ الحضرموتى الجيد، وكنا نسهر سوياً كل ليلة، نتسامر ونتحادث حينا، ثم يعلمنى شيئاً ونحن نتعاطى حشيشة الكيف، وهكذا صرت أتقدم شيئاً فشيئاً، وأدخل عالم الحسين بن فالح الذى بهرنى، وصيرنى كالمسحور الصاعد على درج لا نهاية له، كلما صعد درجة، وجد نفسه مسحوباً رغماً عنه إلى الدرجة التالية، وقد بات يكشف لى بين الحين والحين عن وجه من وجوه نفسه العديدة التى لا تستبين وتتموه فى ذلك القناع الجاف المرتسم على قسماته وسلوكه الخشن الظاهر لكل من يعمل معه.

كنت مع مرور الأيام، أدرك أن بداخل معلمى تمرمر مزمنٍ يفسد عليه أية سعادة يرومها، وأى سرور يكون عليه، كان بين الحين والحين يسرّب لى بعضاً

من عذاباته بسبب عدم وقوفه على حقيقة أبيه، وبدا لى أنه لم يغفر لأمه أبداً، ليس بسبب ذلك، وإنما لموتها المبكر، وقد غدر به وتركه وحيداً فى هذه الدنيا، فكم تمنى أن تظل إلى جانبه لا تذهب، حتى ولو أتت له بألف شقيق، أو شقيقة من طريق الإثم والحرام، وكان حلم الحسين أن يتمكن ذات يوم من العثور على أبيه، والخروج من بغداد إلى موطنه الأصلى بمراغة باحثاً عن ذلك الأب المجهول ليطفئ نار عذاباته، لكن الحسين لم يكن يخرج من القصر – فى الحقيقة – إلا ليزور بيت الخنا فى بغداد، فيترك نفسه للقيان من كل لون وجنس، يعود بعدها وقد هدأت روحه وسكنت نفسه، ولكن إلى حين، وفى مرة من المرات، وكنا قد بلغنا حالة من الصفاء، سألت الحسين لماذا لا يتزوج بواحدة ويكف عن التقلب بين مثل ذلك الطراز من النساء، كان السؤال قد خرج منى عفوا، ودون ترتيب أو تدبير سابق، فكان أن داخلنى حرج وصرت كمن يرغب فى التراجع عنه، إذ شعرت أننى قد جاوزت حدّى، وأننى أدسّ أنفى فيما لا يخصنى، غير أن الحسين أراحنى بجوابه وأوقعنى فى معضلة روحية جديدة معه، فبينما أنا أحبه وأجلّه كثيراً فى بعض الأمور، إلا أننى لا أستطيع تجاهل معايبه والجانب المعتم الغامض من روحه، والأقرب إلى الوثنية أو الوحشية الأولى التى ظلت على حالها دون سموها إلى الإنسى السامى، فقد ضحك الحسين طويلا، وكأنى سألته ما يضحك، فلما انتهى كح وقال بجد:

– أتزوج؟ أنا لا أريد أن أتزوج أبداً يا بدير، فالحقيقة أن بى شيئاً يجعلنى أرغب فى كل نساء الأرض، لا واحدة، ولا اثنتين، أو ثلاث، أو أربع يكفيننى. أحيانا أقول لنفسى، إنما ذلك بسبب أمى، ربما كنت أحاول القصاص منها فى سرمحتى الدائمة مع النساء، ومرات أخرى أقول إنما أنا أبحث عن امرأة على شاكلتها ولا أجدها أبداً، لا أدرى.. لكنى على ما أظن لن أتزوج أبداً مهما طالت أيامى فى هذه الدنيا.

بدا لى الحسين، وهو يقول ذلك، وكأنه زنديق كافر، أو إنسان يتراوح دوماً بين الإيمان والكفر، أو الرذيلة والطهر، رحت أحدّ ق بعينيه علّى أجد ما يشفى غليلى ويرسينى على حقيقة أمره، غير أنه فاجأنى بسؤال صدمنى، إذ قال :

– وأنت ؟ لماذا لا تتزوج ياشاطر وتكفَّ عن نسيان آمونة وسويلا؟ والله لو أخذتك مرة معى إلى بيت الخنا، فلسوف تدمن الأمر إدمانك لحشيشة الفقراء الآن، ثم أليس لك مثل ما للرجال؟ أليس بك حاجة للنساء، أم أنك عنين بالميلاد، ولا رجاء فيك بهذا الأمر؟

غضبت منه للغاية، وقلت له: إن هذا ما لا يجوز من الكلام معى، فأنا لا أرغب الخوض فى مثل ذلك. وندمت أشد الندم على سؤالى الذى أتاح له هتك ستر الحدود بينى وبينه، فلما وقف على تكدرى وضيقى، ربّت على كتفى واعتذر بكلمات تطيّب خاطرى، وقال: هيا أعلمك شيئاً جديداً هذه الليلة. كنت فى الحقيقة أخاف أن أكاشف روحى بسؤاله، قبل أن أواجه بإجابة ما، فلقد كنت وما زلت أتعذب برغبتى فى النساء، فرغم كل ما حدث، ورغم مراراتى، وتجاريب الأيام الصعبة معهن، ولوعتى على آمونة وسويلا، وقسمى لنفسى أن لا يكون لى أمر مع أية امرأة فى الدنيا بعد ذلك أبداً، إلا أن رغبتى بهن كانت تداهمنى بين وقت وآخر، كنت ألاقى آمونة وسويلا فى أحلامى مرات، فيحدث لى ما يحدث للرجال، فأفيق وقد أدركت أن الشيطان أغوانى وورطنى فى النجاسات، فأنقبض وأظل مهموماً طيلة يومى، حتى يكون وقت المساء فأنغمس فى عملى، إلى أن يدركنى الحسين بحشيشة تنسينى ما كنت عليه، والحق يقال إننى قد بدأت أتعود على هذه الآفة أتعذب حيناً لعدم وقوفى على محروميتها، وبت لا أحيد عنها لأنها تريحنى وتدخلنى فى جنات تتهيأ لى وكأنها جنات عدن، وكأنى أراها رؤية العين وألمسها لمس اليد، بل وأشمها وأتذوق ما فيها، فألبث على هذى الحال ساعات من الوقت، أرفل فى الرضا والسعادة حتى أفيق.

كانت الكتابة قد أزالت عن عينى غشاوات كثيرة، فبدأت أتدبر أحوال الدنيا، ضمن تدبرى لأحوالى، بل وكان ذلك سبباً فى زيادة طلبتى للأسئلة، لمعرفة أحوال الخلق والعالم، ولا أدرى، كيف كان يتم ذلك ؟ فالحسين بن فالح كان يدفع بى من سؤال إلى سؤال، وكان تعليمه لى باباً فتحته لألج منه إلى أبواب أخرى، أدركت من خلالها أموراً عدة، بما فى ذلك أمور الحسين نفسه، فلقد كنت

أظن أن الحسين يبتعد عن القصر حيناً، ليزور بيوت الخنا، أو للوقوف على أخبار أبيه والبحث عنه مع الذين كانوا قد أدركوا أمه وقت اشتغالها بالأسواق، لكنني تفطنت إلى أن الرجل كانت له شؤون أخرى بالمدينة، فهو ينتمي إلى جماعة من الناس تهدف، كما يقول، إلى إقامة العدل على الأرض. لم أكن أعرف شيئاً عن هذه الجماعة، لكن الحسين كان يحادثني طويلاً عن أحوال الناس فى مدينة الخلافة، وعن آلاف الجوعى الذين لا يجدون قوت يومهم، بينما هنا فى القصر تبذل الأطعمة والمآكل على قلة من حشم وخدم وجوارى الخليفة، الغارق فى ملذاته، والعائش عيشة أكاسرة العجم زمن الوثنية، وكان يقول لى: إن الإسلام دين عدل ومساواة بين البشر، فلا السواد، ولا البياض، ولا الغنى ولا الفقر، ولا الجنس أو الأصل، هى أسباب للتفريق بين البشر، وباعث لتسلط بعضهم على البعض الآخر، وكان يحكى لى كثيراً عن نبى المسلمين محمد وعن الإمام على ابن عمه، وكيف كانا ورعان عادلان، أقاما الإنصاف بين الناس، ولم يكن هناك معيار للتمييز لديهما غير تقوى الله والورع والصلاح، وكنت عندما أخلد إلى نفسى قبل النوم، أو عندما أنصرف وحدى لأمر من أمور الوقايد، أفكر فى كل ذلك، وأعقد بينه وبين ما فى دينى من أمور وصفات تتشابه وتختلف مع ما فى الإسلام من معان ودلالات، وكنت أتوصل فى النهاية، إلى أن الرب، هو رب كل البشر، أجمعين، وأن جوهر كل ديانة ما هو إلا هداية البشر، ودفعهم إلى طريق السلام والطمأنينة، وصعود بمداركهم الوحشية إلى مراتب إنسية سامية، ثم إن الحسين ارتأى ضرورة تعليمى القرآن حتى أتمكن من العربية، وأقبض على ناصيتها بثقة ورسوخ، فأخذ يحفظنى بعضا من آياته، بعد أن أعلمنى أنه مسموح لغير المسلمين من الملل الأخرى بقراءته والاطلاع عليه شرط أن يكونوا طاهرين بعيدين عن كل دنس ووسخ، وهكذا بدأت الدخول إلى جنة الفرقان، وقد وجدت فى آياته ومعانيها سلامة وعبرة، وبدأ قلبى ينفتح للإسلام شيئاً فشيئا حتى بدأت أرغب فى الإسلام، والحق يقال، فلقد ظللت متردداً متشككاً وقتاً، بل وبقيت روحى معذبة حائرة بينما كنت أسأل نفسى الأسئلة وأتمثل أمامى عزيز عينى ثاونا وهو يجيبنى عليها، وكثيراً ما قلت لنفسى، لو كان ثاونا مكانى فإنه لا بد أن

يؤمن بما آمنت به، ويدخل فى دين الإسلام مثلما أرغب وأريد، ثم إننى عندما كنت جالساً وحدى أمام الوقايد فى نهاية ليلة من الليالى أفكر محدقاً فى النار، تذكرت ما قاله لى ثاونا ذات يوم، من أنه قرأ فى إنجيل قديم جداً عندما كان فى دير بصحراء القلزم - وهو من الأناجيل المرفوضة فى الكنيسة الآن - أن السيد المسيح ذكر لتلاميذه أن ابن الموعد هو إسماعيل، وأنه جاء ليمهد الطريق أمام المسيا المنتظر، بل وأكد أنه ليس أهلا لأن يحل سيور حذائه وأن هذا المسيا هو محمد نبى المسلمين، ومن علامات ظهوره سقوط عبادة الأصنام، واستقرار غمامة بيضاء عليه عند ارتحاله من موضع إلى موضع، وأن الكنيسة رفضت هذا الإنجيل، المسمى إنجيل برنابا، والمحتوى على رسالة برنابا هذا، وعلى جزء من كلام راعى هرمس، إضافة إلى ما تحويه الأناجيل الصحيحة الأخرى.

كانت أفكارى قد تبلبلت وقد تذكرت كلام ثاونا هذا، وبقيت وقتاً جامداً أفكر فى معنى كل ذلك الكلام، وبينما أنا جالس على هذى الحال، إذ شعرت وكأن يداً قد لمست كتفى لمساً حانياً خفيفاً، فالتفت لأرى مَنْ ورائى، إذ كنت مدركاً أن كل من حولى نائم وحتى معلمى الحسين بن فالح، فتعجبت إذ لم أر أحداً واقفاً خلفى، وإذ استدرت لأرى، سمعت همس ثاونا قوياً واضحاً فى أذنى : لماذا أنت خائف بالله عليك. افعلها وتوكل على الله.

لا أدرى هل كان ذلك هو الوقت الفاصل الذى أعلنت لنفسى فيه دخولى دين الإسلام، أم أن الأحداث المتواترة بعد ذلك هى التى دفعتنى دفعاً إلى ذلك. إن اللحظات الفاصلة فى الحياة هى أصعب اللحظات وأبعدها عن اليقين، فهى ومضات يغلب فيها الجوهر على المظهر، وتتخالط فيها الثوابت الساكنات مع المستجدات المتغيرات، وتضيع فيها الإجابات مع الأسئلة: متى؟ وكيف؟ ولم حدث هذا؟ إنها البرزخ الفاصل الواصل بين ما كنت وأصبحت، وقد اكتملت ليلتى بما لم أكن أفكر فيه أو أنتويه، إنما هو قدر قُدِّر لى، وطريق لم أملك إلا السلوك فيه.

بعد ذلك بقليل غفوت وقد قرّ عزمي على أن أُنبئ الحسين بن فالح برغبتي في إشهار إسلامي عندما أفيق، وكنا قد تعاطينا حشيشة الفقراء معاً قبل أن ينام، ولا أدري كم من الزمن نمت، أو كيف مر الوقت وأنا نائم، فقد أفقت مذعوراً بينما الحسين يهزني بعنف، وأصوات الديكة بحظائر القصر تخترق مسامعي، وهو يقول لي:

- بدير.. فزّ بسرعة، إنهم يطلبون مجمرة جديدة للخليفة؛ لأن ما لديه في مجلسه من نار قد صفا وانطفأ وقارب على الانتهاء.

- قمت مهرولاً بسرعة، أحضرت المجمرة، ورحت أضع الجمرات فيها بكماشة النار النحاسية، التي هي على هيئة فك أسد، وبينما كنت أوشك على الانتهاء من ذلك وأهم بارتداء نعلي للذهاب، جاءني صوته حازماً آمراً :

- تهيأ ولا تتهيب.

لم أع المقصود بعبارته، إذ كنت ما أزال بين النوم والصحو، لكني سارعت الخطى وراء الحارس الذي جاءنا طالباً النار، والمجمرة في يدي أحملها بكل احتراس وتنبه، ورحت خلفه أجتاز دهليزاً إثر دهليز مهتدياً بنور الشعلة التي يحملها، ثم إني هبطت أفنية وفسحات وصعدت سلالم خلفه، حتى وصلنا أخيراً إلى موضع عليه باب مهيب التمعت فضته وذهبه على ضوء شعلة الحارس، بينما وقف ديدبانان لم يسمحا لنا بالاقتراب من ذلك الباب، بل راح أحدهما يطرقه طرقات حيية، وتراجع خطوات إلى الخلف مشيراً إليّ أن أتقدم، وبينما هممت بالخطو، إذ بالباب ينفتح لتنبعث من ورائه أصوات غناء وطرب، بينما شادية يتصاعد صوتها سحراً ودلالا وهي تنشد:

يا ليلُ دُمْ لي لا أريدُ صباحــاً   حسبي بوجه معانقي مصباحاً

حسبي به بدراً وحسبي ريقــه   خمراً وحسبي خده تفاحـــــاً

وماهي إلا ومضة زمان، حتى استبانت عن الفتحة الموارية للباب جارية لم أر أحسن منها منظراً وقد امتثلت أمامي، ولا شيء عليها غير غلالة رقيقة مقصّبة وقدّمت كوزاً من لجين ما كان إلا يدها لتتناول المجمرة مني.

لن أدرك أبداً، مهما مرّت بى الأيام، هل كنت أعيش الحقيقة خلال ذلك الوقت، أم أننى كنت فى فردوس ونعيم؟ هل كانت حشيشة الفقراء هى التى هيأت لى ما تهيأ، أم أنها كانت الحقيقة متجلية عياناً لكل من رأى وشاف ؟ فصورة الجارية بدت لى على نحو نورانى لا يمكن أن يكون جسدانيًا، خصوصاً وأنها بدت لى خلال وهلة من الزمن وكأننى رأيتها قبل ذلك، وقفت متسمراً هنيهات، أشحذ ذهنى غير مصدق، وفجأة تذكرت منامى الذى كنت قد رأيته ذات مرة وأنا على الحراقة فى البحر وقت إبعادى عن بر مصر، فلم أتمالك نفسى وكاد أن يغمى على، إذ أدركت أن هذى الجارية ما هى إلا الفتاة التى كانت تدفعنى فى الماء إلى البر وأنا لا أعرفها، فها هو حالك الليل المنهمر شلالاً حتى الردفين على بياض جسدها الظاهر عبر الغلالة اللطيفة، وها هو المبسم الياقوتى ينفرج عن السن الوضاء الذى رأيته فى منامى.. أما العينان فكانتا النار التى أحرقت حسّى عندما رأيتهما تلتمعان بغزير الخضار بينما هى تنظر إلى، فشعرت بدوران الأرض تحتى بينما راح بركان يثور بدمى، ورياح تعصف بصدرى، وبدلاً من سقوطى على الأرض بما أحمل فى يدى، وقد شملتنى زلزلة جوّانية عنيفة، وقد رأيت نهديها وأوشكت على ملامستهما والقبض عليهما لأهصرهما بيدى، وجدتنى ودون أن أدرى أمد راحتى ببطء إلى جمرات النار المشتعلة، وقد تسمرت بمطرحى، وتجمّد ناظرى على البدر النورانى المشعشع أمامى، ثم رحت أحفن هذه الجمرات وأقبض عليها بقوة وعنف، وقد توقّدت بداخلى واشتعلت جمرات من نار أقوى وأشد، وصرت كمن مسّه مسّ من شيطان أو جان، فلم أشعر بأدنى حرقة أو ألم، ولم تندّ عنى آهة أو صرخة، وكأن ما حفنته وقبضته لم يكن إلا قبض ريح أو زلال ماء.

نظرت إلىّ الجارية مذهولة - وكذا كل من كانوا حولى - ما أن رأوا يدى قابضة على الجمر، وقد بدأت راحتى فى الاحتراق والتهرؤ، فما لبثت الفتاة قليلاً إلا وصرخت صرخة عظيمة وكأن الصيحة قد أدركتها، لتسقط على إثرها مغشية عليها أمام الجميع.

لا أدرى كم من الوقت مرّ على وأنا على هذه الحال، كل ما وعيته بعد ذلك هو أن رجلاً ظهر فى جمع حوله، وعليه طيلسان مذهب، ما أن رآه الديدبانان والحارس، حتى خروا ساجدين جميعاً، فأدركت أنّه الخليفة، لكنى بقيت على ما أنا عليه، لا أبالى بكل ما حولى، ولا أشعر لهيب النار الآكل لجلدى ولحمى، فما أن رآنى الرجل على هذى الحال، والجارية ممددة على الأرض، حتى هتف بصوت مهزوز، أحسنت هزته قوة المفاجأة، وقال بكل هيبة ووقار:

– فليرحمك الله، وليغفر لنا أيها الشاب المسكين. اذهب أيها العبد. أنت طليق، والجارية لك.

ثم تركنا ودخل من حيث جاء.

خرجت من قصر الخليفة فى صبيحة اليوم التالى، أصطحب الجارية، ومتاعى القليل وقد كومته فى بقجة، وكان كل ما أملكه : قليل من الدريهمات أعطوها لى وقالوا إن الخليفة نفحها إياى مع الجارية، إضافة إلى رقعة موقّعة وممهورة بما يثبت أن الجارية ملكى يجوز لى التصرف فيها مثلما أشاء، فيحل لى الاحتفاظ بها أو بيعها أو وهبها، وكان معلمى الحسين بن فالح قد سارع بمداواتى بعد رجوعى إلى الوقايد، فدهن يدى بزلال بيضة ودهن صبار ورشّ عليها بعضاً من طحين، ورغم آلامى التى كانت لم تزل قوية، حاضرة فى راحتى، إلا أننى كنت سعيداً بعتقى وعودة حريتى، وفى ذات الوقت داخلنى شعور بالتعاسة بسبب فراقى الحسين بن فالح، وغلب همّى لأنى مغترب فى هذى البلاد، ولا أحد أعرفه فيها غير الحسين، وها أنا مضطر إلى مفارقته منذ هذا الحين. والحقيقة، لقد خشيت أن تعصف بى التعاسة والضياع، فأهيم على وجهى مرة أخرى، مثلما كان الأمر فى مبتدأ زمانى، وقبل التحاقى بكنيسة قصر الشمع.

غير أن الحسين – أيده الله – رتب لى كل شىء، فبينما هو يودعنى ونحن سائران معاً إلى باب القصر، أعطانى مكتوباً لبعض أصحابه ونصحنى بالتوجه إليهم فى ناحية من نواحى المدينة، وقال إنهم سيقدمون لى كل عون، وسيكونون بالنسبة لى بمثابة الأخوة الأوفياء.

ثم إنهم أعطونى مكتوباً بالأمان من الخليفة، لئلا يعترضنى حرس، أو معترض من أولى الأمر فى المدينة، أو أى من أهل الاختصاص، فسرت بقلبٍ وجلٍ مخطوف، وخلفى الجارية تتبعنى، وكان بى كثير من تخبّط وحيرة، فأنا لا أعرف إلى أين أتجه، وهل أتقدم يمينا أم يساراً، وكنت لا أجرؤ على الالتفات للتطلع أو النظر إلى الجارية، بينما هى تسير صامتة لا تقول شيئا، فلما غاب قصر

الخليفة عن بصرى التفت إليها، وكنت قد فكرت فى أمرها طويلاً، فقلت لها بعد أن استجمعت شجاعتى، وبذلت طاقة كبيرة لتعيننى على الكلام:

- تستطعين مفارقتى هنا. أنت حرّة من الآن، ولا حاجة لى بك.

فغرت الجارية فاها، وتوقفت عن المسير، وقد أخذت بما أعلمتها به، وقالت:

- إلى أين أذهب؟ أنا لا أعرف أحداً بهذه المدينة، وقد نشأت قبل أن أشب عن الطوق فى قصر الخليفة. قل لى بالله عليك ماذا أفعل يا سيدى؟ بربك أبقنى معك، ولسوف أكون أمتك وأينما كنت وإلى الأبد.

أسقط فى يدى، وشعرت وكأننى قد وقعت فى ورطة حقّاً، فقد كنت بعد عودتى إلى الوقايد، إثر ما جرى لى على باب الخليفة، قد أصبت بنوع من الذهول وفقدان الشعور، رغم مواساة الحسين بن فالح لى ومحاولته طمأنتى، وتندّره علىّ لفوزى بجارية لا يحلم أحد بمثلها قط، ناهيك عن أنها من جوارى الخليفة الخواص، وهكذا بتّ ولا رغبة لى فى شىء بهذه الدنيا، خصوصاً جنس النساء، وقد أدركت بعد كل ما جرى فى الليلة الفائتة، كم أن النفس ضعيفة تجاه شهوات الجسد، وكيف أن هذه الشهوات تسقط المرء من علياء إنسانيته إلى جحر حيوانيته فى لحظات سريعة، فكرهت أن تكون نفسى على هذا النحو من الضعف والانحطاط، وعاهدت ربّى ألا أفعل ذلك بوديعته أبداً، فلا أضع روحى فى موضع التحقير والإذلال، لذا وجدتنى أقع فى حيص بيص ولا أدرى ما أنا فاعل مع هذه الجارية حقاً، لكنى رفقت بها وبحالها فقلت:

- إذن، اذهبى معى إلى حيث أنا ذاهب، لكن أنت من الآن بمثابة أختى أبنة أبى وأمى، ولن ألمسك أبداً مهما كان الأمر، وليقدّر لك الله كل خير، ويعيننى على نفسى وما تقدّمه الأيام.

سرنا بعد ذلك ونحن نتجاذب الحديث، فعرفت أن الجارية اسمها ريطة، لكن هذا ليس اسمها الأصلى، فلقد خطفت وهى طفلة صغيرة فى غارة من غارات اللصوص على بعض المواضع التى كان يقيم بها أهلها من البدو والمرتحلين، من

مكان إلى مكان، وهى تذكر أمها جيداً وما فتئت تحنّ إليها بين حين وآخر، وكانت أمها تناديها تمارا، وقالت لى إنها لا تعرف لها أهلاً منذ أن بيعت لنخاس ببغداد، وظلت تنتقل من سيّد إلى سيّد، حتى وهبها آخر رجل كانت عنده كهدية إلى الخليفة، فجعلها فى مجلسه بسبب مهارتها وحذقها فى الدق على الآلات، وصوتها الحلو فى الطرب والغناء.

تتبعت الخريطة التى رسمها لى الحسين المراغى بدقة، فقطعت دروباً وحارات منعطفاً ذات اليمين مرة، وذات الشمال مرّات، ثم إننى عبرت جسوراً على النهر، وأخيراً وجدتنى مع الجارية فى خطة من خطط المدينة يقال لها خان أبى زياد، وهناك سألت عمن أقصده وهو الشهاب الحلاج، وكان النهار قد استبان وتوضح بنور شمس مهيمنة عنود لا ترحم، فدلنى الناس على موضع به رجل فى دكانه يحلج القطن مع صبى له، فلما رآنى واقفاً ببابه قام إلى فتقدمت منه، وعرّفته بصفتى وحالى، ثم أعطيته رقعة كان قد كتبها له الحسين بن فالح، فلما قرأها أشار إلى صبىّ من صبيانه وطلب منه أن يأخذنى إلى ربع قريب، كان به منزله، فلما اقتربنا منه وجدته داراً قوراء نبيهة البنية بالنسبة إلى ما جاورها، ساذجة بادية ملطخة الجدران بالطين الأحمر، متقابلة الأشكال، ثم إننا ولجنا خلف الصبى إلى بيوتها وكانت غرفاً لاطِية السقف غير مهذبة الخشب، بأعلاها غرف من جنبها، يدور بداخلها برطال مستعل على أرجل متّخذه من اللبن والحجر الملّبس بالطين على غير دراية أو نظام.

ثم إن الصبى نادى من خلف أبواب الغرف على أهل البيت، فجاء صوت امرأة أظن أنها كانت زوجة الشهاب الحلاج، لأنه قال لها: زوجك يقرؤك السلام ويبعث لك بهذا الرجل وجاريته، فأنزليهم بمنزلة أهل البيت.

ما لبثنا إلا وخرجت إلينا امرأة مستورة لا يستبين منها إلا عينان واسعتان كحبتى لوز، فحيتنا وسألت الصبى أن يسبقها ويصعد بنا إلى واحدة من غرف البيت حتى نعرف مستقرنا ونستريح، فلما دخلنا الغرفة، ذهب الصبى إلى المرأة وغاب قليلاً، ثم عاد إلينا بصفحة عليها بعض من سفرجل، وتفاح، وشراب ورد لا أظننى شربت أطيب منه فى يوم من الأيام.

كنت خلال ذلك، ما أزال أفكر فى أمر الجارية، وبت حائراً أتراوح بين التخلى عنها و الإبقاء عليها، فلما جاء الشهاب قرب حلول المساء بعد فروغه من عمله ودكانه، جلس إلىّ، فبحت له عما بنفسى تجاه الجارية، وأخبرته برغبتى فى مفارقتها، على نحو لا يسبب لها ضرراً، ولا يلحق بها مكروهاً.

فكر الشهاب قليلاً، ثم أشار علىّ أن أترك الأمر بضعة أيام حتى يأذن الله فى أمر الجارية، ثم إنه قام وأخذها إلى امرأته لتبقى معها وتكون بمثابة الأخت لها، ووعدنى بأن يجد لى من العمل فى الأسواق ما أقتات منه ويعيننى على صروف الأيام، وذلك بعد أن تشفى يدى وأصبح قادراً على ممارسة الأعمال.

وكنت خلال أيام مكوثى ببيت الشهاب، أشمّ روائح ذكية بين الحين والحين فأتعجب من أن يكون لمثل هذا الموضع، كل ذلك النسيم العاطر، فلما توثقت علاقتى بالحلاج بسبب جلوسه إلىّ وقتاً كل ليلة بعد فروغه من عمله، وصار بيننا تباسط فى الحديث، قلت له: إن لبيتك رائحة ذكية لا تغيب، تجعلنى أشعر وكأننى فى بستان ورد أو مرج زهر، والله لإنكم، أنت وأهلك، من المحظوظين إذ تقطنون موضعاً كهذا، قد لا يوجد مثله فى المدينة أبداً.

ضحك الشهاب ورد قائلا:

– أتظن ذلك ؟ الحقيقة يا ولدى أن امرأتى تشتغل بصنع العطر ودهن الطيب، وهى فى دارها، وتبيعه للدلالات والنساء اللواتى يقصدنها لهذا الغرض.

ثم إنه وعدنى أن يرينى موضع عملها هذا فى الدار، فلما أصبحنا، صحبنى الشهاب إلى حجرة سفلية فى مبتدأ صحن الدار، فوجدت فيها ما لا يحصى من القوارير الصغار والكبار، منها النحاسى ومنها الفضى والزجاجى، وكلها مليئة بالعطور، وكذا أحقاق ملئت بدهن الزهور، فكان الحلاج يجعلنى أشتم منها شيئاً ويقول لى صفة كل منها، فهذه متّخذة من البنفسج، وهذه من النيلوفر أو النرجس، وهذه من الكارده أو السوسن، وكانت هناك مجموعة أحقاق جميلة صنعت من الخشب المحفور على هيئة أطيار، وقد عبِّئت – كما قال: بدهن

الزنبق، والمرسين، والمرزنجوش، والبادرنك، والنارنج. فتعجبت من كل ذلك ومن كون امرأته تعمل فى مثل هذا، وأجللتها كثيراً مثلما أجللته، إذ بدا لى محترماً لامرأته، ومقدراً لعملها.

ألحقنى الشهاب الحلاج بخدمة صاحب له يدعى العفيف الوراق، وكان الرجل مشتغلا بصناعة الكتاب، يدفع الناس إليه بما يؤلفون ويبدعون، فيقوم بنسخه وتجليده بورق يصنعه وأحبار يعدّها لذلك الغرض، فتخرج آية فى الجمال والإتقان، وعلى نحو يحفظ للزمان ما كتبوه وخطوه.

كان ذلك قد تم بتوفيق من عند الله، وبمحض الصدفة، ففى ذات ليلة دخل علىّ الشهاب بينما كنت ساهراً أخطّ بعضاً من دروس كان قد لقنها لى الحسين بن فالح، فشاهد ما كتبت وكان آية قرآنية جميلة من سورة العصر، وهى: «إن الإنسان لفى خسر»، فسر الرجل لمّا شاهد خطّى سروراً عظيماً وقال:

– يا الله.. إن لك خطّاً جميلاً.. حلّت مسألتك والله. من الغد سأعهد بك إلى العفيف الورّاق ولسوف يفرح بك فرحاً عظيماً.

كان دكان العفيف يقع فى سوق الثلاثاء بالقرب من درب العاج بخارطة باب الطاق، وقد أخذت بسوق الثلاثاء هذا منذ أن دخلته ووطأته قدمى لأول مرة؛ وذلك بسبب اتساعه وكثرة دروبه، فهناك درب للزيت، ودرب للأساكفة، وسوق للبطيخ، وآخر للصبانين، وقد علمت بعد ذلك أن هؤلاء باعوا مرة فى ليلة عيد الفطر ألفاً، وألفاً، وخمسمائة ألف رطل صابوناً، على حساب أن كل إنسان يحتاج فى ليلة العيد إلى رطل من الصابون. كما باع الزياتون ألف جرّة، ومائة جرة، وثمانية جرار ونصف زيتاً حساب الجرة ستون رطلاً.

وكانوا يصنعون بهذا السوق سويق الحمص ويبيعون منه كمّيات مهولة، حتى قيل إن ما بيع منه فى وقت من الأوقات كان مئة وأربعين كرّاً لم يبق منها شيء، وسويق الحمص غير طيّب إنما يأكله المتحملون، والضعفاء شهرين أو ثلاثة، عند عدم الفواكه، ومن لا يأكله من الناس أكثر.

كان العفيف رجلاً هادئاً كتوماً، قلما رأيته مبتسماً أو منفرج الأسارير، بل بدا مهموماً دوماً، وكان شعره أشيب ووجهه مغضناً، رغم كونه شاباً لم يقف على عتبات الكهولة بعد، وكانت تلازمه جزّة بأضراسه كمن يصطبر على غمّ، أو يكتم غيظاً لا ينقضي، وكنت أظنّ في البداية أن سكاته وصبره من طبيعة نفسه، لكنني أدركت بعد أن أوغلت شيئاً في فنون هذه الصناعة، أنها ربما كانت طالبة لمثل هذه الخصال، فالرهافة، والإخلاص، والاصطبار إنما هي من لوازم من طلب الوراقة، والخط، والنسخ، والتزيين، والتجليد، فكل هذا إنما يحتاج ابتداعاً لا يتأتى إلا بالتخييل وفن الأفكار.

ولقد فتحني دكان العفيف على عالم لم أكن أدركه من قبل وهو عالم الدرس والبحث، فلقد كان ذلك الدكان محجاً لكل مشتغل بتحرير الأدب وكتابة العلوم، وكثيراً ما كان يلتقي أصحاب الحاجة للنسخ فيه، فيتصادف أن تدور بينهم المحاورات، ويشتعل جدلهم بمتباين الأفكار، فأظل مستمعاً إلى ذلك، بينما أنا أعمل فيما يوكله لي معلمي، صاحبه، من أعمال، وقد رأيت في هذا الموضع بالسمع، ما لم أره طوال حياتي بالنظر، وعرفت أقواماً لم ترهم عيني، لكني أدركت أفكارهم ومعتقداتهم، ووقفت على علماء، وأعلام، وشموس، وأقمار في سائر العلوم والمعارف عبر ما كتبوه وابتدعوه وجلْت ببغداد وأنا في موضعي أخطّ ثمار فكرها، وخلاصة عقلها، فأيقنت أنها حاضرة الدنيا، وهي مسجد، وحانة، وقارئ، وزامر، ومتهجد يرتقب الفجر، ومصطبح في الحدائق، وساهر في تعبد، وساهر في طرب، وتخمة من غنى، ومسكنة من إملاق، وشك في دين، وإيمان في يقين.

وكنت في مبتدأ اشتغالي مع الرجل موقّفاً على تعطين القطن المجلوب حيناً من بقايا ما يعمل صاحبه الشهاب الحلاج، أو مما لدى الحلاجين الآخرين بالسوق، فكان علي أن أخلط بقايا القطن بالخرق القديمة والماء حتى تتعطن وتتعجن وتصبح صالحة للفرد، ولم يكن مسموحاً لنا نحن صبيانه ومعاونيه الاطلاع على صنعة الفرد، ولطافة الورق، ومواءمته للكتابة والنسخ، وقد كنت

أتعجب لذلك فى بادئ الأمر، لكننى افتهمت بعد ذلك أن هذه عادة كلّ الوراقين، فسرّ الصنعة إنما هو شأن لا يصحّ أن يدركه سواهم، حتى تظل فيهم فيحكمونها ويسيّرونها وفقاً لمشيئتهم وأهوائهم.

وكان هناك نوع من الكاغد يتم تعتيقه حيث يتخذ من الأوانى النحاسية المناسبة ما يوضع فيها الماء العذب الصافى ويطرح فيها النشا النقى الجيد ويتم غليان ذلك حتى ينقص الماء، ثم يضاف إليه يسير من مادة الزعفران بقدر الحاجة إلى تلوين الورق، أو يصب فى أطباق وصحاف واسعة، ثم يغمس فيه الورق غمساً رفيقاً، ثم ينشر بعد ذلك لكى يجف، حتى لا تلتصق أطراف الورق ببعضها البعض، وكلما جف يسيراً يقلب على الغاب لئلا يلتصق فيه، وهكذا حتى يصير الورق فى أحسن حالاته لاستخدامه فى الكتابة.

وذات نهار وبينما نحن منصرفون لعملنا بالدكان، إذ سمعنا أصواتاً تتعالى وصراخاً وعويلاً، ففمنا جميعاً لننظر الأمر، فإذا بحريق ضخم قد اندلع فى سوق الخرازين، والناس قد تكالبت لإطفائه، والقرايبية رائحون غادون بالماء المنقول، فلما هدأ الأمر بعد ساعات وظهر أن حدّ ما احترق من أول سوق الخرازين إلى طاق الحرانى، قيل إن السبب فى حدوث ذلك هو أن جملاً عليه قصب اجتاز فى سوق الخرازين، وكان رجل يثقب لؤلؤاً وبين يديه نار، فوقع طرف القصب على النار فاشتعل وبلغت النار الجمل فى لحظة، فكان الجمل كلما أحس وقع النار عدا، وتناقض الشرار من جانبى الطريق فحرق كل ما يجتاز به فلم يزل على ذلك إلى أن تلف الجمل، وقد تلف ناس كثير فى الدور والعقار التى لحقها الحريق، وزالت نعم عظيمة بذهاب الأموال.

وفى مبتدأ الأمر لم يكن العفيف يسمح لى بالنسخ، إذ كنت ما أزال جاهلاً غشوماً بذلك الفن العظيم، والذى يحتاج إلى حذق ومهارة، إنما كان يعهد بذلك إلى اثنين من معاونيه يعينونه على ما يتكاثر عليه من كتب يطلب نسخها طلاب العلم وأصحاب المصلحة والحاجة، وكان أحسن الورق ما كان ناصع البياض، غرفاً، صقيلاً، متناسب الأطراف، صبوراً على مرور الزمان، وأعلى أجناس

الورق فيما رأيت هـو البغدادى، وهو ورق ثخين مع ليونة، ورقة حاشية، وتناسب أجزاء، وقطعه من الشائع المعروف، ولا يكتب فيه، فى الغالب، إلا المصاحف الشريفة، وربما استعمله كتّاب الإنشاء فى المكاتبات الديوانيـة، ودون ذلك فى الرتبـة الشامـى، وهو على نوعين : النوع الدمشقى ونوع يعرف بالحموى، وهو دون القطع البغدادي، ودونهما فى الرتبة الورق المصرى الذى قلما يصقل وجهاه جميعاً، وما يصقل وجهاه يعرف بالمصلوح، ثم هناك ورق الفوي، وهو صغير القطع، خشن غليظ، خفيف الغرف لا ينتفع به فى الكتابة، إنما يتّخذ للحلوى، والعطر، ونحو ذلك، ودون ذلك كله ورق الروم والفرنجة، فهو ردىء جداً، سريع البلى، قليل المكث، وقد رأيت بعضه على غير اتفاق عندما مرّ على العفيف، بالدكان ذات مرة، رجل من تجار الكارم الذين يجوبون الآفاق، ويذهبون إلى أرض البنادقة، فعرض بعضاً منه على العفيف، كان صكاً مكتوباً بالخط اللاتينى، لأمر من أمور تجارته.

ثم إن العفيف أشركنى فى تعلم صناعة الأحبار وسرّها رويداً رويداً فأدركت ما يناسب منها الكاغد، أى الورق، وهو حبر الدُّخان، ولتحضيره يؤخذ من العفص الشامى، وهو ثمر يؤخذ من شجرة، قدر رطل، يدقّ جريشاً، وينقع فى ستة أرطال من الماء مع قليل من الآس أسبوعا، ثم يغلى على النار حتى يصير على النصف أو الثلثين، ثم يصفّى من مئزر ويترك ثلاثة أيام، ويصفى ثانية، ثم يضاف لكل رطل من هذا الماء أوقية من الصمغ العربى، ومن الزاج القبرسى كذلك، ويضاف من الدخان المتقدم ذكره ما يكفيه من الحلاكة، ولا بد له مع ذلك من الصبر والعسل ليمتنع بالصبر وقوع الذباب فيه، ويحفظ بالعسل على طول الزمن، ويجعل من الدخان لكل رطل من الحبر ثلث أوقية، وذلك بعد سحق الدخان بكلوة الكف، بالسكر النبات، والزعفران الشعر، والزنجار إلى أن يجاد سحقه، ويمنع صحنه فى صلاية أو هاون حتى لا يفسد وتضيع جودته.

ثم إنه أخذ يشركنى فى ذلك الأمر رويداً رويداً، وقد ظهر منّى ما استحسنه فى ذلك الجانب من حسن الملاحظة والمثابرة على الرسم والكتابة، والتوفيق فى براية

الأقلام، وما لكلّ من سنى القلم من الحروف، وأجناس قطّ الأقلام، وهو المقصود الأعظم من البراية، وبعد أن تمكنت بدرجة من هندسة الحروف ومعرفة اعتبار صحّتها، فالألف هى شكل مركّب من خط منتصب يجب أن يكون مستقيماً غير مائل إلى استلقاء ولا انكباب، ومساحتها فى الطول تكون ثمانية من نقط القلم الذى تكتب به ليكون العرض ثمن الطول، وهكذا يكون لكل حرف سرّه وسببه فى الشكل والهندسة، وكان مبتدأ ما خططته نسخاً هو نوع من التعاويذ يقال له الأحجبة، وقد كنت أظن أنها لا تكتب إلا بالقلم الوثنى، مثلما كان يفعل قدامى الكهان فى بر مصر، ومثلما رأيته أكثر من مرة مع عزيز عينى ثاونا، لكن العفيف أخبرنى أن الأحجبة هى من شأن بعض المشايخ، وأنه لا يحبذ الاشتغال بها، لكن كثيراً ما كان يجيئه بعض الناس، ويلحون عليه فى كتابتها، وكان أغرب ما كتبت على هذا النحو حجاباً لرجل أراد الطيران فى الهواء فنسخته عن رق جاء فيه أنه من أعمال السبع الكلمات المذكورة المسماة القيراشية، وهى عزيمة مستجابة، ولا يعمل بها فيما يسخط الله ولا تستخدم إلا فى رضاه، يجب تبخيرها بالعود بعد قراءة الأسماء وكتبت فيها ٤٧٢٦٥ حه قيراش حه هيتزا خورش جه منذ اقشطسن حه، عنطلنطهسن حه عدا نقش حه دينا نقشن حه كطلطيسن طلعود لطسن حه، بحق بعضكم على بعض، وبحق الكواكب السبعة، وبحق من اسمه وطاعته واجبة عليكم إلا ماقضيتم حاجتى وكنتم عونى، وكذا أقسمت عليكم بالملك الأصفر، وبحق الملك الأحمر، وبحقكم عليكم إلا ما قضيتم حاجتى وكنتم عونى وأعوانى، أعينونى، أقسمت عليكم بيأجوج ومأجوج وهاروت وماروت إلا قضيتم حاجتى.

غير أن أحسن ما جرى لى فى دكان العفيف، كان تقاربى مع شاب يناهزنى فى العمر، يقال له اليشكرى، وكان من أوسم من رأت عينى من الرجال، له طلعة محببة ووجه بدرى أليق بملك أو أمير، لكننى كنت ألاحظ أنه قلما يتحدث مع أحد، ولا يجتمع معنا على غداء، على رغم أن العفيف عوّدنا أن نأكل سوياً، نحن صبيانه، بعد صلاة الظهر، بينما هو يتوسطنا، بل كان اليشكرى يظل منصرفاً

إلى عمله بموضع التزيين والتذهيب بالدكان، وكان من أمهر من لدى العفيف فى هذه الصنعة، وذات مرة دخلت عليه بموضعه بعد صلاة العصر، فوجدته يتناول غداءه منتحياً، فتعجبت من ذلك وظننت أنه لا يأكل معنا استنكافاً واستعلاءً، ورحت أتندر عليه قائلا : أتظن أننا سوف نعدّ عليك اللقم إذا ما جلست للأكل معنا، أم أننا سنخطف منك ما تأكله، ألست أدرى بما يفرضه علينا العفيف من آداب السفرة وأصولها، فنحن لا نأكل إلا متأدبين بثلاثة أصابع مما هو أمامنا، دون ذروة القصعة، ولا من وسط الطعام، ونلعق أصابعنا قبل مسحها بالخرقة، ونشرب من الكوز فى ثلاثة أنفاس متقطّعة، وقبل جلوسنا إلى الأكل نغسل أيدينا بأشفان، وكذا بعده، وننظف أحناكنا به كذلك.

فاستغفر اليشكرى الله من أن يكون امتناعه عن الأكل معنا كبراً واستنكافاً، ورأيت عينيه تدمعان وهو يقول لى إنه لا يخالط الناس طعامهم لأن أكثرهم يتقززون ممن كانت له علّة مثل علّته ويعافونه، ثم شمّر لى عن كمّيه معتذراً فبدا لى برصه ووضحه وقد أتى على الجلد من عند الرسغ وحتى الساعد على هيئة خرائط لا اتفاق فيها، وقال: إن أكثر الناس يمتنعون عن مخالطته بسبب ذلك، وإنه لولا مهارته وحذقه فى صناعة التزيين والتذهيب، واختصاصه بها، لما كان العفيف قد صبر عليه وتركه مستمراً فى العمل معه بعد إصابته بهذه العلة، فتألمت لذلك تألماً شديداً وقد شعرت أننى ظلمته وهيّجت مرارته بذلك، ورحت أتذكر عزيز عينى ثاونا الذى كان يخالط المجذومين، وينزل إلى مراضعهم بالبرارى فى عيد يونان، فيحممهم بنفسه، ويكسيهم، ويواسيهم، فهاجت شجونى كذلك ودمعت عيناى، وبت من ذلك الحين ملازماً لليشكرى الأبرص، وقد مسّنى حزنه وعكوفه على نفسه دون مخالطة الناس، فوثق بى ولان حتى فتح قلبه، وصار يفضفض لى عن آلامه، ومعاناته، وعكوفه على نفسه بعيداً عن الخلق، كان لا يخرج من الدكان الذى ظل يبيت فى سقيفة أعلاه إلا للحتم والضرورة، خصوصاً وأنه نزح من الكوفة منذ أمد ولا أهل له ببغداد، وأن جلّ قصده هو الانصراف إلى مجالس الزُّهّاد وشيوخهم، فهم يبثّون فى أحاديثهم راحة للنفس، وعزاء عما فى الدنيا والتنزه عنه.

كنت أخرج مع اليشكرى عند الغروب أحياناً، وبعد أن ننتهى من عملنا فى دكان العفيف، فنسير للتريّض على شاطئ موسى، والذى يمضى حتى يلاصق قصر الخليفة، فنظلّ ساعة أو ساعتين نتحادث حتى نبلغ نقطة انقسام الماء إلى الفرع المؤدى إلى سوق الدواب، والفرع المؤدى إلى دار بانوقة والذى يفنى عندها، ثم ذلك الذى يدخل باب سوق الدواب ويمرّ إلى العلافين، وكان اليشكرى، كما عهدته خلال ذلك كلما صفت روحه ورقّت بسبب مناظر الماء والخضرة، ينفتح قلبه بالكلام ويفضفض لى ببعض ما بداخله، فعلمت أنه كانت لديه امرأة تعشّقها كثيراً، وجاهد حتى ظفر بها من ذويها، وبنى بها، لكنها هجرته وطلّقته لما أصيب بما أصيب به من علة بعد ذلك، فتضاعفت حسرته ولعن الزمان وقد ضنّ عليه بما يجود به على غيره من محبة الذين أحبهم، وقد ضاق صدره وقتاً حتى إنه فكر فى إزهاق روحه، ليخلص مما هو فيه، لكنه كان أثناء ذلك قد بدأ يعمل فى دكان العفيف، فبدأ يدرك ما لم يكن قد أدركه من قبل، ففى ذلك المكان اكتشف - كما قال - أن بغداد ليست مدينة، بل هى مدن وبلاد، وأن أسواق الكلام بها أكثر من أسواق المؤن والغلال، وأنها عوالم متداخلة، وأفكار متصارعة، وعقل ونقل، وأن ذلك كله فتح عينيه على معان لم يكن قد أدركها من قبل، فأخذ يتناسى همّه وينشغل بهمّ الكلام والمتكلمين، حتى وقع فى يده ذات يوم كتاب لتذهيبه يسمّى كتاب الشكوك، فانبهر به أيما انبهار، فلمّا سألته عن سبب انبهاره، قال: إن هذا الكتاب جعله يشكّ فيما كان حتى توهم أنه لم يكن، وفيما لم يكن حتى توهم أنه قد كان، حتى إنه شكّ فى هجر امرأته له وعمل على أنها لم تهجره، وإن كانت قد هجرته، وشك فى قراءة كتاب الشكوك وإن كان قد قرأه.

ثم إنه ظنّ فى وجوب معرفة المُنعم وشكره، وكذلك معرفة الحسن والقبيح، واتباع الحسن واجتناب القبيح وذلك بالعقل قبل ورود السمع، وأن الناس محجوجون بعقولهم سواء منهم من بلغه خبر الرسول ومن لم يبلغه، وكلاماً كثيراً من هذا النوع، لكنه سرعان ما حاد عن ذلك لكثرة ما سمع من إشكالات ومسائل، وتقارع بالحجج والبراهين، ولهول ما رأى من أحوال الناس والعوام، وهؤلاء

المتكلمين الذين يتكلمون فى ناحية والعامة فى ناحية أخرى، فالناس فى فقر وإملاق، والكلام لا يقيم لهم أوداً ولا يدفع عنهم جوعاً، فوقعوا فريسة الأفاقين والشطّار والعيارين، يتلاعبون بجوعهم، ويشعلونهم حطباً لحروبهم ضدّ الخليفة والعسكر وأصحاب السلطان، فتذبذب أمره، وشتّ ذهنه حيناً، حتى حزم أمره، وقرر اعتزال كل ذلك، فسار فى طريق العارفين، وسلك مسلك السالكين فى الحب الإلهى الخالص، وقد طلّق الدنيا وزهد فيها، واشترى بها محبة الله والدين.

كان إعجابى باليشكريِ يزداد يوماً بعد آخر، وتأثرى بما هو عليه يتضح لى شيئاً فشيئاً، فقد أيقنت أن مشكلى هو أقرب لمشكله، وأن محنتى فى هذه الدنيا هى الأقرب إلى محنته، وأن تشاكل قدرى مع قدره لم يكن إلا من نعم العناية، ونظر عين الله لى بالعطف والرعاية، فبتّ ألتصق به أكثر فأكثر، وقد بهرنى بفكرة السمو والصعود، عن كل ظاهر موجود، وقد أدركت أن ما بنفسى لهو قرين لما فى نفسه من حزن وألم، وأن شعورنا بعبث الوجود وتهافت الظاهر المحسوس، والمتجسّد الملموس لهو من اتفاق أسبابنا، وأن رغبتى فى الزهد والبعد عن الناس، تتماثل مع ما لديه من ذلك، رغم خلوّى من كل علّة، وكلّ عيب يدفع الناس عنى، ويجعلنى أتجنبهم وأؤوب إلى نفسى.

ثم حدث ذات مرّة أن جاء رجل إلى صاحبى العفيف، ودفع إليه بكتاب تعهد أن يبذل مقابل نسخه مائتى درهم، فلما تصفحه العفيف قليلا انتفض وثار ثورة لم أعهده بمثلها أبداً، ودفع للرجل بكتابه، وهو يقول : والله لا أفعل، حتى لو دفعت لى مال قارون كله، فلما ذهب الرجل، وكنا قد تجمعنا حوله نحن صبيانه، ظنّاً منا أن هناك مصيبة قد جرت، جلس يستغفر الله وهو فى ضيق وألم، فلما تفرق الجميع وبقيت معه، استحلفته أن يفضفض لى عما بداخله، وكان الرجل يستريح لى، ويلاطفنى، وينعتنى بالمصرى وهو يتندر على نطقى لحرف الجيم مخففاً كما يفعل الفرس، فأخبرنى أن الرجل الذى جاءه هو قريب له، وهو من أتباع ملّة كان يتبعها العفيف قبل إسلامه، وهى ملة قد شاعت منذ زمن قديم، وما زال البعض يتبعها حتى وقتنا هذا ويقال لها الكيومرثية، وأن الرجل دفع إليه

بكتاب قديم يخصّ هذه الملة، لينسخه له سراً، وهو كتاب كفر وبهتان، يتضمن ما حاول إثباته أصحاب المقدّم الأول كيومرث من وجود أصلين، هما: يزدان وأهرمن. وقد قالوا: إن يزدان أزلى قديم، وأهرمن محدث مخلوق. وقالوا: إن سبب خلق أهرمن أن يزدان فكّر فى نفسه أنه لو كان له منازع فكيف يكون ؟ وهذه الفكرة كانت رديئة غير مناسبة لطبيعة النور، فحدث الظلام من هذه الفكرة وسمّى أهرمن، وكان مطبوعاً على الشرّ والفتنة والفساد والفسق والغدر والإضرار، فخرج على النور وخالفه طبيعة وفعلاً، وجرت محاربة بين عسكر النور وعسكر الظلمة، ثم إن الملائكة توسطوا فصالحوا على أن يكون العالم السفلى خالصاً لأهرمن مدّة سبعة آلاف سنة، ثم يخلى العالم ويسلّمه إلى النور، والذين كانوا فى الدنيا قبل الصلح أبادهم وأهلكهم، وكلام فارغ كثير من هذا النوع، وقد جاءنى الرجل مستغلاً قرابته لأمى، وكوننا كنا أتراباً منذ الصغر، لكنى اهتديت إلى الإسلام والحمد لله وهو ما زال على دين جدودنا وأهلنا، حتى إنه سمى عياله بأسماء أعلام هذه الملة، فلديه منهم ما يسمى بأسمائهم المقدسة لدى أهلها مثل: ريباس، وميشة، وميشانة والأخيرين فى عرفهم هما والدا البشر.

وبينما العفيف يقول ذلك لى، إذ تذكرت فجأة حادثة دير أتريب، فهتفت مقاطعاً إياه:

– إذن. هم من الصابئة. سبحان الله!

– لا. لا. هؤلاء مختلفون عن الصابئة تماماً، فالكيومريثيون هم من المجوس، أما الصابئة فهى واحدة من فرقتين ترجع إلى زمن إبراهيم الخليل عليه السلام، ثانيتهما فرقة الحنفاء، والصابئة كانت تقول: إنا نحتاج فى معرفة الله تعالى، ومعرفة طاعته وأوامره وأحكامه إلى متوسط، لكن ذلك المتوسط يجب أن يكون روحانيًا لا جسمانيًا، وذلك لذكاء الروحانيات وطهارتها، وقربها من رب الأرباب، والجسمانى بشر مثلنا، يأكل مما نأكل، ويشرب مما نشرب، يماثلنا فى المادّة والصورة. قالوا كما ورد فى كتابه العزيز الحكيم: ﴿ولئن أطعمتم بشراً مثلكم إنكم إذاً لخاسرون﴾، ولما كان الخليل عليه السلام مكلّفاً بكسر المذهبين على

الفرقتين، وتقرير الحنيفية السمحة السهلة، احتج عبَدة الأصنام قولاً وفعلاً، كسراً من حيث القول وكسراً من حيث الفعل، فقال لأبيه آزر: ﴿يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً﴾، حتى بلغ ﴿فجعلتهم جذاذاً إلا كبيراً لهم﴾، وذلك إلزام من حيث الفعل وإقحام من حيث الكسر، ففرغ من ذلك كما قال الله تعالى: ﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء. إن ربك حكيم عليم﴾.

كان اليشكرى قد أخبرنى أن العفيف الورّاق من أصل فارسى، وأنه كان مجوسى الأصل فأسلم، وأن بعضاً من أهله ما زالوا على هذه الملّة، غير أن العفيف بدا لى رغم كونه مسلماً وموحّداً بالله، رجلا يتبع فرقة من الفرق، فهو وإن كان من أشياع الإمام على، إلا أن له جماعة يأتلف بها بين الحين والحين، وقد تلمّست ذلك بمرور الأيام، وقد لاحظت زيارة البعض من هذه الجماعة له بين الحين والحين، وكانوا يمدون بساط الكلام والمحاورة، فأدرك أنهم من الخارجين عن الخليفة. الكارهين له، بسبب أحوال العباد وسياسته للأمور، وقد كنت قد سمعتهم أكثر من مرة خلال ذلك، يتندّرون ببذخ الخلافة وترفها المسرف يوم وصول رسول الروم، ويقولون إن ما جرى فاق كل ما كان يجرى زمن الأكاسرة والأباطرة والفراعنة فى الزمن القديم، وإن ببغداد وبلدان الخلافة كلها، من يبيت كل ليلة على الطوى مما لا يحصى من الناس والعباد، وإن العامة ضجّت فى كل موضع بهذا السفه ولم تعد بقادرة على الاحتمال، مما سيؤول إلى حدوث الفتن وتتابع المحن، وخراب العمران، وانتقال القطان، وأن عصيان أبى مسلم الخراسانى، وسنباذ، وإسحق الترك، وأستاذ سيس، ربما يحدث لو استمر الأمر على هذى الحال، وربما يحدث ما هو أشد منه وأمر.

كلما تقدمت فى النسخ والكتابة كان العفيف يدفع إلىّ بما هو أهم وأرقى من المخطوطات، حتى وصل الأمر إلى حد إشراكى فى عمل المترجمات الخطيرة التى يقوم بها أفذاذ العلماء وأرباب المعارف والحكمة عن القلم اليونانى، والقلم السريانى، والقلم الفارسى، والقلم الهندى، والقلم القبطى، فى كل فرع وصنف من

بساتين العلوم والفنون، فكنت كلما فرغت من نسخ كتاب وهممت بكتاب آخر، أشعر وكأنني ولجت من جنة إلى جنة، وغادرت فردوساً إلى فردوس، وكان هناك رجل لا يفتأ يدفع إلى العفيف بما يترجمه ويصنّفه بين الحين والحين، وكأن له عقلاً ليس كعقل البشر، وطاقة على الاشتغال والبحث تفوق طاقة الجان، فصرت مبهوراً بعمله، مجلاً لشأنه، وكان أن دفع العفيف إلى مرة برسالة وضعها فى أمور النساء وولاداتهن، فلما اشتكى اليشكرى لى ذات مرة من أن له أختاً توأماً ليس له غيرها من الأخوة أو الأخوات، قد تزوجت بتاجر كوفى ميسور، سوف يحملها معه إلى الغرب، ليستقرّ بها هناك فى بلدة تدعى طليطلة، وأن كواعب، وهذا كان اسمها، حامل بكرية وهو يخشى عليها كثيراً إن فاجأها المخاض أثناء الرحلة والطريق، ولا يدرى ما هو فاعل لها، فارتأيت أن أنسخ له نسخة من رسالة ذلك العالم الجليل، علها تنتفع بها إن حدث لها ذلك أثناء المسير، وكانت الرسالة تتعلق بالحمل من مبتدأه، فعندما تتحقق المرأة من حملها، فتدبيرها بالراحة وترك الرياضة، وكل ما أزعج من وثبة، وصرخة، وحمل ثقيل، ونزول من عال، أو صعود من سافل، والتقليل من المرطبات حتى تشتد الأعصاب، وأن تأخذ ما دعت إليه شهوة الوحام بلطف، فإن الإكثار من الحريف والحامض يضعف الجنين، ومن الطين يبرد، وينبغى أن تكثر من السكنجبين ليحلّ الاحتراق، فإن الوحام عبارة عن احتراق بقايا دم الحيض، وبعد الخامس أو فيه يكون نبات الشعر فى رأس الجنين، ثم تكثر من أخذ ما يولد الدم، ما لم تظهر علامات الاستغناء عنه كوجوده أيام الحيض، وتدوم كذلك إلى قرب الولادة ولتقتصر المرأة فى أمراضها الحارة على الأشربة الباردة، والبارد الجلنجبين العسلى، فإن اشتدت الحاجة إلى تليين فبخيار الشنبر أو الترنجبين، فإن الأدوية المسهلة إما مسقطة أو مضعفة لتحليلها الفضلات فى غذاء الجنين، فإذا آن وقت الولادة فلتكثر من تناول المزلقات، ودهن المراق بنحو دهن اللوز والبنفسج وتنطل بطبيخ الأشنان والحلبة وتكثر من الاستحمام، فإن ذلك يسهل الولادة، فإذا أحسّت بالطلق وهو المغص والوجع ونزول الماء والدم، فلتجلس على مرتفع مادّة رجليها، موسّعة بينهما، وتعتمد قابلة حتى يخلص المولود فإن سهل ذاك فالمطلوب، وإلا

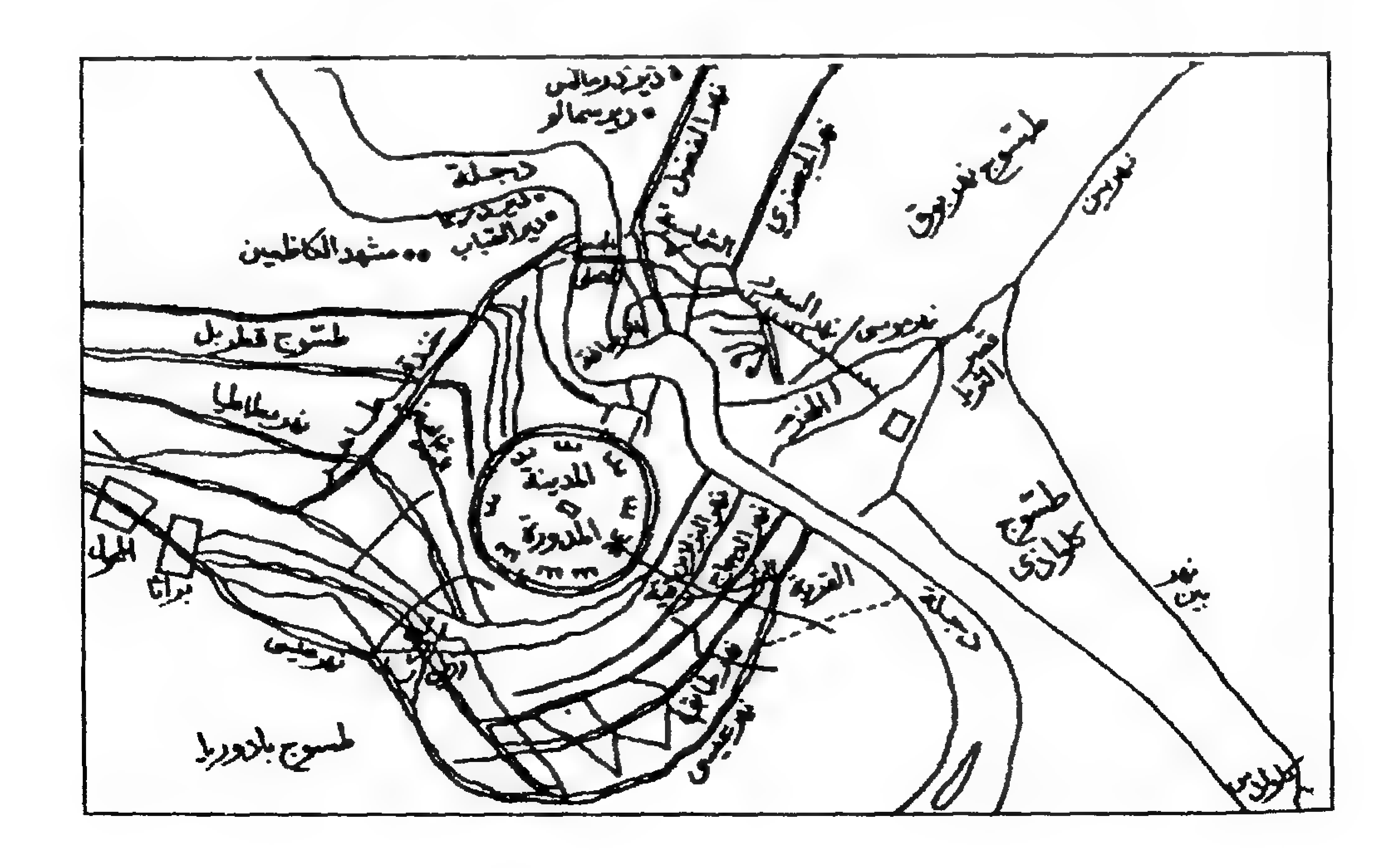
غمزت ظهرها وأعلى البطن، وسعطتها قشور البكتر بالزعفران، وحملتها بالزبد فى خرق الحرير على الفخذ الأيسر تربطه طاهرة من الحيض، فإن بدا رأس المولود فالولادة طبيعية وإلا فعسرة، وينبغى أن يستلقى بناعم من قطن أو حرير ويجتنب البرد إن كان شتاء، ثم تتدثر هى، وتسقى ما يحِلّ الخوالف من طبيخ الأنيسون، والشبت، والحلبة، والزبيب بالعسل، وفى الشتاء تمرّخ بالزيت وقد طبخ فيه الثوم واللاذن.

أما المولود فيبدأ أولا بقطع الفضلة التى فى سرّته على حد أربع أصابع، وتربط بصوف خفيف الفتل، وتضمد بخرقة بلت بزيت طبخ فيه كمون، وصعتر ويسير ملح ومرّ، ويملّح بدنه بملح، وشادنة، وآس، ومر، وقسط، مجموعة أو مفردة ليشتد، وتمتنع منه العفونة، والقمل، وإذا سقطت السرّة بعد ثلاث ضمّدت بالشراب، والزيت، أو رماد الصدف أو الرصاص المحروق، ودم الأخوين، والكركم، والأشنبة للتجفيف، ويملّح لدفع الأوساخ، والقمل، إلا الأنف لضعفه عن الملح، ويقطر الزيت فى عينيه للغسل، ويمسح بناعم، وتغمر الأعضاء وفق الشكل المراد، والمثانة لإطلاق البول، ويفتح الدبر بالخنصر، وبها يتعاهد الأنف بعد تقليم الظفر لئلا يجرح، ويلبس رقيق الثياب المناسبة للزمان، ويفرش بها، ويقمط حفظاً للشكل مع توسط بالشد، ويرخى على بطن الأنثى لئلا يكون سبباً لعدم الحمل، وتطلى مراقه وغضونه بسحيق الآس، والزيت حذراً من التسميط، ويغسل بفاتر الماء كل ثلاثة عدا الشتاء والمائل إلى السخونة كل سبع فيه، برفق فى صبه، وغمز المفاصل، والقلع، والتلبيس، والتنشيف، والدهن.

وقد حدث أن غاب الرجل عنّا زمناً، فدهشت لذلك وتساءلت عن تقاعسه وهو الذى كان لا ينقطع مجيؤه إلينا لكثرة حاجته إلى النسخ، فأعلمنى العفيف أن الرجل مات منذ حين بداء الزرب، بينما كان قد بدأ فى ترجمة كتاب فى قوام الصناعات لجالينوس قبيل وفاته بشهرين، وأنه كان سليماً معافى مواصلاً لعاداته فى الركوب حتى أصيب بهذه العلة، وقد كان مشهوراً عنه أنه بعد ركوبه كل يوم يدخل الحمّام فيصبّ عليه الماء، ويخرج فيلتف فى قطيفة، ويشرب قدح شراب،

ويأكل كعكة ويتكئ حتى ينشف عرقه، وربما ينام ثم يقوم، ويتبخر، ويقدّم له طعامه وهو فروج كبير مسمّن قد طبخ زيرباجاً ورغيف وزنه مائتا درهم، فيحسو من المرقة، ويأكل الفروج والخبز، وينام، فإذا انتبه شرب أربعة أرطال شراباً عتيقاً، فإذا اشتهى الفاكهة الرطبة أكل التفاح الشاميّ والسفرجل، وكان ذلك دأبه حتى مات.

وعلى رغم احتراز العفيف فى الكلام معى إلا أنّه بين الحين والحين كان يدفع لى بكتاب أوصله إلى موضع من المواضع بمدينة السلام عند جنوح الليل، وكان يحذرنى من أن يرانى أحد خصوصاً من البصاصين أو الدرك، وكان يصف لى وصفاً دقيقاً مكتملا الموضع أو الدار التى أذهب إليها لتوصيل ما يبتغيه من مكاتبات، وكنت أظن فى البداية أن هذه كتب تخص من يتعاملون معه فى أمور النسخ أو الوراقة، لكن، ذات مرة، بعد ما شدّد علىّ كثيراً فى الاحتراز والتنبّه – وليغفر الله لى – وسوس لى الشيطان، وسوّل لنفسى أن تطّلع على ما اؤتمنت عليه، فوجدتنى أفتح كتابه لأقرأه، فوجدت أنه خريطة مرسومة كان علىّ إيصالها إلى واحد من أصحابه بربض الزهيرية وكانت كما يلى:



فلما رأيتها بهتّ وأسقط فى يدى، ووقعت فى حيص بيص وأنا أحاول تفهم مغزاها، والتكهن بمعناها، وبالغرض من إرسالها إلى ذلك الرجل، وقد حدّثنى قلبى أن وراءها أمراً عظيماً، فلما عدت إلى الدكّان فى صبيحة اليوم التالى، ووجدت الفرصة لأختلى بصاحبى اليشكرى أفضيت إليه بما كان من أمر الخريطة، فسكت قليلا ثم قال لى إنه يجب علىّ تكتم الأمر، وألا أظهر للعفيف اهتمامى بذلك، فلما استحلفته أن ينبئنى بما وراءه، قال: إن العفيف يتبع فرقة يقال لها النظّامية، وهى فرقة خالطت كلام الفلاسفة بكلام فرقة أخرى يقال لها المعتزلة، وإن النظّامية تخابطوا كثيراً، فاتبعوا ما تخابط فيه صاحبهم إبراهيم النظّام الذى قال: «إن البارى تعالى ليس موصوفا بالإرادة على الحقيقة، لأنه إذ وصف بها شرعاً فى أفعاله فالمراد بذلك أنه خالقها ومنشئها، وإذا وصف بكونه مريداً لأفعال العباد فالمعنىّ به أنه آمر بها وناه عنها». كما قال: «إن أفعال العباد كلها حركات فحسب، والسكون حركة اعتماد، والعلوم والإرادات حركات النفس، ولم يرد بهذه الحركة حركة النقلة، وإنما الحركة عنده مبدأ تغيّر ما، كما قالت الفلاسفة من إثبات حركات فى الكيف والكم والوضع والأين والمتى».. إلى غير ذلك من كلام متخالط متخابط من هذا النوع، وإن العفيف مولع بمثل هذا النوع من الكلام الذى يقوله النظّام بن سيار هذا فى قوله: «إن الإنسان فى الحقيقة هو النفس والروح، والبدن آلتها وقالبها، وميله إلى قول الطبيعيين من الفلاسفة من أن الروح هى جسم لطيف مشابك للبدن مداخل للقلب بأجزائه، مداخلة المائية فى الورد، والدهنية فى السمسم، والسمنية فى اللبن، وأن الروح هى التى لها قوة واستطاعة وحياة ومشيئة وهى مستطيعة بنفسها والاستطاعة قبل الفعل».

فلما أدركت ذلك ووقفت على حقيقة العفيف كتمت الأمر فى نفسى عملاً بنصيحة اليشكرى، وبت لا أسأل العفيف فى أمر من الأمور إلا فيما يخص اشتغالى ولقمة عيشى.

وكان اليشكرى متعلقاً بشيخ زاهد، سرعان ما سرت عدوى تعلقه به إلى، وكان الرجل كما قال اليشكرى - والله أعلم - قد عاش حيناً فى بلدة تدعى حرّان،

اجـتـمـع لبـعض من أهلهـا مـا تبـقى من علوم الجـريك، وفلسـفـتـهم، ونحلهم كالفيثاغورثية، والأفلاطونية الجديدة، وعلم الكيمياء، وعلم الكون الهرمسى، وقد ظل لهؤلاء بعض من رواسب هذه العلوم، دون أن تستطيع السيول البعدية أن تجرفها بالكلية، فتشرّب هذا الشيخ من هذه المعارف والعلوم حتى هداه الله إلى الإسلام، فطعم ذلك بذاك، وفاض لسانه بالحق والحكمة، فانجذب إليه اليشكرى، مثلما بتّ أنا منجذباً إليه كذلك. كان شيخنا يعقد مجلسه بعد صلاة العصر فى زاوية من الزوايا، فنجتمع إليه لنستمع إلى قطوف حكمه، وثمار أفكاره، وقد أدركت من خلال ذلك – فيما أدركت – عالم الأنوار القاهرة، وعالم الأنوار المدبرة، والعالمين المحسوسين السماوى والأرضى، والعالم الظلمانى والعالم المستنير، وكان الشيخ يقيم علمه على هدى من الآية الكريمة: ﴿الله نور السماوات والأرض، مثل نوره كمشكاه فيها مصباح، المصباح فى زجاجة، الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية، يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار، نور على نور، يهدى الله بنوره من يشاء﴾.

وشيئاً فشيئاً، بدأت رياضتى العبادية والارتحال من الغرب حيث حقل المادة والجسم، إلى الشرق حيث مقامات النور، وكان ذلك يقتضى عبور أربعة عشر تابوتاً وهى تمثل القوة الجاذبة، والماسكة، والهاضمة، والدافعة، والغازية، والمولدة، والمصورة، والنامية، والغضبية، والشهوانية، والأخلاط، والقبور العشرة من الحواس الظاهرة والباطنة، وكل ذلك حتى أتجاوز الأفلاك السماوية والعروج بواسطة العقل الفاعل ماراً بكل العقول حتى أرسو عند أعتاب نور الأنوار، فتهنأ نفسى بتحررها من سجن المادة ودخولها فى مقامات النور.

وكان المشى سبيلى إلى بعض من ذلك وفقاً لشيخنا، فلما كنت لم أزل فى مقام الطالبين، وهو أول المقامات الخمسة فى الزهد، فقد كنت أسير، كلما وجدت إلى ذلك سبيلاً، مع صديقى اليشكرى فنظل نسير حتى يتعبنا السير وتكدّ جسومنا.

غير أن الأيام أظهرت لى أن العفيف لم يكن مثلما ظنّ اليشكرى من أنه يتبع النظّامية، أو هذا ما وضح لى عياناً – على الأقل – فقد حدث أن قام رجل من

ناحية طريق الأنبار يقال له الدريوش، فدعا جيرانه، وأهل بيته، وأهل محلّته إلى أن يعاونوه على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فأجابوه إلى ذلك، وكان ذلك بسبب أن فساق الحربية والشطار الذين بالمدينة آذوا الناس أذى شديداً، وأظهروا الفسق، وقطع الطريق، وأخذ الغلمان والنساء علانية من الطرق، فكانوا يجتمعون فيأتون الرجل فيأخذون ابنه فيذهبون به فلا يقدر أن يمتنع، وكانوا يسألون الرجل أن يصلهم أو يقرضهم فلا يقدر أن يمتنع عليهم، حتى إن كثيراً من الناس حبسوا أولادهم ونساءهم عن الخروج إلى الأسواق خوفاً عليهم. وكان هؤلاء الأشرار يجتمعون فيأتون القرى، فيكاثرون أهلها ويأخذون ما قدروا عليه من متاع ومال وغير ذلك، لا سلطان يمنعهم؛ لأن السلطان كان يعتزّ بهم، وكانوا بطانته، فلا يقدر أن يمنعهم من فسق يركبونه، وكانوا يجبون المارّة فى الطرق، وفى السفن، وعلى الظهر، ويخفرون البساتين، ويقطعون الطرق علانية، ولا أحد يعدو عليهم، وكان الناس منهم فى بلاء عظيم، ثم كان آخر أمرهم أنهم خرجوا إلى قطربل فانتهبوها علانية، وأخذوا المتاع، والذهب، والفضة، والغنم، والبقر، والحمير، وغير ذلك وأدخلوها بغداد، وأخذوا يبيعونها علانية، وجاء أهلها فاستعدوا السلطان عليهم فلم يمكنه نصرتهم عليهم، ولم يردّ عليهم شيئاً مما كان أخذ منهم.

فلما رأى الدريوش والناس كل ذلك، وما بيع من متاع الخلق فى الأسواق، وما قد ظهر من الفساد فى الأرض، والظلم والبغى، وقطع الطريق، وأنّ السلطان لا يغير عليهم، مشى ومعه ناسه إلى الصلحاء من كل ربض وكل درب، وقالوا لهم: إنما فى الدرب الفاسق والفاسقان إلى العشرة وقد غلبوكم وأنتم أكثر منهم، فلو اجتمعتم حتى يكون أمركم واحداً لقمعتم هؤلاء الفساق، وصاروا لا يفعلون ما يفعلون من إظهار الفسق بين أظهركم. فأجابوه إلى ذلك وشدّ كل واحد منهم على من يليه من الفساق والشطار، وقد أراد الدريوش منعهم مما كانوا يصنعون، فامتنعوا عليه، وأرادوا قتاله، فتكاثر عليهم الدريوش وأصحابه، من أهل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وقاتلوهم وهزموهم، وكان ممن شارك فى ذلك رجل من أهل الحربية يقال له سهل بن سلامة من أهل خراسان، وقد دعا الناس

إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والعمل بكتاب الله عزّ وجلّ وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وعلّق مصحفاً فى عنقه، ودعا الناس جميعاً إلى ذلك، الشريف منهم والوضيع، وجعل له ديواناً يثبت فيه اسم من أتاه منهم، ثم إنه طاف ببغداد وأسواقها وأرباضها وطرقها ومنع كل من يخفر ويجبى المارة والمختلفة، وقال لا خفارة فى الإسلام، والخفارة أنه كان يأتى الرجل إلى بعض أصحاب البساتين فيقول: «بستانك فى خفرى، أدفع عنه من أراده بسوء ولى فى عنقك كل شهر كذا وكذا درهماً. فيعطيه شائيا أو آبيا»، وقوى على ذلك قوة عظيمة، إلا أن الدريوش خالفه فى ذلك، وقد ظهر أن العفيف معلمى كان من أتباع سهل ويكاتبه، وهذا ما علمته بعد ذلك من الشهاب الحلاج، فلما كسر الخليفة سهلاً لأنه قال: «إنى أقاتل كل من خالف الكتاب والسنة، كائناً من كان، سلطاناً أو غيره، والحق قائم فى الناس أجمعين». سارع العفيف بالهرب إلى مدينة البصرة، وخرج بعياله فى عز الليل تاركاً دكانه وماله، ثم إنه مرّ زمن قد قارب الشهر بينما أنا قابع فى دار الشهاب الحلاج لا أغادره، وقد نصحنى الشهاب بذلك حتى لا أؤخذ بجريرة العفيف وأمثاله، وأضيع بين الرجلين، وكنت أتعجب، خلال ذلك، من مشاركة العفيف فى مثل هذه الأمور، وهو الرجل الهادئ المشتغل بصنعة تستلزم كل لطف ودماثة، فقال لى الشهاب: إن ما دفع العفيف إلى ذلك، وجره إلى ما هو فيه هو أنه كان لديه ولد وحيد من امرأة غير تلك التى تحته الآن، فبينما الغلام مع أمّه فى السوق ذات يوم لأمر من الأمور، إلا وبعض من فساق الحربيّة والشطّار قد كبسوا السوق، وعاثوا فيه فساداً، واختطفوا الصبى من يد أمه ضمن من اختطفوهم، فجن جنون العفيف، وراح يبحث عن وحيده فى كل مكان، حتى هداه الهادون إلى موضع لرجل يهودى اشتهر عنه خصى الصبيان المجلوبين بالخطف والرق، فكبس العفيف الموضع مع جماعة من إخوانه فوجد الصبى وقد قُطّ قضيبه وأخرجت بيضتاه بعد أن شق مزوداه، وقد وضعوا له فى منفذ البول مرور رصاص، جعلوه حتى لا يلتحم، وكانوا يخرجونه أوقات البول، فانتزع العفيف ولده منهم، وهو بين الحياة والموت، وكاد أن يفتك بالخصّاء اليهودى لولا أن أصحابه منعوه، فلما عاد بولده إلى منزله، لبث قليلا ثم مات

فحزن عليه العفيف حزناً عظيماً، وسرعان ما لحقته أمه وقد تلفت كمداً وحسرة عليه. وكان ذلك مبتدأ قسم العفيف بالانتقام من مختطفي ولده وقاتليه، فانضم إلى جماعة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، حتى صار ما صار لسهل رئيس هذه الجماعة وله. غير أن العفيف أرسل إلى الشهاب أن يدعني ألحقه إلى البصرة إن شئت، وقد ترددت في ذلك كثيراً في مبتدأ الأمر، فرغم أن العفيف كان قد أرسل إليّ ما يعينني على أمري، وأوصى بمن يعينني على الوصول، إلا أنني كنت منقبضاً مغموماً، فها أنا مرّة أخرى مجبر على السفر والمغادرة، وكنت قد استمرأت في بغداد الاستقرار والتوطن، وكان الأمر الذي يشغلني أكثر من سواه هو أمر ريطة، فأنا وإن كنت قد أعتقتها، إلا أنني كنت أظن نفسي مسئولاً عن أمرها في كل حال، ورغم أنها . لت في دار العفيف تعين زوجته على أمورها وتجارتها، إلا أنني كنت أخاف تركها إلى مصير لا يعلمه إلا الله.

ثم إنني بت أخرج من بيت الشهاب لبعض الوقت، بين الحين والحين، بعد ما هدأ الأمر، وذات يوم وبينما كنّا نسير منصرفين إلى درس من دروس شيخنا الزاهد، قال اليشكري لي:

– هل تذكر الجواهري الذي جاء ذات مرة إلى دكان العفيف لينسخ له رسالة في الجواهر والأحجار؟

قلت:

– لا. لا أذكر ذلك، ولا أذكره.

قال:

– كيف لا تذكر ذلك؟ أنسيت ما جرى يومها، حين أتاه العفيف بدرج فيه أحجار وسأله أن يعتبرها بالمحنة والاختبار الصحيح، حتى يعزل ما صح منها ويهمل المتبقي، فاحضر الرجل الأفاعي، وطلب فراريج وراح يطعمها حكاكة هذه الأحجار، وكانت نيّفاً و ثلاثين حجراً، فصح بالمحنة دون العشرة وتزيّف الباقي؟

– آه. كان ذلك بعد حريق السوق بمدة. تذكرت.

– أى نعم. لقد التقيت الرجل اليوم بالصدفة، وقال لى إنه يريد تذهيب وزخرفة كتاب عن الأحجار، كتبه له نسّاخ بدمشق، وقال إنه يستطيع أن يلحقنى بخدمة واحد من أصحابه النساخين هناك إن أردت، ولقد قرّ عزمى على الذهاب، فأنا هنا بلا عمل، وقد كرهت الإقامة فى بغداد، وأريد الارتحال، هل تأتى معى؟

كان العسكر قد كبسوا دكان العفيف وانتهبوه بعد رحيله، ولم يعد لليشكرى عمل كما هو الحال معى، فقلت له بعد تفكر:

– لا. لقد انتويت أمراً آخر فى نفسى.. أريد العودة إلى برّ مصر.

كنت أقول الحقيقة، فلقد زاد شوقى وتوحشى إلى بلدى كثيراً، وكنت أرغب فى البحث عن ثاونا والوقوف على أثره، وقد عاهدت الله على ذلك، ونذرت نذراً فى نفسى إن وجدته وهو أن أبقى زاهداً عابداً طيلة ما تبقى لى من عمر.

قال اليشكرى:

– ليكن. لكنى سأذهب إلى دمشق، حتى يصلح أمرى، ومنها سأرتحل إلى الغرب، فأنا أريد أن أذهب حتى آخر بلاد المسلمين، وقد يهدينى الله، فأهدى قوماً غير مؤمنين، وقد ألتحق بحلقات درس رؤساء العلماء هناك، فبلاد الأندلس عامرة بهم وبمعارفهم العظيمة، لكنى سأعرج قبل ذلك إلى مكة فأحج –إن شاء الله– وإلى الأقصى فأزور مقامات الأنبياء بمدينة القدس.

كنت فى شوق إلى الحج وزيارة قبر الحبيب كذلك، لكننى كنت أخشى أن يطول بى الزمن، فأعود إلى مصر ولا أجد ثاونا، أو يكون الله قد توفاه. وقعت بين نارين، لكننى قلت:

– فى نفسى نذر، أعاهد الله إذا تحقق أن أحج إلى بيته سبع حجات. كنت فى قرارة نفسى – وهذه الحقيقة – أريد أن أطلع ثاونا على حقيقة إسلامى، وأدعوه

إليه، كان هذا منتهى آمالى ومناى، وكان أمر ريطة يقلقنى كذلك، فأفضيت بذلك إلى اليشكرى وشاركته فى أمرها، إذ كنت حائراً، فأنا لا رغبة لى فيها، وكأن ما حدث لى بعد رؤيتها فى ليلة أن أمسكت بالجمر قد كان خاتمة شعورى بالنساء، وكأن ريطة لم تكن إلا سببا للمباعدة بينى وبين هذا الجنس، والزهد فيه، غير أنى كنت موقناً بمسئوليتى عنها، وقد غيرت حالها وأيامها، وبسببى تركت ما كانت فيه من نعمة وعزّ فى قصر الخليفة، فلما أفضيت بكل ذلك إلى اليشكرى وطالبته بنصيحة ينصحنى بها، قال:

– خيّرها بين البقاء فى بيت الشهاب، أو الذهاب معك إلى برّ مصر.

قلت بسرعة:

– لا. لا أريد لها الذهاب معى. لا أرغب فى صحبة النساء أبداً.

ثم إننى عندما رجعت إلى بيت الشهاب، وأثناء تناولنا العشاء، أطلعته على ما انتويته، فلما بلغت فى الحديث مسألة ريطة، قال لى بسعادة، وهو يبتسم، ما عقد لسانى، وهو أن امرأته الروايحية قررت تزويجه بريطة، بعد ما سألَتْها فلم تمانع.

أصر الشهاب الحلاج ألا أغادر بغداد إلا بعد أن يعرّس بريطة، وهكذا تريثت وقتاً حتى ليلة دخوله عليها. وكان أن ذهبنا إلى حمّام بسوق يحيى، وهو من الحمامات المعدودة بالمدينة، فلما دخلناه، وجدت أن حوائطه الداخلية وعند المغطس مكسوّة كلها بأجل أنواع الرخام الملون وأفضله، وأما مغطسه فكان مربع الشكل معقوداً ومطبقاً بجامات من الزجاج الملون، مما يسمح للنور بالدخول والكشف، وكانت هناك حجرة دافئة تلى المغطس، لا يوجد فيها مواقد ولا يشم الإنسان رائحة الدخان منها، والماء الساخن يجرى فى قناة تجعل المكان دافئاً لطيفاً، وكان هناك مكان آخر يدخل منه الماء البارد كذلك، ثم إننا خرجنا من مكان الاستحمام إلى مصاطب مكسوة بالرخام يقال لها الأواوين، وكنا جميعاً مؤتزرين فاسترحنا قليلاً، وتأهبنا للاستحمام الثانى، فدخلنا بيت الحرارة وهو الموضع الذى تكون فيه حرارة الماء على أشدها، فتركنا الشهاب للمدلك حيناً،

حتى انتهى منه، وغسله بالماء الساخن الذى يوجد بمغطس، وخلال ذلك رحنا نداعبه ونهزر معه، وقد تعجّبت من الكلام الصريح الذى تبادله الشهاب مع رفاقه، دون خجل أو حياء، عن النكاح والشهوة وطرائق المجامعة، وما سوف يكون عليه حاله مع ريطة عند دخوله عليها.

كان الشهاب لم ينجب من امرأته الروايحية، وقد خشي على نفسه من انقطاع الذرّية وضعف الباه، بعد أن عاشرها سنين بعد موت امرأته الأولى، زمن تفشى مرض الطاعون الدّملى الذى اجتاح المدينة، ودون أن يعقب من هذه المرأة، وقد تعجبت من الحمّامى، الذى راح يزيل الشعر من بعض المواضع بجسد الشهاب، إذ شارك فى الحديث وأفتى، حتى إنه نصح الشهاب أن يكون معتدلاً فى الامتلاء قبل الجماع؛ لأن الجماع على شبع يولّد وجع المفاصل، والنقرس، والدوالى، والفتوق، والأورام الخبيثة، والجماع على الجوع يضعف البصر، وينهك البدن، ويجلب الخفقان، واليرقان، والسل، وحمى الدق، وعقب أكل السمك أو اللبن، يورث الفالج، وبعد الحوامض يضعف العصب، ويورث الرعشة، وأجود أوقاته النصف الأخير من الليل وقد انهضم الطعام وسخن باطن الرحم، وقال: إن الشهاب سعيد الطالع؛ لأنه سيدخل على عروسه والقمر فى حال اتصال بالزهرة، وإن اللذة ستكون عظيمة؛ لأن الوقت هو وقت البروج الهوائية، ووقت الميزان؛ لأنه لا يجوز الجماع والقمر فى الترابيّة، ولا فى الاحتراق، ولا قرب مفارقة الشمس، ولا عند الاتصال بزحل والمريخ، وكان من الموجودين معنا واحد من أصحاب الشهاب يدعى خليل النسّاج فتكلم فى أمر بدا غريباً، بالنسبة لى، إذ أشار إلى أنه كثير العزل مع امرأته وهو يخشى أن يصيبه مكروه بسبب ذلك، وإنما هو اضطر لذلك بسبب تحرّجه من كثرة الأولاد، والاحتراز من الحاجة إلى التعب فى الكسب، ودخول مداخل السوء، وكان المزين قد جاء ليستلم الشهاب وحضر هذا الكلام، فقال: إنّ العلماء اختلفوا فى إباحته وكراهته على أربعة مذاهب: فمن مبيح مطلقاً بكل حال، ومن محرّم بكل حال، ومن قائل يحل برضا المرأة، ولا يحلّ دون رضاها، ومن قائل يباح فى المملوكة دون الحرّة، لكنه من الآداب أن لا يعزل بل لا يسرح إلا إلى محل الحرث، وهو الرحم، وإنه سمع كلاماً من شيخه بخصوص هذا ومنه أن الولد يتكون بوقوع النطفة فى الرحم لأربعة أسباب، هى:

النكاح، ثم الوقاع، ثم الصبر إلى الإنزال بعد الجماع، ثم الوقوف لينصبّ المنى فى الرحم، وبعض هذه الأسباب أقرب من بعض، فالامتناع عن الرابع كالامتناع عن الثالث، وكذا الثالث كالثانى، والثانى كالأول، وليس هذا كالإجهاض والوأد؛ لأن ذلك جناية على موجود حاصل، وله أيضا مراتب، وأوّل مراتب الوجود أن تقع النطفة فى الرحم، وتختلط بماء المرأة، وتستعد لقبول الحياة، وإفساد ذلك جناية، فإن صارت مضغة وعلقة، كانت الجناية أفحش، وإن نفخ فيه الروح واستوت الخلقة ازدادت الجناية تفاحشاً، ومنتهى التفاحش فى الجناية بعد الانفصال حياً.

ثم إن المزيّن تعهّد الشهاب، وكان رجلا خفيفاً رشيقاً بصيراً بالحلاقة، فشذّب شعر رأسه ولحيته وشاربه وسوالفه بأمواس جيدة، وقد اعتذر لنا عن علكه لبانا بمسك لأنه أكل ثوماً وكراثاً، وهذا مما لا يجوز بالنسبة لمن اشتغل بمهنة التزيين، المتطلبة لطيب النكهة وحلو الرائحة.

فلما انتهينا، دفعنا لصاحب الصندوق ما علينا، وبذلنا للقيمين والزبّالين والوقّادين، والسقّائين، وكلّ من قاموا على خدمتنا فى الحمّام، واهتمّوا بالشهاب على أكمل وجه، ثم خرجنا بصاحبنا إلى داره، وقد تعطّر بطيوب زكية، وكان أن أُعدّ مجلس رقص وطرب فى قاعة رحبة من قاعات الدار، صفّت فيها صنوف عدّة من مآكل ومشارب فحفلت المائدة بهارونية لحم، وهريسية، كنت قد تذوقت مثلها ذات يوم فى مطبخ الخليفة أثناء عملى بالوقايد، وذلك ضمن ما كانوا يقدمونه لنا من بقايا مائدة الخليفة، فأدركت أن ريطة ربما تكون قد عملتها خصيصاً لأجل العرس، وكنت قد استعلمت آنذاك عن كيفية صنعها من واحد من الطهاة المعدودين والمعروفين بمهارتهم فى القصر، وهو كاظم بن سابور الطاهى، فقال: إنها تعمل من اللحم البقرى السمين أو الضأن، وشرطه أن يكون لحماً فتياً، نقيّا من الجلود، والغدد، والعروق، والأعصاب، طرياً غير مفتّت ولا متغيّر الرائحة، ثم ينقع بعد غسله فى الماء والملح، وينضج على نار هادئة حتى يذوب اللحم مع البرّ الذى يضاف إليه مع اللوز والملح والبهار والخولنجان، وقد قال كاظم إن هذا الطعام قد ابتدع فى زمن واحد من أكاسرة العجم يدعى كسرى أنوشروان.

وإضافة إلى ذلك كانت هناك نوفرية، ومطجّنات. وموصلية، وكمّونية ورءوس وأكارع، أما الحلويات، فقد حفلت المائدة بصنوفها كالأبهاظات، والبرزق المطبوخ بالجبن، والجوارش المطيّبة بالمسطكى، والنارنج، والعنبر، والعود، والحلوى المأمونية، هى من الأكلات التى كانت قد شاعت واشتهرت ببغداد منذ أن تحكم ذلك الخليفة فى البلاد، ذلك عدا الخراريف المشوية والثريد، والأشربة المسكّرة، والمعطّرة بالرياحين وماء الورد، والكشك الطيب المعمول بالأرز والخضرة والأدهان والسمن، المطبوخ بلحم الضأن السمين، على عكس كشكنا فى بر مصر، الذى يطبخ بسمك البورى السمين أو ببعض الطيور المهاجرة الحاطّة على أراضينا كالسمّان والبشروش وغيرها.

ثم أُعلنَ عن وصول أصحاب الملاهى والطرب، فلما اتّخذوا مواضعهم وبدأوا العزف بالعيدان، واللعب بالنايات، والطنابير، والقيثارات، والمزاهر، والكنارات، والنزهات، والصنوج، والشفرات، والرباب، والقانون، انتعشت الأرواح ونعمت بسحر الموسيقا، واسترخت الأجساد لحدوث النشوة وبلوغ المتعة، وكانت سعادتى لا توصف لحضور الحسين بن فالح المراغى الذى لم أكن قد التقيته منذ زمن طويل، فتعانقنا ورحنا نتحادث طويلاً فى أموره وأمورى، وكيف سارت أحوالى بعد أن فارقته منذ خروجى من قصر الخليفة، وبينما كنّا منشغلين بالكلام، سحبنى الحسين لنجلس إلى جوار رجل من العوّادين، وكان العازفون قد توقفوا ليأكلوا ويشربوا شيئاً قبل مواصلتهم الألحان. وكنت أدرك مدى شغف الحسين بالغناء والنغمات، ثم إنه سأل الرجل عن عوده، إذ رآه غريباً غير مألوف بخمسة أوتار، فقال العوّاد إنه من النوع الزريابىّ الذى يعزّ مثله ببغداد، وإن الوتر الخامس فيه، قد أضافه مغنّى الأندلس الأشهر زرياب، وإنه – أى الرجل – اشتراه حين ارتحل ذات مرة إلى الغرب، وكان ذلك الوتر اختراعاً من زرياب، ضمن ما اخترع، فالصنعة القديمة كانت أربعة أوتار تحتيماً للمناسبة العددية بين هذه الأوتار والطبائع الأربعة فزاد زرياب ذلك الوتر وصبغه باللون الأحمر – كما يتّضح – وجعله متوسطاً فى موضعه بين الأوتار الأربعة، وذلك أن الزير، وهو

أكثر أوتار العودِ حدة، كان يُصبَغ باللون الأصفر ليكون فى العود بمنزلة الصفراء فى الجسد، وصبغ الوتر الثانى بعده باللون الأحمر وهو منِ العود بمنزلة الدم من الجسد، وهو فِى الغلظ ضعف الزير ويسمى المثنى، وصبغ الوتر الرابع باللون الأسود وجعل من العود بمنزلة السوداء من الجسد وسمي البم، وهو أغلظ أوتار العود وأعلاهَا من حيث الوضع، وهو ضعف المثلث الذى عِطّلِ من الصبغ وترك أبيض اللون ليكون من العود بمنزلة البلغم من الجسد، وجعل ضعف المثنى فى الغلظ فلذلك سمى المثلث، وهكذا قوبل كلّ طبع بضدّه حتى اعتدل واستوى كاستواء الجسم بأخلاطه، فزاد زرياب هذا الوتر، وقال: إن أوتار العود الأربعة على النحو الذى جرى عليه العرف، سايرت طبائع الجسد، لكنها عطل من النفس، والنفس مقرونة بالدم، لهذا وجب إضافة الوتر الخامس وصبغه باللون الأحمر، وهو الوتر الأوسط الدموى، ويجب أن يكون تحت المثلث، وفوق المثنى لاستكمال قوى الطبائع الأربعة فى العود وليكون مقام النفس فى الجسد.

ثم إن العوّاد أبرز لنا مضراب العود وهو ريشته، وقال: إنها من قوادم النسر، وهذا مما أشار به زرياب أيضاً، وهى أفعل وأكمل من الخشب، إذ تجمع إلى لطف خفتها على الأصابع طول سلامة الوتر بملازمة الضرب عليه، فتعجبت لذلك كثيراً، ثم إن الموسيقيين عاودوا عزوفاتهم غاية فى حسن التناغم والإيقاع، فقامت جماعة من الحضور للرقص والسرور، وكانوا غاية فى الظرف وخفّة الروح، وحسن الطبع على الإيقاع، فلما انتهوا وسكنوا، قامت جارية سوداء للرقص وكانت طويلة العنق والسوالف، حسنة الدلّ والشمايل، والتمايل فى الأعطاف، ودقة الخصر، وحسن أقسام الخلق، ومواقع المناطق، واستدارة الثياب فى أسافلها، ومخارج النفس والإراحة والصبر على طول الغاية، ولطافة الأقدام، ولين الأصابع، ولين المفاصل، وسرعة الانفتال فى الدوران، فلم يتمالك خليل النساج نفسه وراح يغنى قائلا:

ظـباء كالدنانـير   مـلاح فى المقاصير
جلاهـن السعانين   علينا فى الزنانـير

وقد زرفن أصداغــا كأذنــاب الزرازيـــر
وأقبــلن بأوســاط كأوسـاط الزنابـــير

فما كاد ينتهى حتى رأيت الشهاب يتغيّر لونه ويسهم، وبدا لى متكدراً، وأظن أن الجميع لاحظوا ذلك؛ لأن اليشكرى مال إلىّ وكان حاضراً إلى جانبى، وقد دعاه الشهاب كرامة لى لما عرف بصحبتى له، ثم قال:

- ألم يجد هذا الرجل غير ذلك ليتغنّى به فى هذه الليلة، وفى عُرس الشهاب، ألا يعلم أن هذا الغناء الذى شاع فى المدينة الآن إنما هو من نظم الخليفة نفسه، وأنه سأل أحمد بن صدقة الطنبورى أن ينشده له يوم السعانين، وهو عيد للنصارى يعملونه كل عام فى المدينة. وكانت بين يدى الخليفة عشرون وصيفة رومية مجلوبة، وقد تزيّنّ بالديباج الرومىّ وعلّقن فى أعناقهن صلبان الذهب، وفى أيديهنّ الخوص والزيتون، فقال فيهن الخليفة ما قال. أو لا يعلم هذا الأحمق أن الشهاب من الكارهين للخليفة؛ لأن أهله من السواد بقرية من القرى المحيطة ببغداد، وأن جنود الخليفة قد جاروا على أرض وزرع لهم، وسرقوا دواباً تخصهم، دون أن يفعل لهم شيئاً أو يعاقبوا على هذا الإثم الشنيع. ويقال: إن الشهاب - والله أعلم - بات ينتسب إلى جماعة من الجماعات المناهضة لبنى العباس، وقد يوبّخونه على ذلك الغناء، فلا بد أن يكون بعضهم هنا ضمن الحاضرين.

دهشت من ذلك الكلام وكنت أسمعه لأول مرة، فهذا الأمر عن الشهاب لم أعرفه أبداً، رغم معاشرتى له، وإقامتى فى بيته منذ خروجى من قصر الخليفة، صحيح أننى لا أذهب إليه بعد مغادرته فى الصباح الباكر إلا لأبيت فى الليل، لكنى لم ألحظ عليه أمراً يدلّ على أن له جماعة تناقض دولة الخليفة، وإن كان يبدو لى متذمّراً، متبرّماً مما يحدث فى البلاد، وفى مرّة سألته عن حقيقة الفارس ذى الرمح المنتصب على قبّة السور فضحك، وقال: إنه يتجه الآن بسهمه إلى البذّ بخراسان. فلم أفتهم ذلك وقتها، لكنى علمت بعد ذلك من اليشكرى أن البذّ هى بلد واحد من الخارجين على الخليفة اسمه بابك.

لم أعلّق على ما همس اليشكرى به فى أذنى، وقلت لروحى: فى بغداد كل شىء جائز حتى نكاح العجائز، وهذه مدينة الغرائب والعجائب ذات الألف وجه،

والتى كلما ظننت أننى أعرفها وخبرتها وكشفت كل وجوهها، إذ بها تسفر لى عن وجه جديد لها.

كان رأسى قد بدأ يدور وقد شربت شيئاً مما يُسكر مجاراة للجميع ورغبة فى إبراز المرح والسرور، فبقيت ساهماً متفكراً بينما عيناى تتابعان الراقصين، ورقصهم المستعر، وصخبهم، خصوصاً عندما بدأوا يرقصون نوعاً من الرقص العجمى، كان قد شاع فى بغداد، يسمى الدستنبد والإيلا، وكنت حينئذ أفكر فى آمونة، وسويلا، وريطة، وما كان من أمرهنّ معى، وكان هجسى بريطة يأكلنى من الداخل، وقد تساءلت عما سيفعله الزمان بها بعد ذلك، خصوصاً بعد ما سمعته الآن عن الشهاب الحلاج، وتبدّل أيامها من حياة العزّ والقصور، إلى حياة الرعيّة، وتواضع الدور، فها هى خرجت من قصر لتستقر فى ربع، وكانت ذات يوم جارية مرغوبة، فصارت الآن ضرّة منكوبة، ورحت أسائل نفسى: هل جنيت عليها يوم وضعنى القدر فى طريقها، فربط مصيرها بمصيرى بعد ما جرى فى قصر الخليفة، أم كان ذلك مقدراً مكتوباً فى لوحها المحفوظ قبل أن تولد، فتحتّم عليها الخروج من رقّ الغنى إلى حرّية الفقر، ومن ذلّ القصور المنسوج بالذهب والفضة، إلى كرامة الستر، وتواضع العيش.

خرجت من بغداد بعد ذلك بأيام، بعد أن رتّب الشهاب كل ما يتعلّق بأمر خروجي، فكانت مغادرتي المدينة وقت اقتران الرأس والمشترى كما قال لى، وكنت قد ذهبت إلى زاوية شيخي وصلّيت ركعتين، ودعوت الله تبارك وتعالى أن ييسر لى أمرى، وكان اليشكرىّ فى وداعى، وقد أهدانى قميصين وبدنة بغدادية، لم أر أجمل منها، لأرتديها وقت السفر، فشكرته بعد أن اعتنقنا طويلاً، ثم ركبت راحلتى وكانت بزدوناً عفيًّا، قدّمه لي الشهاب، وقد أعطتنى امرأته الروايحية عطوراً فى قوارير زجاجية عدّة، كى أهديها لمن أشاء أو أتريح بها، وقد أنتفع ببيعها إذا ما اضطررت أثناء الطريق.

كان بجيبى دراهم قليلة، وكنت قد دفعت معظم دراهمى التى اكتسبتها أثناء اشتغالى فى الوراقة، والتى كنت أدّخرها لدى امرأة الشهاب- إلى صاحب القافلة التى ستؤمّن رحلتى وذلك قبل خروجي من المدينة. أما ربطة فقد زوّدتنى بكعك السميذ، وهو نوع من الكعك الجاف الملائم للسفر، وتمنّت لى كلّ خير وراحت تدعو الله طويلا أن يشملنى برعايته وبكل أمان وتوفيق.

ظللنا سائرين لمدة يومين بعد خروجنا، لم تتوقف خلالهما القافلة إلا للراحة أوالنوم، حتى بلغنا مدينة القدس، فلما نظرتها وجدت أنها مدينة مشيّدة على جبل، وكانت الأمطار وقت وصولنا تهطل بشدّة، فقالوا لنا: إن هذا دأبها فى القدس. وكان الغرض من دخولها هو أن يطرح بعض التجار الذين فى القافلة جانباً من تجارتهم وبضائعهم فيها، فلما أذن الحرّاس لنا بالولوج إلى داخل المدينة قاصدين أسواقها، سيّرونا إلى موضع يطلق عليه الأسواق الثلاثة، بالقرب من باب المحراب، وكان به سوق للعطارين وآخر للقماشين، ثم إننا عبرنا القيساريات، والخانات، والرباع التى فوقها، ثم الفنادق، حتى وصلنا إلى خان كبير مبنىّ من

الحجر الورديّ الجميل، وكان يتوسطه فناء على هيئة رواق مغطّى، فنزلنا إليه وعقلنا دوابنا، وكان هذا الخان كما عرفت بعد ذلك يسمّى خان الفحم ويقع فى الشارع الرئيسىّ من المدينة، المسمى بخطّ داود عليه السلام، وهو الشارع الأعظم وابتداؤه من المسجد الأقصى من عند باب السلسلة إلى باب المحراب، وهو باب المدينة المعروف بباب الخليل.

وكنت خلال الطريق قد تعرّفت على رجل يتاجر بالبهار، وبدا لى من أفضل الناس وأحسنهم خلقاً، وكان سبب ذلك أنه فى مبتدأ الأمر، وأثناء وقوفنا للراحة فى قرية من القرى التى كنا نتوقف عندها بين الحين والحين على الطريق الخارجة من بغداد، كنت ألاحظ أن الرجل كثيراً ما ينظر إلىّ ويتفحصنى، فكرهت ذلك منه، وتمللت وقد استربت به، فبادرته بالقول :

– يا شيخ قد ألححت فى النظر، أعرفت شيئاً عنى فأنكرته. قال: لا والله ما عرفتك قبل رحيلنا هذا، ولا أنكرك لسوء أراه فيك، لكنى رجل حسن الفراسة فى الناس، جيّد المعرفة بهم، وإنك ذاهب للبحث عن إنسان عزيز على نفسك، ولسوف تبذل جهداً ووقتاً حتى تجده، وهو جدّ مريض، وقد تدركه أولا تدركه، فهذا أمر لا يعلمه إلا الله، لكنك فى طريقك إليه سوف تواصل مسيرك الذى بدأته، ولن تعود منه أبداً. فتعجّبت لذلك كثيراً، وإن كنت انقبضت وخشيت أن يكون قد حدث مكروه لعزيز عينى ثاونا، فلما سألته كيف تفطّن إلى هذا، أمسك، وبدا وكأنه متمنع عن البوح بأمره لمن هو مثلى، فداخلنى ضيق وقد كرهت استعلاءه، فألححت عليه وقلت :

– إن ما أفضيت به إنما هو من قبيل الشعبذة والخرافة، فلا يعلم الغيب إلا الله. ألم تقرأ الآية الكريمة ﴿كذب المنجمون ولوصدقوا﴾؟ فردّ بسرعة، وقد أدرك ما بباطن كلامى: لا. لست منجماً والله، والفراسة علم وبحر، ألم تسمع ما فاض به الشيخ الفيلسوف عن ذلك، إذ قال:

«وإن البصر البرانى، لا يرى المحسوسات إلا حين تنقشع الظلمات بنور الشمس، وإلا حين تختفى الحواجز التى تفصل بين البصر وموضوعاته، كذلك

البصر الجوانى، ليس فى مقدوره أن يدرك العالم الروحانى، إلا إذا تطهّرت مرآة القلب من الشهوات، التى تمنع انعكاس النور الإلهى».

ثم أضاف:

- لقد قرأت ما أنت مقبل عليه بالفراسة، وقد لاحظتك وراقبتك أثناء الطريق، وخبرت شدّة صوتك وضعفه، ونزوع رقبتك وحركتها، ورسم أنفك وعينيك، وأحوال شعرك، ورائحة بدنك، وحالة أسنانك، وصورة يديك وقدميك، وما عليه حال أظافرك وأصابعك. فتعجّبت لكلامه كثيراً، وتذكرت أن شيخاً من أحناف حرّان قد أتى إلى دكان العفيف ذات مرة طالباً نسخ كتاب وصفه بأنه عزيز ونادر، وقال: إن الخليفة منذ زمن كان قد طلب من أكبر مترجميه العثور على نسخة منه وترجمته إلى العربية، لما به من فوائد حكمية وثمار معرفية، وإن المترجم ذهب مرتحلاً بنفسه إلى بلاد اليونان، فيما وراء البحر الرومى، وعثر على الكتاب وكان اسمه سرّ الأسرار، وهو من وضع حكيم قديم، يدعى أرسطو، لملك من أشهر الملوك، وكان ذلك فى معبد من معابد الوثنية هناك وهو معبد الشمس، وإن هذا الكتاب منحول عن قرطاس قديم لهرمس الأكبر المعظم ثلاثاً، وإن الرجل عثر على قرطاس عليه الكتاب بالفارسية فترجمه عنها.

وأثناء مبيتنا بالخان أنبأنا رجل هبط المدينة، وكان ببلاد اليونان، أن نيقفور ملك الروم زحف إلى بلاد البلغار وحاصر عاصمتهم، ودوّخها، وخرّبها، وقتل خلقاً كثيراً، وبلغت منه الفظاظة أن جعل يسطّح الفتيان على الحضيض، ويطأهم بالجراجر.

ثم إنّه بعد ما جن الليل ونمنا، تنبهنا جميعاً على صوت ضحك عال وقهقهات زائدة عن الحدّ، فقمنا نستجلى الأمر، فإذا بواحد من التجار قد انتابته نوبة ضحك، لا يستطيع السكوت عنها أو الفكاك منها، وعجزنا عن إسكاته بكلّ الطرق والحيل، بما فى ذلك الزجر، والشتم، والضرب، وصب الماء، والإيلام بالوخز، واللطم، والقرص، وقراءة الآيات الرادعة، وقد ظنّ البعض أنه أصيب بمسّ من شيطان، وما لبث على هذى الحال ساعة إلا ومات، فارتاب بعض الشيوخ الذين

كانوا معنا فى الأمر، وكان مع الرجل عبد حبشىّ أسود، فأخذوه للتقرير، وراحوا يسوطوه بشدّة بعد توثيقه، حتى أدمى ولم يستطع مناهضة الألم، فأقرّ أنّه سقى الرجل سمًّا يسمى السم الضحّاك، فلما أراد هؤلاء الشيوخ الوقوف على كنهه، أخبرهم أنه أخذ من القرنفل عشرين درهماً، ومن الدار صينى مائة درهماً، ومن الزنجبيل خمسين درهماً، ومن الفلفل خمسين درهماً، ودقّ ذلك كله دقّاً ناعماً، ثم ألقى عليه وزن خمسة أرطال من الماء، ونقعه يوماً وليلة، ثم أخذ من الزعفران وزن رطل ودقه دقًّا ناعماً، ونقعه فى الماء، الذى هو خمسة أرطال، مخلوطاً بالأجزاء السابقة، وتركه أيضا يوماً وليلة، وبعد ذلك مرسه، ثم تركه حتى صفا فوقه ماؤه، ونقع فيه من زعفران آخر ربع رطل، وتركه يوماً وليلة، وهكذا إلى ثلاث مرات حتى صار سماً قاتلاً، وإنّه أعطى المغدور منه وزن درهمين، وقت عشائه، بعد أن خلطه بعسل، وكان من عادة سيّده شرب العسل المخلوط بماء بعد صلاة العشاء، وكان ذلك كلّه بسبب أن الرجل هدده أكثر من مرة بخصيه، بعد أن اتّهمه بالتقاعس عن العمل، وإنه كان يخشى أن يقوم سيّده بذلك كثيراً، وخاف أن يفعل ذلك عندما تهبط القافلة إلى مصر.

فلما جاء النهار أخذوا الخادم وسلّموه إلى متولى الدرك بالمدينة. أما الميت فقد صبرنا عليه حتى جلبنا من السوق كفناً له، فغسّلناه، وكفنّاه به، ومضينا به خارجين من الخان حتى مسجد المدينة الأعظم، فصلّينا عليه وواريناه فى مقبرة بالقرب من المسجد، أما تجارته فقد حصرناها وبقيت وديعة لدى صاحب الخان، حتى يطير البرق إلى ذويه.

لم أكن قد رأيت مسجداً بعظمة المسجد الأقصى، فلما خرجنا من المقبرة استأذنت من كانوا معى أن أتركهم، وعدت إليه لأجوب فيه وأشاهده بتمعّن وتمحيص، وقد تأكّد لى أثناء ذلك أنه من المساجد العجيبة، الرائعة، فائقة الحسن، وهو ذو أبواب كثيرة فى جهاته الثلاث، والمسجد كلّه فضاء، وغير مسقف إلا من عند نهايته، على الغاية من إحكام العمل وإتقان الصنعة، مموّه بالذهب والأصبغة الرائقة، وصحنه طويل عريض، طوله أكثر من عرضه، وهو فى غاية الحسن

والإحكام، مبنيٌ على أعمدة الرخام الملونة والفسيفساء التى لم أر أحسن منها ولا حتى فِى كِنيسة أنطاكية، وفى ذلك الصحن مصطبة كبيرة فى ارتفاع خمسة أذرع يصْعد إليها من عدّة مواضع بالدرج، وفى وسط هذه المصطبة قبّة عظيمة مثمّنة على أعمدة رخام مسقّفة برصاص، منمّقة من الداخل والخارج بالفسيفساء، مطبّعة بالرخام الملون، وفى وسطها الصخرة التى تزار، وعلى طرفها أثر قدم النبى عليه الصلاة والسلام، وتحتها مغارة، ينْزل إليها بعدّة درج يصلّى فيها، ولهذه القبة أربعة أبواب وفى شرقيها، خارج القبّة، قبّة أخرى على أعمدة حسنة، يقولون إنها قبّة السلسلة، وقبّة المعراج أيضا على المصطبة، وكذلك قبّة النبى صلى الله عليه وسلم، كلّ ذلك على أعمدة مطبّع أعلاها بالرصاص، هذا وقد حفرت فى أرض المسجد أحواض وصهاريج كثيرة، فإن المسجد مشيّد كله على صخرة يتجمّع فيها ماء المطر، فلا تضيع منه قطرة وينتفع به الناس.

ظللت أطوف بالمسجد حتى ما بعد صلاة العصر، فلما توضأت وصلّيت وحمدت الله، انصرفت إلى جوار حائط من الحوائط بصحن المسجد، فجلست وكنت قد تعبت من كثرة التجوال فى الجامع، ومما كان من مسيرنا إلى المقبرة، مع عدم كفايتى من النوم فى الليلة الفائتة، وبقيت وقتاً متأملاً أحدّق فى السموات المفتوحة فوقى، والأرض الظاهرة على البعد أمامى، بمروجها، وزروعها، وتلالها، ومنازلها، ورحت أتفكّر فيما قاله شيخى ذات يوم وهو يحدثنا عن يقينه، إذ قال:

– وجدت الحرّ مضاداً للبرد، ووجدت الضدّين لا يجتمعان فى موضع واحد من ذات نفسيهما، فعلمت من وجودهما مجتمعين أن لهما جامعاً جمعهما، وقاهراً قهرهما على خلاف شأنهما، وما جرى عليه القهر فضعيف، وضعفه ونفوذ تدبير قاهره فيه دليل على حدثه، وعلى أن له محدثا أحدثه، ومخترعاً اخترعه، لا يشبهه؛ لأن حكم ما أشبهه حكمه فى دلالته على الحدث، وهو الله رب العالمين.

وبقيت على هذى الحال وقتا أتأمل الكون وعظمته حتى استرخت أعضائى ولانت، وضعفت ملكاتى، وتشوش صفاء تنبّهى، فحدّثتنى نفسى أن أستسلم إلى ما يلزمنى من وجبة نوم، تعيننى على ما تبقى من النهار، وما قد يكون فى الخان

باللیل، وبقیت وقتاً مفتوح العینین ساکناً، أحدق فی السماوات المفتوحة فوقی وأتأمل عظمة الخالق، وقد لفّنی نسیم رطیب أنعش روحی، وسکّن حواسی، وشیئاً فشیئاً وجدتنی أدخل فی نوم هانئ رضیّ، ولا أدری کم لبثت من الوقت علی هذی الحال، إذ أفقت علی حلم لا أدری أکان، أم کان ما رأیته هو رؤیة الحقیقة والعیان ؟! إذ وجدت عزیز عینی ثاونا، وقد جاءنی علی الهیئة التی رأیته فیها من قبل، أثناء اختبائی فی الأراضی الموحلة، وهو واقف علی علّیة وبیده نقف ویقول لی بوجهه النورانی الطیّب:

- لم السرعة؟! ابق فی مدینة الأنبیاء حتی تشبع روحك، وتُعمّر بالإیمان، ثم تعال.. سأنتظرك حتی تجیء.

بقیت فترة واجماً حائراً.. لا أصل إلی یقین حول ما وقفت علیه، ورؤیتی لثاونا، ثم إن الله هدانی إلی أمر، وفتح لی فتحاً مبیناً، إذ قرّ أمری علی عکس ما کنت انتویته وعزمت علیه، قمت بسرعة، وذهبت إلی الخان، وهناك التقیت رئیس القافلة، فأنبأته أننی لن أرحل معهم فی صبیحة الیوم التالی، وسأبقی وقتاً فی مدینة الأنبیاء هذه. ثم إننی جمعت حوائجی القلیلة وخرجت بعد تودیعی لکل من کانوا معی، وبینما أنا خارج إذ التقیت علی الباب الفرّاس الذی کان قد کلمنی من قبل، فلما أخذت فی تودیعه نظر إلی قلیلاً، ثم قال :

- ألم أقل لك إنك ستمضی فی طریق لن تعود منه أبداً؟

سُحتُ فی القدس زمناً، ومرّت علیّ شتاءات وراء شتاءات، وأصیاف وراء أصیاف، وقد تعوّدتنی المدینة مثلما تعوّدتها، فصرت أبیت فی الجوامع حیناً، وفی الأسواق حیناً، وفی براریها أو بساتینها حیناً آخر، وقد أخذتنی المدینة، کما لم تأخذنی مدینة أخری من قبل، وبت لا أستطیع البعد عنها، وکأن روحی لا تعرف موضعاً فی هذه الدنیا کلها لتستریح وتطمئن إلا فیها.

کنت أنصرف إلی الکنائس أیاماً وإلی المساجد أیاماً أُخر، أو أصعد القلعة فأنصرف إلی الجانب الغربی مِن سورها إلی محراب داود بقلب الجامع المبنی هناك، وأبقی فی المرتفعِ الذی یطلع إلیه بدرج حیثٍ مکان جلوس النبی داود

عليه السلام، وأظل وقتا أنظر من الطاقة الحجرية الكبيرة حيث أثر مرفقه الغايص في الحجر، وأتعجب لتلك البلاطة التى طبع عليها المرفق، أما كنيسة القيامة، والتى عماراتها من العجائب المذكورة، فطالما كنت أذهب إليها بين الحين والحين وأنظر موضع جلوس السيّد على الحجر، والموضع الحجرى الذى سِيط وجلد وتعذّب فيه عليه السلام، وكذا السجن الذى وضع فيه، وكنت أبقى حتى يأتى واحد من آل نسيبة أو آل جودة وهما عائلتان من عائلات المسلمين كان منوط بهما فتح وإغلاق الكنيسة وحفظ مفاتيحها.

وصرت أتعيّش بما يقدمه لى الناس من صدقة وإحسان، وقد انصرفت فى جلّ وقتى إلى الصلاة والتعبّد، وفضلت السياحة على سواها من أمور الدنيا، فكنت أنحدر حيناً إلى دير المصلّبة، وهو دير رومى قديم البناء بالحجر والكلس، محكم الصنعة مونق البدعة فى بحيرة من أشجار الزيتون والكروم والتين، بإزاء قرية تجرى على الدير، وكان بداخل الدير صور يونانية غاية فى محاسن التصوير، وتناسب المقادير، وأذهب حيناً آخر إلى نشز عال مشرف على غور أريحا، به دير يسمّى دير السيق، وهو مطلّ على تلك البسائط الخضر ومجرى الشريعة، فكان يتلقانى هناك رهبان ظراف أكياس، فيقدمون لى مما عندهم من خبز وفاكهة ويتركوننى أنصرف إلى التأمل أو الصلاة، وبقعتهم لا يأتيها إلا قاصد لهم أو مارّ فى مزارع الغور تحتهم، وفوقهم الطريق الآخذة إلى الكثيب الأحمر بعد ذلك.

وقد حدث أننى كنت فى واد يسمى وادى اليوسيفات، وبه عين ماء، فوجدت جماعة من النساء قد جئن وبينهن امرأة شابة من أجمل خلق الله، ثم إنهن دفعن بالمرأة إلى العين فقذفت ببعض من أثوابها إلى الماء، وشربت منها، فلما فعلت ولبثت واقفة على رجليها، هللن جميعاً، وزغردن، وقلن إنها طاهرة بريئة، فتعجّبت لذلك واستجليت الأمر، فعرفت أن ذلك النبع يسمى نبع العذراء، أو نبع النساء المتّهمات، فأى واحدة تتّهم فى شرفها يؤتى بها إلى هذا الموضع لاختبارها، فمن تشرب من ماء العين وتموت تكون خاطئة، أما إذا كانت بريئة فلا تصاب بأى أذى أو ضرر، ويقال: إن السيدة مريم عليها السلام قد قبلت

الاختبار، وشربت من ماء هذى العين، فبرهنت على طهرها فلم تطعن وتموت، ومنذ ذلك الحين والنبع يحمل اسمها.

لا أدرى كم من الوقت مرّ بى وأنا فى مدينة الأنبياء، ولقد مرّت أيام وشهور وأنا أسوح فيها هنا وهناك، وقد صفت نفسي بها، وهنأ عيشى بربوعها، رغم أننى كنت بلا عمل، أتعيش من ثمار البرارى وأشرب من مياه الينابيع، وأتقوّت بما يجود الناس على به بين الحين والحين، دون أن أسألهم أو أطلب منهم شيئاً، فلقد كنت أذهب إلى سوق اللحم أو سوق الخضار بالمدينة، فأطلب ببعض من الدريهمات التى معى شيئاً مطبوخاً، أو مشوياً آكله، فأجد من يقدمه لى وهو يدفع بيدى رافضاً أخذ الثمن، ومرّة رفض صاحب دكان أن يأخذ منى أكثر من دانق مقابل صحن مملوء بخبيصة لحم وخضار، وكنت أتعجب لأن مطاعم السوق تكثر هنا فى القدس، وتشيع عادة الأكل فيها بين الناس، على عكس بغداد التى قلما يأكل الناس فيها خارج بيوتهم.

ثم إنه حدث لى أمر غاية فى الغرابة والتوفيق، وبدا لى أقرب إلى الخيال منه إلى الحقيقة، فبينما كنت ساهراً ذات ليلة فى زاوية الهنود الواقعة إلى جانب باب السامرة، وبعد أن أنهيت مع جماعة من الدراويش وصلة ذكر وإنشاد، أعقبناها برقص للحبيب على دق المزاهر، وبلغنا حالاً من النشوة وشدّة الوجد فتحتمت الدوسة، فما كان إلا أن تمددنا جميعاً على الحضيض، شاهرين كل سلاح نتسلح به من سيف، ورمح، وخنجر، وسكين، ثم جاء الشيخ الرئيس الواصل، وقد تجلّى وانجلى وأطلّ فأشعّ، وعكف فكشف، وسار بفرسه واطئاً جسومنا، ورماحنا، وسيوفنا بالحوافر، ولساننا يلهج بذكر الجلالة، وقلوبنا تدقّ بحبّ الحبيب، حتى واعدنا فغبنا، فما إن قمنا حتى ظهر على باب الزاوية رجل مشعث مغبر يدخل إليها وهو فى حالة شديدة من الضعف والإعياء طالباً إغاثته بشربة ماء، فلما هرعنا لنجدته جميعاً وسقيناه تبيّنت أنه اليشكرى الأبرص، فلم أتمالك نفسى وارتميت عليه أعتنقه وأقبّله شاكراً الله على لقائى به مرة أخرى فى هذه الدنيا، ثم إننا أطعمناه وتركناه يستريح حتى يسترد أنفاسه، فلما تحسّنت حالته خرجنا سويا إلى البساتين التى بظاهر المدينة، وتخيّرنا موضعاً من المواضع فيها، ورحنا نحكى لبعضنا البعض ما جرى لنا بعد افتراقنا فى بغداد، حتى طلع الفجر علينا ولاحت أنواره الربّانية، فقال لى اليشكرى: إن الشهاب الحلاج قد ارتحل مع امرأتيه إلى مدينة مرو، وهى بلدة امرأته الروايحية، بعد أن ضاق العيش به فى بغداد، وإن الخليفة مات، وجاء بعده خليفة آخر، وهو ظالم جاهل من أرباب السيف والرمح، ثم إن الزطّ وهم من الهنود الغجر المتوطنين بالسواد فى نواحى البصرة ما بين النهرين، ثاروا ثورة كبيرة ضد الخليفة الجديد، بعد أن ضاق بهم الحال طيلة العام المنصرم دون جدوى، وأنه استعمل ضدهم جماعة من

المصريين، الذين كان الخليفة السابق قد وضعهم فى أنطاكية، وذلك بعد أن استجلبهم إلى بغداد لمحاربة هؤلاء الزطّ، بسبب أنهم كانوا يطوفون ببحيرات يصبّ فيها الفرات ودجلة، ولا يستطيع جنود الخليفة الدخول إليها ومقاتلتهم؛ لأنهم كانوا يحاربون وهم في قواربهم، فقاتلوهم بالمزاريق وبعجوهم، فالتفّ عليهم الأقباط وأمسكوهم، وأمسكوا أهاليهم، وانقضى أمرهم فساقهم عجيف، متولى العسكر لقتالهم من قبل الخليفة، إلى بغداد، بعد أن طلبوا الأمان فأمنهم، وكانوا يعدّون ما ينيف عن الخمسة والعشرين ألفاً بين رجل وامرأة وصبى، فجعلهم فى السفن، وأقبل بهم حتى نزل الزعفرانيّة، وقد خرج كثير من أهالى بغداد لمشاهدتهم وكنت منهم، وكانوا فى زواريقهم وعلى هيئتهم فى الحرب، معهم البوقات، وكان عجيف قد وصل بهم الشماسيّة، فبقى الخليفة فى سفينة يقال لها الزو حتى مر به الزط، على تعبئتهم، ينفخون بالبوقات، فكان أولهم فى القفص وآخرهم بحذاء الشماسيّة، وأقاموا فى سفنهم ثلاثة أيام، ثم عبر بهم إلى الجانب الشرقي وذهب بهم إلى بلدة تدعى خانقين، وقيل إنهم سوف ينقلون منها إلى موضع آخر بالثغر يسمى عين زربة، فلما سمعت ذلك، دقّ قلبى دقاً عنيفاً، وقد أخذت بما قال، وتذكرت بخنس بن أيوب، وحيرتى مما يمكن أن يكون قد جرى له، وعدم وقوفى على حاله منذ مفارقتى إياه فى شاطئ الفرما، وكذا كل الذين كانوا على السفن عند خروجنا من بر مصر، وبقوا سالمين حتى دخلنا أنطاكية وتم فرزنا هناك، وكنت قد علمت أن كثيراً من الناس ممن لم يباعوا من أهل البشمور، قد وطّنوا، بأمر الخليفة، على جانب من بحيرة أنطاكية، فى منطقة المستنقعات التى بشمال المدينة، لتشابه ما خلق الله من أراضيها مع كور البشمور.

قلت بلهفة متسائلاً:

– والأقباط؟ قل لى بالله عليك، ماذا كان من أمرهم؟

نظر إلىّ اليشكرى بدهشة وكأنه استغرب سؤالى، أو استنكره، وبدا لى وكأنى سألته عن أمر لم يكن قد خطر على باله أو فكّر فيه من قبل، فقال بينما هو يخلع عمامته، ويعيد جدل ضفيرة شعره الأسود الحريرى وقد التمع على ضوء الشموع القليلة التى أوشكت على الذواء:

– الأقباط؟ قلت لك إن الخليفة استخدمهم فى محاربة الزطّ، لكن لا أدرى من أمرهم شيئاً. ربما ظلّوا فى مواضع الزط التى رحلوا عنها يشتغلون بما كان يشتغل به هؤلاء من صيد للأسماك، وتربية الجاموس، وعمل الملح، ولم روث البهائم لعمل الوقايد وتغذية أرض الزراعة، وربما حلّوا محل الزطّ فى الوحلات والمواضع التى حول البصرة، كواسط ونجيدا وصافية.

ثم إنه بدا كمن استدرك أمراً وقال مازحاً :

– لكنّ سؤالك عجيب، لا أحد فكر فى أمر الأقباط، أرغم كل الذى جرى لك، ورغم كل ذلك المكوث في بغداد، وإسلامك، تفكّر فى الأقباط ؟ والله يبدو أن بداخلك قبطيّاً، أو فرعوناً من الفراعين فى الحقيقة، إن ذهنى لم يتطرق إلى التفكير فى ذلك من قبل، ثم إنه ضحك وقال:

– فى أنطاكية. فى مصر. فى الشام. فى بغداد.. كلها أرض الله وبلاد الخليفة. كلنا عبيد الله. لا أظن أن مكروها لحق بهم. ولو كان الأمر كذلك، لما كان الخليفة قد استخدمهم لمحاربة الزطّ، وما يقع لهم، يقع لسواهم، سواء فى بغداد أو أنطاكية، أو مرو، أو خراسان، أو مصر، أو ما يقع لكل من لا حيلة لهم فى هذه الدنيا، ولا قدرة لهم مع أهل القوة وأصحاب السلطان.

ثم إنه سهم ببصره طويلاً، وقد تلبّدت عيناه بغيوم غم وضيق، ثم صرخ صرخة عظيمة فجأة وصاح: يا حبيب.. يا مجيب.

رحت أمد بصرى إلى الأفق القدسى أمامى، متطلعاً إلى نجمات أشعت علينا من السماء، أفكر فيما قال، وضيق يداخلنى؛ إذ إن ما أجابنى به لم يشف غليلى، ولم يرد على سؤالى، فبقيت ساكنا فى موضعى، بينما قلبى ينفطر على بخنس بن أيوب، وكنت أتساءل: ترى، هل وصل سالماً إلى أنطاكية بعد فراقى له فى الفرما، وجلب مرة أخرى إلى بغداد لمحاربة الزطّ، أم بيع فى سوق النخاسة بالشام، أم لقى حتفه وقبر بمياه البحر الرومى التى لا منتهى لها ؟ كانت الحسرة تأكل قلبى عليه، وعلى كل الذين رحلوا على السفن، وقد أيقنت أن من ماتوا فى الطريق إلى أنطاكية استراحوا من عذاب جديد، كان بانتظار أولئك الذين شاء الله أن يظلّوا

على قيد الحياة، وسرعان ما تذكرت ثاونا، وما قاله لى ذات يوم، من أن الروم فى زمن سطوتهم وبطشهم بمصر من دهور، كانوا يستخدمون الأقباط وقوداً لحروبهم، حتى إنّهم حاربوا مرة فى بلد فوق البحر الرومى وبلاد الجريك يسمى سويزرة، وكانوا يأخذون الجميع معهم، بما فى ذلك النساء القبطيات الورعات لرعاية الجرحى والتطبيب والتمريض، وكانت واحدة من هؤلاء النسوة يعقوبية طاهرة، فراحت تعلّم هؤلاء الناس، فى سويزرة هذه، أصول النظافة والعلاج، والديانة الحقّة حتى استشهدت وهى قديسة متفانية، فصنعوا لها ضريحاً ورسموا لها أيقونة، وعملوا كنيسة على اسمها تسمى كنيسة فيرينا.

داخلنى شعور جارف بالألم والمرار، وشملنى حزن نبيل، بينما كنت أتذكر كل ذلك، وطارت عصافير شوقى إلى برّ مصر، فرعف راعف الحنين بدمى، وتفجّرت ينابيع دمعى بلهفة الرواح والعودة إلى ترابى، وسمائى، ونيلى، وشمسى، ورحت أهمس لنفسى بما كانت قد دفعت إلىّ به الروايحية امرأة الشهاب، ذات يوم، لأكتبه لواحدة من صويحباتها، كانت على وشك الرحيل من بغداد إلى غزنة، مع رجل زوجوه لها من هذى البلدة، فأرادت أن توشّى بعضاً من أثوابها بجميل العبارات وأحسنها، كما جرت العادة وابتدع فى ذلك الوقت ببغداد، فكتبت لها - ضمن ما كتبت - على صدر قميص خزّ أكحل بالفضة والذهب، ما يذكّرها بأهلها ووطنها، وكان ذلك بخطّ كوفى نيسابورى شاع واستحبّ كثيراً لدى الناس:

سقى الله أرض العاشقين بغيثه ... ورد إلى الأوطان كل غريب

وأعطى ذوى الهيئات فوق مُناهم ... ومتع محبوباً بقرب حبيب

ثم إنّى بقيت فى البستان وقتاً مع اليشكرى، فأخبرنى أنه هبط المدينة؛ للبقاء فيها بضعة أيام، قبل رحيله إلى دمشق، وقد طلبها للعمل عند بعض ورّاقيها، كما وعده الجوهرى الذى التقاه فى بغداد، وأنه راغب كذلك فى زيارة مساجدها، ومقامات الأنبياء فيها، لكنّه لن يتمكن من الرحيل إلا بعد أن يستعيد قواه، ويبرأ مما هو فيه، لأنه سار طويلاً على قدميه، بعد أن مرضتِ راحلته ولم تعد تتحمل

الركوب، فعرضت عليه أن نبيت فى جانب من البستان الذى نحن فيه، ثم نسعى لحلّ مشكلته فى المدينة عندما يحلّ الصباح إن شاء الله.

وبقينا ساهرين نتحادث حتى قرب طلوع النهار، وظلّ اليشكرى يحكى لى عن أمور بغداد، وما استجد بها من أحداث بعد رحيلى، فقال إن الأحوال بها صارت على غير ما يرام، وإن أكثر الناس أصبحوا فى ضيّق العيش وصارت العامّة كثيرة التذمر، بعد أن فشا أمر الشطار، والعيارين، والمكدية، وغلب الفقر، حتى إن أكثر الناس صارت لا تأكل إلا السويق المصنوع من طحين الحنطة، أو الشعير المحمص المخلوط بالتمر مثلما يأكل الزنج والسودان، وهذا كان لا يحدث قبل ذلك، وأن الهريسة صارت هى الأكلة الفريدة التى لا تعرف غيرها كثير من البطون، حتى إن بعض الظرفاء قال فيها:

إن الهريسة أهواها وتعجبنى ... وبالهبطة قلبى جد مفتون
وإن ذكرت سواها هاج لى طرباً ... وإن أتى بعده لونان يكفينى

وقد تفشى الإملاق، وبات الناس يرفعون الرقع إلى الخليفة وأولى الأمر، حتى إن أحدهم كتب فى واحدة من هذه الرقع:

«إن مصائب الدهر وأعاجيب الأيام ومحن الزمان قصدتنى، فأخذت منى ما كانت الدنيا أعطتنى، فلم يسبق لى ضيعة إلا خربت، ولا نهر إلا اندثر، ولا منزل إلا تهدم، ولا مال إلا ذهب، وقد أصبحت لا أملك سبداً ولا لبداً، وعلىّ دين كثير، ولى عيال، وأطفال، وصبية صغار، وأنا شيخ كبير قد قعدت بى المطالب وكبرت عنى المكاسب، وبى نظر إلى أمير المؤمنين وعطفه إذ صرت على حال من قال:

لى بيت كأنه بيت شعر ... لابن حجاج من قصيد سخيف
أين للعنكبوت بيت ضعيف ... مثله وهو مثل عقلى الضعيف
بقعة صد مطلع الشمس عنها ... فأنا مذ سكنتها فى الكسوف»

وقال: إن العيارين بلغ بهم الأمر إلى محاربة الشرطة والافتتان معها، وصبّوا الماء عليهم، وطاردوهم فى الشوارع، كما إنهم أولعوا بأذى الخدم السود، وصاروا

يقولون لهم كلما صادفوهم: يا عقيق. وهم ينظّمون أنفسهم إلى عشرات، على كل عشرة منها عريف، وعلى كل عشرة عرفاء نقيب، وعلى كل عشرة نقباء قائد، وعلى كل عشرة قواد أمير، والرئيس وتحت إمرته عشرة أمراء، وهو الرئيس الأعلى للتنظيم العسكرى العيّارى، ومن رؤسائهم من يقال له نبتوية، وخالويه، ودويل، ودغال، وأبو نملة، وأبو عصارة، وديكويه، والمخرّمى، وإن البعض يقول إن عددهم ببغداد اليوم يزيد عن خمسين ألف عيار، حتى إنهم إذا تحركوا هلك بعضهم من كثرة عددهم وسرعتهم، وإنهم لا جنس معيناً لهم، بل إن أكثرهم من غير العرب، وبسبب سوء الأحوال فإن كثيراً من أهل الحرف، والباعة المتجولين، وصغار التجّار، الذين كسدت سوقهم وبارت بضاعتهم، باتوا ينضمون إليهم، إضافة إلى الأوباش وأهل السجون وأهل السوق.

لم نشعر كم لبثنا نائمين، إذ أفقنا قرب الظهيرة على صوت جلبة وصياح، فلما تبينا الأمر وتنبهنا، وجدنا أن أصحاب البستان قد جاءوا لشؤونهم فظنوا أننا لصان جاءا لسرقة مالهم وغلتهم، فأفهمناهم ما كان من أمرنا، وأننا من الفقراء إلى الله الذين لا غاية لهم فى هذه الدنيا، وأننا لسنا بسارقين، فلما استقروا على أمرنا، وآمنوا بحكايتنا، أكرمونا، وأطعمونا من خيرات أرضهم، ثم إننا سألناهم عن بيطار يداوى دابة اليشكرى فوصفوا لنا واحداً يقع دكّانه بحارة اليهود.

سحبنا البهيمة بعد ذلك، حتى وصلنا إلى حارة اليهود، وهو طريق يصل ما بين شارع داود وسور المدينة وليس ببعيد عن بوابة صهيون، ولم أكن قد دخلت هذه المنطقة من قبل، وكانت منازل قليلة متناثرة فى المكان هنا وهنا، وكانت بالحارة بضعة حوانيت معدودة، وقد وقف أصحابها على أبوابها أو للعمل فيها، وأكثرهم على حال بين من الفقر والرثاث، ثم إننا دلفنا إلى حارة أضيق، ضمن هذه الحارة، تسمى حارة الريشة، وكانت هى المقصودة والتى دلنا عليها أصحاب البستان، فسألنا عن البيطار نحمان بن عويديا، فدلونا على دكانه، فلما وصلناه استقبلنا الرجل، وسألنا عن علّة البغل الذى لليشكرى، فقال اليشكرى: إنّه يعانى كثرة حركة الرأس وقلة الأكل وسيلان الأنف وقد ظهر له بروز مستطيل خلف

الأذن، وهو لا يقوى على الحركة والنشاط، وكنت خلال ذلك أنظر للبيطار وأتأمل أدواته، فوجدت أنه ليس بالنظيف، ولا لطيف الهيئة، كما جرت العادة في أطباء الناس، لكنه بدا لي قويّ الذراعين، عبل البدن، خفيف الحركة، نصوحاً، صدوقاً، وكانت في ركن من دكّانه الوسيع ثلاث مطارق كبرى، قد تفوق السبعمائة درهم وزنا وفق تقديرى، وهو ما يستخدم فيما يبدو في اعوجاج المسامير، والتطابيق، وسائر الآلات، وكان هناك كذلك مطارق وسطى للدقوقات الأوائل، وبعض التقويم، وبها تعدل غالب الآلات، ومطارق صغرى لأجل التبشيم، وتقويم المباضع، وأقل ما تكون في تقديرى من حيث الوزن مائة درهم، وكانت لديه تسعة مباضع، بعضها دقيق لطيف، وبعضها أملأ من ذلك، وكانت لديه كذلك قرم، وشنج، ومكاوى، وكلبات، ومزاعط، وأميال، ومقراضين: واحد صغير، وآخر كبير، وكانت لديه كذلك أمواس، وإبر، وسلوكات مختلفة، فلما عاينت ذلك كله تعجّبت، ولم أكن قد دخلت دكان بيطار من قبل.

ثم إن الرجل عاين البغل وهو يربت عليه ويرغّبه في فتح البوز ليكشف على أسنانه وفكه، ونظر أنفه، ومواضع الشم، وفتش في جلده وبطنه، ودق على ركبه دقًا لطيفاً، وأشياء عديدة مما يستوجبه الكشف والمعاينة وتشخيص الداء، ثم إنّه فكّر ومحّص قبل أن يخبرنا أن البغل مصاب بمرض يسمى الإهليلجية وعلاجه كسب البزر أو دقيق البزر قطونا بالصابون طلاء، فإن انفجرت دمّله عولجت بالإزالة الجراحية، ونصح اليشكرى أن يصبر على الدابة، فلا ينهكها بكثرة المشي والمسير، حتى تبرأ وتطيب.

مضى وقت بعد ذلك حتى ودّعني اليشكرى وسافر قاصداً دمشق، وكنت خلال ذلك قد عقدت عزمي على ألا يحول الحول إلا وأكون قد عدت إلى برّ مصر للبحث عن عزيز عيني ثاونا، وإدراكه قبل فوات الأوان بأن يباعد بيني وبينه مفرق الأحبة والخلان.

وكان مما عجّل في رحيلي عن مدينة الأنبياء، تدهور حالي ونفاد مالي، حتى إني جعت ذات ليلة فأكلت الطين، وما صرت إلى ذلك حتى قلّبت قلبي أتذكر

هل بها رحل أصيب عنده غداء أو عشاء، فما قدرت عليه، وكان عليّ جبة وقميصان، فنزعت القميص الأسفل فبعته بدريهمات، وقصدت سوق المكارية بالمدينة فجاهدت حتى وجدت من يحملني إلى الرملة بدريهماتي القليلة التي دفعتها له، ومن الرملة بلغت مدينة تسمى عسقلان بها سوق، وجامع جميل، ورأيت بها طاقاً قديماً قيل إنه كان مسجداً، وهو طاق من الحجر الكبير، لو أرادوا هدمه للزمهم إنفاق مال كثير، وخرجت من هناك فوجدت في الطريق قرى كثيرة، ومدناً يطول وصفها، ثم بلغنا مكاناً يسمى طينة، وهو مرفأ عامر بالسفن، ويذهب منه إلى تنيس. فذهبت إلى رجل سفايني من الملاحين، وقد توسمت فيه الطيبة. فسألته أن يحملني معه إلى تنيس، وقد علمت أنه متوجه إليها، وذلك على أن أعمل في الوقايد دون أن أدفع له مما يدفع لأمثاله مقابل الحمل، لكنّه لم يستعملني في الوقايد، وبقيت على السطح في حراسة فيل مجلوب من الهند هدية إلى أمير مصر من بعض التجار، فظللت، تصك الشمال وجهي، وينثر الليل الصقيع على رأسي، ولم يكن معي غير لحاف سمل، ومضربة خلق، وبعض ما لا بد لمثلي منه، وبقيت على هذي الحال مدة حتى إني حننت وترحمت على أكل الطين الذي لا أجده وأنا في البحر، وكانت هناك جماعة من الحجيج الأقباط هبطوا السفينة عائدين إلى تنيس من حيث أتوا، بعد زيارتهم بيت المقدس، والمواضع التي لا بد من زيارتها، والتبرك فيها، لكل من آمن بالمسيح، فلما لاحظوا عكوفي وامتناعي عن الأكل، قدّموا لي زاداً مما لديهم من الجبن المطبوخ بالعسل واللحم، وبعض الفاكهة الطازجة، فشكرتهم على ذلك وآمنت بالله ورحمته، ورحت أتلو:

﴿وما من دابة على الأرض إلا ورزقها على الله﴾ صدق الله العظيم.

لاح لنا بر تنّيس، بعد صعود الشمس عن الماء بقليل، فما أن رأيت الأرض، والشجر. والنخيل، وقباب المساجد، وكؤوسات الكنائس والبيع، البادية في عليائها عن بعد، حتى أخذتني رجفة، ارتعشت لها أطرافي، وعصفت بأعطافي، وكأنّ عيني لا تصدق ما ترى، وكأن نفسي تشكّ أن رحيلي كان، وأن خروجي من بر

مصر لم يكن، فلم أتمالك نفسى ورحت أجهش ببكاء سمعه كل من كان حولى، وجعل الفيل يستدير إلى ويخزرنى بعطف بدا لى معه وكأنه افتهم ما أنا عليه من انفلات الشعور وجيشان النفس، فلما استقرّت السفينة استقرارها الأخير، ونزلت منها، ووطأت قدمى تربة الأوطان، سجدت مُقبلاً لما أخذ روحى وردّها، ورحت أحفن التراب بيدىّ ونفسى تهتف: هذى هى الحقيقة، ذاك هو اليقين.

ثم إنى صليت ركعتين لله شكراً وحمداً، وبقيت فى تنّيس ليلة بتّ فيها بواحد من مساجدها هو مسجد الخراسانى بالقرب من الساحل، فلما انتهيت من صلاة العشاء، وقلت لنفسى أن أستريح قليلا قبل شروعى فى صلاة التراويح، وبينما أنا أنظر حولى وأتأمل المكان، وجدت رجلا جالساً مستقبلاً القبلة وبين يديه العصا التى يعتمد عليها والمصحف، وعلى وسطه خرقة، وشعره منشور على ظهره، وكان إلى جانبه شيخ يبكى ويستعطفه ويقول له أمّك تبكى حزناً وقهراً، فردّ عليه الأول قائلاً: ما أدخل لك منزلاً وأنت تعمل فى الصرف، إنما أنتظر طلوع النهار، ثم أدخل النيل وأأتزر بالماء وألقى هذه الخرقة. ولم يسكت إلا بعد أن عقد على أبيه ألا يعمل فى الصرف أبداً، فتعجّبت لذلك، وأدركت أن هذا الرجل من الزاهدين، ثم علمت بعد ذلك، من خادم المسجد، أن هذا الزاهد ظل زمناً مقيماً فى وكر بأسفل المنارة، من غير أن يخالط أحداً، إلا إذا أقيمت الصلاة خرج وصلى، فإذا سلم الأمام عاد إلى وكره، فإن عارضه أحد بحديث كلّمه وهو قائم، بعد انصرافه من الصلاة، وكانت حاله أبداً اتصالاً فى انفصال، وقرباً فى ابتعاد، وأنساً فى نفار.

ثم علمت أن هذا الزاهد قدم من مراكش مع أهله قبل حين، فذهب حاجًّا إلى مكة، ثم عاد إلى مصر، واستقر بتنيس، وكان لا يحادث أحداً إلا لضرورة، ثم أخذ فى ترميم هذا الجامع، وكان خرباً مهجوراً، ونظّفه بنفسه حتى نقّى ما كان فيه من الوطواط بسقوفه، وساق الماء إلى صهاريجه، وبلط صحفه، وسبك سطحه بالجبس، وأقام فيه.

وكان يؤثر فى السر الفقراء والأرامل، ولا يسأل أحداً شيئاً، ولا يقبل غالباً، وكان يبذل جهده فى كتم حاله، وعرف عنه كثرة قراءته فى المصحف، ومطالعة الكتب، ولم يره أحد يخطّ بيده شيئاً، ولم يعمل له سجادة قطّ، ولا أخذ على أحد عهداً، ولا لبس طاقيّة، ولا قال أنا شيخ ولا أنا فقير.

ثم إنّى نمت على أمل أن يحيينى الله فى الصباح، فأتوكل عليه، وأشد رحالى إلى مصر العتيقة لأرى حال الآباء فى كنيسة قصر الشمع، وأكتحل بمرأى الأب يوساب وهو لا بدّ واقف على مصير عزيز عينى ثاونا ومكانه.

ركبت السفينة من تنيس، ودخلت فرع الروم، وهو من فروع النيل المطروقة بأسفل الأرض، حتى وصلت بلداً تسمى الصالحية، وهى مدينة كثيرة النعم والخيرات، كان بمرفئها وقت وصولى سفن كثيرة تصنع، وهى من النوع الكبير المحتمل ربما ما يزيد على مائة حمل حمار، ومنها تنقل البضاعة إلى مصر العتيقة حتى أبواب دكاكين البقالين. وفى الصالحية التقيت رجلاً قبطيًّا، كنت قد تعرفت عليه عند ركوبى السفينة إلى تنّيس، فلما رحنا نتذكر بعضنا البعض، ونتداخل فى الكلام، علمت أنه منحدر إلى الفسطاط للبحث عن وراق يعمل له كتاباً وضعه بالقبطية عن طبقات الأطباء، وهو راغب فى نقل الكتاب إلى القلم العربى، بسبب تفشّيه أكثر بالبلاد فى هذه الأيام، فلما علم أننى قبطى من الجدود، والبشمورية هى لسانى الأول تعجب لذلك تعجباً شديداً، وكان يظن أننى عربى المولد والأصل بسبب جريان لسانى بالعروبة، ثم إنه طلب منى أن أنقل له كتابه هذا إلى العربية، وأن أخطّه له، بعدما عرف أننى أجيد نسخ الكتب أيضاً، وراح يحكى لى عن جانب منه، فقال: إنه يحوى كلاماً عن كافة الأطباء ومنهم رجل حكيم اشتهر وذاع اسمه فى الزمن القديم، ليس فى الطب فقط، ولكن فى الهندسة، وسائر العلوم، وإن هذا الرجل ورد مصر فى الدهور المندثرة، فذهب إلى أهل مدينة الشمس، المعروفة فى زماننا بعين شمس، فقبلوه على كره وامتحنوه زماناً فلم يجدوا عليه نقصاً ولا تقصيراً، فما كان منهم إلا أن وجّهوا بفيثاغورث – وهذا كان اسمه – إلى كهنة منف، كى يبالغوا فى امتحانه، فقبلوه على كراهة، واستقصوا امتحانه، فلم يجدوا عليه معيباً، ولا أصابوا له عِثرة، فبعثوا به إلى أهل

ديوسوس ليمتحنوه، فلم يجدوا عليه طريقاً ولا إلى إدحاضه سبيلاً، ففرضوا عليه فرائض صعبة كيما يمتنع من قبولها فيدحضوه ويحرموه طلبته مخالفة لفرائض اليونانيين، فقبل ذلك وقام به، فاشتد إعجابهم به، وفشا بمصر ورعه حتى بلغ ذكره إلى أماسيس ملك مصر، فأعطاه سلطانا على ضحايا الربّ، وعلى سائر قرابينهم، ولم يعط ذلك لغريب قط. لكنى اعتذرت للرجل، فليس لدى وقت أصرفه فى مثل هذا الأمر، إذ إن دخولى بر مصر مرة أخرى أجج نار شوقى إلى عزيز عينى ثاونا، وصارت هواجسى تتزايد، كلما تذكرت كلام التاجر الفرّاس الذى التقيته بالقدس، عندما قال لى: إنى ذاهب للبحث عن إنسان عزيز على نفسى، ولسوف أبذل جهداً ووقتاً حتى أجده، وهو جد مريض، وقد أدركه. أو لا أدركه، ففارقنى وهو متأسف على ذلك؛ لأنه عزّ من تمكن من اللسان القبطى واللسان العربى مجتمعين، فى ذلك الزمان، وهناك الكثيرون قد أدركوا العربية لساناً دون الكتابة، ومخطوطه ليس بالهين أو القليل، لكنه من المخطوطات الخطيرة التى لا تحتمل الخطأ أو انعدام الخبرة والمهارة، فاعتذرت له مرة أخرى، وأشرت عليه أن يقصد أهل البيع والكنائس؛ لأنهم حريصون على لغة دينهم حرصهم على تعلم العربية على أكمل وجه حتى تبقى الكنيسة على شعبها، فلما تركته ومضيت ظللت أتأمل ذلك وقد لاحظت أن كثيرين ممن قابلتهم هنا فى الصالحية أو تنيس باتوا يتكلمون العربية وإن خالط كلامهم كلمات قبطية، ثم إنى أديت فروضى وصلواتى وصلّيت صلاة استخارة، إذ كنت متردداً فى ذهابى إلى كنيسة قصر الشمع، رغم شوقى للآباء هناك، وذلك خوفاً من غضبهم إذا ما وقفوا على حقيقة إسلامى، لكنى كنت فى أمس الحاجة لمعرفة أخبار ثاونا ومكانه أيضا، فلما نمت فى فىء نبقة حنون بالظل ورطوبة الهواء، جاءنى ثاونا، على الهيئة التى كنت قد رأيته عليها وقت هروبى من الأراضى الموحلة، إذ كان واقفاً على علّية وبيده نقف، وهو يقول لى: اتبعنى إلى برية هبيب.

فلما أفقت من نومى، ورحت أتذكّر ذلك، وقد صفا ذهنى وتوقّد، قلت لنفسى، والله إن خاب رجائى فى الوقوف على أمره بكنيسة قصر الشمع، لسوف أمشى إليه ساعياً فى برية هبيب.

ثم إن أهل الخير نصحوني أن أصل إلى بركة الحاج لأركب النيل منها إلى الفسطاط، فكنت أسير على قدمي حيناً، ويحملني معه من يشفق على من الناس حيناً آخر، حتى وصلت بركة الحاج، وكانت عامرة بالماء وكذا الترعة المفضية إليها من البحر الأعظم، وهناك كان السفاينية، والمراكبية مجتمعين، فركبت مع نوتي صيّاد طلبت منه حملي لقاء عملي معه، فوافق على أن أساعده في طرح شباكه ولمها طوال مسيرنا، كلما لزمته في ذلك، فلما وصلت الفسطاط ومنها إلى مصر عتيقة، سارعت الخطى إلى كنيسة قصر الشمع، حتى وصلت بابها، وإذ أنا أهم بالدق والاستئذان بالدخول، خرج شاب يافع من الباب وقد أدركت من ملابسه أنه شمّاس، فاقتربت منه وسألته بكل أدب عن عزيزي ثاونا، دون أن أطلعه على حقيقتي، فردّ وهو يتفحصني بارتياب، قائلا:

- ثاونا ؟ لا يوجد أي من أعضاء الهيئة الأكليروسية هنا بهذا الاسم.

ثم إنه صمت قليلا، والفضول يرسم نظراته، بينما أخذ يزنني ويخمن بشأني، قبل أن يضيف:

- ربما قصدت الراهب ثاونا المسكين، إنه الآن في برية هبيب بدير الأنبا مقار. لا أظنك تقصد هذا.

طار قلبي من الفرح، فودّعته على عجل، وأنا أشكره كثيراً، بينما هو واقف يشيعني بنظرات كلها دهشة واستغراب.

كنت أسير حيناً، وأستريح حيناً، وأنام حيناً آخر، وأنا أمرّ ببلدات وقرى وأستفيء بأشجار ونخيل، وأتلحف بسحابات السماء، حتى بلغت مشارف بريّة هبيب، ولم يعد على بدني غير مئزر وقميص، ولا ملكت يدي غير نقف أتعكز عليه، وكنت كلما طالعت صورتي وهيأتي في جدول أو نبع، أدرك كم بدّلني الزمان، فها هو المشيب يلوح بمفرقي، وها هي التجاعيد تتكرّس بوجهي، وهكذا أيقنت أنني تعدّلت من طور إلى طور، ودخلت من ديوان إلى ديوان، وأدركتني الرجولة والكهولة، وفارقني الشباب والفتوة.

كانت شمس لاهبة لا تعرف الرحمة، وكأنها طاقات من سعير فتحت في السماء، تصحبني طول الطريق، وبقيت سائراً أستدل من الرعاة على موضع الدير، وكانوا يعينوني على ما أنا فيه بشربة ماء أو جرعة حليب وبعض تمر، حتى بلغت أول الطريق الموصلة إلى ذلك الدير، ثم إنني جلست لأستريح قليلا وتيممت متهيئاً لصلاة المغرب، فمسحت يدى بالرمال الطاهرة وكأنني أغسلها، ثم مسحت وجهي، وساعدي، وقدمي، وفعلت فعل الوضوء بغير ماء، حتى أتطهر وأستعدّ للصلاة، وكانت الشمس تستأذن الرحيل، فلما انتهيت من صلاتي، جلست أتأمل صمت الصحراء العميم، والشمس تغيب شيئاً فشيئاً، وتتوارى خلف تلال الرمال البديعة، فبدا المشهد في عيني جليلاً آسراً، وفكّرت كم أن الإنسان ضعيف، وضيع، ظالم وغشوم، مفتون بجبروته وقوته وهو لا يساوى ذرة رمل من هذي الرمال، أمام قوة الله وعظمته.

ثم إني قمت وسرت - كما وصف لي الرعاة - في واد عريض ممتد من الرمال، وكان ما تبقّى من شمس الأصيل قد أتاح لي لمحة خاطفة إلى الدير، على البعد، فرقص قلبي فرحاً، وقد أدركت أنني على وشك بلوغ غايتي، لكن سرعان ما استحكم الظلام، وسلسل المكان بديجوره، دون أن تطلّ نجمة واحدة من السماء، أو يتعطّف القمر فيستبين، فانقبض قلبي، وداخلني إحساس بالضياع، وأكلتني الوحشة، لكنّني بقيت سائراً، متوكلاً على الله، أصطدم حيناً بالصبارات الموحشة النابتة هنا وهناك، وأتعثر حيناً في الرمال الناعمة التي يصعب الخطو فوقها، وأنا أدعو الله أن يخرجني مما أنا فيه، وأصل غايتي، لأتمكن من إدراك عزيز عيني ثاونا، قبل أن أهلك في هذا المكان.

لا أدرى كم من الوقت لبثت على هذي الحال، إذ لاح لي بعد حين ضوء استمر منيراً في ثبات، فتهيأ لي أنه نجم بعيد، لكنّي أدركت كلما شددت الخطى باتجاهه، أنّه كشاف يُشْعَل فوق حوائط الدير لهدى العابرين أو الضالين في هذه الصحراء المترامية الموحشة.

وصلت فى النهاية إلى بوابة الدير، التى لم أكن لأدركها أبداً لولا هذا الضوء الهادى، وما أن صرت قبالتها حتى رحت أدقها دقًا عجولاً متلهفاً، فجاءنى صوت من ورائها يستفسر عمن أكون، فقلت له:

- إنى قريب للراهب ثاونا وجئته لأمر من الأمور الجليلة. فلما فتح لى الباب بعد حين، اقتادنى خلال ممر ضيق داخل الدير، وكان الرجل القائد راهباً يحمل شمعداناً بشمعة واحدة، أتاح لى ضوؤها أن أدور بعينى فى المكان وأدرك أنه أشبه بحصن من الحصون.

أُدخلت إلى مضيفة واسعة، فرشت بوبر الجمال، ولها شبابيك من الخشب القباطى المصلب الفتحات، والمعمول على هيئة مشربيات، وكان الطلوع إليها بسلّم خشبى، يوضع ويرفع، وكانت تحيط هذه المضيفة بعض القلالى المظلمة. قدّم لى الراهب ماءً وتمراً، وقال لى:

- نم الآن، والصباح رباح.

لا أدرى كيف نمت، إذ كانت الآلام تهيمن على جسدى كلّه، فلم أفق إلا عند الفجر على صوت جرس الكنيسة، فنهضت مسرعاً دون أن أدرى، وقد ظننت لوهلات أننى ما زلت قيّماً بكنيسة قصر الشمع فى مصر العتيقة، وإننى قد تأخرت على الانصراف إلى أعمالى بها.

توجّهت إلى المشربية، ورحت أنظر من خلالها، فبدا لى الدير تحتى، والصحراء تلفه من كل ناحية، وكأنه زرع زرعاً فيها، وقد أيقنت أنه حصن فى الحقيقة بحوائطه الصماء وقد برزت مرتفعة وسط الرمال، ومدخله، وقد جاء على شكل معين رباعى الأضلاع، وحنياته المرتفعة، وبابه الضخم المصفّح بالحديد، وقد تكومت بالقرب منه أعداد كبيرة من الأحجار، يبدو أنها تستخدم لدرء الخطر فى حالة العدوان عليه، وكان للباب من الأمام حجران مثل أحجار الرحى، قدّا من صخر الصوان العنيد، يمكن دحرجتهما، وهناك بكرة تليه، يمكن الصعود بها إلى قمّة الحائط، وكان هناك برج الدير الضخم، وكنت أعلم أن مثله إنما يستخدم لحفظ الكتب والقراطيس الإيمانية المقدسة، وخزن الملابس، والأوانى الثمينة، وتشوين الطعوم كالقمح، والزيت، والزيتون، والتمر، بالإضافة إلى مواضع

لاختفاء الرهبان وقت الخطر. وكان للدير فناء كبير واسع، وآخر صغير، وقلالى الرهبان تقع حول هذه الأفنية، وكذا موضع الطاحون والفرن.

وقفت متأملاً كل هذى الاستدارات، وتذكّرت كم هى قريبة الشبه بعمارات بغداد، والقدس الإسلامية، والمسيحية، فكّرت فى سبب تكريس الاستدارة فى كل فن متجسّد تراه العين، قلت إنها الراحة والطمأنينة التى يفجّرها الخط المنحنى المستدير، وكان كروان قد عبر مترنماً، ولكلك بصوته الربّانى الساحر، فانشرح صدرى، ووجدتنى أقول لنفسى، وأنا أشنف آذانى بصوته العذب، أليست تلك العمارات المستديرة محاولة متواضعة لمحاكاة ما خلقه الله ؟! إن الشمس مستديرة، والقمر مستدير، وأوراق الشجر والنبات مستديرة أو هى نحو الإستدارة، إن الاستدارة هى حالة من السرمدية الدالة على أن الله هو الأول، وهو الآخر، وهو المبتدأ وهو المنتهى، والتدوير فى كل فن إنما هو فطرة إيمانية، فطر الله الناس عليها دون أن يشعروا، وقد رأت عيونهم، وأدركت حواسهم تجليات خلقه فى كل ما هو منحن مستدير أو نحو المستدير، حتى فى الخلقة البشرية، والخلقة الحيوانية، وقطرات المياه.

ثم خرجت جماعة من الرهبان من قلاليها وتحركت إلى موضع بالفناء ودخلته، وسرعان ما جاءنى الراهب الذى استقبلنى فى المساء الفائت ليوقظنى، فلما وجد أننى أفقت، ألقى إلىّ بتحية الصباح، ودعانى لتناول وجبة فطور، فتبعته إلى حيث الموضع الذى دخله الرهبان، وهو المطعمة، وكانت غرفة طويلة ضيّقة، لها سقف مقبّب، به دكّة حجرية منخفضة أو ما يشبه الغور الضحل بوسطها، وكان الرهبان جالسين على أطراف ذلك، فلما دخلت عليهم وحييتهم وجلست، بدئ الطعام، وكان أرغفة من خبز الطحين الخشن وزيتوناً، وزيتاً، ثم إن أحد الرهبان أخذ فى تلاوة ما تيسّر من الكتاب المقدّس، فأطرقت تأدباً، وأنا آكل مثلهم حتى انتهى.

خرجت بعد ذلك بصحبة الراهب المضيف لنتمشى قليلا ونتحادث، وبينما نحن نسير أخبرنى أنّه أُذِنَ لى بالدخول على ثاونا، بعد أن أعلموه باسمى وأيقنوا

معرفتـه لى، ورغـبتـه فى مـلاقـاتى، لكنّه ليس على مـا يـرام من الصِحـة، وأنه تسلسل فى المرض منذ زمن بسبب دخوله الشيخوخة واعتلال قلبه، لذا يفضّل أن أوجز مقالتى معه، ولا أتزيّد فى الكلام، كما نصحنى بألا أرتـاع أو أضطرب، إن هو لم يجاوبنـى بالحديث، أو تخالط كلامـه معـى، فلما سمعت ذلك أوشكت على البكـاء، وطمأنت الرجل بأننى سأكون عند حسن ظنه ولسوف أمتثل لنصحه هذا.

أدخلونى قلاية بالحصن، ضمن مجموعة من القلايات، قيل لى إن قوماً من المريس – أى أهل قبلى – يقيمون فيها منذ زمن، فلما ولجت من بابها، وجدت شيخاً راقداً على سرير من خشب الجمّيز، ليس تحته إلا فرش من وبر، فما أن تبينته على ضوء الصباح السا[illegible] من كوّة القلاية، حتى رحت أرتعش، وسرعان ما خطوت نحوه، وسجوت إلى جانبه وأنا أهمس بصوت مضطرب ملهوف: ثاونا !! عزيزى ثاونا ! ولم أتمالك نفسى فانخرطت فى بكاء شديد، بين ذهول الرهبان، ودهشتهم مما يرونه، وبقيت حيناً أهمس باسمه، وأناديه دون أن يردّ، فاقتربت من أذنه، ورحت أقول له بصوت راجٍ:

– ثاونا، إننى بدير!! ألم تقل لى اتبعنى إلى برية هبيب؟ لقد تبعتك يا عزيزى، وها أنا الآن أقف بين يديك. ثم إنى أخذت أنتحب بمرارة، وقد عز علىّ أن أرى ثاونا وهو على هذى الحـال من عـدم التـيقّن وغـيـاب العقل، وهو الرجل الحكيم، النجـيب، الفطن، الذى عـرفتـه فى زمن من أعـز أزمنتى على نفسى، فلما تزايد نحيبى وجدته يحرّك رأسه ناحيتى بصعوبة بالغة، ويقول:

– أخى العــزيز بدير.. أنت هنا حىّ ترزق؟! أحــقــاً ذلك؟ أم إننى أهرف وأهذى؟!

مددت يدى ووضعتها على وجهه ليتيقن من حقيقتى، وسرعان ما انهمرت دموعه هى الأخرى، وأضاف بوهن:

– حمدا للربّ أنه قدر لى لقياك مرّة أخرى! هذه معجزة ربانية وبركة من بركات الشهيد أبو مقار!

رفع يديه بصعوبة وأخذ يصلب، ثم راح يسألني عن نفسي وأحوالي وما جرى لي بعد أن فقدني في برية هبيب، فرحت أقصّ عليه ما كان من أمري، وكان الرهبان قد تركونا وانصرفوا، بعد أن نبّهوا علينا ألا يكثر الكلام حرصاً على فؤاده، وحتى لا تأتيه نوبة من نوبات علّته التي تفاجئه بين الحين والحين، ثم إنه راح ينظرني مليًّا، ويتأمل حالي، وشعرت أنه تعجّب من لبسي لذلك المئزر البالي والقميص، وما عليه هيئتي من تشوش، وعدم هندام، ثم إنه تأمّل عنقي طويلاً، وقال فجأة:

– أين صليبك يا بدير، لماذا لا أرى صليبك على صدرك؟!

قلت بسرعة وبصوت هادئ واثق:

– ولهذا جئتك يا أخي العزيز أيضاً، إذ أردت أن أدعوك إلى ديني، فأنت من أحب الناس إلى قلبي، والإسلام هو دين رحمة، ونور، ومحبة وبر، والناس فيه سواسية كأسنان المشط، ووالله ما وجدت فيه إلا كل عظيم، ونبيل، وخير، وكل هذه المحاسن فيك يا عزيزي ثاونا، ووالله إنك لأقرب الناس إلى مهجتي وفؤادي، فليتك تأتي إلى ما أنا فيه، وتؤمن بما آمنت به.

رغم تعبه ومرضه، ظلّ ثاونا يستمع إلي بآذان منتبهة صاغية، وبدا لي وكأنه يفكر في كل كلمة أقولها، ولم يقاطعني مرة واحدة، ولم يبد شيئاً من الغضب والانفعال وعندما انتهيت، صمت وقتاً قبل أن يقول :

– نحن لا نختار يا بدير، لكن الربّ هو الذي يختار لنا، ونحن عبيد مشيئته، إنّي فرح بك؛ لأنك تسعى لدفع الناس إلى ما تراه صحيحاً، خيراً، لكنّي حزين لأنك تركت دين أهلك وآبائك، وخرجت من جنة الكنيسة، ودرب المسيح.

كانت عيناه قد بدأت بالدمع، وبان لي جدّ بائس وحزيناً، فرحت أمسك بيده وقد أخذت في الارتعاش، ورحت أربت عليها بينما كان يواصل كلماته بصعوبة:

– إني حزين ومغموم يا بدير، لكن لك ما تراه، طالما أنك وجدت في دينك الجديد ما يضعك على طريق الحق والعدل، أما أنا يا عزيزي، فلا أظن أني تارك

دينى، ولا أظن أننى مستطيع اعتناق دين سواه، فلقد عشت عمرى كلّه، تأخذنى الهواجس والأفكار، وتتنازعنى الفلسفات حتى صرت مسيحياً تاوضوسياً، ولسوف أموت وأنا على ما أنا عليه، وليرحمنا الرب جميعاً يا ولدى الطيب، ويغفر لى ولك، وقد قدر هو وشاء.

تأثرت غاية التأثر لكلامه، وزال همّ قد كتمته فى نفسى طوال طريقى إليه، إذ كنت أخشى هذه اللحظات، لحظات مواجهتى له بدينى الجديد، وقد كنت أدرك صعوبة استجابته لمطلبى كذلك، فثاونا ليس بالرجل الهين الذى يسهل التأثير عليه، وهو لا يعتنق عقيدة، إلا بعد أن يتفحصها ويمحصها ويقلب فيها بعقله على كل وجه من وجوهها، وهو لا يشك إلا ليوقن، ولم يكن ممن يأخذون الأمور على علاتها أبداً.

لم أكن أريد أن أكثر عليه بمزيد من الكلام، لكنى شعرت أنه راغب فى الحديث إلىّ، والبوح بما يداخله عندما قال:

– أو تعلم يا بدير؟! بعد أن عشت كل هذه الحياة، وبلغت ما أنا عليه من العمر، لم أعد أهتز كثيراً لما يحدث حولى من أمور، وبت لا أفكر فى الطرائق، قدر تفكيرى فى الغايات، لقد أدركت منذ هروبى من الأراضى الموحلة، أن لا فائدة فى الدنيا، طالما غاب العدل بين الناس، وطالما بقيت الرحمة لا تشمل الضعيف من القوى، وكنت أتساءل، بعد كل تلك الحرب الغشومة التى رأيتها ببؤبؤ العين: أليس كل هؤلاء الناس من ضحاياها، سواء أكانوا – مسيحيين أم مسلمين – مستحقين لدخول الجنة؟ ألا تظن يا بدير أن عدالة السماء سوف تشملهم جميعاً، وهم الذين لم يجدوا عدلاً أبداً فى هذه الدنيا، وقد جاعوا وتعرّوا، وباعوا عيالهم وأهلهم؟! ألا تظن يا بدير أن الله سوف يشملهم بعطفه ولطفه بصرف النظر عن كونهم مسلمين أم أقباطا؟

ثم إليك ما انتهينا إليه أنت وأنا: لقد تركت أنا الدنيا وفارقتها لأكون هنا متفرغاً لخدمة المسيح بعيداً عن الناس، وها أنت تعود إلىّ بعد إسلامك، وليس عليك إلا قميص، ومئزر، ونقف تستند إليه، قل لى بالله عليك ماالفرق بيننا ؟! أليس

عزوفك هو عزوفي؟ ورفضك البقاء على ما هى عليه أحوال البلاد والعباد هو ما دفعك وما دفعنى أيضا لأن نهجر كل هذا ونبتعد عنه، وقد شعرنا أنه لا فائدة يا عزيزى فى هذا العالم، وأنه لم يتبق لنا إلا محبة الله؟!

ثم إنه أخذ يردد بصوت خاشع عميق، وقد صحا ذهنه، وقويت عزيمته بعضاً من آيات دستور الإيمان، ويقول:

«نور من نور إله حق، من إله حق، مولود غير مخلوق، خالق السماوات والأرض، ما يرى وما لا يرى، الله ضابط الكل، الذى به كان كل شيء».

ثم راح يردد طويلاً:

- وننتظر قيامة الأموات وحياة الدهر الآتى.

أقمت فى الدير أياماً ملازماً لثاونا، قائماً على خدمته، وقد عزّ على أن أغادر الدير وهو على هذى الحال من الضعف، وشدة المرض، وكان ثاونا قد أطلع الرهبان على حقيقة أمرى وإسلامى، فعاملونى جميعاً أطيب معاملة، وأتوا لى خصيصاً بزربية طاهرة من وبر الجمل، حتى تكون لصلاتى، وكان جلهم من القانتين المؤمنين بالسيد المسيح، والمخلصين فى إيمانهم، المنصرفين إلى عالم الزهد، بالصوم والصلاة، وكثرة القراءات والتلاوات الإيمانية، كما شهدت، ثم إن بعضهم أخبرنى لما سألت، بأن ثاونا استطاع الهرب وقت فتنة البشمور، وحرص على الاختباء فى موضع من المواضع حتى هدأت الأمور، وبعد ذلك كره العودة إلى بيعة قصر الشمع، وآثر حياة العزلة والزهد، فارتحل إلى هذا الدير الذى رسّم فيه راهباً، فبقى فيه سنوات طويلة، ولم يخرج منه إلى الريف أو الإسكندرية أو مصر، وكان كثير المكوث عند المغارة التى بالدير، والتى فيها آثار الآباء البطاركة، وهم مرقس الإنجيلى الأول الذى رأسه عند أولاد فهد بمدينة الإسكندرية، وجسده فى البندقية، وانيانوس المدفون فى بيعة جرجس عند مسلّة فرعون بالإسكندرية، وأنه ما خرج إلا إلى القلالى القريبة والتى فى البهلس، أى الوادى، فكان يبخّر على الآثار المقدسة فى كل صلوة، ويوقد عليهم قنديلاً فى كل

يوم وليلة، وكان يطيل الوقوف في رمازم الرهبان، أي موضع وقوفهم، ويبقى على هذه الحال من التنسك زمناً.

وكان من أعجب ما شاهدت بذلك الدير منشوبينة، أي سكن تعرف بضورتاوس لا يقدر واحد من الرهبان بها أن يقول الليلويا إلا من حفظ المزامير كلها ظاهراً، من غير كتاب، وكان هذا السبب في أن يعرف الرهبان المزامير ظاهراً، وقد رأيت كذلك المغطس الذي تظهر فيه الآية العجيبة في ليلة كل سنة، وهو أن ينظف من الرمل الذي يجتمع فيه وبعد ذلك يمتلئ ماءً، ولا يعرف من أين أتى. وكان - فيما تقدّم - كل من به خطية ويغطس فيه يظهر على جسده لبس مثل لبس السمك، وأيضاً لو اجتمع فيه كل الخلق لا يلتصق جسم الواحد بالآخر، وحواليه قلالي الرهبان وليس فيها شجر ونخيل، ولا ينبت فيه زرع.

وكان في يوم من الأيام أن أُخبر الرهبان بأن النيل لم يزد زيادة كافية، وذلك بعد الخامس والعشرين من أبيب، فعمل الرهبان، وكما جرت العادة، لقان ماء وصلّوا عليها كما يعمل في عيد بولس، وعيد بطرس على أن يحمل إلى البحر، ويسكب فيه فيزيد ماؤه، وكان ذلك من الرسم المعمول به منذ القديم وحتى الآن.

ثم إن المرض زاد على ثاونا وفُقد الأمل في برئه، بعد أن خاب معه كل علاج، وكان شيوخ الرهبان قد جرَّبوا معه العديد مِن العقارات، والأعشاب، والأشربة بعد أن ظلوا يختبرون حركة قلبه، ومعرفة نفس القلب، الذي منه تنتشر الأوعية في جميع الجسم، بالضغط عليها ووضع أصابعهم على رأسه، وفخذه، وأعلى يديه، وعلى شراسيفه، وذراعيه، وفخذيه، لأن القلب تجرِي أوعيته في جميع هذه الأعضاء، وهو مركز أوعية الجسم، وكانوا يختبرون نفسه الحامض، الذي يسري بجسده، حتى يعرفون مدى فساد دمه، خُصوصاً عندما كان يشرب الماء؛ لأن الوعاء المسمّى باللغة القديمةِ (آخذ) إذا سدّ بالبطن ذهب الماء إلى القلب، والعيون وكانوا يختبرون مدى صمّ أعضائه، وإذا ما طرأ السكون عليها، فهو عارض عن اختلاط القلب بالأعضاء وتكدّره، وأشياء أخرى عديدة من الوسائل والعلوم القديمة المعمول بها دوماً في الديارات، والتي يتناقلها الرهبان

جيلاً عن جيل، وذلك دون انقطاع القراءات الجِليلة، والتعاويذ السحرية القديمة، ومراقبة أوِعية الآذان الأربعة، التى يسرى نفس الحياة فى اثنين منها بالأذن اليمنى، ونفس الموت فى آخرين باليسرى.

وظلّوا على هذى الحال زمناً، وأنا أبيت عند قدميه، ساهراً عليه، ورغم سوء حالته فقد كان يطلب منى دوماً أن أحدثه عن ترحالى، وما صادفته من حادثات ومحن، فبقيت أقصّ عليه كل ما جرى لى، وكيف حاولت أن أعمل ذات يوم على إبراء الأب توما فأشرت عليهم بعلاج حروفه بتلك التعويذة القديمة التى سمعت ثاونا يتلوها يوماً، وقت اندلاع النار بسبب ريح الحسومات فى بعض أعشاش أصحاب المعادى عند النيل، وقد ذهبنا لإنقاذ المحروقين من الناس بالأشربة، والأدوية، وهذى التعويذة القديمة وكان ثاونا يطلب منى أن أكشف له عما أنا فيه من إيمان وزهد بعد دخولى فى دين الإسلام، وفى إحدى المرات سألنى – رغم تزايد المرض عليه – وقد بدا أنّ أمرى يحيّره، فقال وهو يتنفس بصعوبة:

– قل لى يا بدير. هل ازددت يقينا بالله بعد دخولك الإسلام؟ وهل شعرت أنك تطهّرت من كل خطيئة، وداخلت روحك منتهى السكينة، ولزمك الاطمئنان؟

لا أدرى، ما الذى كان يتوجّب على الردّ به على سؤاله هذا، فقد تحيرت، وكنت أريد التعبير صدقاً بأقوى الكلمات عما بداخلى. فكرت ثم قلت:

– الحق أقول لك يا ثاونا. كان كل يوم يمر علىّ قبل إسلامى، أصبح فيه مهموماً، متبلبل الفكر والخاطر، تعذّبنى روحى بذكريات فتوتى، وشبابى الأول. كانت صورة آمونة لا تغيب عن مخيّلتى أبداً، وعندما تمتثل بعينى، أضيع بين عذابى بحبها، وحزنى لموتها، وكنت أتعذّب أكثر كلما تذكرت سويلا وما كان من أمرى معها، فأكره نفسى وضعفى ونزقى، وغياب روحى عن كبح شهوات الجسد. كنت قد اعترفت قبل إسلامى فى الكنيسة مراراً، لكن الاعتراف لم يباعد بينى وبين الألم، ولم ينسنى شعورى بالإثم والخطيئة، ولكنّى عندما سلكت سلوك

العارفين، وحزمت أمرى أن أسلك مع السالكين، ووصلت إلى: لا هو إلا هو، ونسيت «كان» وثبتّ فى «يكون»، غابت عذاباتى، وبعدت مسافاتى فكلّ شىء هالك إلا وجه الله الكريم، وها أنا قد أتانى النور الكاشف فسكنت نفسى، وزال عنى همّى وبؤسى.

ظل ثاونا يستمع إلى كلّ ما أقول، وأظن أنه جاهد طويلاً، قبل أن يقول لى آخر ما قاله لى فى هذى الدنيا :

- عندما تودّعنى وتخرج من هنا، لا تنس أن تقول كل ذلك للناس، فإنما هم فى حاجة إلى مثله، حتى تطمئن نفوسهم وتهدأ أرواحهم، والزمان يغشى ذاكرتهم دوماً، ويعمل عمله فيهم مباعداً فيما بينهم وبين فطرة الرب الإيمانية، قل لهم ذلك حتى ولو ضربوك أو آذوك، واصبر عليهم حتى يمسهم شىء من صدق إيمانك ويقينك.

مرت أيام قليلة على ذلك، ثم أخذ عزيزى يدخل البرزخ الموصل بين الحياة والموت ، فغاب عن وعيه تماماً، وصعب علينا أن نسقيه حتى شربة الماء، ثم شاء الله أن تصعد روحه ذات يوم، عند أفول الشمس وغروبها عن الكون، وكنت ساعتها قد تركته قليلاً لأتوضأ وأتهيأ للصلاة، وإذ بناقوس الدير يدقّ دقّات حزينة متقطّعة ، فخرج الرهبان جميعاً من القلايات ليواتونه ، ويودعونه الوداع الأخير بالنظر ، والصلاة على روحه الطاهرة .

ظلّ جسد ثاونا فى موضعه طوال الليل محاطاً بالشموع، وقد وضع تحت رأسه رغيف خبز، وحفنة ملح، وفقاً لعادتنا منذ أقدم الدهور، ومكث الرهبان حوله يقدّسون، ويقرءون القراءات الإيمانية الجليلة ، وكنت خلال ذلك أقف بعيداً ، أتمتم بما تيسّر من ذكر العزيز الحكيم ، وأترحّم على روحه داعياً له بالرحمة والنور، متمنّياً على الله أن يحشره فى زمرة الأبرار الصالحين.

ثم إنّى بقيت فى الدير أياماً بعد وداع ثاونا إلى مثواه الأخير، وكان الرهبان قد أشاروا علىّ بالبقاء وقتاً حتى يجهزونى - قدر استطاعتهم - بما يلزم المرتحل فى

الصحراء، فوفروا لى برذوناً لأركبه، وكنت قد استأذنتهم أن آخذ شيئاً مما لثاونا على سبيل التذكرة، فسمحوا لى أن أحفظ معى إنجيلا قديما كان له، خط على رقّ ، طالما كان عزيز عينى يقرأ لى من آياته ويبّصرنى بمعناها الجليل.

فلما خرجت من الدير وأصبحت وحيداً فى بريّة هبيب، وربما كان ذلك فى يوم من أيام ربيع الثانى، غذّيت سيرى، حتى أشرفت على بعض مواطن العمران، فدخلت قرية من القرى، ما أن أبصرنى بعض من صبيانها، كانوا يلهون فى طرقاتها، حتى توقّفوا عمّا هم فيه، ويبدو أن صورتى المشعّثة، وهيئتى المتربة، ورثاث حالى، قد راعهم وأثار دواخلهم، فراحوا يلتفّون حولى، متضاحكين، ساخرين، ثم أخذوا يرموننى بحصيات وأحجار، فحثثت الدابة على الإسراع لأبتعد عنهم، وأنا أدعو الله أن يرحمهم، ويغفر لهم، ورحت أنشد وقد أُخذت بوجد، وأصابنى شوق، وتزلزلت أعطافى، وترعشت أطرافى:

حسبى الله توكلت عليه   من نواصى الخلق طراً بيديه

ليس للهارب فى مهربه   أبداً من راحة إلا إليه

رب رام لى بأحجار الأذى   لم أجد بدّاً من العطف عليه

تم الجزء الثانى من «البشمورى» رواية روايات :

أسد رستم
ألفريد بتلر
الإمام أبو حامد الغزالى
الراهب صموئيل السريانى
القسّ يوحنا حنين
آدم ميتز
ابن العبرى
السيد طه السيد أبو سديرة
الشهرستانى
القلقشندى
عبد الرحمن عبد الله شيخ
سعاد ماهر
الطبرى
التيفاشى
الأب يوسف قوشاوجى
زيجريد هونكه
محمد الكشناوى العلانى
فاضل أحمد الطائى
الحسن بن زولاق
أحمد كمال
المقريزى
ياقوت الحموى
الدميرى
إبراهيم مدكور
السهروردى

القزوينى
داود الأنطاكى
نيكتا إيليسيف
الأنبا إيسذورس
علاء الدولة السمنانى
فخر الدين الرازى
يعقوب ليستر
صالح أحمد العلى
ابن سلمة النحوى
الحسن بن أحمد بن على الكاتب
فريز صموئيل
محمد عبد الغنى الأشقر
محمد عبدالهادى أبو ريدة
رشيد الدين الهمذانى
عادل محى الدين الألوسى
الجاحظ
يوسف الشربينى
و.ج.دى بورج
نبيل محمد عبد العزيز
على السيد على
ابن النديم
أبو صالح الأمنى
جمال الغيطانى
وآخرون





صدر من هذه السلسلة:

1 انفجار جمجمة «رواية» .... إدريس على
2 البشمورى «رواية روايات» .... سلوى بكر

هــذه الــكــاتــبــة



سلوى بكر

- مواليد: القاهرة ١٩٤٩/٦/٨ .

– بكالويوس فى إدارة الأعمال – كلية التجارة – جامعة عين شمس – القاهرة ١٩٧٢ .

– بكالوريوس فى المسرح – المعهد العالى للفنون المسرحية – قسم النقد – القاهرة ١٩٧٦ .

– عملت مفتشة تموين فى وزارة التموين لمدة ٦ سنوات – القاهرة .

– عملت فى الصحافة ناقدة مسرحيه وسينمائية وأدبية لمدة خمس سنوات – لبنان – قبرص .

– تفرغت بعد ذلك لكتابة القصة والرواية .

- أعمال منشورة باللغة العر[illegible]

– زينات فى جنازة الرئيس ([illegible]صص قصيرة) ١٩٨٦ .

– مقام عطية (رواية وثلا[illegible] قصص قصيرة) ١٩٨٧ .

– عن الروح التى سرقت تدريجيا (قصص قصيرة) – ١٩٨٩ .

– العربة الذهبية لا تصعد إلى السماء (رواية) ١٩٩١ .

– عجين الفلاحة (قصص قصيرة) ١٩٩٢ .

– وصف البلبل ([illegible]ية) ١٩[illegible]

– أرانب: رواية قص[illegible]ره و[illegible]صص ١٩٩٤ .

– إيقاعات متعاكس[illegible] ١٩٩[illegible]

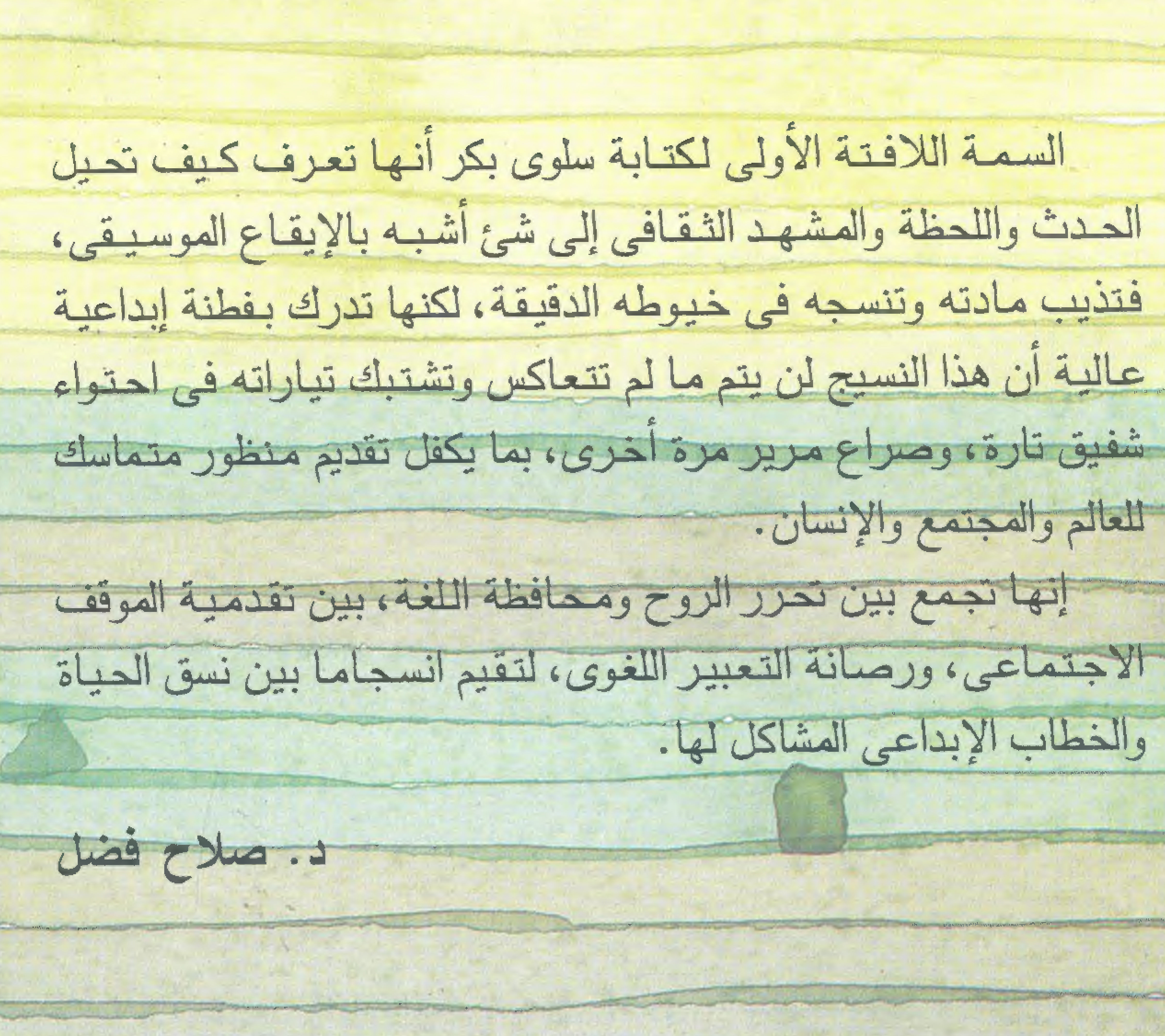
– ليل ونهار رواية ١٩٩٧ .

– البشمورى رواية ١٩٩٨ ([illegible] الأول)

– البشمورى رواية ٢٠٠٠ (الجزء الثانى) .

– لها أعمال مترجمة إلى اللغة الإنجليزية – الألمانية – ال[illegible]لندية الإسبانية .

– تحولت روايتيها «نونة ال[illegible]» وليل ونهار إلى [illegible]



السمة اللافتة الأولى لكتابة سلوى بكر أنها تعرف كيف تحيل الحدث واللحظة والمشهد الثقافى إلى شئ أشبه بالإيقاع الموسيقى، فتذيب مادته وتنسجه فى خيوطه الدقيقة، لكنها تدرك بفطنة إبداعية عالية أن هذا النسيج لن يتم ما لم تتعاكس وتشتبك تياراته فى احتواء شفيق تارة، وصراع مرير مرة أخرى، بما يكفل تقديم منظور متماسك للعالم والمجتمع والإنسان.

إنها تجمع بين تحرر الروح ومحافظة اللغة، بين تقدمية الموقف الاجتماعى، ورصانة التعبير اللغوى، لتقيم انسجاما بين نسق الحياة والخطاب الإبداعى المشاكل لها.

د. صلاح فضل